التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الذاريات

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السادس والعشرون)

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر - شارع الجداوى رقم ١٢
ت ٩٠٧٣٧٩ | ت ١١٩٩٧٠

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة وتمهيـــد

١ — سورة « الذاريات » من السور المكية الخالصة، وعدد آياتها ستون آية. وكان نزولها بعد سورة « الأحقاف ».

٢ — وقد افتتحت هذه السورة بقسم من الله - تعالى -، ببعض مخلوقاته، على أن البعث حق، وعلى أن الجزاء حق.

قال - تعالى - : « والذاريات ذروا. فالحاملات وقرا. فالجاريات يسرا. فالمقسمات أمرا. إن ما توعدون لصادق. وإن الدين لواقع ...

٣ — ثم بينت السورة الكريمة بعد ذلك، ما أعده - سبحانه - لعباده المتقين، فقال - تعالى - : « إن المتقين فى جنات وعيون. آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبـــل ذلك محسنين. كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأسحار هم يستغفرون. وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ...

٤ — ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك طرفا من قصة إبراهيم ولوط وهود وصالح وموسى ونوح - عليهم السلام - مع أقوامهم، ليكون فى هذا البيان ما يدعو كل عاقل إلى الاتعاظ والاعتبار، بحسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

٥ — ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ببيان ما يدل على كمال قدرته، وعلى سعة رحمته، ودعا الناس جميعا إلى إخلاص العبادة والطاعة له، لأنه - سبحانه - ما خلقهم إلا لعبادته ...

قال - تعالى - : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم

من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون .

٦ — هذا ، والمتدبر في هذه السورة الكريمة، يراها ـ كغيرها من السور المكية ـ قد ركزت حديثها على إقامة الأدلة على أن العبادة لا تكون إلا لله الواحد القهار ، وعلى أن البعث حق ، والجزاء حق وعلى أن سنة الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يجعل العاقبة الطيبة لأنبيائه وأتباعهم، والعاقبة السيئة للمكذبين لرسلهم ، وعلى أن الوظيفة التي من أجلها خلق الله ـ تعالى ـ الجن والإنس ، إنما هي عبادته وطاعته :

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يهدينا جميعا إلى صراطه المستقيم . وصلى الله على سيدنا محمد آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوي

١٨/٥/١٤٠٦ هـ

٢٩/١/١٩٨٦ م

التفسير

قال الله — تعالى — : وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) » .

والمراد بالذاريات : الرياح التي تذروا الشيء ، أي تسوقه وتحركه تنقله من مكانه .

فهذا اللفظ اسم فاعل من ذرّا المعتل ، بمعنى فرّق وبدد . يقال ذرت الرياح التراب تذروه ذروا ، وتذريه ذريا ـ من بابى عدا ورمى ـ إذا طيرته وفرقته .

ومنه قوله ـ تعالى ـ : واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ، كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح[1] . . ، أى : تنقله وتحركه من مكان إلى آخر .

والمفعول محذوف ، و « ذروا » مصدر مؤكد ، وناصبه لفظ الذاريات أى : وحق الرياح التى تذروا التراب وغيره ذروا ، وتحركه تحريكا شديدا .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٥ .

والمراد بالحاملات : السحب التى تحمل الأمطار الثقيلة ، فتسير بها من مكان إلى آخر .

والوقر - بكسر الواو - كالحمل وزنا ومعنى . وهو مفعول به .

أى : فالسحب الحاملات للأمطار الثقيلة ، وللمياه الغزيرة ، التى تنزل على الأرض اليابسة ، فتحولها - بقدرة الله - تعالى - ، إلى أرض خضراء .

وهذا الوصف للسحاب بأنه يحمل الأمطار الثقيلة ، قد جاء مايؤيده من الآيات القرآنية ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت . . . »[1] .

وقوله - سبحانه - : « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال . . . »[2] .

والمراد بالجاريات : السفن التى تجرى فى البحر ، فتنقل الناس وأمتعتهم من بلد إلى بلد .

وقوله : « يسرا » صفة لمصدر محذوف بتقدير مضاف ، أى : فالجاريات بقدرة الله - تعالى - فى البحر جريا ذا يسر وسهولة ، إلى حيث يسيرها ربانها .

ويصح أن يكون قوله « يسرا » حال . أى : فالجاريات فى حال كونها ميسرة مسخرا لها البحر .

ومن الآيات التى تشبه فى معناها هذه الآية قوله - تعالى - : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام »[3] .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٥٧
(٢) سورة الرعد الآية ١٢ .
(٣) سورة الشورى الآية ٣٢ .

والمراد بالمقسمات في قوله ـ سبحانه ـ : أمرا ، الملائكة فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشئونهم ... على حسب ما يكلفهم الله ـ تعالى ـ به من شئون مختلفة .

و « أمرا » مفعول به ، للوصف الذي هو المقسمات . وهو مفرد أريد به الجمع ، أي : المقسمات لأمور العباد بأمر الله ـ تعالى ـ وإرادته .

وهذا التفسير لتلك الألفاظ . قد ورد عن بعض الصحابة . فعن أبي الطفيل أنه سمع عليا ـ رضي الله عنه ـ يقول وهو على منبر الكوفة ـ : لا تسألوني عن آية في كتاب الله . ولا عن سنة رسول الله . إلا أنبأتكم بذلك فقام اليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين . ما معنى قوله ـ تعالى ـ : « والذاريات ذروا » قال : الريح . « فالحاملات وقرا » قال : السحاب . « فالجاريات يسرا » قال : السفن . « فالمقسمات أمرا » قال الملائكة

وروى مثل هذا التفسير عن عمر بن الخطاب . وعن ابن عباس [1]

ومن العلماء من يرى ان هذه الألفاظ جميعها صفات للرياح

قال الإمام الرازي : هذه صفات أربع للرياح فالذاريات : هي الرياح التي تنشيء السحاب أولا . والحاملات : هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار الماء ... والجاريات : هي الرياح التي تجري بالسحب بعد حملها . والمقسمات . هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار ...) [2]

ومع جاهة رأي الامام الرازي في هذه المسألة . إلا أننا نؤثر عليه الرأي السابق . لأنه ثابت عن بعض الصحابة . لأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معان مختلفة . أدل على قدرة الله ـ تعالى ـ وعلى فضله على عباده ...

وقد تركنا أقوالا ظاهرة الضعف والسقوط . كقول بعضهم . الذاريات

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٩١
(٢) راجع تفسير الفخر الرازي ج ٧ ص ٦٢٨

من النساء ، فإنهن يذرين الأولاد بمعنى أنهن يأتين بالأولاد بعضهم فى إثر بعض ، كما تنقل الرياح الشىء من مكان إلى مكان .

قال الآلوسى : ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات كما هو الرأى المعول عليه ـ فالفاء للترتيب فى الأقسام ذكرا ورتبة ، باعتبار تفاوت مراتبها فى الدلالة على كمال قدرته ـ عز وجل ـ وهذا التفاوت إما على الترقى أو التنزل، لما فى كل منها من الصفات التى تجعلها أعلى من وجه وأدنى من آخر . .

وإن حملت على واحد وهو الرياح ، فهى لترتيب الأفعال والصفات ، إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولا ، حتى تنعقد سحابا ، فتحمله ثانيا ، وتجرى به ثالثا ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله ـ تعالى ـ ثم تقسم أمطاره »[١] .

وقوله : « إنما توعدون لصادق » جواب القسم . و « ما » موصولة والعائد محذوف ، والوصف بمعنى المصدر . أى : وحق هذه الأشياء التى ذكرتها لكم إن الذى توعدونه من الجزاء والحساب والبعث . لصـــدق لا يحوم حوله كذب أو شك ...

ويجوز أن تكون « ما » مصدرية . أى : إن الوعد بالبعث والجزاء والحساب لصادق .

وقوله : « وإن الدين لواقع » تأكيد وتقرير لما قبله . أى : وإن الجزاء على الأعمال لواقع وقوعا لا ريب فيه . فالمراد بالدين هنا : الجزاء ، كما فى قوله ـ سبحانه ـ « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق . . . »

ومنه قولهم : « كما تدين تدان » أى : كما تعمل تجازى . ومعنى وقوعه : حصوله .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٣

ثم أقسم - سبحانه - قسما آخر بالسماء ذات الحبك فقال: «والسماء ذات الحبك. إنكم لفي قول مختلف. يؤفك عنه من أفك».

والحبك: جمع حبيكة، كطريقة - وزنا ومعنى -، أو جمع حِباك - كمثل ومثال -، والحبيكة والحباك: الطريقة في الرمل ومايشبهه. أى: وحق السماء ذات الطرق المتعددة، والتي لا ترونها بأعينكم لبعدها عنكم...

ويرى بعضهم أن معنى ذات الحُبك: ذات الخلق الحسن المحكم... أو ذات الزينة والجمال..

قال القرطبي: وفي الحبك أقوال، الأول: قال ابن عباس.. ذات الخَلْق الحسن المستوى يقال: حَبَك فلان الثوب يحبكه - بكسر الباء - إذا أجاد نسجه.

الثاني: ذات الزينة.. الثالث: ذات النجوم.. الرابع: ذات الطرائق.. ولكنها تبعد من العباد فلا يرونها...

الخامس: ذات الشدة....[1].

وقوله: «إنكم لفي قول مختلف» جواب القسم. وقوله «يؤفك عنه» من الأفك - بفتح الهمزة وسكون الفاء - بمعنى الصرف للشيء عن وجهه الذي يجب أن يكون عليه.

والضمير في «عنه» يعود إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -، أو إلى القرآن الكريم.

فيكون المعنى: وحق السماء ذات الطرق المتعددة، وذات الهيئة البديعة المحكمة الجميلة... إنكم - أيها المشركون - «لفي قول مختلف» أى: متناقض

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٣١.

متخالف ، فمنكم من يقول عن القرآن إنه أساطير الأولين ، ومنكم من يقول عن الرسول - صلى الله عليه وسلم إنه ساحر أو مجنون ...

والحق أنه يصرف عن الإيمان بهذا القرآن الذى جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من صرفه الله - تعالى - عنه ، بسبب إيثاره الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية ، والكفر على الإيمان .

والتعبير بقوله : « من أفك » للإشعار بأن هذا الشقى الذى آثر الكفر على الإيمان ، قد صرف عن الرشاد وعن الخير صرفا ، ليس هناك ماهو أشد منه فى سوء العاقبة ...

فهذا التعبير شبيه فى التهويل بقوله - تعالى - « فغشيهم من اليم ماغشيهم » .

قال الجمل : « يؤفك » يصرف « عنه » عن النبى - صلى الله عليه وسلم - والقرآن . أى : عن الإيمان به « من أفك » أى : من صرف عن الهداية فى علم الله - تعالى - .

وقيل : الضمير للقول المذكور . أى : يرتد أى : يصرف عن هذا القول من صرف عنه فى علم الله - تعالى - وهم المؤمنون .. »[1] .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة المكذبين فقال : « قتل الخراصون . الذين هم فى غمرة ساهون . يسألون أيان يوم الدين . يوم هم على النار يفتنون .. »

والخراصون : جمع خراص . وأصل الخرص : الظن والتخمين . ومنه الخارص الذى يخرص النخلة ليقدر ما عليها من ثمر . والمراد به هنا : الكذب ، لأنه ينشأ غالبا عن هذا الخرص والمراد بالآية الدعاء عليهم باللعن والطرد من رحمة الله - تعالى - .

أى : لعن وطرد من رحمة الله - تعالى - هؤلاء الكذابون ، الذين قالوا فى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ماهو منزه عنه .. والذين هم « فى غمرة

(١) تفسير الجلالين وحاشيته ج ٤ ص ٢٠٢ .

ساهون » أى : فى جهالة تغمرهم كما يغمر الماء الأرض، فهم ساهون وغافلون عن كل خير .

فالغمرة : مايغمر الشىء ويستره ويغطيه ، ومنه قولهم نهر غمر ، أى : يغمر من دخله .

والمراد : أنهم فى جهالة غامرة لقلوبهم ، وفى غفلة تامة عما ينفعهم . .

وهذا التعبير فيه مافيه من تصوير ماهم عليه من جهالة وغفلة ، حيث يصورهم - سبحانه - وكأن ذلك قد أحاط بهم وغمرهم حتى لكأنهم لايحسون بشىء مما حولهم .

ثم بين - سبحانه - ما كانوا عليه من سوء أدب فقال: « يسألون أيان يوم الدين » .

و « أيان » بمعنى متى . أى : يسألون سؤال استهزاء واستخفاف فيقولون: متى يكون هذا البعث الذى تحدثنا عنه يامحمد، ومتى يأتى يوم الجزاء والحساب الذى تهددنا به ؟

وهنا يأتيهم الجواب الذى يردعهم ويبين لهم سوء مصيرهم ، فيقول - سبحانه - : « يومهم على النار يفتنون » أى : يقع هذا اليوم الذى تسألون عنه وهو يوم البعث والحساب والجزاء . . . يوم تحرقون بالنار - أيها الكافرون - ، وتعذبون فيها عذاباً أليماً . . .

و « يفتنون » مأخوذ من الفتن بمعنى الاختبار والامتحان ، يقال: فتنت الذهب بالنار ، إذا أذبته لتظهر جودته من غيرها . والمراد به هنا : الإحراق بالنار .

وعدى « يفتنون » بعلى ، لتضمنه معنى يعرضون ، أو على بمعنى فى .

وقوله : « ذوقوا فتنتكم . . . » مقول لقول محذوف . . .

أى : هذا اليوم الذى يسألون عنه واقع يوم الجزاء ... يوم يقال لهم وهم يعرضون على النار : ذوقوا العذاب المعد لكم ، أو ذوقوا سوء عاقبة كفركم ...

« هذا » العذاب المهين،هو «الذى كنتم به تستعجلون» فى الدنيا، وتقولون - على سبيل الاستهزاء والإنكار - للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أكدت بأقوى الأساليب وأحكمها ، أن يوم البعث والجزاء والحساب حق ، وأن المكذبين بذلك سيذوقون أشد العذاب ...

* * *

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب أو العكس ، جاء الحديث عن حسن عاقبة المتقين، بعد الحديث عن سوء مصير المكذبين، فقال - سبحانه - :

« إنَّ المتَّقينَ فى جنَّاتٍ وعُيونٍ (١٥) آخذِينَ ما آتاهُمْ ربُّهم ، إنَّهم كانوا قبلَ ذلكَ مُحسنينَ (١٦) كانوا قليلاً مِنَ اللَّيلِ ما يَهجَعونَ (١٧) وبالأسحارِ هم يَستغفرونَ(١٨) وفى أموالِهِمْ حقٌّ للسَّائلِ والمحرُومِ (١٩) وفى الأرضِ آياتٌ للمُوقنِينَ (٢٠) وفى أَنفُسِكُم أفلاَ تُبصِرُونَ (٢١) وفى السَّماءِ رِزقُكُم وما تُوعَدونَ (٢٢) فوربِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّهُ لحقٌّ مِثلَ ما أنَّكُم تَنطِقُونَ (٢٣) » .

والمعنى : « إن المتقين » وهم الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - .

« فى جنات وعيون » أى : مستقرين فى جنات وبساتين فيها عيون عظيمة ، لا يبلغ وصفها الواصفون .

« آخذين ما آتاهم ربهم » أي : هم منعمون فى الجنات وما إشتملت عليه من عيون جارية وحالة كونهم آخذين وقابلين لما أعطاهم ربهم من فضله إحسانه ...

وقوله : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » بمثابة التعليل لما قبله . أى : هم فى هذا الخير العميم من ربهم، لأنهم كانوا قبل ذلك - أى : فى الدنيا - محسنين لأعمالهم ، ومؤدين لكل ما أمرهم به - سبحانه - بإتقان وإخلاص .

ثم بين - سبحانه - مظاهر إحسانهم فقال : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون » أى كانوا ينامون من الليل وقتا قليلا، أما أكثره فكانوا يقضونه فى العبادة والطاعة .

والهجوع : النوم ليلا . وقيده بعضهم بالنوم القليل، إذ الهجعة هى النومة الخفيفة ، تقول : أتيت فلانا بعد هجعة ، أى بعد نومة قليلة .

عن الحسن قال : كانوا لا ينامون من الليل إلا أقله ، كابدوا قيام الليل

ثم مدحهم - سبحانه - بصفة أخرى فقال: « وبالأسحار هم يستغفرون » والأسحار جمع سحر ، وهو الجزء الأخير من الليل .

أى : وكانوا فى أوقات الأسحار يرفعون أكف الضراعة إلى الله - تعالى - يستغفرونه مما فرط منهم من ذنوب ، ويلتمسون منه - تعالى - قبول توبتهم وغسل حوبتهم .

قال الامام الرازى ما ملخصه : وفى الآية إشـــاره إلى أنهم يتهجدون ، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك ، وأخلص منه ، ويستغفرون من التقصير ، وهذه سيرة الكريم : يأتى بأبلغ وجوه الكرم ويستقله ، ويعتذر من التقصير . واللئيم يأتى بالقليل ويستكثره . وفيه وجه آخر ألطف منه : وهو أنه - تعالى - لما بين أنهم يهجعون قليلا ، والهجوع مقتضى الطبع ،قال « يستغفرون » اى : من ذلك القدر من النوم القليل .

ومدحهم الهجوع ولم يمدحهم بكثرة السهر ... للاشارة إلى أن نومهم عبادة، حيث مدحهم بكونهم هاجعين قليلا، وذلك الهجوع أورثهم الاشتغال بعبادة أخرى، وهو الاستغفار. فى وجوه الأسحار ومنعهم من الإعجاب بأنفسهم ومن الإستكبار ... » (١)

ثم مدحهم - سبحانه - المرة الثالثة فقال: «وفى أموالهم حق للسائل والمحروم».

والسائل: هو من يسأل غيره العون والمساعدة. والمحروم: هو المتعفف عن السؤال مع أنه لا مال له لحرمان أصابه. بسبب مصيبة نزلت به. أو فقر كان فيه.. أو ما يشبه ذلك.

قال ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى المراد من المحروم هنا: والصواب من القول فى ذلك عندى: أنه الذى قد حرم الرزق واحتاج. وقد يكون ذلك بذهاب ماله وثمره. فصار ممن حرمه الله ذلك. وقد يكون من تعففه وتركه المسألة. وقد يكون بأنه لا سهم له فى الغنيمة لغيبته عن الواقعة (٢)

أى: أنهم بجانب قيامهم الليل طاعة لله - تعالى - وإستغفارا لذنوبهم. يوجبون على أنفسهم فى أموالهم حقا للسائل والمحروم. تقربا إلى الله - سبحانه - بمقتضى ما جبلوا عليه من كرم وسخاء.

فالمراد بالحق هنا: ما يقدمونه من أموال للمحتاجين على سبيل التطوع وليس المراد به الزكاة المفروضة. لأن السورة مكية والزكاة إنما فرضت فى السنة الثانية من الهجرة.

قال الآلوسى: «وفى أموالهم حق ...» هو غير الزكاة كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ...

وقال منذر بن سعيد: هذا الحق هو الزكاة المفروضة. وتعقب بأن السورة

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ٦٣٥

(٢) تفسير ابن جرير ٢٦ ص ١٢٦

مكية . وفرض الزكاة بالمدينة . وقيل : أصل فريضة الزكاة كان بمكة والذى كان بالمدينة . القدر المعروف اليوم ... والجمهور على الأول »(١) .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يرى أن هؤلاء المتقين ، قد مدحهم الله - تعالى - هذا المدح العظيم ، لأنهم عرفوا حق الله عليهم فأدوه بإحسان وإخلاص ، وعرفوا حق الناس عليهم فقدموه بكرم وسخاء .

ثم لفت - سبحانه - الأنظار إلى ما فى الأرض من دلائل على قدرته ووحدانيته فقال : « وفى الأرض آيات للموقنين » .

أى : وفى الأرض آيات عظيمة ، وعبر وعظات بليغة ، تدل على وحدانية الله وقدرته ، كصنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار ، والأنهار والبحار .

وهذه الآيات والعبر لاينتفع بها إلا الموقنون بأن المستحق للعبادة إنما هو الله - عز وجل - .

ثم لفتة أخرى إلى النفس البشرية ، قال - تعالى - : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » .

أى : وفى أنفسكم وذواتكم وخلقكم ... أفلا تبصرون إبصار تذكر واعتبار ، فإن خلقكم من سلالة من طين ، ثم جعلكم نطفة فعلقة فمضغة ، فخلقا آخر ، ثم فى رعايتكم فى بطون أمهاتكم . ثم فى تدرجكم من حال إلى حال ثم فى إختلاف ألسنتكم وألوانكم . ثم فى التركيب العجيب الدقيق لأجسادكم وأعضائكم . ثم فى تفاوت عقولكم وأمهاتكم وإتجاهاتكم .

فى كل ذلك وغيره . عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين .

ورحم الله صاحب الكشاف . فقد قال عند تفسيره لهاتين الآيتين : « وفى الأرض آيات ... » تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره ، حيث هى

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ٩

مدحوة كالبساط ..... وفيها المسالك والفجاج المتقلبين فيها . والماشين فى مناكبها ...

وهى مجزاة : فمن سهل وجبل ، وبر وبحر ، وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وطيبة وسبخة ، وهى كالطروقة تلقح بألوان النبات ... وتسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ...

فى كل ذلك آيات ، للموقنين ، أى : للموحدين الذين سلكوا الطريق السوى ... فازدادوا إيمانا على إيمانهم .

، وفى أنفسكم ، فى حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال ، وفى بواطنها وظواهرها ، من عجائب الفطر ، وبدائع الخلق ، ماتتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب ، وماركز فيها من العقول ، وخصت به من أصناف المعانى ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف ، ومافى تركيبها وترتيبها ولطائفها : من الآيات الدالة على حكمة المدبر ... فتبارك الله أحسن الخالقين ،(١) .

ثم لفتة ثالثة للأنظار إلى الأسباب الظاهرة للرزق ، نراها فى قوله - تعالى - : ، وفى السماء رزقكم وماتوعدون ، .

أى : أن أرزاقكم مقدرة مكتوبة عنده - سبحانه - ، وهى تنزل إليكم من جهة السماء ، عن طريق الأمطار التى تنزل على الأرض الجدباء ، فتنبت بإذن الله من كل زوج بهيج ...

كما قال - تعالى - : ، هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ،(٢) وقال - سبحانه - : ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ،(٣) .

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٩٩ .
(٢) سورة غافر الآية ١٣ .
(٣) سورة السجدة الآية ٥ .

قال القرطبي قوله : « وفى السماء رزقكم » الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر ينبت به الزرع ، ويحيي به الإنسان . . . أى : وفى السماء سبب رزقكم ـ سمى المطر سماء لأنه من السماء ينزل .

وقال سفيان الثورى : « وفى السماء رزقكم » أى : عند الله فى السماء رزقكم »[1] .

وقوله : « وما توعدون » أى : وفى السماء محددة ومقدرة أرزاقكم ، وما توعدون به من ثواب أو عقاب ، ومن خير أو شر . ومن بعث وجزاء .

و « ما » فى محل رفع عطف على قوله « رزقكم » أى : وفى السماء رزقكم وفيها الذى توعدونه من ثواب على الطاعة ، ومن عقاب على المعصية .

فالآية الكريمة وإن كانت تلفت الأنظار إلى أسباب الرزق وإلى مباشرة هذه الأسباب ، إلا أنها تذكر المؤمن أن يكون اعتماده على خالق الأسباب ، وأن يراقبه ويطيعه فى السر والعلن ، لأنه ـ سبحانه ـ هو صاحب الخلق والأمر . . .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات بهذا القسم فقال : « فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

والضمير فى قوله « إنه » يعود إلى ما سبق الإخبار عنه من أمر البعث والحساب والجزاء والرزق . . . وغير ذلك مما يدل على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخبر به عن ربه .

ولفظ « مثل » منصوب بنزع الخافض ، و « ما » مزيدة للتأكيد أى : فوحق رب السماء والأرض ، إن جميع ما ذكرناه لكم فى هذه السورة ، أو فى هذا القرآن ، لحق ثابت لا مرية فيه ، كمثل نطقكم الذى تنطقونه بألسنتكم دون أن تشكوا فى كونه قد صدر عنكم لا عن غيركم .

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٤١ .

فالمقصود بالآية الكريمة، تأكيد صدق ما أخبر به الله - تعالى - عباده فى هذه السورة وغيرها لأن نطقهم بألسنتهم حقيقة لا يجادل فيها مجادل، وكذلك ماجاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه، وما تلاه عليهم فى هذه السورة وغيرها، حق ثابت لا ريب فيه ...

وهكذا نرى هذه الآيات قد بشرت المتقين بألوان من البشارات، ثم لفتت عقول الناس إلى ما فى الأرض وإلى ما أنفسهم وإلى ما فى السماء من عظات وعبر.

* * *

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن قصص بعض الأنبياء السابقين. فبدأت بجانب من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق، فقال - تعالى - :

« هلْ أتاكَ حَديثُ ضَيفِ إبراهيمَ المكرَمِينَ (٢٤) إذْ دَخَلوا عليهِ فقالُوا سلاماً، قالَ سلامٌ قومٌ مُنكَرونَ (٢٥) فَراغَ إلى أهْلِهِ فجاء بِعجْلٍ سمينٍ (٢٦) فقرَّبهُ إليهم قالَ ألاَ تأكلونَ (٢٧) فأوْجَس مِنهم خيفةً قالُوا لا تَخفْ وبشَّروهُ بغُلامٍ عَليمٍ (٢٨) فأقبلتْ امْرَأتهُ فى صَرَّةٍ فَصكَّتْ وجْهَها وقالتْ عَجوزٌ عقيمٌ (٢٩) قالُوا كذَلكِ قالَ ربُّكِ إنَّهُ هو الحكيمُ العَليمُ (٣٠) قالَ[1] فما خطْبُكم أيُّها المُرسلُونَ (٣١) قالُوا إنَّا أُرسلْنا إلى قَومٍ مُجرِمينَ (٣٢) لِنُرسِلَ عليهِمْ حِجارةً مِنْ طينٍ (٣٣) مُسَوَّمةً عِندَ رَبِّكَ للمُسرِفينَ (٣٤) فأَخْرَجْنا مَن كانَ فيها مِنَ المؤْمنينَ (٣٥) فما وَجَدْنا فيها غيرَ بَيتٍ من المُسلمينَ (٣٦) وتَركْنا فيها آيةً للذينَ يخافُونَ العذابَ الأليمَ (٣٧) ».

(١) أول الجزء السابع والعشرين.

وهذه القصة التى تحكى لنا هنا مادار بين إبراهيم - عليه السلام - وبين الملائكة الذين جاءوا لبشارته بابنه إسحاق، ولإخباره بإهلاك قوم لوط، قد وردت قبل ذلك فى سورتى هود والحجر ....

وقد افتتحت هنا بأسلوب الاستفهام «هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين» للإشعار بأهمية هذه القصة، وتفخيم شأنها، وبأنها لا علم بها إلا عن طريق الوحى ... وقيل إن هل هنا بمعنى قد.

والمعنى: هل أتاك - أيها الرسول الكريم - حديث ضيف إبراهيم المكرمين؟ إننا فيما أنزلناه عليك من قرآن، نقص عليك قصتهم بالحق الذى لا يحوم حوله باطل، على سبيل التثبيت لك، والتسلية لقلبك.

والضيف فى الأصل مصدر بمعنى الميل، يقال ضاف فلان فلانا إذا مال كل واحد منهما نحو الآخر، ويطلق على الواحد والجماعة. والمراد هنا: جماعة الملائكة الذين قدموا على إبراهيم - عليه السلام -، وعلى رأسهم جبريل، ووصفهم بأنهم كانوا مكرمين، لإكرام الله - تعالى - لهم بطاعته وامتثال أمره، ولإكرام ابراهيم لهم، حيث قدم لهم أشهى الأطعمة وأجودها ...

قال الآلوسى: قيل: كانوا اثنى عشر ملكا. وقيل كانوا ثلاثة: جبريل وإسرافيل وميكائيل.

وسموا ضيفا لأنهم كانوا فى صورة الضيف، ولأن إبراهيم - عليه السلام - حسبهم كذلك، فالتسمية على مقتضى الظاهر والحسبان.

وبدأ بقصة ابراهيم وإن كانت متأخرة عن قصة عاد، لأنها أقوى فى غرض التسلية(١).

والظرف فى قوله: «إذ دخلوا عليه ...» متعلق بلفظ «حديث» السابق.

أى: هل بلغك حديثهم الواقع فى وقت دخولهم عليه .. أو بمحذوف

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١١

تقديره : اذكر أى : اذكر وقت أن دخلوا عليه « فقالوا سلاما » أى : فقالوا نسلم عليك سلاما .

« قال سلام قوم منكرون » أى : قال ابراهيم فى جوابه عليهم : عليكم سلام ، أنتم قوم منكرون ، أى : غير معروفين لى قبل ذلك .

قال صاحب الكشاف : أنكرهم للسلام الذى هو علم الإسلام . أو أراد أنهم ليسوا من معارفه ، أو من جنس الناس الذين عهدهم . . أو رأى لهم حالا وشكلا ، خلاف حال الناس وشكلهم . أو كان هذا سؤالا لهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون فعرفونى من أنتم ... »(1) .

وقيل : إن ابراهيم قد قال ذلك فى نفسه والتقدير : هؤلاء قوم منكرون ، لأنه لم يرهم قبل ذلك .

وقال ابراهيم فى جوابه عليهم « سلام » بالرفع ، لإفادة الدوام والثبات عن طريق الجملة الاسمية ، التى تدل على ذلك ، وللاشارة إلى أدبه معهم ، حيث رد على تحيتهم بأفضل منها ...

ثم بين - سبحانه - مافعله إبراهيم بعد ذلك فقال : « فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين » أى : فذهب إلى أهله فى خفية من ضيوفه ، فجاء إليهم بعجل ممتلىء لحما وشحما . يقال : راغ فلان إلى كذا ، إذا مال إليه فى استخفاء وسرعة .

« فقربه إليهم ... » أى : فذهب إلى أهله فذبح عجلا وشواه ، فقربه إلى ضيوفه وقال لهم : « ألا تأكلون » أى : حضهم على الأكل شأن المضيف الكريم ، فقال لهم على سبيل التلطف وحسن العرض : ألا تأكلون من طعامى .

قال ابن كثير : وهذه الآيات انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ، ولم يمتن عليهم أولا فقال : نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل سمين مشوى ، فقربه إليهم لم يضعه

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٠١ .

وقال: إقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: «ألا تأكلون» على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق، فافعل»[1]

ولكن ابراهيم مع هذا العرض الحسن، والكرم الواضح، لم يجد من ضيوفه إستجابة لدعوته، «فأوجس منهم خيفة..» أي فأضمر في نفسه خوفا منهم حين رأى إعراضا عن طعامه، مع حضهم على الأكل منه، ومع جودة هذا الطعام...

وهنا كشف الملائكة له عن ذواتهم، فقالوا «لا تخف» أي: لا تخف فإنا رسل الله، «وبشروه بغلام عليم» أي وبشروه بغلام سيولد له، وسيكون كثير العلم عندما يبلغ سن الرشد. وهذا الغلام إسحاق - عليه السلام -

ثم يحكي القرآن بعد ذلك ما كان من امرأته بعد أن سمعت بهذه البشرى فقال: «فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم».

أي: فأقبلت امرأة ابراهيم — عليه السلام — وهي تصيح في تعجب وإستغراب من هذه البشرى، فضربت بيدها على وجهها وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد..؟

والصرة: من الصرير وهو الصوت، ومنه صرير الباب، أي: صوته. والصك الضرب الشديد على الوجه، وعادة ما تفعله النساء إذا تعجبن من شيء

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - في سورة هود: «قالت يا ويلتا أألد وأنا عجوز، وهذا بعلي شيخا، إن هذا لشيء عجيب»

وهنا رد عليها الملائكة بما يزيل تعجبها وإستغرابها وإستبعادها لأن يكون لها ولد مع كبر سنها ويحكي القرآن ذلك فيقول: «قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم»

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٩٧

أى : قال الملائكة لامرأة ابراهيم : لاتتعجبى من أن يكون لك غلام فى هذه السن ، فإن هذا الحكم هو حكم ربك ، وهذا القول الذى بشرناك به هو هو قوله - سبحانه - وقوله لامرد له ؛ إنه - تعالى - هو الحكيم فى كل أقواله وأفعاله ، العليم بأحوال خلقه .

وهنا عرف ابراهيم - عليه السلام - حقيقة ضيوفه ، فأخذ يسألهم : «قال فاخطبكم ايها المرسلون ، والخطب : الأمر الهام ، والشأن الخطير ، وجمعه خطوب

أى : قال لهم ابراهيم بعد أن اطمأن اليهم ، وعلم أنهم ملائكة : فما شأنكم الخطير الذى من أجله جئتم إلى أيها المرسلون بعد هذه البشارة ؟

« قالوا » فى الإجابة عليه « انا أرسلنا » بأمر ربنا « إلى قوم مجرمين » قوم لوط « لنرسل عليهم حجارة من طين » أى : لنرسل عليهم بعد ذلك قراهم حجارة من طين متحجر ، حالة كون هذه الحجارة « مسومة عند ربك المسرفين » أى معلمة عند الله - تعالى - وفى علمه ، وقد أعدها - سبحانه - لرجم هؤلاء الذين أسرفوا فى عصيانهم له - تعالى - ، وأتوا بفاحشة لم يسبقهم اليها أحد من العالمين

فقوله : « مسومة » حال من الحجارة ، والسومة . العلامة ، ومنه قوله - تعالى - : « والخيل المسومة » .

والفاء فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » هى الفصيحة ، لأنها قد أفصحت عن كلام محذوف ..

والمعنى : ففارق الملائكة ابراهيم ذاهبين إلى قوم لوط لإهلاكهم ، وجرى بينهم وبين لوط - عليه السلام - ما جرى ثم أخذوا فى تنفيذ ما كلفناهم به ، فأخرجنا - بفضلنا ورحمتنا - من كان فى قرية لوط من المؤمنين دون أن يمسهم عذابنا ، فما وجدنا فى تلك القرية غير أهل بيت واحد من المسلمين ، أما بقية سكان هذه القرية فقد دمرناهم تدميرا .

ووصف - سبحانه - الناجين من العذاب - وهم لوط وأهل بيته إلا

امرأته - بصفتى الإيمان والإسلام ، على سبيل المدح لهم ، أى : أنهم كانوا مصدقين بقلوبهم ، ومنقادين لأحكام الله - تعالى - بجوارحهم .

قال ابن كثير ، احتج بهاتين الآيتين من ذهب إلى رأى المعتزلة ، ممن لا يفرقون بين معنى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين . وهذا الاستدلال ضعيف ، لأن هؤلاء كانوا قوما مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الإسمان هنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك فى كل حال »(1) .

ثم بين - سبحانه - أنه قد ترك من وراء هلاكهم ما يدعو غيرهم إلى الاعتبار بهم فقال : « وتركنا فيها » أى : فى قرية قوم لوط التى جعل الملائكة عاليها سافلها « آية » أى : علامة تدل على ما أصابهم من هلاك قيل هى تلك الأحجار التى أهلكوا بها . .

وهذه الآية إنما هى « للذين يخافون العذاب الأليم » لأنهم هم الذين يعتبرون وينتفعون بها ، أما غيرهم من الذين استحوذ عليهم الشيطان ، فإن هذه الآيات لا تزيدهم إلا رجسا على رجسهم .

* * *

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن جانب من قصص موسى وهود وصالح ونوح - عليهم السلام - مع أقوامهم ، فقال - سبحانه - :

« وفى مُوسَى إذْ أَرْسَلْنَاه إلى فِرعونَ بسُلطانٍ مُبينٍ (٣٨) فتَوَلَّى برُكْنِه وقالَ ساحِرٌ أو مَجنونٌ (٣٩) فأخذناهُ وجُنودَه فَنبذْناهم فى اليمِّ وهُو مُليمٌ (٤٠) وفى عَادٍ إذْ أرْسلنا عليهمُ الرِيحَ العقيمَ (٤١) ما تذَرُ من شَىءٍ أَتَتْ عليهِ إلاَّ جعلَتْه كالرَّميمِ (٤٢) وفى ثمودَ إذْ قيلَ لَهُمْ تمتَّعُوا حتى حِينٍ (٤٣) فعَتوْا عنْ أمْرِ ربِّهِم فأخَذَتْهُمْ الصاعقَةُ وهُمْ

(1) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٩٩ .

يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (٤٦) ».

وقوله - سبحانه - : وفى موسى . . . ، معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وتركنا فيها . . . » والكلام على حذف مضاف . . .

والظرف فى قوله : « إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين » متعلق بمحذوف هو نعت لقوله « آية » قبل ذلك .

أى : وتركنا فى قصة موسى - أيضا - آية ، هذه الآية كائنة وقت أن أرسلناه إلى فرعون « بسلطان مبين » أى : بمعجزة واضحة بينة هى اليد والعصا وغيرهما .

وقوله - سبحانه - : « فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون » بيان لموقف فرعون من موسى - عليه السلام - أى : أرسلنا موسى بآياتنا الدالة على صدقه إلى فرعون وقومه . فما كان منه إلا أن أعرض عن دعوة الحق ، وتعاظم على موسى بملكه وجنوده وقوته . . . وقال فى شأن موسى - عليه السلام - هو ساحر أو مجنون .

والركن جانب البدن . والمراد به هنا : جنوده الذين يركن إليهم ، وقوته التى اغتر بها .

قال الآلوسى : قوله : « فتولى بركنه » أى : فأعرض عن الإيمان بموسى ، على أن ركنه جانب بدنه وعطفه ، والتولى به كناية عن الإعراض ، والباء للتعدية ، لأن معناه ثنى عطفه . . .

وقال قتادة : تولى بقومه على أن الركن بمعنى القوم ، لأنه يركن إليهم ويتقوى بهم ، والباء للمصاحبة أو الملابسة . . . وقيل : تولى بقوته وسلطانه ، فالركن يستعار للقوة . . . »(١) .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ١٥ .

ثم بين - سبحانه - نتيجة إعراض فرعون عن الحق فقال : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم » .

والنبذ : الطرح للشىء بدون اكتراث أو اهتمام به . وقوله «مليم» من ألام . إذا أتى ما يلام عليه ، كأغرب إذا أتى أمرا غريبا ، وجملة «وهو مليم» حال من المفعول فى قوله « فأخذناه » .

أى : فأخذنا فرعون هو وجنوده الذين ارتكن إليهم أخذ عزيز مقتدر ، فألقينا بهم جميعا فى البحر بدون اعتداد بهم ، بعد أن أتى فرعون بما يلام عليه من الكفر والطغيان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف وصف نبى الله يونس — عليه السلام - بما وصف به فرعون فى قوله - تعالى — : « فالتقمه الحوت وهو مليم » ؟

قلت : موجبات اللوم تختلف ، وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها ، وكذلك مقترف الصغيرة . ألا ترى إلى قوله — تعالى — : « وعصوا رسله » ، وقوله « وعصى آدم ربه فغوى » لأن الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان ، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة»(1).

ثم تنتقل السورة بعد ذلك إلى بيان ماحل بقوم هود — عليه السلام — فتقول : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .

أى : وتركنا فى قصة عاد - أيضا - وهم قوم هود — عليه السلام — آية وعبرة . وقت أن أرسلنا عليهم الريح العقيم . أى : الريح الشديدة التى لاخير فيها من إنشاء مطر ، أو تلقيح شجر ، وهى ريح الهلاك ، وأصل العقم: اليبس المانع من قبول الأثر .

(1) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٠٣

شبه - سبحانه - الريح التى أهلكتهم وقطعت دابرهم، بالمرأة التى انقطع نسلها، بجامع انعدام الأثر فى كل.

ثم وصف - سبحانه - هذه الريح التى توهموا أنها تحمل لهم الخير، بينما هى تحمل لهم الهلاك، وصفها بقوله: «ماتذر من شىء أتت عليه» أى: ماتترك من شىء مرت عليه..

«إلا جعلته كالرميم» أى: إلا جعلته كالشىء الميت الذى رم وتحول إلى فتات. مأخوذ من رم الشىء إذا تفتت وتهشم. ويقال للنبات إذا يبس وتفتت رميم وهشيم.

كما يقال للعظم إذا تكسر وبلى: رميم. ومنه قوله - تعالى -: «قال من يحى العظام وهى رميم».

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى بيان ماحل بقوم صالح - عليه السلام - فقال - تعالى -: «وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين .....».

أى: ولنا - كذلك - فى قصة صالح - عليه السلام - مع قومه آية وعظة، وقت أن قال لهم - على سبيل الإنذار والتحذير من المداومة على الكفر -: تمتعوا بحياتكم التى تعيشونها فى هذه الدنيا، حتى وقت معين فى علم الله - تعالى تنتهى عنده أعماركم...

وهذا التمتع بالحياة حتى حين، يحتمل أن المقصود به: ما أشار إليه - سبحانه - فى سورة هود بقوله: «فعقروها - أى الناقة - فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام، ذلك وعد غير مكذوب»، ويحتمل أن يكون المقصود به: ماقدره الله - تعالى - من عمرهم منذ أن بلغهم صالح رسالة ربه، إلى أن عقروا الناقة، وحق عليهم العذاب.

قال القرطبى: قوله: «وفى ثمود» أى: وفيهم - أيضا - عبرة وعظة، حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا «حتى حين» أى: إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة

أيام، كما في سورة هود ... وقيل: معنى «تمتعوا» أي: أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم»(١).

ثم بين - سبحانه - ما كان منهم من كفر وفجور فقال: فعتوا عن أمر ربهم أي: فتكبروا واستهانوا بما أمرهم الله - تعالى - به على لسان نبيهم صالح - عليه السلام -.

«فأخذتهم الصاعقة» وهي كل عذاب مهلك، من الصعق بمعنى الإهلاك.

«وهم ينظرون» أي: وهم يرونها عيانا، لأن العذاب - كما تشير الآية - نزل بهم نهارا.

«فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين» أي: أنه حين نزل بهم عذابنا، أعجزهم عن الحركة، وشل حواسهم، فما استطاعوا أن يهربوا منه، وما قدروا على القيام بعد أن كانوا قاعدين، وما نصرهم من بأسنا ناصر.

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بلمحة عن قصة نوح - عليه السلام - فقال «وقوم نوح من قبل ...» أي: وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء جميعا بالطوفان.

«إنهم كانوا قوما فاسقين» أي: خارجين عن طاعتنا، منغمسين في الكفر والعصيان.

وهكذا ساقت السورة الكريمة جانبا من قصص هؤلاء الأنبياء، ليكون في ذلك تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم -، وتذكرة للمتذكرين.

• • •

وبعد هذا الحديث عن هؤلاء الأقوام... جاء الحديث عن مظاهر قدرة الله - تعالى - وسعة رحمته، ووافر نعمه، وحض الناس على شكره - تعالى - وطاعته، فقال - عز وجل -:

«والسَّماء بنَيْناها بأيدٍ وإنَّا لموسِعونَ (٤٧) والأرْضَ فَرَشْناها

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٥١

فَنِعم المَاهِدونَ (٤٨) ومِنْ كلِّ شَيء خَلَقْنَا زَوْجين لَعلكُم تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إلى اللهِ إنِّى لكُم منْهُ نذيرٌ مُبِينٌ (٥٠) ولا تَجعلُوا معَ اللهِ إلهًا آخرَ إنِّى لكُم منهُ نَذيرٌ مبينٌ (٥١) » :

ولفظ : « السماء ... » منصوب على الاشتغال . أى : وبنينا السماء بنيناها « بأيد » أى : بقوة وقدرة . يقال : آد الرجل يئيد - كباع - ، إذا اشتد وقوى .

« وإنا لموسعون » أى : وإنا لقادرون على توسعتها بتلك الصورة العجيبة من الوسع بمعنى القدرة والطاقة ، يقال : أوسع الرجل ، أى : صار ذا سعة ، والمفعول محذوف ، أى : وإنا لموسعون السماء ، أو الأرزاق .

فالجملة تصوير بديع لمظاهر قدرة الله ، وكمال قوته ، وواسع فضله ..

« والأرض فرشناها ... » أى : وفرشنا الأرض بقدرتنا - أيضا - ، بأن مهدناها وبسطناها وجعلناها صالحة لمنفعتكم وراحتكم ...

« فنعم الماهدون » نحن ، يقال : مهدت الفراش ، إذا بسطته ووطأته وحسنته ...

وفى هاتين الآيتين مافيهما من الدلالة على قدرة الله - تعالى - ورحمته بعباده ، حيث أوجد هذه السماء الواسعة التى تعتبر الأرض بما فيها كحلقة فى فلاة بالنسبة لها ، فهى تحوى مئات الملايين من النجوم المتناثرة فى أرجائها .. وأوجد - سبحانه - الأرض لتكون موطنا للإنسان ، ومنزلا لراحته ..

ثم قال - تعالى - : « ومن كل شيء خلقنا زوجين .. » أى : نوعين متقابلين كالذكر والأنثى ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، والغنى والفقر ، والهدى والضلال ...

« لعلكم تذكرون » أى : فعلنا ذلك لعلكم تعتبرون وتتعظون وتتذكرون ما يجب عليكم نحونا من الشكر والطاعة وإخلاص العبادة لنا وحدنا ..

والفاء فى قوله : « ففروا إلى الله ... » للتفريع على قوله - تعالى - « لعلكم تذكرون » . أى : مادام الأمر كما ذكرت لكم من وجود التذكر والاعتبار ، ففروا إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن كفره إلى شكره ، ومن السيئات إلى الحسنات .

قال الإمام الرازى ماملخصه : وفى هذا التعبير لطائف : لأنه ينبىء عن سرعة الإهلاك ، كأنه يقول : الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب ، من أن يحتمل الحال الإبطاء فى الرجوع ، فافزعوا سريعا إلى الله - تعالى - وفروا إلى طاعته ، فإنه لا مهرب منه ... »(١) .

وقوله : « إنى لكم منه نذير مبين » تعليل الأمر بالفرار . أى : أسرعوا إلى طاعة الله - تعالى - إنى لكم من عقابه المعد لمن يصر على معصيته نذير بين الإنذار . .

ثم أكد - سبحانه - هذا الإنذار ، ونهى عن التقاعس فقال : « ولا تجعلوا مع الله إلها آخر » أى : واحذروا أن تجعلوا مع الله - تعالى - إلها آخر ، فى العبادة أو الطاعة . « إنى لكم منه » - سبحانه - « نذير مبين » .

فالآية الأولى كان التعليل فيها الأمر بالفرار إلى الله - تعالى - ، والثانية كان التعليل فيها للنهى عن الإشراك به - سبحانه - .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد بينت جانبا من الدلائل على قدرة الله - تعالى - ، وأمرت الناس بإخلاص العبادة لله . ونهت عن الإشراك به .

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان موقف الأقوام من رسلهم ، وببيان الوظيفة التى أوجد الله - تعالى - الناس من أجلها فقال :

« كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ٦٥٥

أو مَجْنُون (٥٢) أتَواصَوْا به ، بلْ هم قومٌ طاغُونَ (٥٣) فتولَّ عنهم فما أنتَ بِملُوم (٥٤) وذَكّرْ فإنَّ الذكْرَى تَنْفَعُ المؤمنينَ (٥٥) ومَا خلقتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاّ ليعبُدونِ (٥٦) ما أُرِيدُ مِنهم من رِزْق وما أُريدُ أن يُطعِمُونِ (٥٧) إنَّ اللهَ هُو الرزّاقُ ذُو القوةِ المتينِ (٥٨) فإنَّ للّذينَ ظلَمُوا ذَنوباً مِثلَ ذَنوبِ أَصحابِهِمْ فلا يَسْتعجِلون (٥٩) فَوَيلٌ للذينَ كفَرُوا من يومِهِمُ الذى يوعَدُون (٦٠) » .

وقوله : « كذلك » خبر لمبتدا محذوف، أى : الأمر كذلك، واسم الإشارة مشار به إلى الكلام الذى سيتلوه ، إذ أن مابعده وهو قوله : « ما أتى الذين من قبلهم من رسول . . . » تفسير له .

أى : الأمر - أيها الرسول الكريم - كما نخبرك ، من أنه ما أتى الأقوام الذين قبل قومك من رسول يدعوهم إلى عبادتنا وطاعتنا ، إلا وقالوا له - كما قال قومك فى شأنك - هو ساحر أو مجنون .

والمقصود بالآية الكريمة تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركى قريش ، حيث بين له - سبحانه - أن الرسل السابقين قد كذبتهم أممهم ، فصبروا حتى أتاهم نصره - سبحانه - .

ثم أضاف - سبحانه - إلى هذه التسلية تسلية أخرى فقال: «أتواصوا به»؟ والضمير المجرور يعود إلى القول المذكور، والاستفهام للتعجيب من أحوالهم.

أى : أأوصى السابقون اللاحقين أن يقولوا لكل رسول يأتيهم من ربهم، أنت - أيها الرسول - ساحر أو مجنون ؟

وقوله - سبحانه - : «بل هم قوم طاغون» إضراب عن تواصيهم إضراب إبطال ، لأنهم لم يجمعهم زمان واحد حتى يوصى بعضهم بعضا . وإنما الذى جمعهم تشابه القلوب ، والالتقاء على الكفر والفسوق والعصيان .

أى : أوصى بعضهم بعضا بهذا القول القبيح ؟ كلا لم يوص بعضهم بعضا لأنهم لم يتلاقوا ، وإنما تشابهت قلوبهم ، فاتحدت ألسنتهم فى هـــذا القول المنكر .

ثم تسلية ثالثة نراها فى قوله ـ تعالى ـ : « فتول عنهم . . . » أى : فأعرض عنهم وعن جدالهم ، وسر فى طريقك الذى رسمه الحكيم الخبير لك . . .

« فما أنت » أيها الرسول الكريم ـ « بملوم » على الإعراض عنهم ، وما أنت بمعاتب منا على ترك مجادلتهم .

« وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » أى : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وداوم على التذكير والتبشير والإنذار مهما تقول المتقولون ، فإن التذكير بما أوحيناه إليك من هدايات سامية ، وآداب حكيمة . . . ينفع المؤمنين ، ولا ينفع غيرهم من الجاحدين .

ثم بين ـ سبحانه ـ الوظيفة التى من أجلها أوجد الله ـ تعالى ـ الجن والإنس فقال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ... »

وللعلماء فى تفسير هذه الآية أقوال منها : أن معناها : إنى ما أوجدت الجن والإنس إلا وهم مهيئون لعبادتى وطاعتى ، بسبب ماركبت فيهم من عقول تعقل ، وبسبب ما أرسلت إليهم من رسل يهدونهم إلى الخير ، فمنهم أطاع الرسل ، وجرى على مقتضى ما تقتضيه الفطرة ، فآمن بالرسل ، واتبع الحق والرشد ، ففاز وسعد ، ومنهم من اعرض عن دعوة الرسل ، وعاند فطرته وموجب استعداده فخسر وخاب ...

ومنهم من يرى أن معناها : إنى ما خلقت الجن والإنس إلا ليقروا لى بالعبودية طوعا أو كرها ، لأن المؤمن يطيع باختياره ، والكافر مذعن منقاد لقضاء ربه ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها . . . » [1].

(١) سورة الرعد . الآية ١٤

ومنهم من يرى أن معناها : إنى ماخلقت الجن والإنس إلا ليعرفونى ..

قال القرطبى ماملخصه : قوله - تعالى - : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » قيل : إن هذا خاص فيمن سبق فى علم الله أنه يعبده ، لجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص ... فالآية فى المؤمنين منهم .

وقال على - رضى الله عنه - : أى : وما خلقت الجن والإنس إلا لآمرهم بعبادتى ، قال - تعالى - : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » .

وقيل : إلا ليعبدون ، أى : إلا ليقروا لى بالعبادة طوعا أو كرها »(١) .

ويبدو لنا أن أرجح هذه الأقوال هو ما أشرنا إليه أولا ، من أن معنى الآية الكريمة ، أن الله - تعالى - قد خلق الثقلين لعبادته وطاعته ، ولكن منهم من أطاعه - سبحانه - ، ومنهم من عصاه ، لاستحواذ الشيطان عليه .

قال الإمام ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الأقوال : ومعنى الآية أنه - تعالى - خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ومن عصاه عذبه أشد العذاب ..

وفى الحديث القدسى : قال الله - عز وجل - يابن آدم ، تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلا ، ولم أسد فقرك » . .

وفى بعض الكتب الإلهية : يقول الله - تعالى - : يابن آدم ، خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء ، وأنا أحب إليك من كل شىء »(٢) .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٥٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠١

ثم بين - سبحانه - أنه غني عن العالمين فقال: «ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون»، أي: ما أريد منهم منفعة أو رزقا كما يريد الناس بعضهم من بعض... وما أريد منهم طعاما ولا شرابا، فأنا الذي أطعم ولا أطعم كما قال - سبحانه -: «قل أغير الله أتخذ وليا، فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم...»(١).

قال الآلوسى: والآية لبيان أن شأنه - تعالى - مع عباده، ليس كشأن السادة مع عبيدهم، لأنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، ومالك العبيد نفى أن يكون ملكه إياهم لذلك، فأنه - سبحانه - يقول: ما أريد أن أستعين بهم، كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم، فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي...»(٢).

ثم بين - سبحانه - أنه هو صاحب القوة والرزق فقال: «إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين»، أي: إن الله - تعالى - هو الرزاق لغيره دون أحد سواه، وهو - سبحانه - صاحب القوة التي لا تشبهها قوة، وهو المتين أي: الشديد القوة - أيضا - فهو صفة الرزاق، أو لقوله: «ذو»، أو خبر مبتدأ محذوف. وهو مأخوذ من المتانة بمعنى القوة الفائقة...

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الظالمين فقال: «فإن للذين ظلموا ذنوبا مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون».

والذنوب في الأصل: الدلو العظيمة المملوءة ماء، ولا يقال لها ذنوب إذا كانت فارغة. وجمعها ذنائب، كقلوص وقلائص، وكانوا يستقون الماء فيقسمونه بينهم على الأنصباء. فيكون لهذا ذنوب. ولهذا ذنوب. فالمراد بالذنوب هنا: النصيب والمعنى: فإن للذين ظلموا أنفسهم بعبادتهم لغير الله، وبظلمهم لغيرهم، نصيبا من العذاب، مثل نصيب نظرائهم في الظلم والكفر، فلا يستعجلون عذابي، فإنه نازل بهم في الوقت الذي أريده..

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤ (٢) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ٢٢

« فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون » أى : فهلاك للذين كفروا ، هذا الهلاك سيكون فى اليوم الذى توعدتهم بالهلاك فيه، والذى هو نازل بهم بلا ريب أو شك .

وبعد . فهذا تفسير لسورة « الذاريات » ، نسأل الله – تعالى – أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة – مدينة نصر كتبه الراجى عفو ربه
مساء السبت : ٢١/٥/١٤٠٦ هـ د . محمد سيد طنطاوى
١ / ٢ / ١٩٨٦ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الطور

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة «الطور» من السور المكية الخالصة، وعدد آياتها تسع وأربعون آية فى الكوفى والشامى، وثمان وأربعون فى البصرى؛ وسبع وأربعون فى المصحف الحجازى.

وهذه السورة من السور التى كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يقرأ بها كثيرا فى صلاته.

روى الشيخان عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم - يقرأ فى المغرب بالطور، فما سمعت أحدا أحسن صوتا أو قراءة منه».

وروى البخارى عن أم سلمة قالت: شكوت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنى اشتكى. فقال: «طوفى من وراء الناس وأنت راكبة. فطفت ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يصلى إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور»[1].

٢ - وتفتتح سورة «الطور» بقسم من الله - تعالى - ببعض مخلوقاته على أن البعث حق، وعلى أن الجزاء حق، وعلى أن كل ذلك كائن يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات...

تفتتح بهذا الافتتاح الذى يبعث الوجل والخوف فى النفوس فتقول: والطور. وكتاب مسطور. فى رق منشور. والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور. إن عذاب ربك لواقع. ماله من دافع...

٣ - وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين الأخيار والأشرار، يأتى

(١) تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٤.

الحديث عن حسن عاقبة المؤمنين ، بعد الحديث عن سوء عاقبة المكذبين ، فيقول - سبحانه - : « إن المتقين فى جنات ونعيم . فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم . كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ... »

٤ - ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن مفتريات المشركين وأكاذيبهم ، فتحكيها بأمانة ، وتقذف بالحق الذى أوحاه - سبحانه - إلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فإذا بتلك المفتريات والأكاذيب زاهقة وباطلة ، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلاب فتقول : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا ، فإنى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ... »

٥ - ثم تختتم السورة الكريمة بما يسلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وبما يرسم له العلاج الشافى فتقول : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم . ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم » .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى

٣ من جمادى الآخرة سنة ١٤٠٦ هـ

١٢ من فبراير سنة ١٩٨٦ م

التفسير

قال الله تعالى : « والطُّورِ (١) وكتابٍ مَسطورٍ (٢) فى رَقٍّ مَنشورٍ (٣) والبَيتِ المعمُورِ (٤) والسَّقفِ المرفُوعِ (٥) والبَحرِ المسْجُورِ (٦) إنَّ عذابَ رَبكَ لواقِع (٧) مالهُ مِنْ دَافِع (٨) يومَ تمورُ السَّماء مَوْرًا (٩) وتسيرُ الجبالُ سَيْراً (١٠) فَويلٌ يومَئذٍ للمكذِّبينَ (١١) الذينَ همُ فى خَوضٍ يَلعَبُونَ (١٢) يومَ يُدَعُّون إلى نارِ جَهنَّم دعًّا (١٣) هذه النَّارُ التى كنتُم بها تكذِّبونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أنتُم لا تُبصِرُونَ (١٥) اصْلَوهاَ فاصْبِرُوا أوْ لا تَصْبِرُوا ، سواءٌ عَليكُم إنَّما تُجزَونَ ما كُنتُم تعملُونَ (١٦) » .

افتتح الله ـ تعالى ـ هذه السورة الكريمة ، بالقسم بخمسة أشياء هى من أعظم مخلوقاته ، للدلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته ، وتفرد ألوهيته ...

فقال ـ سبحانه ـ : « والطور » والمراد به جبل الطور ، المشار إليه فى قوله ـ تعالى ـ : « والتين والزيتون . وطور سينين ... »

قال القرطبى : والطور : اسم الجبل الذى كلم الله ـ تعالى ـ عليه موسى . أقسم الله به تشريفا وتكريما له ، وتذكيرا لما فيه من الآيات . . . وقيل : إن الطور اسم لكل جبل أنبت ، وما لا ينبت فليس بطور .... »[١] .

« وكتاب مسطور » أى مكتوب متسق الكتابة ، منتظم الحروف ، مرتب المعانى ، فالمراد بالكتاب : المكتوب . وبالمسطور : الذى سطرت حروفه وكلماته تسطيرا جميلا حسنا .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٥٨ .

والأظهر أن المقصود به القرآن الكريم ، لأن الله تعالى - قد أقسم به كثيرا، ومن ذلك قوله - سبحانه - « حم . والكتاب المبين » « يس والقرآن الحكيم ».

وقيـــل : المقصود به : جنس الكتب السماوية المنزلة . وقيل : صحائف الأعمال .

قال الآلوسى : قوله: «وكتاب مسطور » أى: مكتوب على وجه الإنتظام فإن السطر ترتيب الحروف المكتوبة . والمراد به على ما قال الفراء : الكتاب الذى تكتب فيه الأعمال ،ويعطاه العبد يوم القيامة بيمينه أو بشماله وقال الكلبي : هو التوراة . . وقيل : القرآن . وقيل اللوح المحفوظ ..»(1)

وقوله : « فى رق منشور » متعلق بمسطور . أى : مسطور فى رق . والرق - بالفتح - كل ما يكتب فيه من ألواح وغيرها . وأصله : الجلد الرقيق الذى يكتب عليه .

والمنشور . المبسوط ، ومنه قوله - تعالى - : « ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » .

أى : أن هذا الكتاب المسطور ، كائن فى صحائف مبسوطة ظاهرة لكل من ينظر اليها .

وقوله : « والبيت المعمور » هو بيت فى السماء السابعة تطوف به الملائكة بأمر الله - تعالى - .

قال ابن كثير : ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال فى حديث الإسراء والمعراج ، بعد مجاوزته إلى السماء السابعة : ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألفـــا من الملائكة ...»(2)

---

(1) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ٢٧

(2) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ٢٩

وقيل المراد بالبيت المعمور هنا : البيت الحرام.وسمى بذلك لأنه معمور بالحجاج والعمار . « والسقف المرفوع » أى : والسماء المرفوعة ، وسميت سقفا لكونها بمثابة السقف للأرض ، كما قال - تعالى - : « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

« والبحر المسجور » أى : أى المملوء بالماء . يقال : سجر فلان الحوض إذا ملأه بالماء .

أو المسجور ، بمعنى : المملوء بالنار ، من السجر ، وهو إيقاد النار فى التنور ، ومنه قوله - تعالى - : « ثم فى النار يسجرون » .

والمراد بالبحر هنا جنسه . قال ابن عباس : تملأ البحار كلها يوم القيامة بالنار ، فيزاد بها فى نار جهنم .

وبهذا نرى أن الله - تعالى - قد أقسم بخمسة أشياء من مخلوقاته ، للدلالة على وحدانيته ، وعلى شمول قدرته ، وعلى بديع صنعته .....

وجواب هذا القسم قوله - سبحانه - : « إن عذاب ربك لواقع » أى : وحق هذه المخلوقات الضخمة البديعة ، إن عذاب ربك لواقع وقوعا لاشك فيه على الكافرين يوم القيامة .

وقوله : « ما له من دافع » خبر ثان لإن فى قوله : « إن عذاب ربك لواقع » أى : هو واقع دون أن يستطيع أحد أن يدفعه أو يرده .

عن جبير بن مطعم - رضى الله عنه - قال : قدمت المدينة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأكلمه فى أسارى بدر، فجئت اليه وهو يصلى بأصحابه صلاة المغرب ، فسمعته يقرأ « والطور » إلى « إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع » . فكأنما صدع قلبى ، فأسلمت خوفا من نزول العذاب، وما كنت أظن أن أقوم من مقامى ... (1)

(1) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٢٩

والظرف فى قوله : « يوم تمور السماء مورا » متعلق بقوله « لواقع » ومنصوب به . أى : إن هذا العذاب لواقع يوم تضطرب السماء اضطرابا شديدا ، وتتحرك بمن فيها تحركا تتداخل معه أجزاؤها .

فالمور : هو الحركة والاضطراب والدوران،والمجىء والذهاب،والتموج يقال : مار الشىء مورا إذا تحرك واضطرب .

« وتسير الجبال سيرا » أى : عذاب ربك واقع يوم تضطرب السماء بأهلها ، وتزول الجبال عن أماكنها ، وتتطاير كالسحب ، ثم تتفتت كالرمال ، ثم تصير كالصوف المنفوش ...

قال ـ تعالى ـ : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء »(١) .

وقال ـ سبحانه ـ : « يوم تكون السماء كالمهل.وتكون الجبال كالعهن. ولا يسأل حميم حميا »(٢) .

وقوله : « فويل يومئذ للمكذبين » أى : فهلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين به .

« الذين هم فى خوض يلعبون » أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك ـ أيها العاقل ـ ، فهلاك وحسرة فى هذا اليوم للمكذبين بالحق ، الذين هم عاشوا حياتهم الدنيا يلهون ويلعبون دون أن يذكروا حسابا ولا ثوابا ولا عقابا .

وأصـــل الخوض : المشى فى الماء ، ثم غلب استعماله فى الاندفاع فى كل باطل .

---

(١) سورة النمل الآية ٨٨ .

(٢) سورة المعارج الآية ٨ ، ١٠ .

ثم بين ـ سبحانه ـ حالهم يوم القيامة فقال : « يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون ... »

والدع : الدفع بعنف وشدة . يقال : دع فلان فلانا دعا ، إذا دفعه بجفوة وغلظة ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم ... » .

أى : اذكر ـ أيها العاقل ـ لتعتبر وتتعظ ، يوم يدفع هؤلاء المكذبون إلى النار دفعا قويا ، لا رحمة معه ، ولا شفقة فيه ثم يقال لهم بعد هذا الطرد الشديد : هــــذه هى النار التى كنتم بها تكذبون فى الدنيا ، ادخلوها فبئس مثوى المتكبرين .

ثم يقال لهم ـ أيضا ـ على سبيل التوبيخ والزجر : « أفسحر هذا » أى : أفسحر هذا الذى ترونه من العذاب كما كنتم تزعمونه فى الدنيا ؟

« أم أنتم لا تبصرون » أى : أم أنتم عمى عن مشاهدة العذاب المعد لكم فلا تبصرونه ؟ لا ، إن هذا العذاب ليس سحرا ، ولستم أنتم بمحجوبين عن رؤيته ، بل هو أمام أعينكم ، ومهيأ لاستقبالكم ، وهذه النار تناديكم ، وملائكتنا تقول لكم :

« اصلوها » أى : ادخلوها ، وقاسوا حرها « فاصبروا أو لا تصبروا » أى : ادخلوها داخرين فاصبروا على سعيرها أو لا تصبروا ، فهى مأواكم لا محالة .

« سواء عليكم » الأمران ، الصبر وعدمه ، لأن كليهما لا فائدة لكم من ورائه .

فقوله : « سواء عليكم » خبر لمبتدأ محذوف . أى : الأمران سواء بالنسبة لكم .

« إنما تجزون » فى هذا اليوم عاقبة « ما كنتم تعملون » أى : فى الدنيا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله : « إنما تجزون ما كنتم تعملون » ؟

قلت : لأن الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه فى العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب هو الجزاء ، ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع »(١) .

* * *

وكعادة القرآن الكريم فى المقارنة بين سوء عاقبة المكذبين وحسن عاقبة المؤمنين، جاء الحديث عن المتقين، بعد الحديث عن الكافرين. فقال ـ تعالى ـ :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَىْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِى أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) » .

والمعنى : « إن المتقين ... » الذين صانوا أنفسهم عن كل ما نهى الله ـ تعالى ـ عنه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٠٩ .

« فى جنات » عظيمة ، وفى « نعيم » دائم لا ينقطع .

« فاكهين » أى : متلذذين متنعمين بما يحيط بهم من خيرات . مأخوذ من الفكاهة ـ بفتح الفاء ـ وهى طيب العيش مع النشاط . يقال : فكه الرجل فكها وفكاهة فهو فكه وفاكه ، إذا طاب عيشه ، وزاد سروره ، وعظم نشاطه ، وسميت الفاكهة بهذا الاسم لتلذذ الإنسان بها .

« بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم » أى : متلذذين بسبب ما آتاهم ربهم من جنات عظيمة ، ووقاهم ـ سبحانه ـ بفضله ورحمته العذاب الذى يؤلمهم .

ويقال لهم فضلا عن ذلك على سبيل التكريم : « كلوا واشربوا هنيئا . . » أى : كلوا أكلا مريئا ، واشربوا شربا هنيئا . والهنىء من المأكول والمشروب ما لا يلحقه تعب أو سوء عاقبة .

وقوله : « متكئين على سرر مصفوفة . . . » منصوب على الحال من فاعل « كلوا » أو من الضمير المستكن فى قوله « جنات » .

أى : هم فى جنات عظيمة ، حالة كونهم متكئين فيها على سرر موضوعة على صفوف منتظمة ، وعلى خطوط مستوية . والسرر : جمع سرير وهو ما يجلس عليه الإنسان للراحة .

وقوله : « وزوجناهم بحور عين » بيان لنعمة أخرى من النعم التى يتلذذون بها .

أى : وفضلا عن كل ذلك ، فقد زوجناهم بنساء جميلات . .

وبذلك نرى أن هؤلاء المتقين . قد أكرمهم الله ـ تعالى ـ بكل أنواع التنعيم ، من مسكن طيب ، ومأكل كريم ، ومشرب هنىء ، وأزواج مطهرات من كل سوء .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنواعا أخرى من تكريمه ـ تعالى ـ لهم ، فقال :

« والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء .... » .

والآية الكريمة بيان لحال طائفة من أهل الجنة - وهم الذين شاركتهم ذريتهم الأقل عملا منهم فى الإيمان - إثر بيان حال المتقين بصفة عامة .

والاسم الموصول مبتدأ ، وخبره جمله « ألحقنا بهم ذريتهم » . والمراد بالذرية هنا : ما يشمل الآباء والأبناء . وقوله : « واتبعتهم » معطوف على « آمنوا » . وقوله « بإيمان » متعلق بالاتباع ، والباء للسببية أو بمعنى فى .

ومعنى : « ألتناهم » أنقصناهم . يقال : فلان ألت فلانا حقه يألته - من باب ضرب - إذ بخسه حقه .

والمعنى : والذين آمنوا بنا حق الإيمان ، واتبعتهم ذريتهم فى هذا الإيمان . ألحقنا بهم ذريتهم ، بأن جمعناهم معهم فى الجنة ، وما نقصنا هؤلاء المتبوعين شيئا من ثواب أعمالهم ، بسبب إلحاق ذريتهم بهم فى الدرجة ، بل جمعنا بينهم فى الجنة . وساوينا بينهم فى العطاء - حتى ولو كان بعضهم أقل من بعض فى الأعمال - فضلا منا وكرما .

قال الإمام ابن كثير : يخبر - تعالى - عن فضله وكرمه ، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه : أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم فى الإيمان ، يلحقهم بآبائهم فى المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم ، لتقر أعين الآباء بالأبناء عندهم فى منازلهم ، فيجمع بينهم على أحسن الوجوه ، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته ، للتساوى بينه وبين ذاك ، ولهذا قال : « ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شيء ... » .

عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن فى درجته ، وإن كانوا دونه فى العمل ، لتقر بهم عينه . ثم قرأ هذه الآية .

وفى رواية أخرى عنه قال - عندما سئل عن هـذه الآية - : هم ذرية المؤمن يموتون على الإيمان، فإن كانت منازل آبائهم أرفع من منازلهم ألحقوا بآبائهم، ولم ينقصوا من أعمالهم التى عملوها شيئا ...»(١)

«وقال صاحب الكشاف : فإن قلت : مامعنى تنكير الإيمان ؟ قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة . ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الدانى المحل . كأنه قال : بشىء من الإيمان، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم ....»(٢) .

وقال الجمل : «والذرية هنا تصدق على الآباء والأبناء، فإن المؤمن إذا كان عمله الصالح أكثر ألحق به من هو دونه فى العمل أباكان أو ابنا، وهـذا منقول عن ابن عباس وغيره .

وعن ابن عباس - أيضا - يرفعه إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال : إنهم لم يدركوا ما أدركت، فيقول : يارب إنى عملت لى ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به ...»(٣)

وقوله : «كل امرىء بما كسب رهين» أى : كل إنسان مرهون بعمله عند الله - تعالى - ، فإن كان عمله صالحا سعد وفاز، وأطلق نفسه من كل مايسوءها ويحزنها، وإن كان غير ذلك، جوزى على حسب عمله وسعيه .

والتعبير بقوله «رهين» للإشعار بأن كل إنسان مرتهن بعمله، حتى لكأن العمل الصالح بمنزلة الدين، وأن الإنسان لايستطيع الفكاك منـه إلا بعد أدائه .

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٤٠٨

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤١١

(٣) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢١٦

ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من مظاهر فضله على عباده المؤمنين فقال : « وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ...

أى : وأمددنا هؤلاء المؤمنين - على سبيل الزيادة عما عندهم بفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وبلحم لذيذ تشتهيه نفوسهم .

« يتنازعون فيها كأسا .. » أى : يتجاذبون على سبيل المداعبة ، ويتعاطون على سبيل التكريم ، الأوانى المملوءة بالخمر التى هى لذة للشاربين ..

« لا لغو فيها ولا تأثيم » أى : لا يصدر منهم فى أعقاب شربهم لتلك الخمر ، ماجرت به العادة فى أعقاب شرب خمر الدنيا ، من أن الشارب لها يصدر منه كلام ساقط لا خير فيه ، ويأتى من الأقوال والأفعال ما يعاقب عليه ، ويرتكب الإثم بسببه .

قال صاحب الكشاف : « لا لغو فيها » أى فى شربها « ولا تأثيم » اى : لا يتكلمون فى أثناء الشرب بسقط الحديث ، ومالا طائل تحته . كفعل المتنادمين فى الدنيا على الشراب فى سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم لو فعله فى دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ، وإنما يتكلمون بالحكم وبالكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة وهم حكماء علماء .... »(١)

« ويطوف عليهم غلمان لهم . . . » أى : ويطوف عليهم بتلك الكئوس المليئة بالخمر ، غلمان لهم ، لكى يكونوا فى خدمتهم .

« كأنهم لؤلؤ مكنون » أى : كأن هؤلاء الغلمان فى صفائهم ونقائهم ، لؤلؤ مصون ومحفوظ فى صدفه لم تنله الأيدى .

يقال : كننت الشىء كنا وكنونا ، إذا جعلته فى كن ، وسترته عن الأعين .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤١٢

ثم حكى — سبحانه — تساؤلهم وهم فى الجنة ، فقال : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » أى : وأقبل بعضهم على بعض وهم فى الجنة . يسأل أحدهم الآخر عن أحواله ، وعن أعماله ، وعن حسن عاقبته . . .

« قالوا » أى : قال كل مسئول لسائله : « إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين » أى : إنا كنا فى الدنيا ونحن نعيش بين أهلنا خائفين من أهوال يوم القيامة ، وكنا نقدم العمل الصالح الذى نرجو أن ننال بسببه رضا ربنا . . .

فقبل - تعالى - بفضله منا هذا العمل « فمن الله علينا » أى : فتكرم علينا بمغفرته ورضوانه .

« ووقانا عذاب السموم » أى : وأنقذنا من عذاب النار التى تنفذ بحرها وسعيرها ، إلى العظام والمسام ، نفاذ الريح الحادة إلى الأجساد ، فتؤثر فيها تأثير السم فى البدن .

قال صاحب الكشاف : والسموم : الريح الحادة التى تدخل المسام ، فسميت بها نار جهنم ، لأنها بهذه الصفة .

« إنا كنا من قبل ندعوه . . . » أى إنا كنا من قبل فى الدنيا ندعوه أن يجنبنا هذا العذاب كما كنا — أيضا - نخلص له العبادة والطاعة .

« إنه » - سبحانه - «هو البر الرحيم» أى: هو المحسن على عباده الرحيم بهم .

فالبر - بفتح الباء - مشتق من البر — بكسرها - ، بمعنى المحسن ، يقال : بر فلان فى يمينه ، إذا صدق فيها ، وأحسن أداءها .

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة ، قد بشرت المتقين ببشارات متعددة ، وذكرت نعما متعددة أنعم بها - سبحانه - عليهم .

* * *

ثم عادت السورة الكريمة مرة أخرى إلى الحديث عن الكافرين ، فأمرت النبى — صلى الله عليه وسلم — أن يمضى فى طريقه دون أن يهتم بأكاذيبهم ،

وحكت جانبا من هذه الأكاذيب التى قالوها فى حقه - صلى الله عليه وسلم - ولقنته الجواب المزهق لها ...، فقال - تعالى - :

« فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّى مَعَكُم مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا ، أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ، فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِن مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ (٤٤) » .

والفاء فى قوله - سبحانه - : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا بجنون » للإفصاح .

والكاهن: هو الإنسان الذى يزعم أنه يخبر عن الأشياء المغيبة . والمجنون: هو الإنسان الذى سلب عقله ، فصار لا يعى ما يقول .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك قبل ذلك - أيها الرسول الكريم - ،

فاثبت على ما أنت عليه من التذكير بما أوحيناه إليك ... فما أنت بسبب إنعام الله عليك بكاهن ولا مجنون كما يزعم أولئك الكافرون .

قال الجمل : والباء في قوله « بنعمة ربك » للسببية ، وهي متعلقة بالنفي الذي أفادته « ما » أي : إنتفى كونك كاهنا أو مجنونا ، بسبب إنعام الله عليك بالعقل الراجح ، وعلو الهمة ، وكرم الفعال ، وطهارة الأخلاق ، وهم معترفون بذلك لك قبل النبوة »[1]

ثم أخذت السورة الكريمة في تقريع هؤلاء الجاهلين بأسلوب إستنكاري فيه ما فيه من التعجب من حالاتهم ، وفيه ما فيه من الرد الحكيم على أكاذيبهم فساقت أقاويلهم بهذا الأسلوب الذي تكرر فيه لفظ « أم » خمس عشرة مرة وكلها إلزامات ليس لهم عنها جواب . وبدأت بقوله - تعالى - : « أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإني معكم من المتربصين » . و« أم » في هذه الآيات بمعنى بل والهمزة .

وقوله : « نتربص » من التربص بمعنى الانتظار والترقب ...

وقوله : « ريب المنون » يعنون به : حوادث الدهر التي تحدث له - صلى الله عليه وسلم - منها الموت ، فالمنون : الدهر . وريبه : حوادثه التي يصيبه بسببها الهلاك .

أي : بل أيقولون عنك - أيها الرسول الكريم - إنك شاعر ، وأنهم يترقبون موتك لكي يستريحوا منك ، كما إستراحوا من الشعراء الذين من قبلك ، كزهير والنابغة .... قل لهم - على سبيل التبكيت والتهديد : تربصوا وترقبوا موتي فإني معكم من المنتظرين ، وستعلمون أينا خير مقاما وأحسن عاقبة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٢١٧

قال الآلوسى : « نتربص به ريب المنون ، أى : الدهر . وهو فعول من المن بمعنى القطع ، لأنه يقطع الأعمار وغيرها . ومنه حبل منين أى : مقطوع والريب : مصدر رابه إذا أقلقه ، أريد به حوادث الدهر وصروفه ، لأنها تقلق النفوس . وعبر عنها بالمصدر مبالغة . . . . . وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس ، تفسيره المنون بالموت . . .

روى أن قريشا إجتمعت فى دار الندوة ، وكثرة آراؤهم فيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى قال قائل منهم : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، فافترقوا على هذه المقالة . . . » (١)

ثم وبخهم ـ سبحانه ـ على غفلتهم وعنادهم فقال : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . . . . »

والأحلام : جمع حلم ـ بكسر الحاء ـ والمراد بها هنا : العقول ، وكان شيوخ قريش يدعون بذى الأحلام والنهى

ويطلق الحلم فى الأصل على ضبط النفس عن هيجان الغضب ، وأطلق هنا على العقل لكونه منشأ له .

أى : بل أتأمرهم عقولهم التى زعموا سلامتها ، بأن يقولوا فى شأنك ـ أيها الرسول الكريم ـ إنك شاعر أم مجنون ؟

لا ، إن أى عقل سليم لم يأمرهم بذلك ، وإنما هم قوم دأبهم الطغيان والعناد وتجاوز الحدود التى لا يجوز تجاوزها ..

والعقول إذا إستعملت فى الشرور والآثام ، ضاع رشدها ، وفقدت سلامتها .

ولقد قيل لعمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ . مابال قومك لم يؤمنوا وهم أصحاب الأحلام ؟ فقال : تلك عقول كادها الله ـ تعالى ـ . أى . لم يصبها التوفيق والرشاد .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٣٦

« أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » والتقول : تكلف القول وإختلاقه ، وأكثر ما يكون إستعمالا فى الكذب . يقال : فلان تقول على فلان ، إذا إفترى عليه الكذب .

أى : بل أيقولون عنك ـ أيها الرسول ـ إنك إفتريت هذا القرآن ، وإختلقته من عند نفسك ؟ لا إنك معصوم عن ذلك ، وأنت ما نطقت إلا بما أوحيناه إليك ، ولكنهم هم المفترون للكذب عليك ، وما حملهم على ذلك إلا عدم إيمانهم بالحق ، وإنغماسهم فى الباطل ، وإصرارهم على الجحود . .

وإذا كان الأمر ـ كما زعموا ـ فها هو ذا القرآن أمامهم يسمعون آياته . . . فليأتوا بحديث يشابه القرآن فى بلاغته ، وهدايته ، وسمو تشريعاته وآدابه .

وقد تحداهم ـ سبحانه ـ فى آيات أخرى أن يأتوا بعشر سور من مثله فقال: « أم يقولون إفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وأدعوا من إستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين [(1)]

ثم تحداهم ـ سبحانه ـ أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فقال : «وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . . . .»[(2)]

ولكنهم فى جميع مراحل التحدى ، وقفوا عاجزين مبهوتين ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه إختلافا كثيرا

ثم وبخهم ـ سبحانه ـ على عدم تفكرهم فى خلق أنفسهم فقال : «أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون »

أى : بل أخلقوا على هذه الكيفية البديعة ، والهيئة القويمة ، من غير أن

---

(١) سورة هود . الآية ١٣
(٢) سورة البقرة الآية ٢٢

يكون هنـاك خالق لهم ؟ أم هم الذين خلقوا أنفسهم بدون إحتياج لخالق ؟ أم هم الذين قاموا بخلق السموات والأرض ؟

لا ، إن شيئا من ذلك لم يحدث ، فإنهم لم يخلقوا من غير شيء ، وإنما الذى خلقهم بقدرته ـ تعالى ـ هو وحده ، كما خلق ـ سبحانه ـ السموات والأرض بقدرته ـ أيضا ـ ، وهم يعترفون بذلك ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله . . . » ، ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . . . » .

وقوله : « بل لا يوقنون » أى : هم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنمـا هم يخبطون خبط عشواء ، فهم مع إعترافهم بأن الله ـ تعالى ـ هو الذى خلقهم ، إلا أن هذا الإعتراف صار كالعدم ، لأنهم لم يعملوا بموجبـه ، من إخلاص العبادة له ـ تعالى ـ والإيمان بالحق الذى جاءهم به رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ ، من عند خالقهم .

ثم قال ـ تعالى ـ : « أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون » أى : بل أعند هؤلاء الغافلين « خزائن ربك » أى : مفاتيح أرزاقه ـ تعالى ـ لعباده ، ومقدراته لهم ، حتى يقسموها عليهم كما شاءوا ، أم هم المسيطرون على أحوال هذا الكون ، المتسلطون على مقدراته ، حتى لكأنهم أربابه المتغلبون عليه ؟

كلا لا شيء لهم من ذلك إطلاقا ، وإنما هم فقراء إلى رزق الله ـ تعالى ـ لهم « أم لهم سلم يستمعون فيه . . » والسلم : هو ما يتوصل به إلى الأمكنة العالية أى : بل ألهم سلم يصعدون بواسطته إلى السماء ، ليستمعوا إلى وحينا وأمرنا ونهينا . . .

إن كان أمرهم كذلك : « فليأت مستمعهم بسلطان مبين » أى : فليأت من استمع منهم الى شيء من كلامنا أو وحينا بحجة واضحة تدل على صدقه فيما ادعاه .

ومما لاشك فيه أنهم لاحجة لهم ، بل هم كاذبون إذا ما ادعوا ذلك،لأن وحى الله - تعالى - خاص بأناس معينين ، ليسوا منهم قطعا .

« أم له البنات ولكم البنون » أى : بل أيقولون إن لله - تعالى - البنات ولهم الذكور ، إن قولهم هذا من أكبر الأدلة على جهلهم وسوء أدبهم ، لأن الله - تعالى - هو الخالق للنوعين ، وهو - سبحانه - « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » .

« أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون » أى: بل أتسألهم أجرا على دعوتك إياهم إلى الحق، فهم بسبب ذلك قد أثقلتهم الديون والمغارم ، فصاروا ينفرون من دعوتك ؟ كلا إنك لم تطلب منهم شيئا من ذلك .

والمغرم : الدين الذى يكون على الإنسان . فيثقل كاهله، ويحزن نفسه .

« أم عندهم الغيب فهم يكتبون » أى : بل أيزعمون أن عندهم علم الغيب فهم يكتبونه للناس ، ويطلعونهم عليه ... ؟

كلا إنهم لا علم لهم بشىء من الغيب ، لأن علم الغيب مرده إلى الله - تعالى - وحده ، كما قال سبحانه - : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول ... »

« أم يريدون كيدا ، فالذين كفروا هم المكيدون » أى : بل أيريدون بك - أيها الرسول الكريم - الكيد والأذى والهلاك ، إن كانوا يريدون بك ذلك فاعلم أن الذين كفروا بك وبدعوتك وأرادوا بك وبها الكيد والأذى، هم المغلوبون الخاسرون الذين يحيق بهم كيدهم ، ويعود عليهم وباله .

فقوله : « المكيدون » اسم مفعول من الكيد ، وهو المكر والخبث ..

وقد عاد عليهم وبال مكرهم فعلا ، فقد خرج - صلى الله عليه وسلم - من بين جموعهم ليلة الهجرة ،دون أن يروه ، وكانوا محيطين بداره ليقتلوه ، وأحبط الله - تعالى - مكرهم .

«أم لهم إله غير الله، سبحان الله عما يشركون» أي: بل ألهم إله غير الله - تعالى - يرزقهم من فضله، ويرعاهم بلطفه في جميع أطوار حياتهم.

كلا إنهم لا إله لهم سواه - تعالى -، ونزه - سبحانه - عن شركهم وكفرهم.

«وإن يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم» والكسف جمع كسفه وهي القطعة من الشيء. والمركوم: المتراكم الذي تجمع بعضه فوق بعض.

أي: وإذا رأى هؤلاء الجاهلون قطعة عظيمة من العذاب نازلة عليهم لتهديدهم وزجرهم، قالوا: هذا النازل علينا سحاب متراكم، قد اجتمع بعضه فوق بعض ليسقينا، ولم يصدقوا أنه نذير عذاب شديد لهم.

وهذا شأن الطغاة المعاندين، وقد سبقهم إلى ذلك قوم عاد، فإنهم حين رأو العذاب مقبلا نحوهم قالوا «هذا عارض ممطرنا» فرد الله - تعالى - عليهم بقوله: «بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم».

هذا. والمتأمل في هذه الآيات الكريمة، يراها قد حملت على المشركين حملة شديدة، حيث وبختهم على جهالاتهم، وتحدتهم بأسلوب تعجيزي أن يأتوا بمثل القرآن الكريم، وتهكمت بهم وبعقولهم الفارغة التي انقادوا لها بدون تفكر أو تدبر، وبينت أنهم قوم متناقضون مع أنفسهم، لأنهم يقرون أن الله - تعالى - هو الخالق لهم ولغيرهم، ومع ذلك فهم يعبدون غيره، وينسبون البنات إليه دون البنين...

وقد ذكر بعض المفسرين أن ما أصابهم من هزيمة يوم بدر، كان في السنة الخامسة عشرة من بعثته - صلى الله عليه وسلم - وأن هذه الآيات قد تكرر

فيها لفظ «أم» خمس عشرة مرة، بعدد هذه السنين، ولذا قالوا: إن ذلك فيه إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة، بتوجيه الخطاب إلى النبي - صلى الله عليه وسلم -، على سبيل التسلية والتكريم، حيث أمره - سبحانه - بالإعراض عنهم، لأنه - سبحانه - هو الذى سيتولى حسابهم وعقابهم ... فقال - تعالى -:

«فذَرْهم حتَّى يلاقُوا يومَهم الذِي فيهِ يُصعَقُونَ (٤٥) يومَ لا يُغنِي عَنهم كيدُهم شيئاً ولا هم يُنصَرُونَ (٤٦) وإنَّ للذينَ ظلَموا عذاباً دُونَ ذلكَ، ولكنَّ أكثَرهم لا يعلَمُونَ (٤٧) واصْبِرْ لحكم ربِّكَ فإنَّكَ بأعيُننا، وسَبِّح بحَمدِ ربِّكَ حينَ تَقومُ (٤٨) ومن اللَّيلِ فَسَبِّحهُ وإدْبارَ النُّجومِ (٤٩)».

والفاء فى قوله - سبحانه -: «فذرهم ...» واقعة فى جواب شرط مقدر. أى إذا كان حال هؤلاء المشركين كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - فاتركهم فى طغيانهم يعمهون ...

«حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون» أى: فدعهم يخوضوا ويلعبوا حتى يأتيهم اليوم الذى فيه يموتون ويهلكون.

قال القرطبى: قوله «يصعقون» بفتح الياء قراءة العامة. وقرأ ابن عامر وعاصم بضمها.

قال الفراء: هما لغتان: صعق وصعق مثل سعد وسعد. قال قتادة: يوم

يموتون . وقيل : هو يوم بدر . وقيل : يوم النفخة الأولى . وقيل يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب مايزيل عقولهم ... »[1] .

وقوله : « يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ... » بدل من قوله : « يومهم » . أى : اتركهم - أيها الرسول الكريم - ولا تكترث بهم ، وامض فى دعوتك إلى الحق ، فعما قريب سيأتيهم اليوم الذى لن ينفعهم فيه مكرهم السيء ، وكيدهم القبيح ...

« ولاهم ينصرون » فيه من عقابنا من أى جهة من الجهات ، أو من أى شخص من الأشخاص .

«وإن للذين ظلموا» وهم هؤلاء الكافرون « عذابا دون ذلك » أى : عذابا آخر دون ذلك العذاب الذى سينزل بهم عند موتهم وفى حياتهم ...

« ولكن أكثرهم لا يعلمون » لايعلمون ذلك ، لجهلهم بما سينتظرهم من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك التسلية الرقيقة لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ... » .

أى : واصبر - أيها الرسول الكريم - « لحكم ربك » إلى أن ننزل بهم عقابنا فى الوقت الذى نشاؤه ونختاره « فإنك بأعيننا » أى : فإنك بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وحمايتنا وحفظنا ...

« وسبح بحمد ربك حين تقوم » أى : وأكثر من تسبيح ربك وتنزيهه عن كل مالا يليق به ، حين تقوم من منامك ، أو من مجلسك ، أو حين تقوم للصلاة ...

« ومن الليل فسبحه » أى : ومن الليل فأكثر من تسبيح ربك « وإدبار

(١) تفسير القرطبى ج ١٧ ص ٧٧ .

النجوم ، أى : وأكثر من تسبيحه - تعالى - وقت إدبار النجوم وغروبها ، وذلك فى أواخر الليل .

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، بالإكثار من التسبيح له - عز وجل - فى كل الأوقات ، لأن هذا التسبيح يجلو عن النفس همومها وأحزانها ...

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الطور » نسأل الله - تعالى ، أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة - مدينة نصر	كتبه الراجى عفو ربه
مساء الثلاثاء ١٦/٥/١٤٠٦ هـ	محمد سيد طنطاوى
٢٥/٢/١٩٨٦ م	عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سُورَةِ النَّجْمِ

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « النجم » من السور المكية الخالصة، وعدد آياتها ثنتان وستون آية في المصحف الكوفي، وإحدى وستون في غيره، وكان نزولها بعد سورة «الإخلاص»، فهي تعتبر من أوائل ما نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم - من قرآن، إذ لم يسبقها في النزول سوى ثنتين وعشرين سورة، أما ترتيبها في المصحف، فهي السورة الثالثة والخمسون.

٢ - ويبدو أنها سميت بهذا الاسم منذ عهد النبوة ...

قال الآلوسي: سورة « والنجم ». وتسمى - أيضا - سورة النجم - بدون واو -. وهي مكية على الاطلاق. وفي الاتقان: استثنى منها: «الذين يجتنبون كبائر الاثم .... إلى آخر الآية .... وهي - كما أخرج ابن مردويه - عن ابن مسعود قال: أول سورة أعلن النبي - صلى الله عليه وسلم - بقراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون.

وأخرج البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، عنه قال: أول سورة أنزلت فيها سجدة سورة « والنجم »، فسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وسجد الناس كلهم إلا رجلا رأيته يأخذ كفا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا، وهو أمية بن خلف ...

وذكر أبو حيان أن سبب نزولها، قول المشركين: إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - يختلق القرآن ... »[1].

---

(١) راجع تفسير الآلوسي جـ ٢٧ ص ٤٤

٣ — وقد افتتحت السورة الكريمة بقسم منه ـ سبحانه ـ بالنجم ، على صدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه ، ثم وصف ـ سبحانه ـ جبريل ـ عليه السلام ـ وهو أمين الوحى ، بصفات تدل على قوته وشدته، وعلى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رآه على هيئته التى خلقه الله عليها .

قال ـ تعالى ـ : والنجم إذا هوى . ماضل صاحبكم وماغوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . . . .

٤ . ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك إلى الحديث عن الآلهة المزعومة فبينت أن هذه الآلهة إنما هى أسماء أطلقها الجاهلون عليها ، دون أن يكون لها أدنى نصيب من الصحة ، وأن العبادة إنما تكون لله ـ تعالى ـ وحده .

قال ـ سبحانه ـ : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . . .

٥ ثم أرشد الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الطريق الحكيم الذى يجب عليه أن يسلكه فى دعوته ، وسلاه عما لحقه من المشركين من أذى ، فقال ـ سبحانه ـ : « فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى . . . .

٦ — وبعد أن ساق ـ سبحانه ـ جانباً من مظاهر رحمته بعباده « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، أتبع ذلك ببيان مظاهر عدله فى خلقه ، وقدرته على كل شىء ، وساق مايشهد لذلك من أخبار الغابرين المكذبين الذين لايخفى حالهم على المشركين المعاصرين للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنذر هؤلاء المشركين بسوء المصير ، إذا لم يعودوا إلى الحق ، ويكفوا عن جحودهم وعنادهم . . . .

قال ـ تعالى ـ : هذا نذير من النذر الأولى . أزفت الآزفة . ليس لها من دون الله كاشفة . أفمن هذا الحديث تعجبون . وتضحكون ولاتبكون . وأنتم سامدون . فاسجدوا لله واعبدوا .

٧ ــ هذا ، والمتأمل فى هذه السورة الكريمة يراها بجانب إقامتها الأدلة الساطعة على وحدانية الله ـ تعالى ــ ، وعلى صدق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه ـ يراها بجانب ذلك قد سافت ماساقت من براهين واضحة، ومن توجيهات حكيمة .... بأسلوب بليغ أخاذ، له لفظه المنتقى، ومعناه السديد، وتراكيبه الموزونة وزنا بديعا ... مما يشهد بأن هذا القرآن من عند الله ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه أختلافا كثيرا .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعل القرآن ربيع حياتنا ، وأنس نفوسنا، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ؟

دولة قطر ـ الدوحة	د . محمد سيد طنطاوى
مساء السبت ٢٠/٦/١٤٠٦هـ	عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
١ /٣/١٩٨٦م	جامعة الأزهر

التفسير

قال الله — تعالى — والنَّجم إذَا هَوى (١) ما ضَلَّ صاحِبُكُم ما غَوَى (٢) وما يَنطِقُ عَنِ الهَوى (٣) إنْ هُو إلاَّ وَحيٌ يوحَى (٤) علَّمهُ شدِيد القُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فاستَوى (٦) وهُو بالأفقِ الأعْلى (٧) ثمَّ دنَا فتَدلَّى (٨) فكانَ قابَ قَوسَين أَو أَدْنَى (٩) فأوْحى إلى عبدِهِ ما أَوْحَى (١٠) ما كذَبَ الفؤَادُ ما رَأَى (١١) أفتمارُونَه عَلَى ما يرَى (١٢) ولقَدْ رآه نَزْلَةً أُخرَى (١٣) عِندَ سِدْرَة المُنتهى (١٤) عِندَهاَ جَنَّةُ المَأْوى (١٥) إذْ يَغْشَى السِّدرَة ما يَغْشَى (١٦) ما زَاغَ البَصرُ » .

افتتح الله ـ تعالى ـ هذه السورة بهذا القسم العظيم، للدلالة على صدق رسوله ـ صلى الله عليه ، سلم ـ ، وللرد على أولئك المشركين الجاهلين ، الذين زعموا أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد اختلق القرآن الكريم .

والنجم : هو الكوكب الذي يبدو للناظرين ، لامعا فى جو السماء ليلا .

والمراد به هنا : جنسه ، أي : ما يشمل كل نجم بازغ فى السماء ، فأل فيه للجنس .

وقيل أل فيه للعهد والمراد به نجم مخصوص هو : الشعرى ، وهو نجم كان معروفا عند العرب . وقد جاء الحديث عنه فى آخر السورة ، فى قوله ـ تعالى ـ : « وأنه هو رب الشعرى » . قالوا : وكانت قبيلة خزاعة تعبده .

وقيل المراد به : الثريا ، فإنه من النجوم المشهورة عند العرب . . .

وقيل : المراد به هنا : المقدار النازل من القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وجمعه نجوم ، وقد فسره بعضهم بذلك فى قوله - تعالى - : « فلا أقسم بمواقع النجوم .... » .

ومعنى « هوى » : سقط وغرب . يقال هوى الشيء يهوى - بكسر الواو - هويا - بضم الهاء وفتحها - إذا سقط من أعلى إلى أسفل ..

قال الآلوسى : وأظهر الأقوال ، القول بأن المراد بالنجم ، جنس النجم المعروف ، فإن أصله اسم جنس لكل كوكب . وعلى القول بالتعيين ، فالأظهر القول بأنه الثريا . ووراء هذين القولين، القول بأن المراد به: المقدار النازل من القرآن ... »[1]

وقوله - سبحانه - : « ماضل صاحبكم وماغوى . ومايبطق عن الهوى » . جواب القسم .

و « ما » نافية . و « ضل » من الضلال ، والمراد به هنا : عدم الاهتداء إلى الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

و « غوى » من الغى ، وهو الجهل الناشىء عن اعتقاد فاسد ، وهو ضد الرشد .

و « الهوى » الميل مع شهوات النفس ، دون التقيد بما يقتضيه الحق ، أو العقل السليم .

والمعنى : وحق النجم الذى ترونه بأعينكم - أيها المشركون - عند غروبه وأفوله ، وعند رجمنا به للشياطين ... إن محمدا - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسلناه إليكم « شاهدا ومبشرا ونذيرا » ، ماضل عن طريق الحق فى أقواله وأفعاله ، وماكان رأيه مجانبا للصواب فى أمر من الأمور ،

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ٤٥ .

ومإينطق بنطق صادر عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما ينطق بما نوحيه إليه من قرآن كريم ، ومن قول حكيم . ومن توجيه سديد .

وقد أقسم - سبحانه - بالنجم عند غروبه، الإشعار بأن هذا المخلوق العظيم مسخر لإرادة الله - تعالى - وقدرته، فهو مع لمعانه وظهوره فى السماء - لا يتأبى عن الغروب والأفوال ، إذا ما أراد الله - تعالى - له ذلك، ولا يصلح أن يكون إلها ، لأنه خاضع لإرادة خالقه .

ولقد حكى - سبحانه - عن نبيه إبراهيم أنه حين « جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين » .

قال بعض العلماء : والوجه أن يكون قوله : « إذا هوى » بدل اشتمال من النجم ، لأن المراد من النجم أحواله الدالة على قدرة خالقه ومصرفه ، ومن أعظم أحواله ، حال هويه وسقوطه ، ويكون « إذا » اسم زمان مجردا عن معنى الظرفية ، فى محل جر بحرف القسم ... »(1) .

وقال - سبحانه - « صاحبكم » للإشارة إلى ملازمته - صلى الله عليه وسلم - لهم ، طوال أربعين سنة قبل البعثة ، وأنهم فى تلك المدة الطويلة لم يشاهدوا منه إلا الصدق ، والأمانة ، والعقل الراجح ، والقول السديد ... وأنهم لم يخف عليهم حاله ، بل كانوا مصاحبين له ، ومطلعين على سلوكه بينهم، فقولهم بعد بعثته -صلى الله عليه وسلم- إنه ساحر أو مجنون ... هو نوع من كذبهم البين، وجهلهم المطبق ....

وقوله : « إن هو إلا وحى يوحى » استئناف بيانى مؤكد لما قبله .

والضمير (هو) يعود إلى المنطوق به ، المفهوم من قوله - تعالى - (وما ينطق عن الهوى) .

---

(1) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٧ ص ٩٠ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

أى : إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يصدر نطقه فيما يأتيكم به عن هوى نفسه ورأيه ، وإنما الذى ينطق به ، هو وحى من الله - تعالى - أوحاه إليه على سبيل الحقيقة التى لا يحوم حولها شك أو ريب .

ومتعلق « يوحى » محذوف للعلم به . أى : ماهذا الذى ينطق به إلا وحى أوحاه - سبحانه - إلى نبيكم - صلى الله عليه وسلم - .

قال الإمام ابن كثير : قوله « إن هو إلا وحى يوحى » أى : إنما يقول ما أمر بتبليغه إلى الناس كاملا موفورا من غير زيادة ولا نقصان . . . . فعن عبد الله بن عمر قال : كنت أكتب كل شىء أسمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أريد حفظه ، فنهتنى قريش فقالوا : إنك تكتب كل شىء تسمعه من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - بشر يتكلم فى الغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، فذكرت ذلك له فقال : « اكتب فو الذى نفسى بيده ، ماخرج منى إلا الحق » .

وعن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا أقول إلا حقا » . فقال بعض أصحابه : فإنك تداعبنا يارسول الله ؟ قال : « إنى لا أقول إلا حقا »[1] .

وقال صاحب الكشاف : ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ويجاب بأن الله - تعالى - إذا سوغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى »[2] .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من صفات جبريل - عليه السلام - الذى ينزل بالقرآن على النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : « علمه شديد القوى » .

---

(1) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٧

(2) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٨

أى: علم النبى - صلى الله عليه وسلم - القرآن، ملك من ملائكتنا الكرام، وهو جبريل - عليه السلام - الذى أعطيناه قوة شديدة، استطاع بها أن ينفذ ما كلفناه بتنفيذه .

والضمير المنصوب فى « علمه » هو المفعول الأول ، والثانى محذوف أى : القرآن ، لأن علم تتعدى إلى مفعولين .

وقوله : « شـــديد القوى » : صفة لموصوف محذوف . أى : ملك شديد القوى .

قالوا : وقد بلغ من شدة قوته ، أنه اقتلع قرى قوم لوط - عليه السلام - ثم رفعها إلى السماء ، ثم قلبها ، بأن جعل أعلاها أسفلها ....

وقوله - تعالى - : « ذو مرة فاستوى » صفة أخرى من صفات جبريل - عليه السلام - .

والمرة - بكسر الميم - تطلق على قوة الذات ، وحصافة العقل ورجاحته ، مأخوذ من امررت الحبل ، إذا أحكمت فتله . . .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله تعالى - : « إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين . . . »

وقوله : « فاستوى » أى : فاستقام على صورة ذاته الحقيقية ، دون الصورة الآدمية التى كان ينزل بها على الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

« وهو بالأفق العليا » أى : وهو - أى جبريل - بالجهة العليا من السماء المقابلة للناظر إليها « ثم دنا فتدلى » أى : ثم قرب جبريل - عليه السلام - من النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فتدلى ، أى : فانخفض من أعلى إلى أسفل ...

وأصل التدلى : أن ينزل الشىء من طبقته إلى ما تحتها ، حتى لكأنه معلق فى الهواء ، ومنه قولهم : تدلت الثمرة إذا صارت معلقة فى الهواء من أعلى إلى أسفل .

ثم صور - سبحانه شدة - قرب جبريل من النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « فكان قاب قوسين أو أدنى » والقاب : المقدار المعين . وقيل : هو ما بين وتر القوس ومقبضها ...

والقوس : آلة معروفة عند العرب ، يشد بها وتر من جلد ، وتستعمل في الرمى بالسهام .

وكان من عادة العرب في الجاهلية ، أنهم إذا تحالفوا ، يخرجون قوسين ، ويلصقون إحداهما بالأخرى ، فيكون قاب إحداهما ملاصقا للاخر ، حتى لكأنهما قاب واحد ، ثم ينزعونهما معا ويرمون بهما سهما واحداً ، فيكون ذلك ، دليلا على التحالف التام ، والرضا الكامل ...

والمعنى : أن جبريل - عليه السلام - بعد أن كان بالجهة العليا من السماء ، ثم قرب من النبي - صلى الله عليه - وسلم - ، ثم زاد في القرب ، حتى كان على مقدار مسافة قوسين منه - صلى الله عليه وسلم - ، أو أقرب من ذلك .

قال صاحب الكشاف : قوله : « قاب قوسين » مقدار قوسين ، مقدار قوسين عربيتين ، والقاب والقيب ، والقاد والقيد ، المقدار ... وقد جاء التقدير بالقوس ، والرمح ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة ، والشبر .... ومنه الحديث الشريف : لقاب قوس أحدكم من الجنة ، وموضع قده ، خير من الدنيا وما فيها ، والقد : السوط ...

فإن قلت : كيف تقدير قوله « فكان قاب قوسين » ؟ قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين ، فحذفت هذه المضافات ... »(1)

و « أو » في قوله « أو أدنى » للشك ، ولكن هذا الشك من جهة العباد ، أى : أن الرائى إذا رأى هذا الوضع قال : هو قاب قوسين أو أقرب من ذلك . ويصح أن تكون بمعنى (بل) .

---

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢٩ .

قال الجمل : قوله : (أو أدنى) هذه الآية كقوله : « وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » . لأن المعنى : فكان - جبريل - بأحد هذين المقدارين فى رأى الرائى . أى : لتقارب ما بينهما يشك الرائى فى ذلك .

وأدنى : أفعل تفضيل . والمفضل عليه محذوف . أى : أو أدنى من قاب قوسين .

ويصح أن تكون بمعنى بل ، أى : بل هو أدنى ... »[1] .

وقوله : « فأوحى إلى عبده ما أوحى » أى : فأوحى جبريل - عليه السلام - إلى عبد الله ورسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - ما أوحى من قرآن كريم ، ومن هدى حكيم .

فالضمير فى قوله : « فأوحى » يعود إلى جبريل ، لأن الحديث فى شأنه ، وإيحاؤه إنما هو بأمر الله — تعالى — ومشيئته ويرى بعضهم أنه يعود إلى الله - تعالى - .

قال الآلوسى : قوله : « فأوحى » أى : جبريل - إلى عبده » أى : عبد الله ، وهو النبى - صلى الله عليه وسلم - ، والإضمار - ولم يجر له - تعالى - ذكر - لكونه فى غاية الظهور ، ومثله كثير فى الكلام ، ومنه : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ... »

« ما أوحى » أى : الذى أوحاه ، والضمير المستتر لجبريل - أيضا - ...

وقيل : الضمير المستتر لله - تعالى - . أى : أوحى جبريل إلى عبد الله ، ما أوحاه الله إلى جبريل .

والأول مروى عن الحسن ، وهو الأحسن .

وقيل : ضمير أوحى الأول والثانى لله - تعالى - والمراد بالعبد جبريل - عليه السلام - وهو كما ترى »[2] .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ح ٤ ص ٢٢٥

(٢) تفسير الآلوسى ح ٢٧ ص ٤٩

وأبهم - سبحانه - ما أوحاه، لتفخيم شأنه، وإعلاء قدره، حتى لكأنه لا تحيط به عبارة، ولا يحده الوصف، وشبيه بهذا التعبير قوله - تعالى - : «فأتبعهم فرعون بجنوده، فغشيهم من اليم ما غشيهم ...»(1)

وعبر - سبحانه - عن رسوله - صلى الله عليه وسلم - بعبده، وأضافه إليه، للتشريف والتكريم، ولبيان أنه عبد من عباده - تعالى - الذين اصطفاهم لحمل رسالته، وتبليغ ما أوحاه إليه.

وقوله: «ما كذب الفؤاد ما رأى» رد على المشركين، وتكذيب لهم، فيما زعموه من أن الرسول - صلى الله عليه وسلم لم يتلق الوحي عن جبريل، ولم يشاهده.

واللام في قوله «الفؤاد» عوض عن المضاف إليه، والفؤاد: العقل أو القلب، ومنه قوله - تعالى - «وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به ...»(2).

وقراءة الجمهور «كذب» بفتح الذال مع التخفيف. وقرأ ابن عامر بفتحها مع التشديد. و«ما» موصولة، والعائد محذوف.

أي: ما كذب فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - وما أنكر، الذي رآه ببصره من صورة جبريل - عليه السلام - لأنه لم يكن يجهله، بل كان معروفا لديه، وصاحب الوحي إليه، فهو - صلى الله عليه وسلم - عرفه بقلبه، وتأكدت هذه المعرفة برؤيته له بعينيه.

فالكذب هنا: بمعنى الإنكار والتردد والشك في صحة ما يراه.

قال صاحب الكشاف: قوله: «ما كذب الفؤاد ما رأى» أي: ما كذب فؤاد النبي - صلى الله عليه وسلم - ما رآه ببصره من صورة جبريل - عليه السلام - .

---

(1) سورة طه. الآية ٧٨
(2) سورة القصص الآية ١٠

أي : ماقال فؤاده لما رآه لم أعرفك ، ولو قال ذلك - على سبيل الفرض - لكان كاذبا لأنه عرفه . يعني أنه رآه بعينه ، وعرفه بقلبه، ولم يشك في أن ما رآه حق .

وقرىء « ما كذب » - بالتشديد - ، أي : صدقه ولم يشك أنه جبريل بصورته »[1] .

ثم وبخ - سبحانه - المشركين على تكذيبهم للنبي - صلى الله عليه وسلم - فيما يخبرهم عنه من شئون الوحي ، فقال : « أفتمارونه على ما يرى » .

والمماراة : المجادلة والملاحاة بالباطل . يقال : مارَى فلان فلانا مماراة ومِراءً ، إذا جادله ، مأخوذ من مرَى الناقة يمريها، إذا مسح ضرعها ليستدر لبنها ، ويأخذه كاملا فشبه الجدال بذلك ، لأن كل واحد من المتجادلين يمري ما عند صاحبه ، أي : يسعى لاستخراج كل ما عنده ، حتى يقيم الحجة عليه .

وعدى الفعل بعلى لتضمنه معنى المغالبة .

أي: أفتجادلون نبينا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فيما رآه بعينيه ، وتجادلونه في شيء هو تحقق منه بعقله وبصره وهو ملاقاته ورؤيته لأمين وحينا جبريل - عليه السلام - ؟ إن مجادلتكم له في ذلك ، هي من قبيل التعنت الواضح ، والجهل الفاضح ، لأنكم كذبتموه وجادلتموه في شيء هو قد رآه وتحقق منه . وأنتم تعلمون أنه صادق أمين .

فالمقصود بالاستفهام تبكيتهم وتجهيلهم على جدالهم بالباطل .

هذا . وقد ذكر العلماء ، أن هذه الآيات، تشير إلى رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لجبريل، على الهيئة التي خلقه الله - تعالى - عليها، فقد كان جبريل يأتي النبي - صلى الله عليه وسلم - في صورة آدمي ، فسأله أن يريه نفسه على صورته التي خلق عليها، فأراه نفسه مرتين . مرة في الأرض وهي التي تشير إليها هذه الآيات ، ومرة في السماء ، وهي التي تشير إليها الآيات التالية .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٢٩

وقد توسع الإمام ابن كثير فى ذكر الأحاديث التى وردت فى ذلك. فقال ما ملخصه :

عن عبدالله بن مسعود ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم ير جبريل فى صورته إلا مرتين ، أما واحدة فإنه سأله أن يراه فى صورته ، فسد الأفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد .... »(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ولقد رآه نزلة أخرى . . . » إشارة إلى المرة الثانية التى رأى فيها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل على هيئته التى خلقه الله ـ تعالى ـ عليها ، وكان ذلك فى ليلة الإسراء والمعراج .

أى : والله لقد رأى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل فى صورته التى خلق عليها ، حالة كونه نازلا من السماء نزلة أخرى .

وقد جاء الإخبار عن هذه الرؤية بصيغة مؤكدة بلام القسم وبقد ... للرد على المشركين الذين أنكروا ذلك ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول لهم : لئن كنتم قد أنكرتم هذه الرؤية فى الأرض ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يره فى الأرض فقط ، بل رآه رؤية أعظم من ذلك ، وهى رؤيته له فى السماء ، حين كان مصاحبا له فى رحلته ليلة الإسراء والمعراج .

قال الآلوسى : « ولقد رآه نزلة أخرى » أى : رأى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جبريل فى صورته التى خلقه الله عليه « نزلة أخرى » أى : مرة أخرى وهى فعلة من النزول ، أقيمت مقام المدة ، ونصبت نصبها على الظرفية ، لأن أصل المرة مصدر مرّ يمر ، ولشدة اتصال الفعل بالزمان يعبر به عنه .

ولم يقل مرة بدل نزلة ليفيد أن الرؤية فى هذه المرة ، كانت بنزول ودنو ، كالرؤيه فى المرة الأولى ، الدال عليها ما مر .....

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٤٧

والمراد من الجملة القسمية ، نفى الريبة والشك عن المرة الأخيرة ، وكانت ليلة الإسراء[١] .

وقوله : « عند سدرة المنتهى » بيان المكان الذى تمت عنـــده الرؤية الثانية .

والسدرة فى الأصل : تطلق على شجرة النبق . وهو ثمر معروف فى بلاد العرب .

والمنتهى : اسم مكان ، أو مصدر ميمى بمعنى الانتهاء . وإضافة السدرة إليه من باب إضافة الشىء إلى مكانه ، كما فى قولهم : أشجار البستان . أو من إضافة المحل إلى الحال ، كما فى قولك : كتاب الفقه أو النحو ...

وسمى هذا المكان بسدرة المنتهى ، لانتهاء علوم الخلائق عنده ، وماوراءه لايعلمه إلا الله - تعالى - :

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : لما أسرى برسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، انتهى به إلى سدرة المنتهى ، وهى فى السماء السابعة وإليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها . وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها »[٢] .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على شرف هذا المكان فقال : « عندها جنة المأوى » .

أى : عند سدرة المنتهى ، جنة المأوى . أى : الجنة التى تأوى وتسكن إليها أرواح المؤمنين الصادقين ، الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

ثم نوه - سبحانه - بمـا يحيط بذلك المكان من جلال وجمال لا تحيط

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٥٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٢ .

العبارة بوصفه فقال : « إذ يغشى السدرة ما يغشى » .

والظرف « إذ » فى موضع الحال من « سدرة المنتهى » ، لقصد الإشادة بما أحاط بذلك المكان من شرف وبهاء ... أو هو متعلق بقوله : « رآه » .

أى : « ولقد رأى محمد - صلى الله عليه وسلم - جبريل - عليه السلام - على هيئته التى خلقه الله عليها مرة أخرى ، عند ذلك المكان الجليل المسمى بسدرة المنتهى ، حالة كون هذا المكان ينزل به ما ينزل ، ويغشاه ما يغشاه من الفيوضات الربانية ، والأنوار القدسية ، والخيرات التى لا يحيط بها الوصف ...

فهذا الإبهام فى قوله « ما يغشى » المقصود به التهويل والتعظيم والتكثير ، لما يغشى هذا المكان من خيرات وبركات ...

وقوله - تعالى - : « ما زاغ البصر وما طغى » بيان لما كان عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - من ثبات واطمئنان عند رؤيته لما أذن الله - تعالى - له فى رؤيته .

والزيغ : هو الميل عن حدود الاستقامة . والطغيان : تجاوز الحدود المشروعة .

أى : ما مال بصر النبى - صلى الله عليه وسلم - عما أذن الله - تعالى - له فى رؤيته . وما تجاوزه إلى مالم يؤذن له فى رؤيته ، بل كان بصره - صلى الله عليه وسلم - منصبا على ما أبيح له النظر إليه .

فالمقصود من الآية الكريمة ، الثناء على النبى - صلى الله عليه وسلم - ، ووصفه بما هو أهله من أدب وطاعة لخالقه - عز وجل - .

قال ابن كثير : قوله : « مازاغ البصر وماطغى » قال ابن عباس : ماذهب

يمينا ولا شمالا ، وما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة فى الثبات والطاعة، فإنه ما فعـل إلا ما أمر به . ولا سأل فوق ما أعطى ، وما أحسن قول القائل :

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قـد رآه لتاها(١)

ثم عظم ـ سبحانه ـ من شأن ما أراه لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

والكلام جواب لقسم محذوف ، والآيات جمع آية ، والمراد بها العجائب التى أطلع الله ـ تعالى ـ عليها نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك الليلة ، وهى ليلة الإسراء والمعراج .

والكبرى : صفة لهذه الآيات ، وحذف المرئى : لتفخيم أمره وتعظيمه .

أى: والله لقد رأى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى تلك الليلة أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف، وقد أكرمناه برؤيتها ليزداد يقينا على يقينه ، وثباتا على ثباته ، وقوة على قوته فى تبليغ رسالتنا ، وحمل أمانتنا .

هذا ، وقد جرينا فى تفسيرنا لهذه الآيات على الرأى الذى سار عليه المحققون من العلماء وهو أن هذه الآيات تحكى رؤية النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبريل مرتين ، كما سبق أن بينا وأن الضمائر فى تلك الآيات منها ما يرجع إلى جبريل ، ومنها ما يرجع إلى الله ـ عز وجل ـ .

وقد أعدنا كل ضمير إلى مرجعه الذى نراه مناسبا للمقام . . .

فمثلا : الضمير المنصوب فى قوله ـ تعالى ـ : « ولقـد رآه نزلة أخرى » قلنا : إنه يعود إلى جبريل .

أى : أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ رأى جبريل على هيئته التى

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢٥٢ .

خلقه الله عليها مرة أخرى ، غير المرة الأولى التي كانت في أوائل بعثته - صلى الله عليه وسلم - .

ولكن بعض المفسرين يرون أن مرجع الضمير في هذه الآية وغيرها ، يعود إلى الله - تعالى - ، ويستدلون بذلك على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه .

وقد فصل القول في هذه المسألة الإمام الآلوسي فقال ما ملخصه : فالضمائر في « دنا وتدلى وأوحى . . . وكذا الضمير المنصوب في « رآه » لله - عز وجل - . . .

واستدل بذلك مثبتو رؤية النبي - صلى الله عليه وسلم - لله - عز وجل - كابن عباس وغيره . . .

وخالفت في ذلك عائشة - رضي الله عنها - ، فقد أخرج مسلم عن مسروق قال : كنت عند عائشة فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله - تعالى - الفرية .

قلت ماهن ؟ قالت : - من زعم أن محمدا يعلم الغيب فقد كذب ، ومن زعم أن محمدا كتم شيئا فقد كذب - ومن زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » فقلت : يا أم المؤمنين : ألم يقل الله - تعالى - : « ولقد رآه نزلة أخرى » ؟

فقالت : أنا أول من سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك فقال : لا ، إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها سوى هاتين المرتين . رأيته منهبطا من السماء سادا ما بين السماء إلى الأرض » .

ثم قال الآلوسي : ولا يخفى أن جواب الرسول - صلى الله عليه وسلم - على عائشة ، ظاهر في أن الضمير المنصوب في « رآه » ليس راجعا إليه - تعالى - ، بل إلى جبريل - عليه السلام . . . »[1] .

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ج ٢٧ ص ٥٢ . وابن كثير ج ٤ ص ٢٤٨ وما بعدها .

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ترد على المشركين مزاعمهم، بأبلغ أسلوب، وأقوى بيان، وتثبت أن هذا القرآن، قد بلغه الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن جبريل - عليه السلام- دون أن يزيد فيه شيئا، أو ينقص منه شيئا، وأنه -سبحانه- قد أعطى نبيه - صلى الله عليه وسلم - من المعجزات، ومن الخيرات والبركات ... مالم يعط غيره .

* * *

وبعد هذا التصوير البديع لما كان عليه النبى - صلى الله عليه وسلم - من حق واضح، ومن تكريم عظيم، ومن طاعة تامة لخالقه عز وجل - بعد كل ذلك أخذت السورة الكريمة، فى تصوير ما عليه المشركون من باطل وجهل وفى تبكيتهم على عبادتهم لأصنام لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها ... فقال - تعالى - :

« أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى (٢١) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى (٢٢) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى (٢٣) أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّى (٢٤) فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَى (٢٥) وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّمَوَاتِ لاَ تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى (٢٦) إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَى (٢٧) وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨) » .

والهمزة فى قوله : « أفرأيتم » للانكار والتهكم . والفاء لترتيب الرؤية على ما سبق ذكره من صفات جليلة لله ـــ تعالى ـــ تدل على وحدانيته ، وكمال قدرته ، ومن ثناء على النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وعلى جبريل ـــ عليه السلام ـ والرؤية هنا علمية ومفعولها الثانى محذوف ، لدلالة قوله ـ سبحانه ـ « ألكم الذكر وله الأنثى » عليه .

و « اللات » إسم لصنم كان لثقيف بالطائف . قال الشاعر :

وفرت ثقيف إلى « لاتها » بمنقلب الخائب الخاسر

وكان هذا الصنم على هيئة صخرة مربعة ، قد بنوا عليه بناء، ونقشوا عليه نقوشا . وكانت قريش وجمهور العرب ، يعظمونه ويعبدونه ...

وكأنهم قد سموه بهذا الإسم ، على سبيل الاشتقاق من إسم الله ـ تعالى ـ فقالوا « اللات » قصدا للتأنيث ...

و « العزى » : فُعلَى من العز . وهى إسم لصنم ، وقيل لشجرة حولها بناء وأستار وكانت ، بمكان يقال له نخلة ؛ بين مكة والطائف ؛ وكانت قريش تعظمها ، كما قال أبو سفيان يوم أحُد لنا العزى ولا عزى لكم .

فقال ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قولوا له : « الله مولانا ولا مولى لكم »

ولعلهم قد سموها بذلك ، أخذا من لفظ العزيز ، أو من لفظ العز ، فهى تأنيث الأعز ، كالفضلى والأفضل .

وأما « مناة » فكانت صخرة ضخمة ، بمكان يقال له المشلل ، بين مكة والمدينة . وكانت قبيلة خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتهم يعظمونها ، ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

قالوا : وسميت بهذا الاسم ، لأن دماء الذبائح كانت تُمنَى عندها ، أى : تراق وتسكب .

والمعنى : لقد ذكرنا لكم — أيها المشركون — ما يدل على وحدانيتنا ، وكمال قدرتنا ، وسمو منزلة نبينا — صلى الله عليه وسلم — ... فأخبرونى بعد ذلك ما شأن هذه الأصنام التى لا تضر ولا تنفع ، كاللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، إنها أشياء فى غاية الحقارة والعجز ، فكيف سويتم بينها وبين الخالق — عز وجل — فى العبادة ، وكيف أبحتم لأنفسكم تعظيمها ، وزعمتم أنها بنات الله ...؟

فالمقصود بالاستفهام التعجيب من أحوالهم ، والتجهيل لعقولهم .

ويصح أن تكون الرؤية فى قوله — سبحانه — « أفرأيتم » بصرية ، فلا تحتاج إلا لمفعول واحد .

أى : أنظروا بأعينكم إلى تلك الأصنام ، التى من أشهرها : اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، أترونها تملك الدفاع عن نفسها فضلا عن غيرها ؟ إنها لا تملك شيئا ، فكيف عظمتموها مع حقارتها وعجزها ؟

والاستفهام — أيضا — للتهكم بهم ، والتعجيب من تفكيرهم السقيم .

قال الآلوسى : والظاهر أن « الثالثة الأخرى » صفتان لمناة . وهما على ما قيل للتأكيد ..

وقال بعض الأجلة : الثالثة للتأكيد . و « الأخرى » للذم بأنها متأخرة فى الرتبة ، وضيعة المقدار ...

والكلام خطاب لعبدة هذه المذكورات ، وقد كانوا مع عبادتهم لها يقولون : إن الملائكة — عليهم السلام — وتلك المعبودات الباطلة ، بنات الله - تعالى - عن ذلك علوا كبيرا فقيل لهم توبيخا وتبكيتا : « أفرأيتم اللات والعزى ... » الخ (١)

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ٥٦

وقوله - سبحانه - : « ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذا قسمة ضيزى » توبيخ آخر لهم على جهلهم ، وبيان لسبب التوبيخ والتهكم . . .

ولفظ « ضيزى » بمعنى جائرة وظالمة . يقال ضاز فلان فى حكمه ، إذا جار وظلم ، ولم يراع القسط فى آخر أقواله . ويقال : ضاز فلان فلانا حقه ، إذا بخسه ونقصه . .

قال الجمل ما ملخصه : قرأ الجمهور « ضيزى » من ضازه يضيزه إذا جار عليه ، فمعنى « ضيزى » جائرة . وعلى هذا فتحتمل وجهين : أحدهما أن تكون صفة على « فعلى » - بضم الفاء - ، وإنما كسرت الفاء لتصح الياء كبيض - جمع أبيض - . . .

وثانيهما : أن تكون من ضأزه بالهمز كقراءة ابن كثير ، إلا أن الهمزة قد خففت . . . ومعنى ضأزه يضأزه : نقصه . . . »(1)

أى : أجعلتم لله - تعالى - البنات ، وجعلتم لأنفسكم البنين ، مع تفضيلكم للبنين على البنات ، ومع إعترافكم بأن الله - تعالى - هو الخالق لكم ولكل شىء .

إن فعلكم هذا لهو فى غاية الجور والظلم ، لأنكم نسبتم إلى الله - تعالى - وهو خالقكم ما إستنكفتم من نسبته إلى أنفسكم . . .

فأنت ترى أنه - سبحانه - لم يكتف بوصفهم بالكفر ، بل أضاف إلى ذلك وصفهم بالجور والحمق وإنطماس البصيرة .

وجملة : « تلك إذا قسمة ضيزى » تعليل للإنكار والتوبيخ المستفاد من الاستفهام فى قوله : « ألكم الذكر وله الأنثى » .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله : « ألكم . . . » لإفادة التخصيص والإشارة بتلك تعود إلى القسمة المفهومة من قوله : « ألكم الذكر وله الأنثى »

---

(1) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٣٠

و « إذا » فى قوله : « تلك إذا ... » حرف جواب . أى : إن كان الأمر كما زعمتم ، فقسمتكم إذاً قسمة جائرة ظالمة .

ثم بين لهم - سبحانه - وجه الحق فى هـذه الأصنام فقال : « إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان . . . »

أى : ما هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله ، أو توهمتم أنها تشفع لكم عنده - تعالى - ، ما هى إلا أسماء محضة ، ليس فيها شىء أصلا من صفات الألوهية ، وأنتم وآباؤكم سميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ، دون أن يكون معكم على هذه التسمية شىء من الحجة أو الدليل أو البرهان ...

فالضمير « هى » يعود إلى اللات والعزى ومناة وغيرها من الآلهة الباطلة

والمراد بقوله : « أسماء » : أنها ليس لها من الألوهية التى أثبتوها لها سوى إسمها ، وأما معناها وحقيقتها فهى أبعد ما تكون عن ذلك . . .

وجملة « سميتموها » صفة للأسماء ، والهاء هى المفعول الثانى ، والمفعول الأول محذوف . والتقدير : إن هى إلا أسماء سميتموها الأصنام ، أى : سميتم بها الأصنام .

والمراد بالسلطان : الحجة والدليل . والمراد بالانزال : الاخبار بأنها آلهة و « من » مزيدة لتوكيد عدم الانزال على سبيل القطع والبت .

أى : ما أخبر الله - تعالى - عنها بأنها آلهة ، بأى لون من ألوان الإخبار ، ولا توجد حجة من الحجج - حتى ولو كانت واهية تشير إلى ألوهيتها . .

ثم يواصل - سبحانه - خطابهم بعد ذلك ، ويذرهم فى أوهامهم يعمهون ، ويلتفت بالحـديث عنهم حتى كأنهم لا وجود لهم ، فيقول : إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .... »

أى : ما يتبع هؤلاء الجاهلون فى عبادتهم لتلك الآلهة الباطلة . إلا الظنون

الكاذبة ، وإلا ماتشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء ، من تقليد للآباء بدون تفكر أو تدبر ...

فالمراد بالظن هنا : الظن الباطل الذى يقوم على الاعتقاد الفاسد ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون »

والتعريف فى قوله ـ سبحانه ـ : « وما تهوى الأنفس » عوض عن المضاف اليه . و « ما » موصولة والعائد محذوف . أى : والذى تهواه أنفسهم التى إستحوذ عليها الشيطان ...

وجملة : « ولقد جاءهم من ربهم الهدى » حالية من فاعل « يتبعون »، وجىء بها لزيادة التعجيب من حالهم .

أى : هم مايتبعون إلا الظنون وما تهواه أنفسهم المحجوبة عن الحق ، والحال أنه قد جاء اليهم ، ووصل إلى مسامعهم من ربهم ، ما يهديهم إلى الصواب لو كانوا يعقلون .

وأكد ـ سبحانه ـ هذه الجملة بلام القسم وقد ، لتأكد الخبر ، ولزيادة التعجب من أحوالهم التى بلغت الغاية فى الغرابة ..

والتعبير بقوله : « جاءهم » يشعر بأن الحق قد وصل اليهم بدون عناء منهم ، ولكنهم مع ذلك رفضوه وأعرضوا عنه .

والتعريف فى لفظ « الهدى » يدل على كماله وسموه . أى : ولقد جاءهم من ربهم الهدى الكامل الذى ينتهى بمن يتبعه إلى الفوز والسعادة .

والمراد به : ماجاء به النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قرآن كريم ، ومن سنة مطهرة ...

ثم بين ـ سبحانه ـ أن شهوات النفس ومطالبها وأمنياتها لاتتحقق إلا فى الاطار الذى يريده الله ـ تعالى ـ لها ، فقال : « أم للإنسان ما تمنى . فلله الآخرة والأولى » .

والاستفهام هنا - أيضا - للانكار ؛ ولإبطال إتباعهم للظنون ولما تهواه أنفسهم ..

أى : إن هؤلاء قد إتبعوا فى ضلالهم وكفرهم الظنون والأوهام ، وما تشتهيه قلوبهم من حب للرياسة ، ومن تقليد للآباء ، ومن تطلع إلى أن هذه الأصنام ستشفع لهم عند الله - تعالى - ...

مع ان وقائع الحياة وشواهدها التى يرونها بأعينهم ، تدل دلالة واضحة ، على أنه ليس كل ما يتمناه الإنسان يدركه ، وليس كل ما يريده يتحقق له ... لأن كل شىء فى هذه الحياة مرهون بإرادته ومشيئته - سبحانه - ، وهو - عز وجل - صاحب الدار الآخرة ، وصاحب الدار الأولى وهى دار الدنيا ولا يقع فيهما إلا ما يريده ...

فالمقصود من الآيتين الكريمتين ، نفى ما كان يتمناه أولئك المشركون من شفاعة أصنامهم لهم يوم القيامة ، كما حكى عنهم - سبحانه - ذلك فى قوله : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ... »

ونفى ما كانت تتطلع اليه نفوس بعضهم ، من نزول القرآن عليه ، أو من إختصاصه بالنبوة .

فقد حكى - سبحانه - عنهم قولهم : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

كما أن المقصود بها كذلك ، ترويض النفس البشرية على عدم الجرى وراء ظنونها وأهوائها ، بل عليها أن تتمسك بالحق، وأن تعتصم بطاعة الله - تعالى - وان تباشر الأسباب التى شرعها - سبحانه - ، ثم بعد ذلك تترك النتائج له يسيرها كيف يشاء ، فإن له الآخرة والأولى .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور فى قوله : « أم للانسان ما تمنى » لإفادة أن هذا التمنى هو محط الإنكار ، وأن الانسان العاقل هو الذى لا يجرى وراء أمنياته ، وإنما هو الذى يسعى إلى تحقيق ما أمره الله - تعالى - به من تكاليف

وقدم - سبحانه - الآخرة على الأولى، لأنها الأهم، إذ نعيمها هو الخالد الباقى، أما شهوات الدنيا وملذاتها، فهى مهما كثرت، زائلة فانية.

ثم بين - سبحانه - أن الملائكة - مع سمو منزلتهم، وشدة حرصهم على طاعة الله - تعالى -، لا يملكون الشفاعة لأحد إلا بإذنه - عز وجل - فقال: «وكم من ملك فى السموات، لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى».

و «كم» هنا خبرية بمعنى كثير، وهى فى موضع رفع على الابتداء، وخبرها جملة «لاتغنى شفاعتهم ...» وهى وإن كانت مفردة لفظا، إلا أنها فى معنى الجمع ...

أى: وكثير من الملائكة المقربين لدينا فى السموات العلا، لاتغنى شفاعتهم عندنا شيئا من الأشياء. إلا من بعد أن يأذن الله - تعالى - لهم فيها، لمن يشاء أن يشفعوا له، ويرضى - سبحانه - عن هذا المشفوع له.

فالآية الكريمة من قبيل ضرب المثل للمشركين، الذين توهموا أن أصنامهم ستشفع لهم، وكأنه - سبحانه - يقول لهم: إذا كان الملائكة - مع سمو منزلتهم عندنا لايشفعون إلا بإذننا، ولمن نرضى عنه ... فكيف وصل بكم الجهل والحمق - أيها المشركون - إلى توهم أن أصنامكم - مع خستها وحقارتها - ستشفع لكم عندنا؟

وقوله: «فى السموات» صفة «لملك» والمقصود بهذه الصفة التشريف والتكريم.

وقوله: «شيئا» التنكير فيه للتقليل والتعميم. وهو فى موقع المفعول المطلق.

أى: لاتغنى شفاعتهم شيئا من الإغناء حتى ولو كان فى غاية القلة ...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ... »[١].

وقوله - سبحانه - : « ولا يشفعون إلا لمن ارتضى . وهم من خشيته مشفقون »[٢].

وهذه الآيات الكريمة - بجانب تيئيسها للكافرين من الحصول على أية شفاعة ، لأنهم ليسوا ممن رضى الله عنهم - تدعو المؤمنين إلى مواصلة المحافظة على أداء حقوقه - سبحانه - ، لينالوا رضاه عنهم يوم القيامة ، وليكونوا أهلا للحصول على الشفاعة التي يبغونها .

ثم عادت السورة إلى ذم الكافرين الذين وصفوا الملائكة بصفات لا تليق بهم . فقال - تعالى - : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ... » وما فيها من حساب وجزاء ، وثواب وعقاب ...

« ليسمون الملائكة تسمية الأنثى » أي : ليصفون الملائكة بوصف الإناث فيقولون : الملائكة بنات الله ، كما قال - تعالى - : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون »[٣].

ولفظ « الملائكة » هنا في معنى استغراق كل فرد . أي : ليسمون كل واحد منهم ويصفونه بصفة الأنوثة .

وقوله - سبحانه - : « وما لهم به من علم ، إن يتبعون إلا الظن ... » رد عليهم فيما قالوه ، وتجهيل لهم فيما زعموه ... والجملة حال من ضمير « ليسمون » .

---

(١) سورة سبأ . الآية ٢٣ .
(٢) سورة الأنبياء . الآية ٢٨ .
(٣) سورة الزخرف . الآية ١٩ .

أى : إنهم ليصفون الملائكة بالأنوثة ، والحال أنهم لا علم لهم بتكوين هؤلاء الملائكة ، أو بصفتهم . . . وإنما هم يتبعون الظن الباطل فى أقوالهم وأحكامهم . . .

« وإن الظن لا يغنى من الحق شيئا » أى : وإن الظن الباطل ، والاعتقاد الخاطىء ، لا يغنى فى معرفة الحق شيئاً ، حتى ولو كان هذا الشىء قليلا ، لأن العقائد السليمة ، لا تبنى على الظنون والأوهام ، وإنما تبنى على الحقائق الراسخة والعلوم الثابتة ،

وأظهر - سبحانه - لفظ الظن هنا ، مع تقدم ذكره ، لتكون الجملة مستقلة بنفسها ، ولتكون - أيضا - بمثابة المثل الذى يقال فى الموضع الذى يناسبه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد وبخت المشركين على شركهم بأسلوب منطقى سليم ، حيث ساقت لهم الحقائق فى أسلوب يغلب عليه طابع الموازنة والمقارنة ، والاستشهاد بالواقع ، ووضع أيديهم على أماكن الدواء، لو كانوا ممن يريدونه ، ويبحثون عنه .

* * *

وبعد هذا البيان الحكيم الذى يحق الحق ، ويبطل الباطل ، أمر الله - تعالى - نبيه -صلى الله عليه وسلم- أن يمضى فى طريقه الذى رسمه - سبحانه - له ، وأن يترك حساب هؤلاء الضالين لله - تعالى - الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، والذى يعلم السر وأخفى ، والذى رحمته وسعت كل شىء . . . فقال - تعالى - :

« فأعرِضْ عمَّن تولَّى عَن ذِكرِنَا ، ولم يُرِدْ إلا الحياةَ الدُّنيا ، ذلكَ مَبلَغُهُم من العِلم ، إنَّ ربَّكَ هوَ أعلَمُ بمَنْ ضَلَّ عن سَبيلِهِ ، وهوَ أعلَمُ

بِمَنِ اهتَدَى (٣٠) ولله ما فى السَّموات وما فى الأرضِ ، ليَجزِىَ الذينَ أساؤا بما عملوا ، ويَجْزِىَ الذينَ أحْسَنُوا بالْحسنَى (٣١) الذينَ يَجْتنِبُونَ كبائرَ الإثم والفَواحشَ إلا اللَّمَمَ ، إنَّ رَبَّكَ واسِعُ المَغفِرَةِ ، هوَ أعلَمُ بِكُمْ إذْ أنشأكُم مِنَ الأرضِ ، وإذْ أنتم أجِنَّةٌ فى بُطونِ أمَّهاتكُم فلاَ تُزكُّوا أنفُسَكُم ، هوَ أعلمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) » .

والفاء فى قـــوله : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ... » للإفصاح ...

وأصل الإعراض : لفت الوجه عن الشىء ، لأن الكاره لشىء يعرض بصفحة خده عنه .

والمراد به هنا : ترك هؤلاء المشركين ، وعدم الحرص على إيمانهم ، بعد أن وصلتهم دعوة الحق ...

أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك - أيها الرسول الكريم - من أن هؤلاء المشركين ، ما يتبعون فى عقائدهم إلا الظن الباطل ، وإلا ما تشتهيه أنفسهم ..

فاترك مجادلتهم ، ولا تهتم بهم ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك . . . فإنهم قوم قد أصروا على عنادهم . وعلى الإدبار عن وحينا وقرآننا الذى أنزلناه إليك ، ولم يريدوا من حياتهم إلا التشبع من زينة الحياة الدنيا ، ومن شهواتها ومتعها ...

ومن كان كذلك فلن تستطيع أن تهديه ، لأنه آثر الغى على الرشد ، والضلالة على الهداية . وجىء بالاسم الظاهر فى مقـــام الإضمار ، فقيل :

«فأعرض عمن تولى عن ذكرنا، ولم يقل : فأعرض عنهم.. لبيان ما تؤذن به صلة الموصول من علة الأمر بالإعراض عنهم ، وهى أنهم قوم أعرضوا عن الوحى ، ولم يريدوا ســـوى متع دنياهم ، أما مايتعلق بالآخرة فهم فى غفلة عنه .

وقوله : «ذلك مبلغهم من العلم» تسلية له - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه منهم ، وتحقير لهم ولأفكارهم ، وتهوين من شأنهم ...

أى : ذلك الذى تراه منهم من التولى عن قرآننا ، ومن الحرص على عرض الحياة الدنيا ، منتهى علمهم ، ولا علم سواه .

فاسم الإشارة «ذلك» يعود إلى المفهوم من الكلام السابق وهو توليهم عن القرآن الكريم ، وتكالبهم على الحياة الدنيا .

وفى هذه الجملة المعترضة مافيها من تحقير أمرهم، ومن الازدراء بعلمهم الذى أدى بهم إلى إيثار الشر على الخير ، والعاجلة على الآجلة ...

وقوله - سبحانه - : «إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ...» تعليل للأمر بالإعراض عنهم ، والإهمال لشأنهم ، وتسلية أخرى له - صلى الله عليه وسلم - .

أى : امض - أيها الرسول الكريم - فى طريقك ، وأعرض عن هؤلاء الجاحدين المعاندين ، الذين أصروا على عدم الاستجابة لك ، بعد أن سلكت معهم كل وسيلة تهديهم إلى الحق ... إن ربك - أيها الرسول الكريم - هو أعلم بمن أصر من الناس على الضلال ، وهو - سبحانه - أعلم بمن شأنه الاهتداء ، والاستجابة للحق ..

والمراد بالعلم هنا لازمه ، أى : مايترتب عليه من ثواب وعقاب، ثواب المؤمنين ، وعقاب للكافرين .

وكرر - سبحانه - قوله « هو أعلم » ، لزيادة التقرير ، والمراد بمن ضل: من أصر على الضلال ، وبمن اهتدى : من عنده الاستعداد لقبول الحق والهداية .

وقدم - سبحانه - من ضل على من اهتدى هنا ، لأن الحديث السابق واللاحق معظمه عن المشركين ، الذين عبدوا من دون الله - تعالى - أصناما لاتضر ولا تنفع ...

وضمير الفصل فى قوله - سبحانه - « هو أعلم » لتأكيد هذا العلم ، وقصره عليه - سبحانه - قصرا حقيقيا ، إذ هو - تعالى - الذى يعلم دخائل النفوس ، وغيره لا يعلم .

ثم بين - سبحانه - مايدل على شمول ملكه لكل شىء فقال : « ولله مافى السموات ومافى الأرض ... » .

أى : ولله - تعالى - وحده جميع مافى السموات ومافى الأرض ، خلقا ، وملكا ، وتصرفا ...

واللام فى قوله : « ليجزى الذين أساؤا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » متعلقة بمحذوف يدل عليه الكلام السابق .

أى : فعل ما فعل - سبحانه - من خلقه للسموات والأرض وما فيهما ، ليجزى يوم القيامة ، الذين أساؤا فى أعمالهم بما يستحقونه من عقاب ، وليجزى الذين أحسنوا فى أعمالهم بما يستحقونه من ثواب .

وقوله : « بالحسنى » صفة لموصوف محذوف . أى : بالمثوبة الحسنى التى هى الجنة .

وقوله : « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ... » صفة لقوله : الذين أحسنوا ، أو بدل منه ...

والمراد بكبائر الإثم : الآثام الكبيرة ، والجرائم الشديدة ، التى يعظم العقاب عليها . كقتل النفس بغير حق ، وأكل أموال الناس بالباطل ..

والفواحش : جمع فاحشة ، وهى ماقبح من الأقوال والأفعال ، كالزنا ، وشرب الخمر ...

وعطفها على كبائر الإثم من باب عطف الخاص على العام ، لأنها أخص من الكبائر ، وأشد إثما .

واللمم : ماصغر من الذنوب ، وأصله ماقل قدره من كل شىء . يقال : ألم فلان بالمكان ، إذا قل مكثه فيه . وألم بالطعام : إذا قل أكله منه ...

وقيل : اللمم ، مقاربة الذنب دون الوقوع فيه ، من قولهم : ألم فلان بالشىء ، إذا قاربه ولم يخالطه ..

وجمهور العلماء على أن الاستثناء هنا منقطع ، وأن اللمم هو الذنوب الصغيرة ، كالنظرة الخائنة ولكن بدون مداومة ، والإكثار من الممازحة ...

قال الإمام ابن كثير ماملخصه : واللمم : صغائر الذنوب ، ومحقرات الأعمال ، وهذا استثناء منقطع ...

قال الإمام أحمد : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : مارأيت شيئا أشبه باللمم ، مما قال أبو هريرة ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تتمنى وتشتهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » ...

وعن مجاهد أنه قال فى هذه الآية « إلا اللمم » : الذى يلم بالذنب ثم يدعه ، كما قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك ما ألما[1]

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٥ .

ومن العلماء من يرى أن الاستثناء هنا متصل، وأن المراد باللمم ارتكاب شيء من الفواحش، ثم التوبة منها توبة صادقة نصوحا . . .

فمن الحسن أنه قال: «اللمم من الزنا أو السرقة أو شرب الخمر، ثم لا يعود . . .»[1].

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب، لأن العلماء قسموا الذنوب إلى كبائر وصغائر، وأن اللمم من النوع الثاني الذي لا يدخل تحت كبائر الإثم والفواحش.

قال صاحب الكشاف: واللمم: ماقل وصغر . . . والمراد به: الصغائر من الذنوب، ولا يخلو قوله - تعالى - «إلا اللمم» من أن يكون إستثناء منقطعا. . كأنه قيل: كبائر الإثم غير اللمم»[2].

وليس المقصود من قوله - تعالى -: «إلا اللمم» فتح الباب لارتكاب صغائر الذنوب، وإنما المقصود فتح باب التوبة، والحض على المبادرة بها، حتى لا ييأس مرتكب الصغائر من رحمة الله - تعالى -، وحتى لا يمضى قدما فى ارتكاب هذه الصغائر، إذ من المعروف أن ارتكاب الصغائر، قد يجر إلى ارتكاب الكبائر.

كذلك من المقصود بهذا الاستثناء أن لا يعامل مرتكب الصغائر، معاملة مرتكب الكبائر.

هذا، وقد أفاض الإمام الآلوسى فى الحديث عن الكبائر والصغائر، فقال: والآية عند الأكثرين دليل على أن المعاصى منها الكبائر، ومنها الصغائر . .

وأنكر جماعة من الأئمة هذا الانقسام، وقالوا: سائر المعاصى كبائر.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٦.

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٢.

ثم قال : واختلف القائلون بالفرق بين الكبائر والصغائر فى حد الكبيرة فقيل : هى كل مالحق صاحبها عليها بخصوصها وعيد شديد ، بنص كتاب أو سنة . . .

وقيل : كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ، ورقة الديانة .

واعتمد الواحدى أنه لا حد لها يحصرها ويعرفها العباد به ، وقد أخفى الله - تعالى - أمرها ، ليجتهدوا فى اجتناب المنهى عنه ، رجاء أن تجتنب الكبائر . . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « إن ربك واسع المغفرة . . . ، تعليل لاستثناء اللمم ، وتنبيه على أن إخراجه عن حكم المؤاخذة ، ليس لخلوه عن الذنب فى ذاته ، بل لسعة رحمة الله ومغفرته .

أى : إن ربك - أيها الرسول الكريم - واسع المغفرة والرحمة ، لعباده الذين وقعوا فيما نهاهم عنه - سبحانه - ، ثم تابوا إليه توبة صادقة نصوحا .

ثم بين - سبحانه - أن هذه الرحمة الواسعة، صادرة عن علم شامل للظواهر والبواطن ، فقال : « هو أعلم بكم ، إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم . . . » .

والظرف « إذ » متعلق بقوله « أعلم » . والأجنة : جمع جنين ، ويطلق على ما يكون بداخل الأرحام قبل خروجه منها .

وسمى بذلك ، لأنه يكون مستترا فى داخل الرحم ، كما قال - تعالى - : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . . . »(٢) .

أى : هو - سبحانه - أعلم بكم من وقت إنشائه إياكم من الأرض، ضمن

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ٦١ .
(٢) سورة الزمر الآية ٦ .

خلقه لأبيكم آدم، ومن وقت أن كنتم أجنة في بطون أمهاتكم، يعلم أطواركم فيها، ويرعاكم برحمته، إلى أن تنفصلوا عنها.

وقال - سبحانه - «في بطون أمهاتكم» مع أن الجنين لا يكون إلا في بطن أمه، للتذكير برعايته - تعالى - لهم، وهم في تلك الأطوار المختلفة من وقت العلوق إلى حين الولادة، وللحض على مداومة شكره وطاعته.

وقوله - تعالى -: «فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى» تحذير من التفاخر بالأعمال والأحساب والأنساب، لأنه - سبحانه - لا يخفى عليه شيء من أحوال الناس. والفاء للتفريع على ما تقدم.

أي: إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من عدم مؤاخذتي إياكم على اللمم، فإن ذلك بسبب سعة رحمتي. فلا تمدحوا أنفسكم بأنكم فعلتم كذا وكذا من الأفعال الحسنة، بل اشكروني على سعة رحمتي ومغفرتي، فإني أنا العليم بسائر أحوالكم، الخبير بالظواهر والبواطن للأتقياء والأشقياء.

قالوا: والآية نزلت في قوم من المؤمنين، كانوا يعملون أعمالا حسنة، ثم يتفاخرون بها.

قال صاحب الكشاف: قوله «فلا تزكوا أنفسكم...» أي: فلا تنسبوها إلى زكاء العمل، وزيادة الخير، وعمل الطاعات، أو إلى الزكاء والطهارة من المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها فقد علم الله الزكي منكم والتقي أولا وآخرا، قبل أن يخرجكم من صلب آدم، وقبل أن تخرجوا من بطون أمهاتكم.

وهذا إذا كان على سبيل الإعجاب أو الرياء، فأما من اعتقد أن ما عمله من العمل الصالح، من الله وبتوفيقه وتأييده، ولم يقصد به التمدح، لم يكن من المزكين لأنفسهم، لأن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر لله - تعالى - (١).

وقال الآلوسي: والمراد النهي عن تزكية السمعة أو المدح للدنيا، أو

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٢٣.

التزكية على سبيل القطع، وأما التزكية لإثبات الحقوق ونحوه - كالإخبار عن أحوال الناس بما يعلم منهم وجربوا فيه من ثقة وعدالة - فهى جائزة»[1].

* * *

وبعد هذا التوجيه الحكيم للنفوس البشرية، والبيان البديع لمظاهر رحمة الله - تعالى - بعباده بعد ذلك أخذت السورة فى الحديث مرة أخرى عن الكافرين، وفى الرد على شبهاتهم، وفى بيان مظاهر قدرته - تعالى - ... فقال - سبحانه -:

« أَفَرَأَيْتَ الذى تَوَلَّى (٣٣) وأَعْطَى قليلاً وأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فهو يرَى (٣٥) أمْ لم يُنَبَّأْ بما فى صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وإبراهيمَ الذى وَفَّى (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وأنْ ليسَ للإنسانِ إلاَّ ما سَعَى (٣٩) وأَنَّ سَعْيَهُ سوفَ يُرَى (٤٠) ثم يُجْزَاهُ الجزاءَ الأوْفَى (٤١) وأنَّ إلى ربِّكَ المُنتهى (٤٢) وأنه هوَ أضْحكَ وأبكَى (٤٣) وأنَّهُ هوَ أماتَ وَأَحْيا (٤٤) وأنَّه خلقَ الزَّوجينِ الذكرَ والأنثَى (٤٥) من نُطْفةٍ إذَا تُمنَى (٤٦) وأنَّ عليهِ النَّشأةَ الأخرَى(٤٧) وأنَّه هوَ أغنَى وأقنَى (٤٨) وأنَّه هوَ رَبُّ الشِّعْرَى(٤٩) وأنه أَهْلَكَ عاداً الأولَى (٥٠) وثمودَ فما أبْقَى (٥١) وقومَ نوحٍ مِنْ قبلُ إنَّهم كانوا همُ أظلَمَ وأطغَى (٥٢) والمؤتفِكَةَ أهوَى (٥٣) فغَشَّاها ما غَشَّى (٥٤) فبأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تتمارَى (٥٥) هـذَا نذيرٌ منَ النُّذُرِ الأولَى (٥٦) أَزِفَتِ الآزِفَةُ (٥٧) ليسَ لهاَ من دُونِ اللهِ كاشِفَةٌ (٥٨) أفمِنْ هـذَا الحديثِ تعجَبونَ (٥٩) وتَضحكونَ ولاَ تبكونَ (٦٠) وأنتم سامِدُونَ (٦١) فاسجُدوا للهِ واعبدُوا (٦٢) » .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٤ .

وقد ذكر المفسرون روايات فى سبب نزول قوله - تعالى -: أفرأيت الذى الذى تولى . وأعطى قليلا وأكدى ... ، منها : أنها نزلت فى الوليد بن المغيرة، كان قد سمع قراءة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وجلس إليه ووعظه فتهم أن يدخل فى الإسلام . فعايره رجل من المشركين ، وقال له : أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دينك ، واثبت عليه ، وأنا أتحمل عنك كل شىء تخافه فى الآخرة، لكن على أن تعطينى كذا من المال .

فوافقه الوليد على ذلك . ورجع عما هم به من الدخول فى الإسلام، وأعطى بعض المال لذلك الرجل ، ثم أمسك عن الباقى ، وبخل به ، فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات ... »[1] .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أفرأيت ... » للتعجيب من حال هذا الإنسان ، الذى أعرض عن الحق ، بعد أن عرف الطريق إليه ،

أى : أفرأيت - أيها الرسول الكريم - حالا أعجب من حال هذا الإنسان الذى تولى عن الهدى ، ونبذه وراء ظهره ، بعد أن قارب الدخول فيه .

« وأعطى قليلا » من العطاء « وأكدى » أى ثم قطع هذا العطاء .

قال صاحب الكشاف : « وأكدى » أى : وقطع عطيته وأمسك . وأصله إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كديه ، وهى صلابة كالصخر فيمسك عن عن الحفر ... »[2] .

والمراد به هنا : ذمه بالبخل والشح ، بعد ذمه بالتولى عن الحق .

« أعنده علم الغيب فهو يرى » أى : أعند هذا الإنسان الذى أعرض عن الرشد ، علم الغيوب المستترة عن الأعين والنفوس ، فهو وحده يراها، ويطلع

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٥ .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٣ .

عليها ويعلم أن في إمكان الغير أن يحمل عنه أوزاره وذنوبه يوم القيامة ؟

كلا ، إنه لا علم عنده بشيء من ذلك ، وإنما هو قد ارتد على أعقابه ، لانطماس بصيرته ، بعد أن قارب الرشد والصواب .

فالاستفهام فى قوله : « أعنده علم الغيب ... » للنفى والإنكار .

وقدم - سبحانه - الظرف « عنده » وهو مسند ، على « علم الغيب » وهو مسند إليه ، لإفادة الاهتمام بهذه العندية التى من أعجب العجب ادعاؤها ، وللإشعار بأنه بعيد عنها بعد الأرض عن السماء .

والفاء فى قوله : « فهو يرى » للسببية ، ومفعول (يرى) محذوف .

أى : فهو بسبب معرفته للعوالم الغيبية ، يبصر رفع العذاب عنه ، ويعلم أن غيره سيتكفل بافتدائه من هذا العذاب .

ثم وبخه - سبحانه - على جهالته وعدم فهمه فقال : (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى . أن لا تزر وازرة وزر أخرى ...)

و « أم » هنا للإضراب الانتقالى من ذمه على إعراضه وبخله ، إلى ذمه على جهله وحمقه . وصحف موسى : هى التوراة التى أنزلها - سبحانه - عليه .

وصحف إبراهيم : هى الصحف التى أوحى الله - تعالى - إليه بما فيها ، وقد ذكر سبحانه ذلك فى قوله تعالى : « إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى » .

وخصت صحف هذين النبيين الكريمين بالذكر ، لأنها كانت أشهر من غيرها عند العرب ، وكانوا يسألون أهل الكتاب من اليهود عما خفى عليهم من صحف موسى .

وقدم - سبحانه - هنا صحف موسى ، لاشتهارها بسعة الأحكام التى اشتملت عليها ، بالنسبة لما وصل إليهم من صحف إبراهيم .

وأما فى سورة الأعلى فقدمت صحف إبراهيم على صحف موسى ، لوقوعهما بدلا من الصحف الأولى ، وصحف إبراهيم أقدم من صحف موسى ، فكان الإتيان بهما على الترتيب الزمنى أنسب بالمقام .

وحذف - سبحانه - متعلق «وفّى» . ليتناول كل ما يجب الوفاء به كمحافظته على أداء حقوق الله - تعالى - ، واجتهاده فى تبليغ الرسالة التى كلفه - سبحانه - بتبليغها ، ووقوفه عند الأوامر التى أمره - تعالى - بها ، وعند النواهى التى نهاه عنها ...

و «أن» فى قوله - تعالى - : «أن لاتزر وازرة وزر أخرى» مخففة من من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، والجملة بدل من صحف موسى وإبراهيم :

وقوله «تزر» من الوزر بمعنى الحمل ... وقوله «وازرة» صفة لموصوف محذوف . أى : نفس وازرة .

والمعنى : إذا كان هذا الإنسان المتولى عن الحق ... جاهلا بكل ما يجب العلم به من شئون الدين ، فهلا يسأل العلماء عن صحف موسى وإبراهيم - عليهما السلام - ففيها أنه لاتحمل نفس آثمة حمل أخرى يوم القيامة .

قال الآلوسى : وقوله : «ألا تزر وازرة وزر أخرى» أى : أنه لاتحمل نفس من شأنها الحمل ، حمل نفس أخرى ... ولا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، ليتخلص الثانى من عقابه . ولا يقدح فى ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، فإن ذلك وزر الإضلال الذى هو وزره لا وزر غيره»(١) .

وقوله - تعالى - : «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ...» معطوف على ما قبله ، لبيان عدم إثابة الإنسان بعمل غيره ، إثر بيان عدم مؤاخذته بذنب سواه .

أى : كما أنه لاتحمل نفس آثمة حمل نفس أخرى ، فكذلك لايحصل الإنسان إلا على نتيجة عمله الصالح ، لا على نتيجة عمل غيره .

(١) تفسير الآلوسى ص ٢٧ ص ٦٦ .

فالمراد بالسعى فى الآية : السعى الصالح ، والعمل الطيب ، لأنه قد جاء فى مقابلة الحديث عن الأوزار والذنوب .

وقوله - تعالى - : «وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى» بيان لثمرة هذا السعى الصالح يوم القيامة .

أى : ليس للإنسان إلا ثمرة عمله الصالح بدون زيادة أو نقص ، وهذا العمل الصالح سوف يراه مسجلا أمامه فى صحف مكرمة ، وفى ميزان حسناته ، ثم يجازيه الله - تعالى - عليه الجزاء التام الكامل ، الذى لا نقص فيه ولا بخس .

وفى رؤية الإنسان لعمله الصالح يوم القيامة ، تشريف وتكريم له ، كما قال - تعالى - «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات . يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار . خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم»(١) .

هذا ، وقد توسع العلماء فى الجمع بين قوله - تعالى - : «وأن ليس للإنسان إلا ماسعى» وبين النصوص التى تفيد أن الإنسان قد ينتفع بعمل غيره، وهذه خلاصة لأقوالهم :

قال الإمام ابن كثير : ومن هذه الآية استنبط الشافعى ومن اتبعه ، أن أن القراءة لايصل إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم، ولهذا لم يندب إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمته . ولا حثهم عليه ، ولاأرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة ، ولو كان خيرا لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء .

فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع على وصولها ، ومنصوص من الشارع عليهما .

(١) سورة الحديد الآية ١٢

وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : من ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده ، أو علم ينتفع به » .

فهذه الثلاثة فى الحقيقة ، هى من سعيه وكده وعمله ... »[1] .

وقال الجمل فى حاشيته على الجلالين : واستشكل الحصر فى هذه الآية « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، بقوله - تعالى - فى آية أخرى : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان : ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ... » ، وبالأحاديث الواردة فى ذلك ، كحديث : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث .... » .

وأجيب : بأنها مخصوصة بقوم إبراهيم وموسى ، لأنها حكاية لما فى صحفهم وأما هذه الأمة فلها ما سعت هى، وماسعى لها غيرها ، لما صح من أن لكل نبى وصالح شفاعة ، وهو انتفاع بعمل الغير ، ومن تأمل النصوص وجد من انتفاع الإنسان بما لم يعمله ما لا يكاد يحصى . فلا يجوز أن تؤول الآية على على خلاف الكتاب والسنة وإجماع الأمة ، وحينئذ فالظاهر أن الآية عامة ، قد خصصت بأمور كثيرة ...

ثم قال الشيخ الجمل - رحمه الله - : وقال الشيخ تقى الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية : من اعتقد أن الإنسان لا ينتفع إلا بعمله ، فقد خرق الإجماع . وذلك باطل من وجوه كثيرة :

أحدها : أن الإنسان ينتفع بدعاء غيره ، وهو انتفاع بعمل الغير .

ثانيها : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - يشفع لأهل الموقف فى الحساب ثم لأهل الجنة فى دخولها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٨ :

ثالثها : أنه - صلى الله عليه وسلم - يشفع لأهل الكبائر فى الخروج من النار ، وهذا إنتفاع بسعى الغير .

رابعها : أن الملائكة يستغفرون ويدعون لمن فى الأرض ، وذلك منفعة بعمل الغير .

خامسها : أن الله - تعالى - يخرج من النار من لم يعمل خيرا قط - أى من المؤمنين - بمحض رحمته ، وهذا إنتفاع بغير عملهم .

سادسها : أن أولاد المؤمنين يدخلون الجنة بعمل آبائهم ، وذلك إنتفاع بمحض عمل الغير .

سابعها : قال الله - تعالى - فى قصة الغلامين اليتيمين : « وكان أبوهما صالحا ، فانتفعا بصلاح أبيهما ، وليس ذلك من سعيهما .

ثامنها : أن الميت ينتفع بالصدقة عنه ، وبالعتق ، بنص السنة والإجماع وهو من عمل الغير .

تاسعها : أن الحج المفروض يسقط عن الميت ، بحج وليه بنص السنة ، وهو إنتفاع بعمل الغير .

عاشرها : أن الحج المنذور أو الصوم المنذور ، يسقط عن الميت بعمل غيره ، وهو إنتفاع بعمل الغير .

حادى عشرها : المدين قد إمتنع - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة عليه حتى قضى دينه أبو قتادة ، وقضى دين الآخر على بن أبى طالب ، وإنتفع بصلاة النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وهو من عمل الغير .

ثانى عشرها : أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال لمن صلى وحده : « ألا رجل يتصدق على هذا فيصلى معه ، فقد حصل له فضل الجماعة بفعل الغير

ثالث عشرها : أن الانسان تبرأ ذمته من ديون الغير ، إذا قضاها عنه قاض ، وذلك إنتفاع بعمل الغير .

رابع عشرها : أن من عليه تبعات ومظالم ، إذا حلل منها سقطت عنه ، وهذا إنتفاع بعمل الغير .

خامس عشرها : أن الجار الصالح ينفع فى المحيا وفى الممات كما جاء فى الأثر وهذا إنتفاع بعمل الغير .

سادس عشرها : أن جليس أهل الذكر يرحم بهم ، وهو لم يكن معهم ، ولم يجلس لذلك بل لحاجة عرضت له ، والأعمال بالنيات ، فقد إنتفع بعمل غيره .

سابع عشرها : الصلاة على الميت ، والدعاء له فى الصلاة ، إنتفاع للميت بصلاة الحى عليه ، وهو عمل غيره .

ثامن عشرها : أن الجمعة تحصل بإجتماع العدد ، وكذا الجماعة بكثرة العدد ، وهو إنتفاع للبعض بالبعض .

تاسع عشرها : أن الله — تعالى — قال لنبيه : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وقال — تعالى — : « ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات . . . » فقد رفع الله — تعالى — العذاب عن بعض الناس ، بسبب بعض ، وذلك إنتفاع بعمل الغير .

عشروها : أن صدقة الفطر تجب على الصغير وغيره عن يمونه الرجل ، فإنه ينتفع بذلك من يخرج عنه ، ولا سعى له فيها .

ثم قال — رحمه الله — : ومن تأمل العلم وجد إنتفاع الإنسان بما لم يعمله مالا يكاد يحصى ، فكيف يجوز أن نتأول الآية الكريمة ، على خلاف صريح الكتاب والسنة ، وإجماع الأمة . . . » (١)

والخلاصة أن الآية الكريمة قد تكون من قبيل العام الذى قد خصص بأمور كثيرة ، كما سبق أن أشرنا ، وقد تكون مخصوصة بقوم ابراهيم وموسى — عليهما السلام — ، لأنها حكاية عما فى صحفهما ، أما الأمة الإسلامية فلها سعيها ، ولها ما سعى لها به غيرها ، وهذا من فضل الله ورحمته بهذه الأمة .

---

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٣٦

وقد قال بعض الصالحين فى معنى هذه الآية : ليس للانسان إلا ما سعى عدلا ، ولله - تعالى - أن يجزيه بالحسنة ألفا فضلا .

ولهذه المسألة تفاصيل أخرى فى كتب الفقه ، فليرجع إليها من شاء .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من مظاهر قدرته ورحمته ، فقال - تعالى - : « وأن إلى ربك المنتهى .... »

أى : وأن إلى ربك وحده - لا إلى غيره - إنتهاء الخلق ومرجعهم ومصيرهم فيجازى الذين أساؤا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

فقوله : « المنتهى » : مصدر بمعنى الإنتهاء ، والمراد بذلك مرجعهم إليه - تعالى - وحده . « وأنه هو أضحك وأبكى » أى : وأنه - سبحانه - هو الذى أوجد فى هذا الكون ما يؤدى إلى ضحك الإنسان وسروره تارة، وما يؤدى إلى حزنه وبكائه تارة أخرى . فبسبب ما يحيط بالانسان من مؤثرات ومن مشاعر مختلفة ... تارة يضحك ، وتارة يبكى .

وما أكثر هذه المؤثرات والأحوال والاعتبارات والدوافع .. فى حياة الإنسان .

فالآية الكريمة إنتقال من وجوب الاعتبار بأحوال الآخرة، إلى وجوب الاعتبار بأحوال الإنسان، وبما يحيط به من مؤثرات تارة تضحكه، وتارة تبكيه

وأسند - سبحانه - الفعلين اليه ، لأنه هو خالقهما، وهو الموجد لأسبابهما

وحذف - سبحانه - المفعول به لهما ، لأنهما هما المقصودان بالذات ، لدلالتهما على كمال قدرته - تعالى - أى : وأنه وحده - عز وجل - هو الذى أوجد فى الإنسان الضحك والبكاء ، فالفعلان منزلان منزلة الفعل اللازم .

وقدم - سبحانه - الضحك على البكاء . للاشعار بمزيد فضله ومنته على عباده .

وقوله : « وأنه هو أمات وأحيا » أى : وأنه - تعالى - بقدرته وحدها ، هو الذى أحيا من يريد إحياءه من مخلوقاته ، وأمات من يريد إماتته منهم .

وهذا رد على أولئك الجاهلين الذين أنكروا ذلك ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - : « ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر ... » .

وقوله - سبحانه - : وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى ... » .

وأصل النطفة : الماء الصافى ، أو القليل من الماء الذى يبقى فى الدلو أو القربة ، وجمعها نطف ونطافه . يقال : نطفت القربة ، إذا تقاطر ماؤها بقلة .

وقوله : « تمنى » أى : تتدفق فى رحم المرأة . يقال: أمنَى الرجل ومَنَى إذا خرج منه المنى .

أى : وأنه - تعالى - وحده ، هو الذى خلق الزوجين الكائنين من الذكر والأنثى ، من نطفة تتدفق من الرجل إلى رحم الأنثى ، فتلتقى ببويضة الأنثى ، فيكون منهما الإنسان - بإذن الله - .

كما قال - تعالى - : أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

وقوله - سبحانه - : « وأن عليه النشأة الأخرى » أى : وأن عليه وحده - سبحانه - الإحياء بعد الإماتة . والإعادة إلى الحياة مرة أخرى يوم البعث والنشور .

والنشأة: هى المرة من الإنشاء ، أى: الإيجاد والتكوين والخلق. والأخرى مؤنث الآخر . والمراد أنه - سبحانه - يوجد النشأة التى لا نشأة بعدها .

وقوله : « وأنه هو أغنى وأقنى » أى : وأنه - سبحانه - هو الذى أغنى

الناس بالأموال الكثيرة المؤثلة ، التى يقتنيها الناس ويحتفظون بها لأنفسهم ولمن بعدهم .

فقوله : « أقنى » من القنية بمعنى الإدخار للشىء ، والمحافظة عليه .

قال الآلوسى : قوله . « وأنه هو أغنى وأقنى » أى : وأعطى القنية . وهو ما يبقى ويدوم من الأموال ، ببقاء نفسه ، كالرياض والحيوان والبناء .

وأفرد - سبحانه - ذلك بالذكر مع دخوله فى « أغنى » ، لأن القُنْية أنفس الأموال وأشرفها ...

وإنما لم يذكر المفعول ، لأن القصد إلى الفعل نفسه ... »[1] .

وقوله : « وأنه هو رب الشعرى » أى : وأنه - سبحانه - هو رب ذلك الكوكب المضىء ، الذى يطلع بعد الجوزاء فى شدة الحر . ويسمى الشعرى اليمانية .

وخص هذا النجم بالذكر ، مع أنه - تعالى - هو رب كل شىء - لأن بعض العرب كانوا يعبدون هذا الكوكب ، فأخبرهم - سبحانه - بأن هذا الكوكب مربوب له - تعالى - وليس ربا - كما يزعمون .

قال القرطبى : واختلف فيمن كان نعبده ، فقال السدى : كانت تعبده حمير وخزاعة . وقال غيره : أول من عبده رجل يقال له أبو كبشة ، أحد أجداد النبى - صلى الله عليه وسلم - من جهة أمهاته ، ولذلك كان مشركو قريش يسمون النبى - صلى الله عليه وسلم - ابن أبى كبشة . حين دعاهم إلى ما يخالف دينهم ... »[2] .

وبعد هذه الجولة فى الأنفس والآفاق ، ساقت السورة جانبا من مصارع الغابرين ، فقال - تعالى - : « وأنه أهلك عادا الأولى . وثمود فى أبقى : وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى .... »

أى : وأنه - تعالى - هو الذى أهلك بقدرته قبيلة عاد الأولى ، وهم قوم هود - عليه السلام - .

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٩ (٢) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١١٩

وسميت قبيلة عاد بالأولى ، لتقدمها فى الزمان على قبيلة عاد الثانية ، التى هى قوم صالح ـ عليه السلام ـ ، وتسمى ـ أيضا ـ بثمود .

وقوله : « وثمود » معطوف على عاد . أى : وأنه أهلك ـ أيضا ـ قبيلة ثمود ، دون أن يبقى منهم أحدا .

وهلاك هاتين القبيلتين قد جاء فى آيات كثيرة منها قوله ـ تعـالى ـ : « كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » .

وقوله : « وقوم نوح من قبل ... » أى : وأهلك ـ أيضا ـ قوم نوح من قبل إهلاكه لعاد وثمود ...

« إنهم كانوا » أى : قوم . نوح « هم أظلم وأطغى » أى : هم كانوا أشد فى الظلم وفى الطغيان من عاد وثمود ، فقد آذوا نوحا ـ عليه السلام ـ أذى شديدا ، استمر صابرا عليه زمنا طويلا . وكان هلاكهم بالطوفان ، كما قال ـ تعالى ـ « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » .

وقدم قبيلتى عادا وثمود فى الذكر على قوم نوح ـ مع أن قوم نوح أسبق ـ لأن هاتين القبيلتين كانتا مشهورتين عند العرب أكثر ، وديارهم معروفة لهم .

والمراد بالمؤتفكات قوم لوط ـ عليه السلام ـ ، وسموا بذلك لأن قريتهم ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت رأسا على عقب . يقال : أفكه عن كذا يأفكه إذا قلبه وصرفه . ومنه الإفك ، لأنه قلب للحق عن وجهه الصحيح .

أى : وأهلك ـ سبحانه ـ القرى المؤتفكة بأهلها ، بأن أهوى بها جبريل ـ عليه السلام ـ إلى الأرض بعد أن رفعها إلى السماء « فغشاها ماغشى » أى : فأصابها ما أصابها من العذاب المهين ، والدمار الشامل ، كما قال ـ تعالى ـ : فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك ، وماهى من الظالمين ببعيد .

ويجوز أن يكون الضمير فى «فغشاها» يعود إلى جميع الأمم المذكورة، وأبهم - سبحانه - ماغشيهم من عذاب، للتهويل والتعميم.

وقوله - سبحانه -: «فبأى آلاء ربك تتمارى» تذكير بنعم الله - تعالى - بعد التحذير من نقمه.

أى: فبأى نعمة من نعم الله - تعالى - تتشكك أيها الإنسان.

والآلاء جمع إلى، وأى: اسم استفهام المقصود به التذكير بهذه النعم. وسمى - سبحانه - مامر فى آيات السورة نعما، مع أن فيها النعم والنقم، لأن فى النقم عظات للمتعظين، وعبرا للمعتبرين، فهى نعم بهذا الاعتبار.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذا الإنذار الشديد، فقال -تعالى-: هذا نذير من النذر الأولى، والنذير بمعنى المنذر، وهو من يخبر غيره بخبرفيه مضرة به، لكى يحذره.

أى: هذا الرسول الكريم، وما جاء به من قرآن حكيم. نذير لكم - أيها الناس - من جنس الإنذارات الأولى. التى أتى بها الأنبياء السابقون لأممهم، فاحذروا مخالفة رسولنا - صلى الله عليه وسلم -، لأن مخالفته تؤدى إلى هلاككم وخسرانكم.

فقوله - تعالى - «من النذر» على حذف مضاف. أى: من جنس النذر التى سبقت ...

«أزفت الآزفة» أى: قربت الساعة، ودنت القيامة. يقال: أزف السفر - كفرح - أزفا، إذا دنا وقرب. وأل فى الآزفة للعهد. وهى علم بالغلبة على الساعة.

«ليس لها» أى: الساعة «من دون الله كاشفة» أى: ليس لها أحد سوى الله - تعالى - يستطيع الإخبار عنها، والكشف عن علاماتها، والعلم بوقتها وبوقوعها ...

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « أفمن هذا الحديث تعجبون » للإنكار والتوبيخ .

أى : أفمن هذا القرآن وما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات ... تتعجبون ، وتنكرون كونه من عند الله ـ تعالى ـ .

« وتضحكون ولا تبكون » أى : وتضحكون ضحك استهزاء وتهكم منه وممن جاء به ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا تبكون خشية من الله ـ تعالى ـ ، ومن سماع ما اشتمل عليه القرآن من وعد وعيد .

« وأنتم سامدون » أى : وأنتم لاهون معرضون ـ يقال : سمد يسمد ـ كدخل ـ إذا اشتغل باللهو والإعراض عن الرشد :

أو المعنى : وأنتم رافعون رءوسكم تكبرا . يقال سمد سمودا ، إذا رفع رأسه تكبرا وغرورا ، وكل متكبر فهو سامد ، ومنه قولهم : بعير سامد فى سيره إذ رفع رأسه ، متبخترا فى مشيته :

وقيل السمود : الغناء بلغة حمير . ومنه قول بعضهم لجاريته : اسمدى لنا ، أى : غنى لنا .

أى : وأنتم سادرون فى غنائكم ولهوكم ، دون أن تكترثوا بزواجر القرآن الكريم .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فاسجدوا لله واعبدوا » إرشاد لهم إلى ما يجب عليهم . ونهى لهم عن الكفر والضلال .

فالفاء فى قوله ـ تعالى ـ : « فاسجدوا » لترتيب الأمر بالسجود ، على الإنذار بالعذاب الشديد إذا ما استمروا فى كفرهم ولهوهم .

والمراد بالسجود : الخضوع لله ـ تعالى ـ ، وإخلاص العبادة له ، ويندرج فيه سجود الصلاة ، وسجود التلاوة .

أى : اتركوا ما أنتم عليه من كفر وضلال ، وخصوا الله - تعالى - بالخضوع الكامل ، وبالعبادة التامة ، التى لاشرك فيها لأحد معه - سبحانه - .

قال الآلوسى : وهذه آية سجدة عند أكثر أهل العلم ، وقد سجد النبى - صلى الله عليه وسلم - عندها .

أخرج الشيخان . وأبو داود ، والنسائى عن ابن مسعود قال : « أول سورة أنزلت فيها سجدة ، سورة « النجم » فسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسجد الناس كلهم إلا رجلا » .

هذا ، وقد ذكر بعض المفسرين ، قصة الغرانيق . وملخصها أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قرأ سورة النجم ، فلما بلغ قوله - تعالى - أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى » .

وقد قال الإمام ابن كثير عند حديثه عن هذه القصة : « إنها من روايات وطرق كلها مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح »

وقد ذكرنا عند تفسيرنا لقوله - تعالى - : «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم . . . » :

ذكرنا ما يدل على بطلان هذه القصة من جهة النقل ومن جهة العقل(١) .

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الحج ٨١ .

وبعد ، فهذا تفسير لسورة « النجم » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده :

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

قطر - الدوحة كتبه الراجى عفو ربه

صباح السبت ١٤٠٦/٦/٢٧ محمد سيد طنطاوى

١٩٥٦/٣/٨

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة القمر

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

١ ـ سورة القمر : هى السورة الرابعة والخمسون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان بعد سورة الطارق، وقبل سورة « ص » .

ويبلغ عدد السور التى نزلت قبلها ، سبعا وثلاثين سورة .

ويغلب على الظن أن نزولها كان فى السنوات الأولى من بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال بعض العلماء : وكان نزولها فى حدود سنة خمس من الهجرة . ففى الصحيح أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : أنزل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة ، وإنى لجارية ألعب ، قوله ـ تعالى ـ : « بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر »(١) .

٢ ـ وتسمى هذه السورة بسورة القمر، وبسورة اقتربت الساعة، وتسمى بسورة اقتربت ، حكاية لأول كلمة افتتحت بها .

روى الإمام مسلم وأهل السنن عن أبى واقد الليثى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرأ فى العيد بسورتى « ق » و « اقتربت الساعة » .

وعدد آياتها : خمس وخمسون آية . وهى من السور المكية الخالصة ـ على الرأى الصحيح ـ ، وقيل : هى مكية إلا ثلاث آيات منها ، وهى قوله ـ تعالى ـ : « أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر » فإنها نزلت يوم بدر، وهذا القيل لا دليل له يعتمد عليه.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ٢٧ ص١٦٦ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

ويرده ماأخرجه ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : أنزل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بمكة قبل يوم بدر : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » وقال عمر بن الخطاب : قلت: يارسول الله أي جمع يهزم ؟ فلما كان يوم بدر، وانهزمت قريش ، نظرت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في آثارهم مصلتا بالسيف ، وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فكانت ليوم بدر .

وبذلك نرى أن هذا الحديث ، وحديث عائشة السابق ، يدلان على أن هذه الآيات مكية - أيضا - ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما قرأها في غزوة بدر على سبيل الاستشهاد بها .

٣ - والسورة الكريمة قد تحدثت في مطلعها عن اقتراب يوم القيامة ، وعن جحود المشركين للحق بعد إذ جاءهم ، وعما سيكونون عليه يوم القيامة من ندم وحسرة . قال - تعالى - : « اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ... » .

٤ - ثم تحدثت السورة الكريمة عن مصارع الغابرين ، فذكرت ماحل من هلاك ودمار ، بقوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط عليهم السلام - وماحل - أيضا - بفرعون وملئه من عقاب .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان مظاهر قدرته ، وبليغ حكمته ، ودقة نظامه في كونه ، وبشر المتقين بما يشرح صدورهم فقال - تعالى - : « إنا كل شيء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر . ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر . وكل شيء فعلوه في الزبر . وكل صغير وكبير مستطر . إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

• — والمتدبر فى السورة الكريمة يراها قد اهتمت بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن تعنت المشركين وعنادهم ، وعن سنن الله ـ تعالى ـ فى خلقه، التى من أبرز مظاهرها ، نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

د . محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

دولة قطر ـ الدوحة
صباح السبت ٢٧/٦/١٤٠٦ هـ
٨ /٣/١٩٨٦م

التفسير

قال الله - تعالى - : اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القمرُ (١) وإن يَرَوْا آيةً يُعرِضُوا ويقولُوا سِحْرٌ مُستَمِر (٢) وكذَّبوا واتَّبعُوا أهواءهُمْ وكلُّ أمرٍ مُستَقِرٌّ (٣) ولقَدْ جاءهُمْ من الأنباء ما فيه مُزدَجَرٌ (٤) حِكمَةٌ بالِغةٌ فما تُغنِ النُّذُر (٥) فتَولَّ عَنهُم يومَ يَدْعُ الدَّاعِ إلى شَيء نُكُر (٦) خُشَّعاً أَبصارُهُم يَخرجُونَ مِنَ الأجْداثِ كأنَّهم جَرادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إلى الدَّاعِ، يقولُ الكافِرُونَ هذا يومٌ عَسِر(٨) ».

افتتحت السورة الكريمة بهذا الافتتاح الذى يبعث فى النفوس الرهبة والخشية ، فهو يخبر عن قرب انقضاء الدنيا وزوالها .

إذ قوله - تعالى - : « اقتربت الساعة » أى : قرب وقت حلول الساعة ، ودنا زمان قيامها .

والساعة فى الأصل : اسم لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتحديدها بزمن معين اصطلاح عرفى ، وتطلق فى عرف الشرع على يوم القيامة .

وأطلق على يوم القيامة يوم الساعة ، لوقوعه بغتة ، أو لسرعة ما فيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى - .

وقد وردت أحاديث كثيرة ، تصرح بأن مامضى من الدنيا كثير بالنسبة لما بقى منها ومن هذه الأحاديث مارواه البزار عن أنس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطب أصحابه ذات يوم ، وقد كادت الشمس أن تغرب .. فقال والذى نفسى بيده مابقى من الدنيا فيما مضى منها ، إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وروى الشيخان عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : «بعثت أنا والساعة هكذا، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى»[1].

وشبيه بهذا الافتتاح قوله ـ تعالى ـ فى مطلع سورة الأنبياء : «اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ....» .

وقوله ـ سبحانه ـ فى افتتاح سورة النحل : «أتى أمر الله فلا تستعجلوه، سبحانه وتعالى عما يشركون» .

والمقصود من هذا الإفتتاح المتحدث عن قرب يوم القيامة ، تذكير الناس بأهوال هذا اليوم ، وحضهم على حسن الاستعداد لإستقباله . عن طريق الإيمان والعمل الصالح .

وقوله ـ تعالى ـ : «وانشق القمر» معطوف على ما قبله عطف جملة على جملة .

وقوله : «وانشق» من الانشقاق بمعنى الافتراق والانفصال .

أى : اقترب وقت قيام الساعة ، وانفصل وانفلق القمر بعضه عن بعض فلقتين . معجزة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . وكان ذلك بمكة قبل هجرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنحو خمس سنين ، وقد رأى هذا الانشقاق كثير من الناس ...

وقد ذكر المفسرون كثيرا من الأحاديث فى هذا الشأن ، وقد بلغت هذه الأحاديث مبلغ التواتر المعنوى ..

قال الإمام ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ـ أى : انشقاق القمر ـ ، فقد وقع فى زمان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦١ .

ومنها مارواه الشيخان عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي - صلى الله عليه وسلم - آية ، فانشق القمر بمكة مرتين ، فقال : « اقتربت الساعة وانشق القمر » .

وأخرج الإمام أحمد عن جبير بن مطعم عن أبيه قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فصار فلقتين : فلقة على هذا الجبل ، وفلقة على هذا الجبل . فقالوا : سحرنا محمد . فقالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .

وروى الشيخان عن ابن مسعود قال : انشق القمر على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شقتين، حتى نظروا إليه . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اشهدوا »(١) .

وقال الآلوسى - بعد أن ذكر عددا من الأحاديث فى هذا الشأن - : والأحاديث الصحيحة فى الانشقاق كثيرة : واختلف فى تواتره : فقيل : هو غير متواتر : وفى شرح المواقف أنه متواتر . وهو الذى اختاره العلامة السبكى ، فقد قال : الصحيح عندى أن انشقاق القمر متواتر ، منصوص عليه فى القرآن ، مروى فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتى ، لا يمترى فى تواتره .

وقد جاءت أحاديثه فى روايات صحيحة ، عن جماعة من الصحابة ، منهم على بن أبى طالب ، وأنس ، وابن مسعود . . . .

ثم قال - رحمه الله - بعد أن ذكر شبهات المنكرين لحادث الانشقاق - : والحاصل أنه ليس عند المنكر سوى الاستبعاد ، ولا يستطيع أن يأتى بدليل على الاستحالة الذاتية ولو انشق ، والاستبعاد فى مثل هذه المقامات قريب من الجنون ، عند من له عقل سليم . . . »(٢) .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦١

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ١٧ ص ٧٦

ثم بين - سبحانه - موقف هؤلاء المشركين من معجزاته - صلى الله عليه وسلم - فقال : « وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر » .

أي : وإن يرهؤلاء المشركون آية ومعجزة تدل على صدقك - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها جحودا وعنادا ، ويقولوا - على سبيل التكذيب لك - ماهذا الذى أتيتنا به يامحمد إلا سحر مستمر . أي : سحر دائم نعرفه عنك . وليس جديدا علينا منك .

قال صاحب الكشاف : «مستمر» أي : دائم مطرد . وكل شيء قد انقادت طريقته ، ودامت حاله ، قيل فيه قد استمر ، لأنهم لما رأوا تتابع المعجزات ، وترادف الآيات ، قالوا : « هذا سحر مستمر » .

وقيل : مستمر ، أي : قوى محكم - من المرة بمعنى القوة - ، وقيل هو من استمر الشيء إذا اشتدت مرارته . أي : مستبشع عندنا مر على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ الشيء المر . وقيل : مستمر : أي مار ذاهب زائل عما قريب - من قولهم : مر الشيء واستمر إذا ذهب - [1] .

ثم أخبر - سبحانه - عن حالهم فى الماضى ، بعد بيان حالهم فى المستقبل ، فقال - تعالى - : « وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر » .

أي : أن هؤلاء الجاحدين جمعوا كل الرذائل ، فهم إن يروا معجزة تشهد لك بالصدق - أيها الرسول الكريم - يعرضوا عنها ، ويصفوها بأنها سحر ، وهم فى ماضيهم كذبوا دعوتك ، واتبعوا أهواءهم الفاسدة ، ونفوسهم الأمارة بالسوء :

وجملة : «وكل أمر مستقر» معترضة ، وهى جارية مجرى المثل : أى : وكل أمر لا بد وأن يستقر إلى غاية ، وينتهى إلى نهاية ، وكذلك أمر هؤلاء الظالمين ، سينتهى إلى الخسران ، وأمر المؤمنين سينتهى إلى الفلاح .

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٣٦

وفى هذا الاعتراض تسلية وتبشير للنبى - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه بحسن العاقبة ، وتيئيس وإقناط لأولئك المشركين من زوال أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - كما كانوا يتمنون ويتوهمون .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون » .

ثم بين - سبحانه - أنهم قوم لا تتأثر قلوبهم بالمواعظ والنذر ، فقال : « ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

والأنباء : جمع نبأ وهو الخبر المشتمل على أمور هامة ، من شأنها أن يتأثر بها السامع .

ومزدجر : مصدر ميمى ، وأصله مزتجر ، فأبدلت تاء الافتعال دالا ، وأصله من الزجر ، بمعنى المنع والانتهار .

أى : ولقد جاء هؤلاء المشركين فى القرآن الكريم ، من الأنباء ، الهامة ومن أخبار الأمم البائدة ، مافيه إزدجار وانتهار لهم عن الارتكاس فى القبائح ، وعن الإصرار على الفسوق والكفر والعصيان .

و «ما» فى قوله - سبحانه - « مافيه مزدجر » الموصولة ، وهى فاعل لقوله «جاءهم» ، وقوله : « من الأنباء » فى موضع الحال منها ..

وقوله - تعالى - « حكمة بالغة » بدل من «ما» ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

والحكمة : العلم النافع الذى يترتب عليه تحرى الصواب فى القول والفعل .

أى : هذا الذى جاءهم من أنباء الماضين ، ومن أخبار السابقين فيه ما فيه من الحكم البليغة ، والعظات الواضحة التى لا خلل فيها ولا اضطراب .

و «ما» فى قوله : « فما تغنى النذر » نافية ، والنذر : جمع نذير بمعنى منذر .

أى : لقد جاء إلى هؤلاء المشركين من الأخبار ومن الحكم البليغة . مايزجرهم عن ارتكاب الشرور ، ومافيه إنذارهم بسوء العاقبة إذا ما استمروا فى غيهم ولكن كل ذلك لاغناء فيه ، ولا نفع من ورائه ، لهؤلاء الجاحدين المعاندين الذين عمو اوصموا ...

ويصح أن تكون «ما» هنا، للاستفهام الإنكاري. أي: ما الذي تغنيه النذر بالنسبة لهؤلاء المصرين على الكفر؟ إنها لاتغنى شيئا ماداموا لم يفتحوا قلوبهم للحق.

والفاء في قوله - تعالى -: «فتولَّ عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر» للتفريع على ماتقدم، وهى تفيد السببية.

وقوله: «يوم يدع الداع» ظرف لقوله: «يخرجون من الأجداث»، والداع: هو إسرافيل - عليه السلام - الذي ينفخ في الصور بأمر الله - تعالى -.

والمراد بالنكر: الأمر الفظيع الهائل، الذي لم تألفه النفوس، ولم تر له مثيلا في الشدة.

أي: إذا كان هذا حالهم من عدم إغناء النذر فيهم، فتول عنهم - أيها الرسول الكريم -، ولا تبال بهم، واتركهم في طغيانهم يعمهون، وانتظر عليهم إلى اليوم الذي يدعوهم فيه الداعى، إلى أمر فظيع عظيم، تنكره النفوس، لعدم عهدهم بمثله، وهو يوم البعث والنشور.

قال الجمل: وقوله: «يوم يدع الداع» منصوب إما باذكر مضمرا... وإما بيخرجون....

وحذفت الواو من «يدع» لفظا لالتقاء الساكنين، ورسما تبعا للفظ، وحذفت الياء من «الداع» للتخفيف... والداع هو إسرافيل...»[1]

وقوله: «خشعا أبصارهم» حال من الفاعل في قوله «يخرجون...»؛ أي: ذليلة أبصارهم بحيث تنظر إلى أمامها من أهوال نظرة البائس الذليل، الذي لا يستطيع أن يحقق نظره فيما ينظر إليه.

قال القرطبي: الخشوع في البصر: الخضوع والذلة. وأضاف - سبحانه - الخشوع إلى الأبصار، لأن أثر العز والذل يتبين في ناظر الإنسان.

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٢٤٢

قال - تعالى - : « أبصارها خاشعة » وقال - تعالى - : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي . . . » .

ويقال : خشع واختشع إذا ذل . وخشع ببصره إذا غضه . . .

وقرأ حمزة والكسائي خاشعا أبصارهم . . . »(١) .

وقوله : « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » أي : يخرجون من القبور . وعيونهم ذليلة من شدة الهول ، وأجسادهم تملأ الآفاق ، حتى لكأنهم جراد منتشر ، قد سد الجهات . واستتر بعضه ببعض .

فالمقصود بالجملة الكريمة تشبيههم بالجراد في الكثرة والتموج ، والاكتظاظ والانتشار في الأقطار وهم يسرعون الخطا نحو أرض المحشر .

وقوله : « مهطعين إلى الداع » أي : مسرعين نحوه ، وقد مدوا أعناقهم إلى الإمام . مأخوذ من الإهطاع ، وهو الإسراع في المشي مع مد العنق إلى الامام . يقال : أهطع فلان في جريه ، إذا أسرع فيه مع الخوف ، فهو مهطع .

« يقول الكافرون ، وقد رأوا من أهوال يوم القيامة مايدهشهم : « هذا يوم عسر » أي : يقولون هذا يوم صعب شديد ، بسبب مايعاينون من أهواله ويتوقعون فيه من سوء العاقبة .

والمتأمل في هذه الآيات الكريمة ، يراها قد وصفت أحوال الكافرين في هذا اليوم ، وصفا تقشعر من هوله الأبدان . . .

- فهم أذلاء ضعفاء ينظرون إلى مايحيط بهم نظرة الخائف المفتضح ، وهم

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٧ ص ١٢٩ .

فى حالة خروجهم من قبورهم كأنهم الجراد المنتشر ، فى الكثرة والتموج والاضطراب ، وهم يسرعون نحو الداعى بذعر دون أن يلووا على شىء ، ودون أن يكون فى إمكانهم المخالفة أو التأخر عن دعوته .

ثم هم بعد كل ذلك يقولون على سبيل التحسر والتفجع : هذا يوم شديد الصعوبة والعسر .

° ° °

« كَذَّبَتْ قَبلَهُم قومُ نوحٍ فكَذَّبُوا عبدَنَا وقالُوا مَجْنُونٌ وازْدُجِر (٩) فدَعَا ربَّه أنِّى مغلوبٌ فانتَصِرْ (١٠) ففتَحنَا أبوابَ السَّماءِ بماءٍ مُنهَمِرٍ (١١) وفجَّرنَا الأرْضَ عُيونًا فالتقَى الماءُ عَلَى أمرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وحَمَلْنَاهُ عَلَى ذاتِ ألواحٍ ودُسُرٍ (١٣) تجرِى بأعْيُنِنَا جزاءً لمنْ كانَ كُفِرَ (١٤) ولقَدْ تركناهَا آيةً فهَل مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فكيفَ كانَ عذَابِى ونُذُرِ (١٦) ولقَد يسَّرنَا القرآنَ للذِّكْرِ فهَلْ مِنْ مُدَّكِر(١٧) » .

وقصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه ، قد وردت بصورة أكثر تفصيلا فى سور أخرى ، كسورة هود ، والمؤمنون ، ونوح ، والأعراف .

ولكنها جاءت هنا ـ كغيرها من القصص ـ بصورة حاسمة قاصمة ، تزلزل النفوس ، وتفتح العيون على مصارع الغابرين ، لكى يعتبر الكافرون ، وينتهوا عن كفرهم .

قال الآلوسى : قوله : « كذبت قبلهم قوم نوح ... » شروع فى تعداد

بعض ماذكر من الأنبياء الموجبة للانزجار ، ونوع تفصيل لها وبيان لعدم تأثرهم بها ، تقريرا لفحوى قوله : « فما تغنى النذر » .

والفعل « كذبت » منزلة اللازم . أى فعـــل التـكذيب قبل قومك قوم نوح ... » (١)

وفى هذه الجملة الكريمة تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، لأن المصيبة إذا عمت خفت ، وشبيه بهذه الآية قوله ـ سبحانه ـ : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك ... »

وأسند ـ سبحانه ـ التكذيب إلى جميع قوم نوح ـ عليه السلام ـ ، لأن الذين آمنوا به منهم عدد قليل ، كما قال ـ تعالى ـ فى سورة هود : « وما آمن معه إلا قليل » .

وقوله ـ تعالى ـ : « فكذبوا عبدنا » تأكيد لتكذيبهم له ـ عليه السلام ـ ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : إن قوم نوح ـ عليه السلام ـ قد أصروا على تكذيبهم لعبدنا ونبينا ، وتواصوا بهـــذا التـكذيب فيما بينهم ، حتى لكأن الـكبار قد أوصوا به الصغار .

قال صاحب الـكشاف : فإن قلت : ما معنى قوله : « فكذبوا عبدنا » بعد قوله : « كذبت » ؟ قلت معناه : كذبوا فكذبوا عبـدنا . أى : كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب ، تبعهم قرن مكذب .

أو معناه : كذبت قوم نوح الرسل ، فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل ، جاحدين للنبوة رأسا ، كذبوا نوحا لأنه من جملة الرسل » (٢)

وقوله ـ سبحانه ـ : « وقالوا مجنون وازدجر » بيان لما كانوا عليه من انطماس بصيرة ، ومن سوء خلق ..

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٨١
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٣٧

أي : أنهم لم يكتفوا بتكذيب نبيهم ومرشدهم وهاديهم إلى الخير . . . بل أضافوا إلى ذلك وصفه بالجنون، والاعتداء عليه بأنواع الأذى والترهيب.

فقوله : « وازدجر » معطوف على قوله « قالوا » وهو مأخوذ من الزجر بمعنى المنع والتخويف . وصيغة الإفتعال للمبالغة فى زجره وإيذائه .

وقد حكى القرآن فى آيات أخرى ألوانا من هذا الزجر والإيذاء ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

كما حكى عنهم ـ : « قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين » .

ثم حكى ـ سبحانه ـ ما فعله نوح ـ عليه السلام ـ بعد أن صبر على إيذاء قومه فقال : « فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . . » .

أي : وبعد أن يئس نوح ـ عليه السلام ـ من إيمان قومه . . . تضرع إلى ربه قائلا : يارب إن قومى قد غلبونى بقوتهم وتمردهم ... فانتصر لى منهم ، فأنت أقوى الأقوياء ، وأعظم نصير للمظلومين والمغلوبين على أمرهم من أمثالى .

وحذف متعلق « فانتصر » للإيجاز . أى : فانتقم لى منهم .

ولقد كانت نتيجة هذا الدعاء الإجابة السريعة ، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء فى قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر .. »

أى : فأجبنا لنوح دعاءه ، ففتحنا أبواب السماء بماء كثير منهمر ، أى : منصب على الأرض بقوة وبكثرة وتتابع . يقال : همر فلان الماء يهمر بكسر الميم وضمها ـ إذا صبه بكثرة . وقراءة الجمهور « ففتحنا » بتخفيف التاء . وقرأ ابن عامر بتشديدها على المبالغة .

قال الجمل : والمراد من الفتح والأبواب والسماء : حقائقها ، فإن للسماء أبوابا تفتح وتغلق .

والباء في قوله : « بماء » للتعدية على المبالغة ، حيث جعل الماء كالآلة التي يفتح بها ، كما تقول : فتحت بالمفتاح ... »[1]

وقوله : « وفجرنا الأرض عيونا ... » معطوف على قوله : « ففتحنا » وتفجير الماء : إسالته بقوة وشدة وكثرة ، ومنه قوله - تعالى - : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا » .

وقوله : « عيونا » تمييز محول عن المفعول به . والأصل : وفجرنا عيون الأرض ، ولكن جيء به على هذا الأسلوب المشتمل على التمييز المبالغة ، حتى لكأن الأرض جميعها قد تحولت إلى عيون متفجرة :

وقوله - سبحانه : « فالتقى » الماء على أمر قدر » بيان لكمال حكمته - تعالى - بعد بيان مظاهر قدرته .

أي : فاجتمع الماء النازل من السماء ، مع الماء المتفجر من الأرض ، على أمر قد قدره الله - تعالى - وقضاه أزلا ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان .

فالمراد بالماء : ماء السماء وماء الأرض .

وقال - سبحانه - « فالتقى الماء » بالإفراد ، لتحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة ، بل كان بطريق الاتحاد والاختلاط ، حتى لكأن الماء النازل من السماء ، والمتفجر من الأرض ، قد التقيا في مكان واحد كما يلتقي الجيشان المعدان لإهلاك غيرهما .

و « على » في قوله - تعالى - على أمر قد قدر للاستعلاء المفيد لشدة التمكن والمطابقة

أي : التقى الماء بعض ببعض على الحال والشأن الذي قدرناه وقضيناه له دون أن يحيد عن ذلك قيد شعره ، إذ كل شيء عندنا بمقدار .

ثم بين - سبحانه - بعض مظاهر فضله على عبده نوح — عليه السلام — فقال : « وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا ... »

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٢٤٣

والدسر: جمع دسار ـ ككتاب وكتب ـ أى: مسامير تربط بعض الخشب ببعض. وأصل الدسر: الدفع الشديد بقوة، سمى به المسمار، لأنه يدق فى الخشب فيدفع بقوة.

وقيل: الدسر: الخيوط التى تشد بها ألواح السفينة، وقيل الدسر: صدرها ومقدمتها. وقوله: «ذات ألواح ودسر» صفة لموصوف محذوف.

أى: وحملنا نوحا ومن معه من المؤمنين، على سفينة ذات ألواح من الخشب ومسامير يشد بها هذا الخشب ويربط...

قال صاحب الكشاف: قوله: «وحملناه على ذات ألواح ودسر» أراد السفينة، وهو من الصفات التى تقوم مقام الموصوفات، فتنوب منابها وتؤدى مؤداها، بحيث لا يفصل بينها وبينها. وهذا من فصيح الكلام وبديعه...»(1)

وعدى فعل «وحملناه» إلى نوح وحده، مع أن السفينة حملت معه المؤمنين، لأن هذا الحمل كان إجابة لدعوته، وقد جاءت أخرى أخبرت بأن المؤمنين كانوا معه فى السفينة، ومن هذه الآيات، قوله ـ تعالى ـ: «فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك، فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين....»

وقوله «تجرى بأعيننا» أى تجرى هذه السفينة بمرأى منا، وتحت رعايتنا وقدرتنا.

ثم بين ـ سبحانه ـ الأسباب التى جعلت قوم نوح محل غضب الله ـ تعالى ـ ونقمته فقال: «جزاء لمن كان كفر»

وقوله: «جزاء» مفعول لأجله، لقوله: «فتحنا» وما عطف عليه. أى: فعلنا ما فعلنا من فتح السماء بماء منهمر، جزاء لكفرهم بالله ـ تعالى ـ

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٨

وبنبيه نوح ـ عليه السلام ـ الذى كان نعمة لهم ، ولكنهم كفروهما ولم يشكروا الله عليها ، فاستحقوا الغرق والدمار .

وحذف ـ سبحانه ـ متعلق « كفر » لدلالة الكلام عليه . أى : كفر به.

قال الآلوسى : قوله : « جزاء لمن كان كفر » أى: فعلنا ذلك جزاء لنوح ـ عليه السلام ـ ، فإنه كان نعمة أنعمها الله ـ تعالى ـ على قومه فكفروها ، وكذا كل نبى نعمة من الله ـ تعالى ـ على أمته .

وجوز أن يكون على حذف الجار، وإيصال الفعل إلى الضمير، واستتاره فى الفعل، بعد انقلابه مرفوعا . أى : لمن كفر به ، وهو نوح ـ عليه السلام ـ جحدت نبوته .

فالكفر عليه ضد الإيمان ، وعلى الأول كفران النعمة ...(١)

والضمير المنصوب فى قوله ـ تعالى ـ : « ولقد تركناها آية . . » يعود إلى الفعلة المهلكة التى فعلها الله ـ تعالى ـ بقوم نوح ـ عليه السلام ـ .

أى : ولقد تركنا فعلتنا بقوم نوح ، وإهلاكنا لهم ، آية وعلامة لمن بعدهم ، وعظة وعبرة لمن يعتبر ويتعظ بها .

ويؤيد هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : « وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية ...»(٢) ويصح أن يكون الضمير يعود إلى السفينة . أى: ولقد أبقينا هذه السفينة من بعد إهلاك قوم نوح ، علامة وعبرة لمن يشاهدها .

ويؤيد هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : « فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين »(٣)

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٨٣
(٢) سورة الفرقان . الآية ٣٧
(٣) سورة العنكبوت . الآية ١٥

قال القرطبي: قوله : ولقد تركناها آية . . . ، يريد هذه الفعلة عبرة . وقيل : أراد السفينة ، تركها آية لمن بعد قوم نوح يعتبرون بها فلا يكذبون الرسل

قال قتادة : أبقاها الله - تعالى - ، بباقردي ، من أرض الجزيرة - قرب الموصل بالعراق - لتكون عبرة وآية ، حتى نظر اليها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة بعدها صارت رمادا [1] .

ويبدو لنا أن الآية الكريمة تتسع للرأيين فهذه العقوبة التى أنزلها - سبحانه - بقوم نوح - عليه السلام - بقيت عبرة لمن بعدها لينزجروا ، ويكفوا عن تكذيب الرسل ، كما أن السفينة قد أبقاها - سبحانه بعد إغراقهم إلى الزمن الذي قدره وأراده ، لتكون - أيضا عبرة وعظة لغيرهم .

والإستفهام فى قوله : « فهل من مدكر » للحض على التذكر والاعتبار .

ولفظ « مدكر » أصله مذتكر من الذكر الذي هو ضد النسيان ، فأبدلت التاء دالا مهملة ، وكذا الذال المعجمة ثم أدغمت فيها ، ومنه قوله - تعالى - : « وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة ... » أى : وتذكر بعد نسيان .

أي: ولقد تركنا مافعلناه بقوم نوح عبرة، فاعتبروا بذلك - أيها الناس - ، وأخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة ، لتنجوا من غضبه وعقابه .

والاستفهام فى قوله - سبحانه - . « فكيف كان عذابى ونذر » للتهويل والتعجيب من شدة هذا العذاب الذي حاق بقوم نوح - عليه السلام -.

أى : فكيف كان عذابى لهم ، وإنذارى إياهم ؟ لقد كانا على كيفية هائلة لا يحيط بها الوصف ، ولا تحدها العبارة .

والنذر : مفردة نذير ، وجمع لتكرر الإنذار من نوح - عليه السلام - لقومه .

(١) تفسير القرطبى ج ١٧ ص ١٣٣

قال الجمل : وقرىء فى السبع بإثبات الياء وحذفها وأما فى الرسم فلا تثبت لأنها من ياءات الزوائد ، وكذا يقال فى المواضع الآتية كلها . . »[١] .

ثم بين ـ سبحانه ـ مظاهر فضله ورحمته على هذه الأمة ، حيث جعل كتابه ميسرا فى حفظه وفهمه ، فقال ـ تعالى ـ : « ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر » .

أى : والله لقد سهلنا القرآن « للذكر » أى : للتذكر والحفظ ، بأن أنزلناه فصيحا فى ألفاظه ، بليغا فى تراكيبه ، واضحا فى معانيه ، سهل الحفظ لمن أراد أن يحفظه . . . فهل من معتبر ومتعظ ، بقصصه ، ووعده ، ووعيده ، وأمره ، ونهيه ؟ . .

وقد وردت هذه الآية فى أعقاب قصة قوم نوح وهود وصالح ولوط ـ عليهم السلام ـ ، لتأكيد مضمون ما سبق فى قوله ـ تعالى ـ : « ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر » .

وللتنبيه والإشعار بأن كل قصة من تلك القصص جديرة بإيجاب الاتعاظ ، وكافية فى الاعتبار والازدجار ، « لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد » .

والمقصود بالآية الكريمة التحضيض على حفظ القرآن الكريم ، والاعتبار بمواعظه ، والعمل بما فيه من تشريعات حكيمة ، وآداب قويمة ، وهدايات سامية . . .

* * *

ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن قصة قبيلة عاد مع نبيهم هود ـ عليه السلام ـ ، فذكرت ما حل بهم من عقاب بسبب كفرهم وطغيانهم ، فقال ـ تعالى ـ :

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٨٤ .

« كَذَّبَتْ عادٌ فَكيفَ كانَ عذابي ونُذُر (١٨) إنَّا أرْسَلْنَا عليهِم ريحاً صَرْصَراً في يومِ نحسٍ مُستمر (١٩) تنزِعُ النَّاسَ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ منقعِرٍ (٢٠) فكيفَ كانَ عذابي ونُذُر (٢١) ولقدْ يسَّرنا القرآنَ للذِّكْرِ فهلْ من مُدَّكِرٍ (٢٢) » .

والمراد بعاد ، تلك القبيلة التي ينتهي نسبها إلى جدهم عاد ، وكانت مساكنهم بالأحقاف في جنوب الجزيرة العربية . وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله - تعالى - إليهم نبيهم هودا - عليه السلام - لكي يأمرهم بعبادة الله - تعالى - وحده ، وينهاهم عن عبادة غيره ...

وقد جاء الحديث عنهم بصورة أكثر تفصيلا ، في سور : الأعراف ، وهود ، والشعراء ، والأحقاف .. ولم تعطف قصتهم هنا على قصة نوح التي قبلها ، للإشعار بأنها قصة مستقلة جديرة بأن يعتبر بها المعتبرون ، ويتعظ بها المتعظون ...

وحذف المفعول في قوله : « كذبت عاد » للعلم به ، وهو نبيهم هود - عليه السلام - أي : كذبت قبيلة عاد نبيها هودا - عليه السلام - .

والاستفهام في قوله - سبحانه - : « فكيف كان عذابي ونذر » للتهويل ، ولتشويق نفوس السامعين إلى معرفة العذاب الشديد الذي حل بهم .

أي : كذبت قبيلة عاد نبيها ، فهل علمتم ما حل بها من دمار وهلاك ؟ إن كنتم لم تعلموا ذلك فها كم خبره ...

« إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا ... » أي : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة البرودة والقوة ، ذات صوت هائل .

« في يوم نحس مستمر » أي: في يوم مشئوم عليهم، وشؤمه دائم ومستمر لم ينقطع عنهم حتى دمرهم .

قال ابن كثير : قوله : « مستمر » أى : مستمر عليهم نحسه ودماره، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوى بالأخروى ... »[١].

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات ، لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ... »[٢].

وإضافة « يوم » إلى « نحس » من إضافة الزمان إلى مايقع فيه، كقولهم: يوم فتح خيبر ...

والمراد أنه يوم منحوس ومشئوم بالنسبة لهؤلاء المهلكين ، وليس المراد أنه يوم منحوس بذاته ، لأن الأيام يداولها الله - تعالى - بين الناس، بمقتضى إرادته وحكمته .

وقوله : « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » بيان لقوة هذه الريح وشدتها ..

والنزع : الإزالة للشىء بعنف ، حتى يزول عن آخره ، وينفصل عما كان متصلا به .

والمراد بالناس : هؤلاء المهلكين من قوم هود - عليه السلام - .

والأعجاز : جمع عجز ، وهو مؤخر الشىء وأسفله . وأعجاز النخل : أصولها التى تقوم عليها . والمراد بها هنا : النخل بتمامه ماعدا الفروع .

وقوله : « منقعر » اسم فاعل انقعر، مطاوع قعره، أى : بلغ قعره بالحفر، يقال : قعر فلان البئر إذا بلغ قعرها فى الحفر ، وهو صفة للنخل .

أى : أن الريح لشدتها وقوتها ، كانت تقتلعهم من أماكنهم ، وتلقى بهم

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٤ .
(٢) سورة فصلت الآية ١٦ .

بعيداً وهم صرعى ، فكأنهم وهم ممددون على الأرض هلكى ، أعجاز نخل قد انقلع عن أصوله . وسقط على الأرض ...

قال ابن كثير : « وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم ، فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ، ثم تنكسه على أم رأسه . فيسقط على الأرض ، فتنخلع رأسه، فيبقى جثة بلا رأس ، ولهذا قال : « كأنهم أعجاز نخل منقعر »[1] .

فالآية الكريمة فيها ما فيها من التفظيع لما أصابهم من هلاك واستئصال .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية .... » .

ثم ختم - سبحانه - قصة هؤلاء الطغاة ، بمثل ما ختم به قصة قوم نوح ، من تذكير للناس بما أصاب هؤلاء الظالمين من عذاب أليم ، ومن دعوتهم إلى الاعتبار بقصص القرآن ، وزواجره ، ووعده ووعيده ... فقال - تعالى - : « فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر » .

° ° °

ثم جاءت بعد قصة قوم هود قصة قوم صالح - عليهما السلام - فقال - سبحانه - :

« كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ ، إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٤ .

بَيْنَهُم كلُّ شِرْبٍ مُحتَضَرٌ (٢٨) فنادَوْا صاحِبَهم فتَعاطى فعَقَر (٢٩) فكيفَ كانَ عذابي ونُذُر (٣٠) إنَّا أرسَلْنا عليْهِم صَيْحةً واحِدةً فكانُوا كَهشِيمِ المُحتَظِرِ (٣١) ولقد يسَّرنا القرآنَ للذِّكْرِ فهلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٣٢) » .

وقصة قبيلة ثمود مع نبيهم صالح -عليه السلام- قد وردت فى سور متعددة، منها سورة الأعراف، وسورة هود، وسورة الشعراء، وسورة النمل .

وينتهى نسبهم إلى جدهم ثمود، وقيل سموا بذلك لقلة ماء المكان الذى كانوا يعيشون فيه، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم -، وهو مكان يقع بين الحجاز والشام، ومازال معروفا إلى الآن .

ونبيهم صالح - عليه السلام - ينتهى نسبه إلى نوح - عليه السلام - .

وقوله : « كذبت ثمود بالنذر » أى: كذبت قبيلة ثمود بالنذر التى جاءتهم عن طريق رسولهم صالح - عليه السلام - . فالنذر بمعنى الإنذارات التى أنذرهم بها صالح - عليه السلام - ثم حكى - سبحانه - مظاهر تكذيبهم فقال : « فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه . . . » .

و « بشرا » منصوب على المفعولية بالفعل « نتبعه » على طريقة الاشتغال، وقدم لاتصاله بهمزة الاستفهام، لأن حقها التصدير . والاستفهام للانكار، وواحدا صفة لقوله « بشرا » .

أى : أن قوم صالح - عليه السلام - حين جاءهم برسالته التى تدعوهم إلى إخلاص العبادة لله - تعالى - ، أنكروا ذلك، وقالوا : أنتبع واحدا من أفناء البشر جاءنا بهذا الكلام الذى يخالف ما كان عليه آباؤنا وأجدادنا ؟

« إنا إذا لفى ضلال وسعر » أى: إنا إذا لو اتبعناه، لصرنا فى ضلال عظيم، وفى « سعر » أى وفى جنون واضح . ومنه قولهم : ناقة مسعورة، إذا كانت لاتستقر على حال، وتفرط فى سيرها كالمجنونة .

أو المعنى : إنا لو اتبعناه لكنا فى ضلال ، وفى نيران عظيمة . فالسعر بمعنى النار المسعرة ثم أخذوا فى تفنيد دعوته ، فقالوا : « أألقى الذكر عليه من بيننا .. » والاستفهام للإنكار والنفى . والمراد بالإلقاء : الإنزال . وبالذكر : الوحى الذى أوحاه الله - تعالى - إليه ، وبلغه لهم .

أى : أأنزل الوحى على صالح وحده دوننا؟ لا لم ينزل عليه الوحى دوننا، فهو واحد من أفنائنا ، وليس من أشرافنا ...

« بل هو كذاب أشر » أى : بل صالح فيما يدعونا إليه كذاب ، أشر ، أى : بطر متكبر ، معجب بنفسه ، يقال : أشر فلان ، إذا أبطرته النعمة ، وصار مغرورا متكبرا على غيره ، ولا يستعمل نعم الله فيما خلقت له .

وهكذا الجاهلون الجاحدون ، يقلبون الحقائق ، وتصير الحسنات فى عقولهم سيئات ، فصالح - عليه السلام - الذى جاءهم بما يسعدهم أصبح فى نظرهم كذابا مغرورا ، لا يليق بهم أن يتبعوه ...

وقد رد - سبحانه - عليهم ردا يحمل لهم التهديد والوعيد ، فقال - تعالى -: « سيعلمون غدا من الكذاب الأشر » .

أى : سيعلم هؤلاء الكافرون ، فى الغد القريب يوم ينزل بهم العذاب المبين ، من هو الكذاب فى أقواله ، ومن هو المغرور المتكبر على غيره ، أصالح - عليه السلام - أم هم !!

والتعبير بالسين فى قوله « سيعلمون » لتقريب مضمون الجملة وتأكيده .

والمراد بقوله : « غدا » الزمن المستقبل القريب الذى سينزل فيه العذاب عليهم ...

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ، ما أمر به نبيه صالحا - عليه السلام - فقال: « إنا مرسلو الناقة فتنة لهم ، فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر » .

وقوله : « مرسلو الناقة » أي : مخرجوها وباعثوها ، لأنهم اقترحوا على نبيهم صالح أن يأتيهم بمعجزة تدل على صدقه ، لكي يتبعوه ، فأخرج الله - تعالى - لهم تلك الناقة ، من مكان مرتفع قريب منهم .

وإلى هذا المعنى أشار - سبحانه - في آيات أخرى منها قوله - تعالى - : « قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا ، فأت بآية إن كنت من الصادقين . قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . . . »(١) .

وقوله « فتنة » أي : اختبارا وامتحانا لهم ، فهو مفعول لأجله .

وقوله « فارتقبهم » من الارتقاب بمعنى الانتظار ، ومثله « واصطبر » فهو من الاصطبار وأل في قوله : « ونبئهم أن الماء قسمة بينهم . . » للعهد . أي : الماء المعهود لهم ، وهو ماء قريتهم الذي يستعملونه في حوائجهم المتنوعـــة .

وقوله « قسمة » بمعنى المقسوم ، وعُبر عنه بالمصدر للمبالغة .

والضمير في « بينهم » يعود عليهم وعلى الناقة ، وجيء بضمير العقلاء على سبيل التغليب .

وقوله : « محتضر » اسم مفعول من الحضور الذي هو ضد الغيبة وحذف المتعلق لظهوره . أي : محتضر عنده صاحبه .

والشرب : النصيب والمرة من الشرب .

أي : وقلنا لنبينا صالح على سبيل الإرشاد والتعليم ، بعد أن طلب منه قومه معجزة تدل على صدقه : قلنا له . أخبرهم إننا سنرسل الناقة ، وسنخرجها لهم أمام أعينهم ، لتكون دليلا على صدقك ، ولتكون امتحانا واختبارا لهم ، حتى يظهر لك وللناس أيؤمنون أم يصرون على كفرهم .

(١) سورة الشعراء الآيات ١٥٣ - ١٥٥

« فارتقبهم » - أيها الرسول الكريم - ، وانتظر ماذا سيصنعون بعد ذلك « واصطبر » على أذاهم صبرا جميلا ، حتى يحكم الله بينك وبينهم ..

« ونبئهم » أي : وأخبرهم خبرا هاما ، هذا الخبر هو « أن الماء » الذى يستقون منه « قسمة بينهم » وبين الناقة ، أى : مقسوم بينهم وبينها ، فهم لا يشركونها فى يوم شربها ، وهى لا تشاركهم فى يوم شربهم .

« كل شرب محتضر » أى : كل نصيب من الماء يحضره من هوله . فالناقة تحضر إلى الماء فى يومها ، وهم يحضرون إليه فى يوم آخر .

ففى هاتين الآيتين تعليم حكيم من الله - تعالى - لنبيه صالح ، وإرشاد له إلى ما يجب أن يسلكه معهم ، بيقظة واعية يدل عليها قوله - تعالى - : « فارتقبهم » وبصبر جميل لا يأس معه ولا ضجر ، كما يشير إليه قوله - تعالى - : (واصطبر) .

وسياق القصة ينبىء عن كلام محذوف ، يعلم من سياقها ، والتقدير : أرسلنا الناقة ، وقلنا له أخبرهم ، أن الماء مقسوم بينهم وبين الناقة ، واستمروا على ذلك فترة من الزمان ، ولكنهم ملوا هذه القسمة ، ولم يرتضوها ، وأجمعوا على قتل الناقة ...

(فنادوا صاحبهم) وهو (قدار بن سالف) وهو المعبر عنه بقوله - تعالى - فى آية أخرى : (إذا نبعث أشقاها) .

وعبر عنه - سبحانه - بصاحبهم ، لأنه كان معروفا لهم ، وزعيما من زعمائهم ...

والمقصود بندائهم إياه : إغراؤه بعقر الناقة وقتلها ، مخالفين بذلك وصية نبيهم لهم بقوله « ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب عظيم » .

وقوله تعالى (فتعاطى فعقر) مفرع على ماقبله . وقوله . (تعاطى) مطاوع للفعل عاطاه ، وهو مشتق من عطا يعطو ، إذا تناول الشىء .

وهذه الصيغة (تعاطى) تشير إلى تعدد الفاعل ، فكأن هذا النداء بقتل

الناقة ، تدافعوه فيما بينهم ، وألقاه بعضهم على بعض ، فكان كل واحد منهم يدفعه إلى غيره ، حتى استقر عند ذلك الشقى الذى ارتضى القيام به، وتولى بره ، حيث عقر الناقة . فمفعول « عقر » محذوف للعلم به .

قال الآلوسى : قوله : « فتعاطى » العقر . أى : فاجترأ على تعاطيه مع عظمه غير مكترث به .

« فعقر » أى : فأحدث العقر بالناقة . ويجوز أن يكون فتعاطى الناقة فعقرها .

أو : فتعاطى السيف فقتلها ، وعلى كل فمفعول تعاطى محذوف..»[1] .

ولا تعارض بين هذه الآية التى تثبت أن الذى عقر الناقة هو هذا الشقى، وبين الآيات الأخرى التى تصرح بأنهم هم الذين عقروها ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام .... » .

لأن المقصود أن القوم قد اتفقوا على هذا القتل للناقة ، فنادوا واحدا منهم لتنفيذه ، فنفذه وهم له مؤيدون ، فصاروا كأنهم جميعا قد عقروها ، لرضاهم بفعله والعقر : يطلق على القتل والذبح والجرح ، والمراد به هنا : قتلها ونحرها .

والتعبير بقوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « فكيف كان عذابى ونذر » يشير إلى هول العقوبة التى نزلت بهم ، بسبب مافعلوه من عقر الناقة ، ومن تكذيبهم لنبيهم .

أى : انظر وتدبر ـ أيها العاقل ـ كيف كان عذابى وإنذارى لهؤلاء القوم ؟ لقد كان شيئا هائلا لاتحيط به العبارة .

ثم فصل ـ سبحانه ـ هذا العقاب فقال : « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة، فكانوا كهشيم المحتظر » .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٧٩

والهشيم : ما تهشم وتفتت وتكسر من الشجر اليابس ، مأخوذ من الهشم بمعنى الكسر للشيء اليابس ، أو الأجوف .

والمحتظر : هو الذى يعمل الحظيرة التى تكون مسكنا للحيوانات .

أى : إنا أرسلنا عليهم ـ بقدرتنا ومشيئتنا ـ صيحة واحدة صاحها بهم جبريل ـ عليه السلام ـ ، فصاروا بعدها كغصون الأشجار اليابسه المكسرة ، يجمعها إنسان ليعمل منها حظيرة لسكنى حيواناته .

والمقصود بهذا التشبيه ، بيان عظم ما أصابهم من عقاب مبين ، جعلهم كالأعواد الجافة حين تتحطم وتتكسر . ويجمعها الجامع ليصنع منها حظيرته ، أو لتكون تحت أرجل مواشيه .

وهذا العذاب عبر عنه هنا وفى سورة هود بالصيحة فقال : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة .... » .

وعبر عنه فى سورة الأعراف بالرجفة فقال : « فأخذتهم الرجفة ... » وعبر عنه فى سورة فصلت بالصاعقة فقال : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » . وعبر عنه فى سورة الحاقة بالطاغية ، فقال : « فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية .... » .

ولا تعارض بين هذه التعبيرات ، لأنها متقاربة فى معناها . ويكمل بعضها بعضا ، وهى تدل على شدة ما أصابهم من عذاب .

فكأنه ـ سبحانه ـ يقول : لقد نزل بهؤلاء المكذبين الصيحة التى زلزلت كيانهم ، فصعقتهم وأبادتهم ، وجعلتهم كعيدان الشجر اليابس ...

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه القصة بما ختم به سابقتها فقال : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

* * *

وجاءت بعد قصة قوم صالح، قصة قوم لوط - عليهما السلام - فقال - تعالى - :

« كَذَّبَت قومُ لوطٍ بالنُّذُرِ (٣٣) إنا أرْسَلْنَا عليهم حاصِبًا، إلاَّ آلَ لوطٍ نَجيناهُمْ بِسحر(٣٤) نِعمةً من عِندِنَا كذلكَ نَجزِي مَنْ شكَر(٣٥) ولقَدْ أنذَرَهُمْ بَطشَتَنَا فتماروْا بالنُّذُر (٣٦) ولقَدْ راوَدُوهُ عن ضَيْفِهِ فَطَمسْنَا أعْيُنَهم فذُوقُوا عذَابِي ونُذُر (٣٧) ولقَدْ صبَّحَهُم بُكرةً عذَابٌ مُستقِرٌّ (٣٨) فذُوقُوا عذَابِي ونُذُر (٣٩) ولقد يسَّرنَا القرآنَ للذِّكْر فَهلْ مِنْ مُدكِرٍ (٤٠) » .

وقصة لوط - عليه السلام - قد وردت فى سور متعددة، منها : سور الأعراف، وهود، والشعراء، والنمل، والعنكبوت ...

ولوط - عليه السلام - هو - على الراجح - ابن أخى إبراهيم - عليه السلام -، وكان قد آمن به وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله - تعالى - إلى أهل سدوم - وهى قرية بوادى الأردن -، وكانوا يأتون الفواحش التى لم يسبقهم إليها أحد ...

وقوله - تعالى - : « كذبت قوم لوط بالنذر » أى : كذبوا بالإنذارات والتهديدات التى هددهم بها نبيهم لوط، إذا لم يستجيبوا لإرشاداته وأمره ونهيه ...

فكانت نتيجة هذا التكذيب والفجور الذى انغمسوا فيه الهلاك والدمار، كما قال - تعالى - : « إنا أرسلنا عليهم حاصبا ... » .

والحاصب : الريح التى تحصب، أى : ترمى بالحصباء وهى الحجارة الصغيرة التى تهلك من تصيبه بأمر الله - تعالى - :

فقوله : « حاصبا » صفة لموصوف محذوف وهو الريح، وجيء به مذكرا لكون موصوفه وهو الريح فى تأويل العذاب . أى : إنا أرسلنا عليهم عذابا حاصبا أهلكهم ..

والاستثناء فى قوله ـ سبحانه ـ : « إلا آل لوط نجيناهم بسحر » استثناء متصل ، لأنهم من قومه .

والسحر : هو الوقت الذى يختلط فيه سواد آخر الليل، ببياض أول النهار وهو قبيل مطلع الفجر بقليل .

أى : إنا أرسلنا عليهم ريحا شديدة ترميهم بالحصباء فتهلكهم، إلا آل لوط وهم من آمن به من قومه ، فقد نجيناهم من هذا العذاب المهلك فى وقت السحر ، فالباء فى قوله « بسحر » بمعنى فى الظرفية . أو هى للملابسة . أى : حال كونهم ملتبسين بسحر .

وقوله ـ تعالى ـ : « نعمة من عندنا ... » علة للإنجاء . والنعمة بمعنى الإنعام . أى : أنجينا آل لوط من العذاب الذى نزل بقومه، على سبيل الإنعام الصادر من عندنا عليهم لا من عند غيرنا .

وقوله ـ تعالى ـ : « كذلك نجزى من شكر » بيان لسبب هذا الإنعام والإنجـــاء .

أى : مثل هذا الجزاء العظيم ، المتمثل فى إنجائنا للمؤمنين من آل لوط ، وفى إنعامنا عليهم ... نجازى كل شاكر لنا ، ومستجيب لأمرنا ونهينا .

فالآية الكريمة بشارة للمؤمنين الشاكرين حتى يزدادوا من الطاعة لربهم، وتعريض بسوء مصير الكافرين الذين لم يشكروا الله ـ تعالى ـ على نعمه .

وفى قوله ـ تعالى ـ : « من عندنا » تنويه عظيم بهذا الإنعام ، لأنه صادر من عنده ـ تعالى ـ ، الذى لا تعد ولا تحصى نعمه .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بقوم لوط إلى الدمار والهلاك فقال « ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر .... » .

والبطشة : المرة من البطش ، بمعنى الأخذ بعنف وقوة ، والمراد بها هنا : الإهلاك الشديد .

والتمارى : تفاعل من المراء بمعنى الجدال ، والمراد به هنا : التكذيب والاستهزاء ، ولذا عدى بالباء دون فى .

أى : والله لقد أنذرهم لوط - عليه السلام - وخوفهم من عذابنا الشديد الذى لا يبقى ولا يذر ، ولكنهم كذبوه واستهزؤا به ، وبتهديده وبتخويفه إياهم .

ثم حكى - سبحانه - صورة أخرى من فجورهم فقال : « ولقد راودوه عن ضيفه ، فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر » .

والمراودة مفاعلة ، من راد فلان يرود ، إذا جاء وذهب ، لكى يصل إلى مايريده من غيره ، عن طريق المحايلة والمخادعة .

والمراد بضيفه : ضيوفه من الملائكة الذين جاؤا إلى لوط -عليه السلام- لإخباره بإهلاك قومه ، وبأن موعدهم الصبح ...

أى : ووالله لقد حاول هؤلاء الكفرة الفجرة المرة بعد المرة ، مع لوط - عليهم السلام - أن يمكنهم من فعل الفاحشة مع ضيوفه ...

فكانت نتيجة محاولاتهم القبيحة أن « طمسنا أعينهم » أى : حجبناها عن النظر ، فصاروا لا يرون شيئا أمامهم ...

قال القرطبى : يروى أن جبريل - عليه السلام - ضربهم بجناحه فعموا . وقيل : صارت أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق ، كما تطمس الريح الأعلام بما تسفى عليها من التراب . وقيل : طمس الله على أبصارهم فلم يروا الرسل[1] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٤٤

وعدى - سبحانه - فعل المراودة بعض ، لتضمينه معنى الإبعاد والدفع . أي : حاولوا دفعه عن ضيوفه ، ليتمكنوا منهم .

وأسند المراودة إليهم جميعا : لرضاهم عنها ، بقطع النظر عمن قام بها .

وقوله : « فذوقوا عذابي ونذر » مقول لقول محذوف ، أي طمسنا أعينهم وقلنا لهم ذوقوا عذابي الشديد الذي سينزل بكم ، بسبب تكذيبكم لرسولي ، واستخفافكم بما وجه إليكم من تخويف وإنذار .

والمراد من هذا الأمر : الخبر . أي : فأذقتهم عذابي الذي أنذرهم به لوط - عليه السلام - .

ثم بين - سبحانه - ما حل بهم من عذاب فقال : « ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ... » .

والبكرة : أول النهار وهو وقت الصبح ، وجيء بلفظ بكرة للإشعار بتعجيل العذاب لهم ، أي : والله لقد نزل بهم عذابنا في الوقت المبكر من الصباح ، نزولا دائما ثابتا مستقرا لا ينفك عنهم ، ولا ينفكون عنه ... وقلنا لهم : ذوقوا عـــذابي ، وسوء عاقبة تكذيبكم لرسولي لوط - عليه السلام - .

ثم ختم - سبحانه - قصتهم بما ختم به القصص السابقة فقال : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت: مافائدة تكرير قوله : «فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟

قلت : فائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين ، ادكارا واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات، ويقعقع لهم الشن تارات لئلا يغلبهم السهو

ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير ، كقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » عند كل نعمة عدها فى سورة الرحمن :

وكقوله : « ويل يومئذ للمكذبين » عند كل آية أوردها فى سورة المرسلات . وكذلك تكرير الأنباء والقصص فى أنفسها ، لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب ، مصورة للأذهان ، مذكورة غير منسية فى كل أوان . . . »(١) .

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، ببيان ما حل بفرعون وقومه ، وبتحذير مشركى قريش من سوء عاقبة كفرهم ، وببيان ما أعدلهم من عذاب يوم القيامة ، وتبشير المتقين بحسن العاقبة فقال - تعالى - :

« ولَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعونَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بآياتِنا كلِّها فأَخَذناهُم أَخْذَ عَزيزٍ مُقتدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكم خيرٌ مِنْ أُولئِكُم أمْ لكُم براءةٌ فى الزُّبُرِ (٤٣) أم يَقولُونَ نحنُ جميعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهزَمُ الجَمْعُ ويولُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بلِ السَّاعةُ مَوعِدُهُمْ والسَّاعةُ أَدْهَى وأَمَرُّ (٤٦) إنَّ المجرِمِينَ فى ضَلالٍ وسُعُرٍ (٤٧) يومَ يُسْحَبُونَ فى النارِ عَلَى وجُوهِهِم ذُوقُوا مَسَّ سقَرَ (٤٨) إنَّا كُلَّ شىءٍ خَلقناهُ بقَدرٍ (٤٩) وما أمْرُنا إلاَّ واحِدةٌ كَلَمحٍ بالبَصَرِ (٥٠) ولقَدْ أهلَكنا أشياعَكُم فهَلْ من مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَىءٍ فعلُوه فى الزُّبُرِ (٥٢) وكلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مُستَطَرٌ (٥٣) إنَّ المتقينَ فى جنَّاتٍ ونَهَرٍ (٥٤) فى مَقْعَدِ صِدقٍ عِندَ مَليكٍ مقتَدرٍ (٥٥) » .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٣٨

وقصة فرعون وملئه مع موسى - عليه السلام - قد تكررت فى سور متعددة، منها سور : الأعراف ، ويونس ، وهود ، وطه ، والشعراء ، والقصص ...

وهنا جاء الحديث عن فرعون وملئه فى آيتين ، بين - سبحانه - ماحل بهم من عذاب ، بسبب تكذيبهم لآيات الله - تعالى - ، فقال - سبحانه - : « ولقد جاء آل فرعون النذر » .

والمراد بآل فرعون : أقرباؤه وحاشيته وأتباعه الذين كانوا يؤيدونه ويناصرونه .

والنذر : جمع نذير ، اسم مصدر بمعنى الإنذار ، وجىء به بصيغة الجمع ، لكثرة الإنذارات التى وجهها موسى عليه السلام - إليهم .

أى : والله لقد جاء إلى فرعون وآله ، الكثير من الإنذارات والتهديدات على لسان نبينا موسى ، - عليه السلام - . ولكنهم لم يستجيبوا له ...

بل « كذبوا بآياتنا كلها » أى : بل كذبوا بجميع المعجزات التى أيدنا موسى - عليه السلام - بها ، والتى كانت تدل أعظم دلالة على صدقه فيما يدعوهم إليه .

وأكد - سبحانه - هذه المعجزات بقوله « كلها » للاشعار بكثرتها ، وبأنهم قد أنكروها جميعا دون أن يستثنوا منها شيئا .

وقوله : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر » بيان لشدة العذاب الذى نزل بهم، إذ الأخذ مستعار . للانتقام الشديد ، وانتصاب « أخذ ... » على المفعولية المطلقة ، وإضافته إلى عزيز مقتدر » من إضافة المصدر إلى فاعله .

والعزيز : الذى لا يغلبه غالب والمقتدر : الذى لا يعجزه شىء يريده .

أى : فأخذناهم أخذا لم يبق منهم أحدا ، بل أهلكناهم جميعا ، لأن هذا الأخذ صادر عن الله - عز وجل - الذى لا يغلبه غالب ، ولا يعجزه شىء .

ووصف ـ سبحانه ـ ذاته هنا بصفة العزة والاقتدار، للرد على دعاوى فرعون وطغيانه وتبجحه ، فقد وصل به الحال أنه زعم أنه الرب الأعلى، فأخذه ـ سبحانه ـ أخذ عزيز مقتدر، يحق الحق، ويبطل الباطل .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن أخبار الطغاة الغابرين ، التفتت السورة الكريمة بالخطاب إلى كفار مكة ، لتحذرهم من سوء عاقبة الاقتداء بالكافرين ولتدعوهم إلى التفكر والاعتبار، فقال ـ تعالى ـ : أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر . . . . .

والاستفهام للنفى والإنكار. والمراد بالخيرية . الخيرية الدنيوية كالقوة والغنى، والجاه، والسلطان، والخطاب لأهل مكة .

والبراءة من الشىء: التخلص من تبعاته وشروره، والمراد بها هنا التخلص من العذاب الذى أعده الله ـ تعالى ـ للكافرين، والسلامة منه .

والزبر : جمع زبور، وهو الكتاب الذى يكتب فيه .

والمعنى : أكفاركم ـ يا أهل مكة ـ خير من أولئكم السابقين فى القوة والغنى والتمكين فى الأرض ... ؟

أم أن لكم عندنا عهدا فى كتبنا ، بأن لا نؤاخذكم على كفركم وشرككم .. ؟

كلا، ليس لكم شىء من ذلك ، فأنتم لستم بأقوى من قوم نوح وهود وصالح ولوط، أو من فرعون وملئه . وأنتم ـ أيضا ـ لم تأخذوا منا عهدا بأن نبرئكم من العقوبة على كفركم ...

وما دام الأمر كذلك فكيف أبحتم لأنفسكم الإصرار على الكفر والجحود ؟ إن ما أنتم عليه من شرك لا يليق بمن عنده شىء من العقل السليم .

ثم انتقل - سبحانه - إلى توبيخهم على شيء آخر من أقوالهم الباطلة فقال «أم يقولون نحن جميع منتصر ....»

أي : بل أيقولون نحن جميع يد واحدة ، وسننتصر على من خالفنا وعادانا ؟ ولقد توهموا ذلك فعلا . وجاهروا به .

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يبطل دعاواهم فقال : «سيهزم الجمع ويولون الدبر» والتعريف فى «الجمع» للعهد . والدبر : الظهر وما أدبر من المتجه إلى الأمام.

أي : سيهزم جمع هؤلاء الكافرين ، ويولون أدبارهم نحوكم - أيها المؤمنون - ويفرون من أمامكم ...

والتعبير بالسين لتأكيد أمر هزيمتهم فى المستقبل القريب وكما فى قوله : - تعالى - : «قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد» .

والآية الكريمة من باب الإخبار بالغيب، الدال على إعجاز القرآن الكريم

قال الآلوسى : والآية من دلائل النبوة، لأن الآية مكية، وقد نزلت حيث لم يفرض جهاد ، ولا كان قتال ، ولذا قال عمر يوم نزلت : أي جمع يهزم ، أي : من جموع الكفار . فلما كان يوم بدر ، رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يثبت فى الدرع وهو يقول : «سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ (١)

ثم بين - سبحانه - أن هزيمة المشركين ستعقبها هزيمة أشد منها وأنكى فقال : «بل الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمر»

والمراد بالساعة : يوم القيامة . وأدهى : اسم تفضيل من الداهية ، وهى الأمر المنكر الفظيع الذى لا يعرف طريق للخلاص منه .

وقوله «وأمر» أي : وأشد مرارة وقبحا .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٩٢

أي : ليس هذا الذي يحصل لهم في الدنيا من هزائم نهاية عقوباتهم ، بل يوم القيامة هو يوم نهاية وعيدهم السيء ، ويوم القيامة أعظم داهية ، وأشد مرارة مما سيصيبهم من عذاب دنيوى .

ثم فصل ـ سبحانه ـ ما سينزل بهم من عذاب يوم القيامة فقال : « إن المجرمين فى ضلال وسعر » .

أي : في بعد عن الاهتداء إلى الحق بسبب انطماس بصائرهم، وإيثارهم الغي على الرشد ، وفي نار مسعرة تغشاهم من فوقهم ومن تحتهم .

ويقال لهم « يوم يسحبون في النار على وجوههم » أي : يوم يجرون في النار على وجوههم ، على سبيل الإهانة والإذلال .

« ذوقوا مس سقر » أي: ويقال لهم : ذوقوا مس جهنم التي كنتم تكذبون بها ، وقاسوا آلامها وعذابها .

فقوله ـ تعالى ـ : « سقر » علم على جهنم، مأخوذ من سقرت الشمس الشيء وصقرته ، إذا غيرت معالمه وأذابته . وهو ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك مظاهر كمال قدرته وحكمته فقال : « إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ... » .

وقوله « كل » منصوب بفعل يفسره ما بعده . والقدر : ماقدره الله ـ تعالى ـ على عباده ، حسب ما تقتضيه حكمته ومشيئته .

أي : إنا خلقنا كل شيء في هذا الكون ، بتقدير حكيم ، وبعلم شامل ، وبإرادة تامة وبتصريف دقيق لا مجال معه للعبث أو الاضطراب، كما قال ـ تعالى ـ « وكل شيء عنده بمقدار » ، وكما قال ـ سبحانه ـ : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ، وكما قال ـ عز وجل ـ : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » .

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : وقد استدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه ، وهو علمه بالأشياء قبل كونها ... وردوا بهذه الآية وبما شاكلها ، وبما ورد في معناها من أحاديث على الفرقة القدرية ، الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة قال : جاء مشركوا قريش يخاصمون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في القدر ، فنزلت : « يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر .... »(1)

والباء في قوله « بقدر » للملابسة . أي : خلقناه ملتبسا بتقدير حكيم ، اقتضته سنتنا ومشيئتنا ، في وقت لا يعلمه أحد سوانا ...

وقوله - سبحانه - : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » بيان لكمال قدرته - تعالى - .

واللمح : النظر السريع العاجل الذي لا تريث معه ولا انتظار . يقال : لمح فلان الشيء إذا أبصره بنظر سريع . وقوله : « واحدة » صفة لموصوف محذوف .

أي : وما أمرنا وشأننا في خلق الأشياء وإيجادها ، إلا كلمة واحدة ، وهي قول : « كن » فتوجد هذه الأشياء كلمح البصر في السرعة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

والمراد بهذه الآية وأمثالها : بيان كمال قدرة الله - تعالى - ، وسرعة إيجاده

---

(1) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٧

لكل ما يريد إيجاده ، وتحذير الظالمين من العذاب الذى متى أراده الله - تعالى - فلن يدفعه عنهم دافع ، بل سيأتيهم كلمح البصر فى السرعة .

والتعبير بقوله « واحدة » لإفادة أن كل ما يريد الله - تعالى - إيجاده فسيوجد فى أسرع وقت ، وبكلمة واحدة لا بأكثر منها . سواء أكان ذلك الموجود جليلا أم حقيرا ، صغيرا أم كبيرا . . .

ثم بين - سبحانه - ما يدل على نفاذ هذه القدرة وسرعتها فقال : « ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر » .

والأشياع : جمع شيعة . وشيعة الرجل : أعوانه وأنصاره ، وكل جماعة من الناس اتفقت فى رأيها فهم شيعة . قالوا : وهو مأخوذ من الشياع ، وهو الحطب الصغار الذى يوقد مع الكبار ، حتى تشتعل النار . والمراد به هنا : الأشباه والنظائر .

أى : والله لقد أهلكنا أشباهكم ونظائركم فى الكفر من الأمم السابقة ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، واتعظوا بما نزل بهم من عقاب .

فالمقصود بالآية الكريمة التهديد والتحذير ، والاستفهام فيها للحض على الاتعاظ والاعتبار .

ثم بين - سبحانه - أن كل ما يعمله الإنسان ، هو مسجل عليه ، فقال : « وكل شىء فعلوه فى الزبر » .

أى : وكل شىء فعله هؤلاء المشركون وغيرهم ، مكتوب ومحفوظ فى كتب الحفظة ، ومسجل عليهم لدى الكرام الكاتبين ، بدون زيادة أو نقصان . . .

كما قال - تعالى - بعد ذلك : وكل صغير وكبير مستطر ، أى : وكل صغير من الأقوال أو الأفعال ، وكل كبير منهما ، فهو مكتوب عندنا ، ومسجل على صاحبه .

فقوله : « مستطر » بمعنى مسطور ومكتتب . يقال : سطر يسطر سطرا ، إذا كتب ، واستطر مثله . والآية الكريمة مؤكدة لما قبلها .

ومن الآيات الكثيرة التى وردت فى هذا المعنى قوله - تعالى - : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين »[1] .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة ، بتلك البشارة العظيمة للمتقين فقال : « إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

أى : إن المتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل محارم الله - تعالى - كائنين فى جنات عاليات المقدار ، وفى « نهر » أى : وفى سعة من العيش ، ومن مظاهر ذلك أن الأنهار الواسعة تجرى من تحت مساكنهم . فالمراد بالنهر جنسه .

وقوله : « فى مقعد صدق » أى : فى مكان مرضى ، وفى مجلس كريم ، لا لغو فيه ولا تأثيم وهو الجنة ، فالمراد بالمقعد مكان القعود الذى يقيم فيه الإنسان بأمان واطمئنان .

« عند مليك مقتدر » أى : مقربين عند ملك عظيم ، قادر على كل شىء . فالمراد بالعندية هنا ، عندية الرتبة والمكانة والتشريف .

وقال - سبحانه - عند مليك ، للمبالغة فى وصفه - سبحانه - بسعة الملك وعظمه ، إذ وصفه - سبحانه - بمليك ، أبلغ من وصفه بمالك أو ملك ، لأن « مليك » صيغة مبالغة بزنة فعيل .

وتنكير « مقتدر » للتعظيم والتهويل ، وهو أبلغ من قادر ، إذ زيادة المبنى تشعر بزيادة المعنى . أى : عظيم القدرة بحيث لا يحيط بها الوصف .

---

(١) سورة يونس الآية ٦١ .

وبعد فهذا تفسير محرر لسورة «القمر» نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه، ونافعا لعباده.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الدوحة ـ قطر مساء الأربعاء
٢ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦/٣/١٢ م

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية العربية

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الرحمن

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوي
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ – سورة « الرحمن » سميت بهذا الاسم ، لافتتاحها بهذا الاسم الجليل من أسماء - تعالى - .

وقد وردت تسميتها بهذا الاسم فى الحديث الذى أخرجه الإمام الترمذى عن جابر بن عبد الله قال خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه فقرأ عليهم سورة « الرحمن » من أولها إلى آخرها ، فسكتوا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : لقد قرأتها على الجن ، فكانوا أحسن مردودا منكم كنت كلما أتيت على قوله - تعالى - : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » قالوا : ولا بشىء من نعمك ياربنا نكذب فلك الحمد .. »[1] .

وسميت فى حديث مرفوع أخرجه البيهقى عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : « عروس القرآن » .

وقد ذكروا فى سبب نزولها ، أن المشركين عندما قالوا : « وما الرحمن » نزلت هذه السورة لترد عليهم ، ولتثنى على الله - تعالى - بما هو أهله .

٢ – وهى مكية فى قول جمهور الصحابة والتابعين ، وروى عن ابن مسعود وابن عباس أنها مدنيه ، وقيل هى مكية إلا قوله - تعالى - « يسأله من فى السموات والأرض .... » .

قال القرطبى : والقول الأول أصح ، لما روى عن عروة بن الزبير قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبى - صلى الله عليه وسلم - عبدالله بن مسعود ،

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٩ .

وذلك أن الصحابة قالوا : ماسمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط ، فمن رجل يسمعهم إياه ؟

فقال ابن مسعود : أنا . فقالوا : نخشى عليك ، إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه ، فأبى ، ثم قام عند المقام فقال : بسم الله الرحمن الرحيم . الرحمن . علم القرآن . . . ، ثم تمادى رافعا بها صوته وقريش فى أنديتها ، فتأملوا وقالوا : ما يقول ابن أم عبد ؟

قالوا : هو يقول الذى يزعم محمد أنه أنزل عليه ، ثم ضربوه حتى أثروا فى وجهه . . . وفى هذا دليل على أنها مكية . . . »(١) .

والحق أن ماذهب إليه الإمام القرطبى من كون سورة الرحمن مكية ، هو ماتطمئن إليه النفس ، لأن السورة من أولها إلى آخرها فيها سمات القرآن المكى ، الذى تغلب عليه الحديث المفصل عن الأدلة على وحدانية الله وقدرته وعظم نعمه على خلقه ، والمقارنة بين حسن عاقبة الأخيار ، وسوء عاقبة الأشرار . . .

٣ - وعدد آياتها ثمان وسبعون آية فى المصحف الحجازى ، وست وسبعون فى المصحف البصرى .

٤ - وتبدأ السورة الكريمة بالثناء على الله - تعالى ، ثم بالثناء على القرآن الكريم ، ثم ببيان جانب من مظاهر قدرة الله تعالى - ، ومن جميل صنعه ، وبديع فعله . . . قال - تعالى - : الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان .

والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعها ووضع الميزان . أن لا تطغوا في الميزان ... » .

٥ - وبعد أن ساق - سبحانه - ما ساق من ألوان النعم ، أتبع ذلك ببيان أن كل من على ظهر هذه الأرض مصيره إلى الفناء ، وأن الباقي هو وجه الله - تعالى - وحده ... وببيان أهوال القيامة ، وسوء عاقبة المكذبين ، وحسن عاقبة المؤمنين ...

قال - تعالى - : « يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام » ...

« ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأي آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان ...

ثم وصفت ما أعده الله - تعالى - للمتقين وصفا يشرح الصدور ، ويقر العيون ، فقد أعد - سبحانه - لهم - بفضله وكرمه - الحور العين ، والفرش التي بطائنها من استبرق .

قال - تعالى - : « حور مقصورات في الخيام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام .

وهكذا نرى السورة الكريمة تطوف بنا في آفاق هذا الكون ، فتحكى لنا من بين ما تحكى - جانبا من مظاهر قدرة الله - تعالى - ونعمه على خلقه ، وتقول في أعقاب كل نعمة « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ، وتتكرر هذه الآية فيها إحدى وثلاثين مرة ، لتذكير الجن والإنس بهذه النعم كي يشكروا الله - تعالى - عليها شكراً جزيلا .

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا جميعا من عباده الشاكرين عند الرخاء الصابرين عند البلاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدوحة ـ قطر   كتبه الراجى عفو ربه

مساء الأربعاء: ٢ من جماذى الآخرة ١٤٠٦ هـ   محمد سيد طنطاوى

١٩٨٦/٢/١٢ م   عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التفسير

قال الله – تعالى – « الرَّحمنُ (١) علَّم القرآنَ (٢) خلَق الإنسانَ (٣) علَّمهُ البيانَ (٤) الشَّمسُ والقمرُ بحُسْبانٍ (٥) والنَّجمُ والشجَرُ يسجُدانِ (٦) والسَّماء رفَعها ووضَع الميزانَ (٧) ألاَّ تطْغَوا فى الميزَانِ (٨) وأقيمُوا الوزْنَ بالقسْطِ ولا تُخسرُوا الميزَانَ (٩) والأرْضَ وضَعها للأنامِ (١٠) فيها فاكِهةٌ والنَّخلُ ذاتُ الأكمامِ (١١) والحبُّ ذو العصْفِ والرَّيحانِ (١٢) فبأىِّ آلاء ربكُما تُكذبانِ (١٣) » .

افتتحت السورة الكريمة بهذا الاسم الجليل لله – عز وجل – وهو لفظ مشتق من الرحمة ، وصيغته الدالة على المبالغة ، تنبه إلى عظم هذه الرحمة وسعتها .

وهذا اللفظ مبتدأ ، وما بعده أخبار له .

ثم بين – سبحانه – مظاهر قدرته ومنته على عباده بأجل النعم ، وأعظمها شأنا ، فقال : « علم القرآن » والقرآن هو أعظم وحى أنزله – سبحانه – على أنبيائه ورسله .

أى : علم نبيه – صلى الله عليه وسلم – القرآن ، الذى هو أعظم النعم شأنا وأرفعها مكانا ، إذ باتباع توجيهاته وإرشاداته ، يظفر الإنسان بالسعادة الدنيوية والأخروية .

ولفظ « القرآن » هو المفعول الثانى لعلّم ، والمفعول الأول محذوف .

وهذه الآية الكريمة تتضمن الرد على المشركين الذين زعموا أن هذا القرآن قد تعلمه الرسول – صلى الله عليه وسلم – من البشر ، كما حكى – سبحانه –

عنهم فى قوله : « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ... »[1] .

وفى قوله « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ... »[2] .

كما تتضمن الرد عليهم لزعمهم أنهم لا يعرفون الرحمن ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن ... »[3] .

وقوله ـ تعالى ـ : « خلق الإنسان . علمه البيان » بيان لنعمتين أخريين من نعمه ـ سبحانه ـ .

والمراد بالإنسان جنسه والمراد بالبيان : الفهم والنطق والإفصاح عما يريد الإفصاح عنه بالكلام الذى أداته اللسان .

أى : خلق ـ سبحانه ـ بقدرته الإنسان على أجمل صورة ، وأحسن تقويم ومكنه من الإفصاح عما فى نفسه عن طريق المنطق السليم ، والقول الواضح ، كما مكنه من فهم كلام غيره له ، فتميز بذلك عن الأجناس الأخرى ، وصار أهلا لحمل الأمانة التى عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال ، وأصبح مستعدا لتلقى العلوم والخلافة فى الأرض ...

ورحم الله ـ تعالى ـ صاحب الكشاف ، فقد صور هذه المعانى بأسلوبه الرصين فقال : عدد الله ـ عز وجل ـ آلاءه فقدم ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه . وأصناف نعمائه ، وهى نعمة الدين ، وقدم من نعمة الدين ما هو فى أعلى مراتبها ، وأقصى مراقيها ، وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاه منزلة . وأحسنه فى أبواب الدين أثرا ، وهو سنام الكتب السماوية ، ومصداقها والعيار عليها

(١) سورة النحل الآية ١٠٣ .
(٢) سورة الفرقان الآية ٤ .
(٣) سورة الفرقان الآية ٦٠ .

وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم اتبعه إياه ليعلم أنه إنما خلقه ليحيط علما بوحيه ، وكتبه ، وما خلق الإنسان من أجله ...

ثم ذكر ما تميز به الإنسان عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق فصيح المعرب عما فى الضمير .

ولفظ « الرحمن » مبتدأ . وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة . إخلاؤها من العاطف ، لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ... فما تنكر من إحسانه ... »(١)

وقوله - تعالى - : الشمس والقمر بحسبان ، بيان لنعمة رابعة من نعمه تعالى التى لا تحصى .

والحسبان : مصدر زيدت فيه الألف والنون ، والمراد بحساب دقيق ، تقدير حكيم . والجار والمجرور متعلق بمحذوف ...

أى : الشمس والقمر يجريان فى هذا الكون ، بحساب دقيق فى بروجهما منازلهما ، بحيث لا يشوب جريهما اختلال أو اضطراب ، وبذلك يعرف ناس السنين والشهور والأيام ، ويعرفون أشهر الحج والصوم ، وغير ذلك ن شئون الحياة ...

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى - : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، لا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون »(٢) .

ثم قال - تعالى - : « والنجم والشجر يسجدان » والمراد بالنجم هنا - عند بعضهم - النبات الذى لا ساق له ، وسمى بذلك . لأنه ينجم - أن يظهر من الأرض - بدون ساق .

ويرى آخرون : أن المراد به : نجوم السماء ، فهو اسم جنس لكل ما يظهر فى السماء من نجوم .

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٣

(٢) سورة « يس » الآية ٤٠

ويؤيد هذا الرأى قوله - تعالى - : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب . . »(١)

والشجر : هو النبات الذى له ساق وإرتفاع عن وجه الأرض .

والمراد بسجودهما : إنقيادهما وخضوعهما لله - تعالى - كانقياد الساجد لخالقه .

قال ابن كثير : قال ابن جرير : إختلف المفسرون فى معنى قوله « والنجم » بعد إجماعهم على أن الشجر ما قام على ساق . فعن ابن عباس قال النجم : ما إنبسط على وجه الأرض من النبات .

وكذا قال هذا القول سعيد بن جبير ، والسدى ، وسفيان الثورى ، وقد إختاره ابن جرير .

وقال مجاهد : النجم - المراد به هنا - الذى يكون فى السماء . وكذا قال الحسن وقتادة . وهذا القول هو الأظهر ... »(١)

وقوله - تعالى - : « والسماء رفعها ووضع الميزان . . . » أى : والسماء أوجدها بقدرته مرفوعة بدون أعمدة ، وأنتم ترون ذلك بأعينكم .

فالمقصود بقوله « رفعها » لفت الأنظار إلى مظاهر قدرته - تعالى - وإلى وجوب شكره وإخلاص العبادة له ، والتزام طاعته ...

والميزان : يطلق على الآلة التى يزن الناس بها ما يريدون وزنه من الأشياء المختلفة .

والمراد به هنا : وجوب التزام العدل فى الأحكام. وشاع إطلاق الميزان على العدل فى الأحكام ، لأن كليهما تضبط به الأحكام ، وتناول الحقوق .

أى : والسماء خلقها مرفوعة عند ابتداء ، وشرع وأثبت العدل وأمر باتباعه فى الأقوال والأحكام ، ليستقيم أمر الناس . .

(١) سورة « الحج » الآية ١٨

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « ووضع الميزان » أى : شرع العدل وأمر به ، لينتظم أمر العالم ويستقيم ، كما قال - صلى الله عليه وسلم - : « بالعدل قامت السموات والأرض » أى : بقيتا على أتقن نظام ... وتفسير الميزان بالعدل، هو المروى عن مجاهد ، والطبرى ، والأكثرين ، وهو مستعار للعدل استعارة تصريحية .

وعن ابن عباس والحسن وقتادة ، أن المراد بالميزان ما تعرف به مقادير الأشياء ، وهو الآلة المسماة بهذا الإسم . . أى : أوجده فى الأرض ليضبط الناس معاملاتهم فى أخذهم وعطائهم[1] » .

وجملة : « أن لا تطغوا فى الميزان » بمنزلة التعليل لما قبلها . أى : شرع العدل بين الناس، وأوجب عليهم التمسك به فى كل شئونهم، لئلا يتجاوزوه إلى غيره من الجور والظلم .

والطغيان : هو تجاوز الحدود المشروعة فى كل شىء .

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى - وهو التزام العدل - تأكيدا صريحا فقال: « وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان »

وقوله : « وأقيموا » من الإقامة ، والمراد به الإتيان بالشىء على أكمل صورة ، ومنه قوله - تعالى - : « وأقيموا الصلاة ... » أى : أدوها كاملة الأركان والسنن والخشوع . .

والقسط : العدل ، يقال : أقسط فلان فى حكمه إذا عدل ، والباء للمصاحبة .

وقوله : « ولا تخسروا » من الإخسار بمعنى النقص والبخس والجور .

والمعنى : شرع الله العدل ، ونهاكم عن تجاوزه ، وأمركم أن تقيموا حياتكم عليه فى أوزانكم التى تتعاملون بها فيما بينكم ، وفى كل أحوالكم ، فاحذروا أن تخالفوا أمره .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ١٠١ .

وكرر - سبحانه - لفظ « الميزان » للتنبيه على شدة عناية الله - تعالى - بإقامة العدل بين الناس فى معاملاتهم ، وفى سائر شئونهم . إذ بدونه لا يستقيم لهم حال ، ولا يصلح لهم بال ، ولا يستقر لهم قرار ...

ثم انتقلت السورة الكريمة ، إلى بيان جانب من مظاهر نعمه الأرضية ، فقال - تعالى - : « والأرض وضعها للأنام ... »

والمراد بالأنام : الخلائق المختلفون فى ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم ، والذين يعيشون فى شتى أقطارها وفجاجها ... وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه .

أى : « والأرض وضعها للأنام ... »

والمراد بالأنام : الخلائق المختلفون فى ألوانهم وأشكالهم وألسنتهم ، والذين يعيشون فى شتى أقطارها وفجاجها ... وهو اسم جمع واحد له من لفظه .

أى : والأرض « وضعها » أى : أوجدها موضوعة على هذا النظام البديع ، من أجل منفعة الناس جميعا ، لأن إيجادها على تلك الصورة الممهدة المفروشة .. جعلهم ينتفعون بما فيها من كنوز وخيرات ، ويتقلبون عليها من مكان إلى آخر ... وصدق الله إذ يقول : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا .. »

وقوله - سبحانه - : « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب ذو العصف والريحان » بيان لبعض ما اشتملت عليه هذه الأرض من خيرات .

والفاكهة : اسم لما يأكله الإنسان من ثمار على سبيل التفكه والتلذذ ، لا على سبيل القوت الدائم ، مأخوذة من قولهم فكه فلان - كفرح - إذا تلذذت نفسه بالشىء .. والأكمام : جمع كِم - بكسر الكاف - ، وهو الطلع قبل أنه تخرج منه الثمار .

وقوله : « ذو العصف » أي : ذو القشر الذي يكون على الحب ، وسمى بذلك لأن الرياح تعصف به ، أي : تطيره لخفته . أو المراد به الورق بعد أن ييبس ومنه قوله ـ تعالى ـ : « فجعلهم كعصف مأكول » .

والريحان : هو النبات ذو الرائحة الطيبة . وقيل : هو الرزق .

أي : في هذه الأرض التي تعيشون عليها ، أوجد الله ـ تعالى ـ الفاكهة التي تتلذذون بأكلها ، وأوجد لكم النخيل ذات الأوعية التي يكون فيها الثمر . .

وأوجد لكم الحب ، الذي تحيط به قشوره ، كما ترون ذلك بأعينكم ، في سنابل القمح والشعير وغيرهما .

وأوجد لكم النبات الذي يمتاز بالرائحة الطيبة التي تبهج النفوس، وتشرح الصدور . فأنت ترى أنه ـ تعالى ـ قد ذكر في هذه الآيات ألوانا من النعم ، فقد أوجد في الأرض الفاكهة للتلذذ ، وأوجد الحب للغذاء ، وأوجد النباتات ذات الرائحة الطيبة .

قال القرطبي ماملخصه : وقراءة العامة « والحب ذو العصف والريحان » بالرفع فيها كلها ، عطفا على « الفاكهة » . ـ أي : فيها فاكهة وفيها الحب ذو العصف ، وفيها الريحان ـ .

وقرأ ابن عامر بالنصب فيها كلها . عطفا على الأرض ، أو بإضمار فعل . أي : « وخلق الحب ذا العصف والريحان » ـ أي : وخلق الريحان ـ .

وقرأ حمزة والكسائي بجر « الريحان » عطفا على العصف . أي : فيها الحب ذو العصف والريحان . ولا يمتنع ذلك على قول من جعل الريحان بمعنى الرزق . فيكون كأنه قال : والحب ذو الرزق . لأن العصف رزق للبهائم ، والريحان رزق للناس . . »(١) .

---

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ١٥٧ .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

والفاء للتفريع على النعم المتعددة التى سبق ذكرها، والاستفهام للتعجيب ممن يكذب بهذه النعم . والآلاء : جمع إلى - بكسر الهمزة وفتحها وسكون اللام - وهى النعمة . والخطاب للمكلفين من الجن والإنس ، وقيل لأفراد الإنس مؤمنهم وكافرهم . أى : فبأى واحدة من هذه النعم تكذبان ربكما - أى : تجحدان فضله ومننه - يامعشر الجن والإنس ، مع أن كل نعمة من هذه النعم تستحق منكم الطاعة لى ، والخضوع لعزتى ، والإخلاص فى عبادتى.

قال الجمل ماملخصه : كررت هذه الآية هنا إحدى وثلاثين مرة، تقريرا للنعمة ، وتأكيدا للتذكير بها ، وذلك كقول الرجل لمن أحسن إليه ، وهو ينكر هذا الإحسان : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكر هذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ، أفتنكر هذا . . .

ومثل هذا الكلام شائع فى كلام العرب ، وذلك أن الله - تعالى - عدد على عباده نعمه ، ثم خاطبهم بقوله : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

وقد كرر - سبحانه - هذه الآية ثمانى مرات ، عقب آيات فيها تعداد عجائب خلقه ، ومبدأ هذا الخلق ، ونهايته ، ثم كررها سبع مرات عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها بعدد أبواب جهنم . . . ثم كررها - أيضا - ثمانى مرات فى وصف الجنتين وأهلهما ، بعدد أبواب الجنة ، وكررها كذلك ثمانى مرات فى الجنتين اللتين هما دون الجنتين السابقتين ، فمن اعتقد الثمانية الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق هاتين الثمانيتين من الله - تعالى - ، ووقاه السبعة السابقة - بفضله وكرمه -[1] .

* * *

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٢٥٤ .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الحديث عن نعمة خلق الإنسان، وعن مظاهر قدرته فى هذا الكون، فقال ـ تعالى ـ :

« خلقَ الإنسانَ من صَلْصَال كالفخَّار (١٤) وخلقَ الجانَّ من مارجٍ من نارٍ (١٥) فبأىِّ آلاءِ ربِّكُمَا تُكَذِّبانِ (١٦) ربُّ المشْرِقين وربُّ المَغْربين (١٧) فبأىِّ آلاءِ ربكما تكذِّبانِ (١٨) مَرج البحْرين يلتقيانِ (١٩) بينَهُما برزَخٌ لا يبغيانِ (٢٠) فبأىِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان (٢١) يخرُجُ منهمَا اللُّؤلؤ والمرجانُ (٢٢) فبأىِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان (٢٣) ولهُ الجوَارِ المنشآتُ فى البحرِ كالأعْلامِ (٢٤) فبأىِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان (٢٥) » .

والصلصال : الطين اليابس الذى تسمع له صوتا وصلصلة إذا قرع بشىء .

والفخار : الخزف المجوف الذى صار كذلك بعد أن أدخل فى النار .

ولا تعارض بين هذه الآية، وبين غيرها من الآيات التى تحكى أن الإنسان خلق من تراب، أو من طين، أو من صلصال من حمأ مسنون ...

لأن كل آية تتحدث عن مرحلة من مراحل خلق الإنسان، لأن هذا التراب صار طينا، ثم خمر هذا الطين فصار حمأ مسنونا. أى : طينا أسود متغير الرائحة، ثم يبس هذا الطين فصار صلصالا كالفخار .

فالآيات الكريمة التى تحدثت عن خلق الإنسان لا يصادم بعضها بعضا، وإنما يؤيد بعضها بعضا .

قال بعض العلماء : وقد أثبت العلم الحديث، أن جسم الإنسان يحتوى

من العناصر ما تحتويه الأرض ، فهو يتكون من الكربون ، والأكسجين ، والحديد . . . . .

وهذه نفسها هي العناصر المكونة للتراب ، وإن اختلفت نسبها من إنسان إلى آخر . وفي الإنسان عن التراب ، إلا أن أصنافها واحدة .

إلا أن هذا الذي أثبته العلم لا يجوز أن يؤخذ على أنه التفسير الحتمي للنص القرآني .

فقد تكون الحقيقة القرآنية تعني هذا الذي أثبته العلم أو تعني شيئا آخر سواه، وتقصد إلى صورة أخرى من الصور الكثيرة، التي يتحقق بها معنى خلق الإنسان من تراب ، أو من طين ، أو من صلصال . . .

والذي ننبه إليه بشدة ، هو ضرورة عدم قصر النص القرآني ، على كشف على بشري ، قابل للخطأ والصواب ، وقابل للتعديل والتبديل ، كلما اتسعت معارف الإنسان ، وكثرت وتحسنت وسائله المعرفة . . . »(١) .

والمعنى : خلق - سبحانه - بقدرته أباكم آدم الذي هو أصلكم ، وعنه تفرع جنسكم . من طين يابس يشبه الفخار في يبوسته وصلابته .

« وخلق » - سبحانه - « الجان » أي : جنس الجن « من مارج من نار » أي : من لهب خالص لا دخان فيه : أو مما اختلط بعضه ببعض من اللهب الأحمر وغير الأحمر ، إذ المارج . هو المختلط ، وهو اسم فاعل بمعنى اسم المفعول مثل دافق . أي : خلق جنس الجان من خليط من لهب النار . ومن في قوله « من نار » للبيان .

قال ابن كثير : يذكر الله - تعالى - خلقه الإنسان من صلصال

---

(١) راجع في ظلال القرآن جـ ٢٧ ص ٣٤٥١

كالفخار ، وخلقه الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهبها . قاله الضحاك : وعن ابن عباس : من مارج من نار ، أى : من لهب النار . . .

وروى مسلم عن عائشة قالت : قال رسول - صلى الله عليه وسلم - : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار . وخلق آدم مما وصف لكم »[1] .

والمقصود بالآيتين تذكير بنى آدم بفضلهم على غيرهم ، حيث بين - سبحانه - لهم من أخلقهم ، وأنهم قد خلقوا من عنصر غير الذى خلق منه الجن ، وأن الله - تعالى - قد أمر إبليس المخلوق من النار ، بالسجود لأبيهم آدم المخلوق من الطين ، فعليهم أن يشكروا الله - تعالى - على هذه النعمة ، وأن يحذروا وسوسة إبليس وجنوده .

وبعد أن أمر بشكر هذه النعم ، أتبع ذلك ببيان مظهر آخر من مظاهر قدرته ، فقال : رب المشرقين ، ورب المغربين . فبأى آلاء ربكما تكذبان .

أى : هو - سبحانه - رب مشرق الشمس فى الشتاء والصيف ، ورب مغربها فيهما ، وفى هذا التدبير المحكم منافع عظمى للإنسان والحيوان والنبات .

ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - فى آية أخرى : « رب المشرق والمغرب . . . »[2] .

لأن المراد بهما جنسهما ، فهما صادقان على كل مشرق من مشارق الشمس التى هى ثلاثمائة وستون مشرقا ، وعلى كل مغرب من مغاربها التى هى كذلك .

أو بين قوله - تعالى - فى آية ثالثه : « رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق »[3] .

أى : ورب جميع المشارق التى تشرق منها الشمس فى كل يوم على مدار العام

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧١

(٢) سورة الزمر الآية ٩

(٣) سورة الصافات الآية ٥

إذ لها فى كل يوم مشرق معين تشرق منه ، ولها فى كل يوم - أيضا - مغرب تغرب فيه .

ثم قال - سبحانه - : مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان .

وقوله : «مرج» من المَرْج بمعنى الإرسال والتخلية، ومنه قولهم : مرج فلان دابته ، إذا أرسلها إلى المرج ، وهو المكان الذى ترعى فيه الدواب .

ويصح أن يكون من المرج بمعنى الخلط ، ومنه قوله - تعالى - : «فهم فى أمر مريج» أى : مختلط ، وقيل للمرعى : مرج ، لاختلاط الدواب فيه بعضها ببعض .

والمراد بالبحرين : البحر العذب ، والبحر الملح . والبرزخ : الحاجز الذى يحجز بينهما ، بقدرة الله - تعالى - :

والمعنى : خلق الله - تعالى - البحرين . وأرسلهما بقدرته فى مجاريهما ، بحيث يلتقيان ويتصل أحدهما بالآخر ، ومع ذلك لم يختلطا ، بل يبقى المالح على ملوحته ، والعذب على عذوبته ، لأن حكمة الله قد إقتضت أن يفصل بينهما ، بحواجز من أجرام الأرض ، أو بخواص فى كل منهما ، تمنعهما هذه الخواص وتلك الحواجز ، من أن يختلطا ، ولولا ذلك لاختلطا وامتزجا ، وهذا من أكبر الأدلة على قدرة الله - تعالى - ، ورحمته بعباده ، إذ أبقى الله - تعالى - المالح على ملوحته ، والعذب على عذوبته ، لينتفع الناس بكل منهما فى مجال الانتفاع به ...،

فالماء العذب ينتفع به فى الشراب للناس والدواب والنبات . . . . والماء الملح ينتفع به فى أشياء أخرى ، كاستخراج الملح منه ، وفى غير ذلك من المنافع ...

ومن بديع صنع الله فى هذا الكون ، أنك تشاهد البحار الهائلة على

سطح الأرض ، والأنهار الكثيرة ، ومع ذلك فكل نوع منهما باق على خصائصه . مع أن كلا منهما قد يلتقى بالآخر .

قال بعض العلماء : والمقصود بالبحرين مايعرفه العرب من هذين النوعين وهما نهر الفرات ، وبحر العجم ، المسمى اليوم بالخليج الفارسى ، والتقاؤهما: إنصباب ماء الفرات فى الخليج الفارسى ، فى شاطىء البصرة ، والبلاد التى على الشاطىء العربى من الخليج الفارسى، تعرف عند العرب ببلاد البحرين لذلك.

والمراد بالبرزخ بينهما : الفاصل بين الماءين : الحلو والملح بحيث لا يغير أحد البحرين طعم الآخر بجواره وذلك بسبب ما فى كل منهما من خصائص تدفع عنه إختلاط الآخر به . وهذا من مسائل الثقل النوعى

وذكر البرزخ ، وهو معنى لايبغيان ، أى لا يبغى أحدهما على الآخر ، أى . لا يغلب عليه فيفسد طعمه ، فاستعير لهذه الغلبة لفظ البغى ... »(١)

وقال صاحب الظلال - رحمه الله - : والبحران المشار اليهما هما البحر المالح ، والبحر العذب ، ويشمل الأول البحار والمحيطات ، ويشمل الثانى الأنهار . ومرج البحرين : أرسلهما وتركهما يلتقيان . ولكنهما لا يبغيان ، ولا يتجاوز كل منهما حده المقدر ، ووظيفته المقسومة ، وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله - تعالى - ...

وتصب جميع الأنهار - تقريبا - فى البحار ، وهى التى تنقل إليها أملاح الأرض ، فلا تغير طبيعة البحار ولا تبغى عليها ، ومستوى سطوح الأنهار أعلى - فى العادة - من مستوى سطح البحر ، ومن ثم لا يبغى البحر على الأنهار التى تصب فيه ، ولا يغمر مجاريها بمائه الملح ... وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله . فلا يبغيان .

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٧ ص ٢٤٦ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

(٢) راجع فى ظلال القرآن جـ ٢٧ ص ٣٤٥٢

فلا عجب أن يذكر ـ سبحانه ـ البحرين ، وما بينهما من برزخ . فى مجال الآلاء والنعم ...»(١) .

ثم يذكر ـ سبحانه ـ بعض نعمه المختبئة فى البحرين فيقول : «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» .

«واللؤلؤ ـ فى أصله ـ حيوان ، وهو أعجب مافى البحار ، فهو يهبط إلى الأعماق ، وهو داخل صدفة جيرية تقيه من الأخطار... ويفرز مادة لزجة تتجمد مكونة «اللؤلؤ» ...

والمرجان ـ أيضا ـ حيوان يعيش فى البحار ... ويكون جزرا مرجانية ذات ألوان مختلفة ، صفراء برتقالية ، أو حمراء قرنفلية أو زرقاء زبردية»(٢)

ومن اللؤلؤ والمرجان تتخذ الحلى الغالية الثمن ، العالية القيمة ، التى تتحلى بها النساء ...

والآية الكريمة صريحة فى ان اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحرين ـ الملح والعذب ـ إلا أن كثيرا من المفسرين ساروا على أنه ـ أى : اللؤلؤ والمرجان ـ يخرج من أحدهما فحسب ، وهو البحر الملح ...

قال الآلوسى ما ملخصه : واللؤلؤ صغار الدر ، والمرجان كباره ... وقيل العكس ...

والمشاهد أن خروج اللؤلؤ والمرجان من أحدهما وهو والملح ... لكن لما التقيا وصارا كالشىء الواحد، جاز أن يقال: يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميعه ، ولكن من بعضه ، كما تقول : خرجت من البلد ، وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره ، وقد يسند إلى الإثنين ما هو لأحدهما . كما يسند إلى الجماعة ماصدر من واحد منهم(٢) .

---

(١) راجع «كتاب الله والعلم الحديث» ص ١٠٥ للأستاذ عبد الرزاق نوفل.
(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٠٦ .

والحق أن ما سار عليه الإمام الآلوسى وغيره ، من أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح لا من البحر العذب ، مخالف لما جاء صريحا فى قوله - تعالى - : « وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها . . . »(١) ،

فإن هذه الآية صريحة فى أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من كلا البحرين الملح والعذب ، وقد أثبتت البحوث العلمية صحة ذلك ، فقد عثر عليهما فى بعض الأنهار العذبة ، التى فى ضواحى ويلز واسكتلاندا فى بريطانيا . . . (٢) .

ثم بين - سبحانه - نعمة أخرى من نعمه التى مقرها البحار فقال : « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام . فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

والجوار : أى : السفن الجارية ، فهى صفة لموصوف محذوف دل عليه متعلقه ، وهو قوله - تعالى - : « فى البحر » .

والمنشآت : جمع منشأة - اسم مفعول - أى : مرفوعة الشراع ، وهو ما يسمى بالقلع ، من أنشأ فلان الشىء ، إذا رفعه عن الأرض ، وأنشأ فى سيره إذا أسرع . . .

أى : وله - سبحانه - وحده لا لغيره ، التصرف المطلق فى السفن المرفوعة القلاع والتى تجرى فى البحر ، وهى تشبه : الجبال فى ضخامتها وعظمها .

والتعبير : بقوله - تعالى - « وله » للإشعار بأن كونهم هم الذين صنعوها لا يخرجها عن ملكه - تعالى - وتصرفه ، إذ هو الخالق الحقيقى لهم ولها ، وهو الذى سخر تلك السفن لتشق ماء البحر بأمره .

---

(١) سورة فاطر الآية ١٢ .
(٢) راجع دائرة معارف الشعب المصرية العدد ٧٣ ص ٥٣٧ .

ومن الآيات الكثيرة التي تشبه هذه الآية في دلالتها على قدرة الله - تعالى - وعلى منته على عباده بهذه السفن التي تجري في البحر بأمره، قوله - تعالى - : «ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور. أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير ...»(١).

* * *

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله - تعالى -، ونعمه على عباده ... جاء الحديث عن تفرده - تعالى - بالبقاء، بعد فناء جميع المخلوقات التي على ظهر الأرض، وعن افتقار الناس إليه وحده - سبحانه - وغناه عنهم فقال تعالى:

« كُلُّ مَنْ عليها فانٍ (٢٦) ويبقَى وَجهُ ربِّك ذُو الْجلالِ والإِكْرَام (٢٧) فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان (٢٨) يسألُهُ مَن في السَّمواتِ والأرْضِ كُلَّ يومٍ هو في شأنٍ (٢٩) فبأي آلاء ربكما تكذِّبان (٣٠) سنَفْرغ لكُم أيُّها الثَّقلانِ (٣١) فبأي آلاء ربكما تكذِّبان (٣٢) يا معشرَ الجنِّ والإنس إنِ استطعتُم أن تنفُذوا من أقطارِ السَّمواتِ والأرضِ فانفُذُوا، لا تنفُذُون إلاَّ بسلطانٍ (٣٣) فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان (٣٤) يرسَل عليكما شُواظٌ مِنْ نارٍ ونحاسٌ فلا تنتَصران (٣٥) فبأي آلاء ربكما تكذِّبان (٣٦) ».

والضمير في «عليها» يعود إلى الأرض بقرينة المقام، والمراد بمن عليها: كل من يعيش فوقها، ويدخل فيهم دخولا أوليا بنو آدم، لأنهم هم المقصودون بالخطاب، ولذا جيء بمن الموصولة الخاصة بالعقلاء.

(١) سورة الشورى الآيات ٣٢ - ٣٤.

أى : كل من على الأرض من إنسان وحيوان وغيرهما ، صائر إلى الزوال والفناء. ويبقى وجه ربك وذاته بقاء لا تغير معه ولا زوال ، فهو - سبحانه - «ذو الجلال» أى : ذو العظمة والاستغناء المطلق «والإكرام» أى : والفضل التام ، والإحسان الكامل ...

وقال - سبحانه - : «ويبقى وجه ربك» ، ولم يقل ويبقى وجه ربكما ، كما فى قوله : «فبأى آلاء ربكما ...» ،

لأن الخطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التكريم والتشريف ، ويدخل تحته كل من يتأتى له الخطاب على سبيل التبع .

قال القرطبى : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة : هلك أهل الأرض ، فنزلت «كل شىء هالك إلا وجهه» ، فأيقنت الملائكة بالهلاك ...

وقوله : «ويبقى وجه ربك» أى : ويبقى الله ، فالوجه عبارة عن وجوده وذاته ، قال الشاعر :

قضى على خلقه المنايا فكل شىء سواه زائل

وهذا الذى ارتضاه المحققون من علمائنا ...»[1] .

وقوله - تعالى - : «يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ...» بيان لغناه المطلق عن غيره ، واحتياج غيره إليه .

والمراد باليوم هنا : مطلق الوقت مهما قل زمنه . والشأن : الأمر العظيم ، والحدث الهام ...

أى : أنه - سبحانه - يسأله من فى السموات والأرض ، سؤال المحتاج إلى رزقه ، وفضله ، وستره ، وعافيته ... وهو - عز وجل - فى كل وقت من الأوقات ، وفى كل لحظة من اللحظات ، فى شأن عظيم ، وأمر جليل ، حيث يحدث ما يحدث من أحوال فى هذا الكون ، فيحيى ويميت ، ويعز ويذل ، ويغنى ويفقر ، ويشفى ويمرض ... دون أن يشغله شأن عن شأن ...

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٦٥ .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « كل يوم هو فى شأن » أى : كل وقت من الأوقات ، هو فى شأن من الشئون ، التى من جملتها إعطاء ماسألوا ، فإنه - تعالى - لا يزال ينشىء أشخاصا ، ويفنى آخرين ، ويأتى بأحوال ، ويذهب بأحوال ، حسبما تقتضيه إرادته . المبنية على الحكم البالغة ...

أخرج البخارى فى تاريخه ، وابن ماجه ، وجماعة عن أبى الدرداء ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى هذه الآية : « من شأنه : أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ، ويرفع قوما ، ويخفض آخرين » ...

وسأل بعضهم أحد الحكماء ، عن كيفية الجمع بين هذه الآية ، وبين ماصح من أن القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فقال : « شئون يبديها لا شئون يبتديها » .

وانتصب « كل يوم » على الظرفيه ، والعامل فيه هو العامل فى قوله - تعالى - « فى شأن » ، و « هو » ثابت المحذوف ، فكأنه قيل : هو ثابت فى شأن كل يوم .. »[١].

ثم هدد - سبحانه - الذين يخالفون عن أمره تحذيرا شديداً ، فقال : « سنفرغ لكم أيها الثقلان فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

وجىء بحرف التنفيس الدال على القرب وهو السين ، للإشعار بتحقق ما أخبر به - سبحانه - .

وقوله : « نفرغ » من الفراغ ، وهو الخلو عما يشغل ...

والمراد به هنا : القصد إلى الشىء والإقبال عليه . يقال فلان فرغ لفلان وإليه . إذا قصد إليه لأمر ما ...

والثقلان : تثنية ثقل - بفتحتين - ، وأصله كل شىء له وزن وثقل ، والمراد بهما هنا : الإنس والجن .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ١١٠ .

والمعنى : سنقصد يوم القيامة إلى محاسبتكم على أعمالكم ، وسنجازيكم عليها بما تستحقون ، وسيكون هذا شأننا ـ أيها الثقلان ـ فى هذا اليوم العظيم.

قال صاحب الكشاف : قوله : « سنفرغ لكم » مستعار من قول الرجل لمن يتهدده ، سأفرغ لك ، يريد سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى عنك، حتى لا يكون لى شغل سواه . والمراد : التوفر على النكاية فيه ، والانتقام منه .

ويجوز أن يراد ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهى عند ذلك شئون الخلق التى أرادها بقوله ـ تعالى ـ : « كل يوم هو فى شأن » ، فلا يبقى إلا شأن واحد ، وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل ...[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ... » مقول لقول محذوف ، دل عليه ما قبله . .

والمعشر ـ بزنة مفعل ـ اسم للجمع الكثير الذى يعد عشرة فعشرة .

وقوله : « تنفذوا » من النفاذ بمعنى الخروج من الشيء ، والأمر منه وهو قوله : « فانفذوا » مستعمل فى التعجيز . والأقطار جمع قطر ـ بضم القاف وسكون الفاء ـ وهو الناحية الواسعة ...

والمعنى : سنقصد إلى محاسبتكم ومجازاتكم على أعمالكم يوم القيامة ، وسنقول لكم على سبيل التعجيز والتحدى : يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا وتخرجوا من جوانب السموات والأرض، ومن نواحيها المتعددة . .. فانفذوا واخرجوا ، وخلصوا أنفسكم من المحاسبة والمجازاة . .

وجملة : « لا تنفذون إلا بسلطان » بيان للتعجيز المتمثل فى قوله ـ تعالى ـ « فانفذوا » . والسلطان المراد به هنا : القدرة والقوة ...

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٤٧ .

أى : لاتنفذون من هذا الموقف العصيب الذى أنتم فيه . إلا بقدرة عظيمة ، وقوة خارقة ، تزيد على قوة خالقكم الذى جمعكم فى هذا الموقف وأنى لكم هذه القوة التى أنتم أبعد ماتكونون عنها ؟

فالمقصود بالآية الكريمة ، تحذير الفاسقين والكافرين ، من التمادى فى فسقهم وكفرهم ، وبيان أنهم سيكونون فى قبضة الله ـ تعالى ـ وتحت سلطانه ، وأنهم لن يستطيعوا الهروب من قبضته وقضائه فيهم بحكمه العادل .

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : « فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر »[١] .

وقوله ـ سبحانه ـ : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » استئناف فى جواب سؤال مقدر عما سيصيبهم إذا ماحاولوا الفرار .

والشواظ : اللهب الذى لايخالطه دخان ، لأنه قد تم اشتعاله فصار أشد إحراقا .

والنحاس : المراد به هنا الدخان الذى لا لهب فيه . ويصح أن يراد به : الحديد المذاب . أى : أنتم لاتستطيعون الهرب من قبضتنا بأى حال من الأحوال ، وإذا حاولتم ذلك ، أرسلنا عليكم ، وصببنا على رءوسكم لهبا خالصا فأحرقكم ، ودخانا لا لهب معه فكتم أنفاسكم ، وفى هذه الحالة لا تنتصران ، ولا تبلغان ما تبغيانه ، ولا تجدان من يدفع عنكم عذابنا وبأسنا . .

هذا والمتأمل فى تلك الآيات الكريمة . يراها قد صورت بأسلوب بديع ، تفرد الله ـ تعالى ـ بالملك والبقاء ، وافتقار الخلائق جميعا إلى عطائه ، وأنهم جميعا فى قبضته ، ولن يستطيعوا الهروب من حكمه فيهم . . .

* * *

(١) سورة القيامة . الآيات ٧ ـ ١٢ .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك جانبا من أهوال يوم القيامة، ومن العذاب الذي يحيط بالمجرمين، وينزل بهم، فقال - تعالى - :

« فإِذَا انشقَّت السَّماء فكانَتْ وَرْدَةً كالدِّهان (٣٧) فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان (٣٨) فيومئذٍ لا يُسأل عن ذَنبه إنسٌ ولا جانٌّ (٣٩) فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان (٤٠) يعرفُ المجرمُونَ بِسيماهُمْ فيؤخذُ بالنَّواصِي وَالأقدَام (٤١) فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان (٤٢) هذه جَهنَّم التي يكذِّبُ بها المجرِمُون (٤٣) يطُوفُون بينَها وبين حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فبأيِّ آلاء ربكما تكذِّبان (٤٥) » .

وجواب «إذا» في قوله - سبحانه - «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان» محذوف لتهويل أمره ...

وقوله - سبحانه - : «فكانت وردة» تشبيه بليغ، أي : فكانت كالوردة في الحمرة ...

والوردة جمعها ورود، وهي زهرة حمراء معروفة ذات أغصان شائكة ...

والدهان : مايدهن به الشيء ...

أي : فإذا انشقت السماء، فصارت حين انشقاقها وتصدعها، كالوردة الحمراء في لونها، وكالدهان الذي يدهن به الشيء في ذوبانها وسيلانها، رأيت مايفزع القلوب، ويزلزل النفوس من شدة الهول ...

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : «ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن، وكان يوما على الكافرين عسيرا»[1].

وقوله - سبحانه - : «فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة. وحملت الأرض

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٢٥، ٢٦ .

والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ... »[1] .

وقوله - عز وجل - : « يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميما ... »[2] .

ثم بين - سبحانه - ما يترتب على هذا الانشقاق والذوبان للسماء من أهوال فقال : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » .

أى : فى هذا اليوم العصيب ، وهو يوم الحشر ، لا يسأل عن ذنبه أحد ، لا من الإنس ولا من الجن .

أى : أنهم لا يسألون عن ذنوبهم عند خروجهم من قبورهم ، وإنما يسألون عن ذلك فى موقف آخر ، وهو موقف الحساب والجزاء ، إذ فى يوم القيامة مواقف متعددة .

وبذلك يجاب عن الآيات التى تنفى السؤال يوم القيامة ، والآيات التى تثبته ، كقوله - تعالى - : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » .

وبعضهم يرى أن السؤال المنفى فى بعض الآيات هو سؤال الاستخبار والاستعلام ، والسؤال المثبت هو سؤال التوبيخ والتقريع ... عن الأسباب التى جعلتهم ينحرفون عن الطريق المستقيم ، ويسيرون فى طريق الفسوق والعصيان ...

ثم بين - سبحانه - ما يحل بالمجرمين فى هذا اليوم من عذاب فقال : « يعرف المجرمون بسيماهم ، فيؤخذ بالنواصى والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن . فبأى آلاء ربكما تكذبان » .

(١) سورة الحاقة الآيات ١٣ - ١٦ .
(٢) سورة المعارج الآيات ٨ - ١٠ .

وقوله : « بسيماهم » أى : بعلاماتهم التى تدل عليهم ، وهى زرقة العيون ، وسواد الوجوه ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة . . . »[١] .

وكما فى قوله ـ سبحانه ـ : « يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . . . »[٢] :

والنواصى : جمع ناصية ، وهى مقدم الرأس ، والأقدام : جمع قدم ، وهو ظاهر الساق ، و « أل » فى هذين اللفظين عوض عن المضاف إليه .

والمراد بالطواف فى قوله : « يطوفون بينها . . » : كثرة التردد والرجوع إليها بين وقت وآخر .

والحميم : الماء الشديد الغليان والحرارة .

و « آن » : أى : قد بلغ النهاية فى شدة الحرارة . يقال : أنَى الحميم ، أى انتهى حره إلى أقصى مدة ، فهو آن وبلغ الشىء أناه ـ بفتح الهمزة وكسرها ـ إذا وصل إلى غاية نضجه وإدراكه ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه . . . أى : نضجه . . .

أى : فى هذا اليوم ، وهو يوم الحساب والجزاء ، يعرف المجرمون ، بسواد وجوههم ، وزرقة عيونهم ، وبما تعلو أفئدتهم من غبرة ترهقها قترة . . . فتأخذ الملائكة بالشعر الذى فى مقدمة رءوسهم ، وبالأمكنة الظاهرة من سيقانهم ، وتقذف بهم فى النار ، وتقول لهم على سبيل الإهانة والإذلال : هذه جهنم التى كنتم تكذبون بها فى الدنيا أيها المجرمون ، فترددوا بين مائها الحار ، وبين سعيرها البالغ النهاية فى الشدة .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٦٠ :

(٢) سورة طه : الآية ١٠٢ .

وفي قوله : « فيؤخذ بالنواصي والأقدام » إشارة إلى التمكن منهم تمكنا شديدا ، بحيث لا يستطيعون التفلت أو الهرب .

وقد ختمت كل آية من هذه الآيات السابقة بقوله ـ تعالى ـ « فبأى آلاء ربكما تكذبان » لأن عقاب العصاة المجرمين ، وإثابة الطائعين المتقين ، يدل على كمال عدله ـ سبحانه ـ وعلى فضله ونعميه على من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى .

قال الإمام ابن كثير : ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، من فضله ، ورحمته ، وعدله ، ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه ، مما يزجرهم عما فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك ، قال ممتنا بذلك على بريته « فبأى آلاء ربكما تكذبان »(1) .

وكعادة القرآن الكريم في قرن أحوال الأخيار ، بأحوال الأشرار ، أو العكس ، جاء الحديث عما أعده ـ سبحانه ـ للمتقين من جزيل الثواب ، بعد الحديث عما سينزل بالمجرمين من عقاب فقال ـ تعالى ـ :

« ولِمَنْ خافَ مقامَ ربِّه جنَّتانِ (٤٦) فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان (٤٧) فيهما عينانِ تجريانِ (٤٨) فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذبان (٤٩) فيهما من كلِّ فاكهةٍ زوجانِ (٥٠) فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان (٥١) متكئينَ على فرُشٍ بطائنُها من إستبرقٍ ، وجنى الجنَّتينِ دانٍ (٥٤) فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان (٥٥) فيهنَّ قاصِراتُ الطَّرفِ لم يطمِثهنَّ إنسٌ قبلَهم ولا جانٌّ (٥٦) فبأيِّ آلاءِ ربكما تكذِّبان (٥٧) كأنَّهنَّ الياقوتُ

---

(1) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٧

والمرجَان (٥٨) فبأى آلاء ربكما تـكذّبان (٥٩) هل جزَاء الإحسَانِ إلا الإحسانُ (٦٠) فبأىِّ آلاء ربكما تـكذّبان (٦١) » .

قال الآلوسى: قوله ـ تعالى ـ : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ... » شروع فى تعديد الآلاء التى تفاض فى الآخرة ـ على المتقين، بعد بيان سوء عاقبة المكذبين.

و «مقام» مصدر ميمى بمعنى القيام مضاف إلى الفاعل . أى : ولمن خاف قيام ربه عليه وكونه مراقبا له ، ومهيمنا عليه فالقيام هنا مثله فى قوله ـ تعالى ـ « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ... » أو هو اسم مكان . والمراد به مكان وقوف الخلق فى يوم القيامة للحساب . . . إذ الخلق جميعا قائمون له ـ تعالى ـ كما فى قوله ـ سبحانه ـ : « يوم يقوم الناس لرب العالمين »[١] .

والمعنى : ولكل من خاف القيام بين يدى ربه للحساب، وخشى هيمنته ـ سبحانه ـ عليه ومجازاته له ... لكل من خاف ذلك وقدم فى دنياه العمل الصالح ، « جنتان » يتنقل بينهما ، ليزداد سروره ، وحبوره .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : لم قال : « جنتان » ؟ قلت : الخطاب للثقلين ، فكأنه قيل لكل خائفين منكما جنتان . جنة للخائف الإنسى ، وجنة للخائف الجنى .

ويجوز أن يقال: جنة لفعل الطاعات . وجنة لترك المعاصى، لأن التكليف دائر عليهما . وأن يقال : جنة يثاب بها وأخرى تضم إليها على وجه التفضل ، كقوله ـ تعالى ـ : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »[٢]

وقوله : « ذواتا أفنان » صفة للجنتين . والأفنان جمع فنن ـ بفتحتين ـ وهو الغصن .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص١١٥
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٩

أى : جنتان صاحبتا أغصان عظيمة ، تمتاز بالجمال واللين والنضرة .

ثم وصفهما - سبحانه - بصفات أخرى كريمة فقال : « فيهما عينان تجريان » أى : فى كل جنة منهما عين تجرى بالماء العذب الفرات ...

« فيهما من كل فاكهة زوجان » أى : وفيهما كذلك من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان ، ليتفكه المتقون ويتلذذوا بتلك الفواكه الكثيرة ، التى لا هى مقطوعة ، ولا هى ممنوعة .

ثم بين - سبحانه - حسن مجلسهم فقال : « متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان » .

والجملة الكريمة حال من قوله - تعالى - : « ولمن خاف مقام ربه ... » .

وعبر - سبحانه - بالإتكاء ، لأنه من صفات المتنعمين ، الذين يعيشون عيشة راضية ، لا همَّ معها ولا حزن .

والفرش : جمع فراش - ككتب وكتاب - ، وهو ما يبسط على الأرض للنوم أو الاضطجاع .

والبطائن : جمع بطانة ، وهى ما قابل الظهارة من الثياب ، مشتقة من البطن المقابلة للظهر ، ومن أقوالهم : أفرشنى فلان ظهره وبطنه ، أى : أطلعنى على سره وعلانيته .

والإستبرق : الديباج المصنوع من الحرير السميك ، وهو من أجود أنواع الثياب .

والمعنى : أن هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، يعيشون فى الجنات حالة كونهم ، متكئين فى جلستهم على فرش بطائنها الداخلية من الديباج السميك ، « وجنى الجنتين دان » ، أى : وما يجنى ويؤخذ من الجنتين قريب التناول ، دانى القطاف .

فالمراد بقوله - تعالى - : « وجنى الجنتين » ما يجتنى من ثمارهما . و « دان » من الدنو بمعنى القرب .

أى : أنهم لا يتعبون أنفسهم فى الحصول على تلك الفواكه ، وإنما يقطفون ما يشاءون منها ، وهم متكئون على فراشهم الوثير .

ثم بين - سبحانه - ألوانا أخرى من نعيمهم فقال : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان » .

وقوله - سبحانه - : « قاصرات الطرف » : صفة لموصوف محذوف . والطمث : كناية عن إفتضاض البكارة . يقال : طمث الرجل امرأته - من باب ضرب وقتل - ، إذا أزال بكارتها . وأصل الطمث : الجماع المؤدى إلى خروج دم الفتاة البكر ، ثم أطلق على كل جماع وإن لم يكن معه دم .

أى : فى هاتين الجنتين اللتين أعدهما - سبحانه - لمن خاف مقامه . . . نساء قاصرات عيونهن على أزواجهن ، لا يلتفتن إلى غيرهم ، وهؤلاء النساء من صفاتهن - أيضا - أنهن أبكار ، لم يلمسهن ولم يُزِل بكارتهن أحد قبل هؤلاء الأزواج . . . وكأن هؤلاء النساء فى صفائهن وجمالهن وحمرة خدودهن . . . الياقوت والمرجان .

ثم ختم - سبحانه - هذه النعم بقوله : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » والاستفهام لنفى أن يكون هناك مقابل لعمل الخير ، سوى الجزاء الحسن ، فالمراد بالإحسان الأول . القول الطيب ، والفعل الحسن . والمراد بالاحسان الثانى : الجزاء الجميل الكريم على فعل الخير .

أى : ما جزاء من آمن وعمل صالحا ، وخاف مقام ربه ، ونهى نفسه عن الهوى . . . إلا أن يجازى الجزاء الحسن ، ويقدم له العطاء الذى يشرح صدره وتقر به عينه .

وقد عقب - سبحانه - بعد كل آية من تلك الآيات السابقة بقوله: «فبأى آلاء ربكما تكذبان» ، لأن كل آية قد إشتملت على نعمة أو نعم عظيمة، من شأن العاقل أن يشكر الله - تعالى - عليها شكرا جزيلا .

* * *

ثم واصلت السورة حتى نهايتها ، حديثها عن النعم التى منحها - سبحانه - لمن خاف مقام ربه ، فقال :

« ومِنْ دُونِهِما جنَّتان (٦٢) فبأى آلاءِ ربكما تكذِّبان (٦٣) مُدهامتَان(٦٤) فبأى آلاء ربكما تكذبان(٦٥) فيهما عينانِ نضّاختان(٦٦) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٦٧) فيهمَا فاكِهةٌ ونخلٌ ورُمانٌ (٦٨) فبأى آلاء ربكما تكذِّبان (٦٩) فيهنَّ خيراتٌ حِسَان (٧٠) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧١) حورٌ مقصورَاتٌ فى الخيامِ (٧٢) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧٣) لم يطمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهُم ولا جانٌّ (٧٤) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧٥) متكِئين عَلَى رفرفٍ خُضْرٍ وعبقَرِىٍّ حِسَان(٧٦) فبأى آلاء ربكما تكذبان (٧٧) تباركَ اسم ربِّكَ ذِى الجَلال والإِكْرامِ (٧٨) » .

وقوله - سبحانه - : «ومن دونهما جنتان» معطوف على قوله - تعالى - قبل ذلك : «ولمن خاف مقام ربه جنتان»

ولفظ دون هنا يحتمل أنه بمعنى غير: أى : ولمن خاف مقام ربه جنتان، وله - أيضا - جنتان أخريان غيرهما، فهو من باب قوله - سبحانه - : «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة . . .»

قالوا : ويشهد لهذا الاحتمال ، أن الله - تعالى - قد وصف هاتين الجنتين بما يقارب وصفه للجنتين السابقتين ، وأن تكرير هذه الأوصاف من باب الحض على العمل الصالح، الذى يوصل إلى الظفر بتلك الجنات ،وما إشتملت عليه من خيرات ...

ويحتمل أن لفظ « دون » هنا : بمعنى أقل ، أى : وأقل من تلك الجنتين فى المنزلة والقدر ، جنتان أخريان ..

وعلى هذا المعنى سار جمهور المفسرين ، ومن المفسرين الذين ساروا على هذا الراى الامام ابن كثير ، فقد قال - رحمه الله - : هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة، بنص القرآن ، فقد قال - تعالى - : «ومن دونهما جنتان » ...

فالأوليان للمقربين ، والأخريان : لأصحاب اليمين ...

والدليل على شرف الأولين على الأخريين وجوه :

أحدها : أنه نعت الأوليين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ومن دونهما جنتان ، وهذا ظاهر فى شرف التقدم ، وعلوه على الثانى .

وقال هناك « ذواتا أفنان » ، وهى الأغصان ، أو الفنون فى الملاذ : وقال هنا « مدهامتان » أى : سوداوان من شدة الرى من الماء ... »(١) .

وقال الإمام القرطبى : فإن قيل : كيف لم يذكر أهل هاتين الجنتين ، كما ذكر أهل الجنتين الأوليين ؟

قيل . الجنان الأربع لمن خاف مقام ربه . إلا أن الخائفين مراتب ، فالجنتان الأوليان لأعلى العباد منزلة فى الخوف من الله - تعالى - ، والجنتان

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٧٩ .

الأخريان لمن قصرت حاله فى الخوف من الله - تعالى - »(٢) .

وقال الآلوسى : قوله - تعالى - : « ومن دونهما جنتان . . . » مبتدأ وخبر أى : ومن دون تينك الجنتين فى المنزلة والقدر جنتان أخريان . والأكثرون على أن الأوليين للسابقين ، وهاتين لأصحاب اليمين . .

وقوله : « مدهامتان » صفة للجنتين . . . أى : هما شديدتا الخضرة ، والخضرة إذا اشتدت ضربت إلى السواد من كثرة الرى . . . »(١) .

ثم فصل - سبحانه - أوصاف هاتين الجنتين فقال : « فيهما عينان نضاختان » أى : فوارتان بالماء الذى لا ينقطع منهما من النضخ وهو فوران الماء من العيون مع حسنه وجماله .

« فيهما فاكهة ونخل ورمان » وعطف - سبحانه - النخل والرمان على الفاكهة مع أنهما منها ، لفضلهما ، فكأنهما لما لهما من المزية جنسان آخران .

أو - كما يقول صاحب الكشاف - : « لأن النخل ثمره فاكهة وطعام ، والرمان فاكهة ودواء ، فلم يخلصا للتفكه ، ولذا قال أبو حنيفة - رحمه الله - إذا حلف لا يأكل فاكهة ، فأكل رمانا أو رطبا لم يحنث . . . »(٢) .

والضمير فى قوله - تعالى - : « فيهن خيرات حسان » يعود إلى الجنات الأربع : الجنتين المذكورتين فى قوله - تعالى - « ولمن خاف مقام ربه جنتان » والجنتين المذكورتين هنا فى قوله - سبحانه - : « ومن دونهما جنتان » .

ولفظ « خيرات » صفة لموصوف محذوف ، أى : نساء خيرات حسان .

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٧ ص ١٨٤ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ١٢١ .
(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٠ .

أي : فى هذه الجنات نساء فاضلات الأخلاق، حسان الخَلْق والخُلُق .

قال الجمل : قوله : « خيرات » فيه وجهان : أحدهما : أنه جمع خيرة - بزنة فعله بسكون العين - يقال : امرأة خيرة ، وأخرى شرة ، والثانى : أنه جمع خيرة المخفف من خيرة بالتشديد ، ويدل على ذلك قراءة خيرات - بتشديد الياء »[1] .

وقوله « حور مقصورات فى الخيام » بدل من خيرات . والحور : جمع حوراء ، وهى المرأة ذات الحوَر ، أى : ذات العين التى اشتد بياضها واشتد سوادها فى جمال وحسن ...

ومقصورات : جمع مقصورة أى : محتجبة فى بيتها . قد قصرت نفسها على زوجها ... فهى لا تجرى فى الطرقات ... بل هى ملازمة لبيتها ، وتلك صفة النساء الفضليات اللاتى يزورهن من يريدهن ، أما هن فكما قال الشاعر :

ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانهن فتعذرُ

أى : فى تلك الجنات نساء خيرات فضليات جميلات مخدرات .. ملازمات لبيوتهن ، لا يتطلعن إلى غير رجالهن ...

هؤلاء النساء « لم يطمثهن » أى : لم يلمسهن ويباشرهن « إنس قبلهم ولا جان » .

أى : لم يجامعهن أحد لا من الإنس ولا من الجن قبل الرجال الذين خصصهن الله - تعالى - لهم ...

وقوله : « متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ... » حال من قوله - تعالى - « ولمن خاف مقام ربه ... » .

والرفرف : مأخوذ من بمعنى الارتفاع ، وهو اسم جمع واحده رفرفة ، أو اسم جنس جمعى و « خضر » صفة له .

(١) حاشية الجمل ج ٤ ص ٢٦٦ .

والعبقرى : وصف لكل ما كان ممتازا فى جنسه ، نادر الوجود فى صفاته، والمراد به هنا الثوب الموشى بالذهب ، والبالغ النهاية فى الجودة والجمال ...

قال القرطبي : العبقرى : ثياب منقوشة تبسط ... قال القتبي : كل ثوب وشى عند العرب فهو عبقرى . وقال أبو عبيد . هو منسوب إلى أرض يعمل فيها الوشى ...

ويقال : عبقر قرية باليمن تنسج فيها رُبُطٌ منقوشة . . وقال ابن الأنبارى إن الأصل فيه أن عبقر قرية يسكنها الجن ينسب إليها كل فائق جليل ، ومنه قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : فى عمر بن الخطاب : « فلم أر عبقريا يفرى فَرِيَّه »[1] .

أى : هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم ، قد أسكناهم بفضلنا الجنات العاليات حالة كونهم فيها على الفرش الجميلة المرتفعة . وعلى الأبسطة التى بلغت الغاية فى حسنها وجودتها ودقة وشيها ...

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بقوله : «تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام» .

أى : جل شأن الله - تعالى - ، وارتفع اسمه الجليل عما لا يليق بشأنه العظيم ، فهو - عز وجل - صاحب الجلال ، أى : العظمة والاستغناء المطلق ، والإكرام : أى : الفضل التام ، والإحسان الذى لا يقاربه إحسان ،

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الرحمن » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدوحة - قطر
صباح الأحد ٦ من رجب ١٤٠٦ هـ
١٦ من مارس ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

(١) تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ١٩٢ .

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الواقعة

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

١ ــ سورة الواقعة هى السورة السادسة والخمسون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول ، فقد كان نزولها بعد سورة « طـــه » ، وقبل سورة « الشعراء » .

وقد عرفت بهذا الاسم منذ عهد النبوة ، فعن ابن عباس قال : قال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يارسول الله قد شبت . قال : شيبتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا »[١].

٢ ــ وعدد آياتها ست وتسعون آية عند الكوفيين ، وسبع وتسعون عند البصريين ، وتسع وتسعون عند الحجازيين والمدنيين .

٣ ــ وسورة « الواقعة » من السور المكية الخالصة ، واستثنى بعضهم بعض آياتها ، وعدها من الآيات المدنية ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فلا أقسم بمواقع النجوم ... إلى قوله ـ تعالى ـ : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » .

والذى تطمئن إليه النفس أن السورة كلها مكية ، وأن ما استثنى منها لم يقم دليل يعتد به على صحته .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ، ص ٢٨١ .

٤ — وقد افتتحت سورة « الواقعة » بالحديث عن أهوال يوم القيامة ، وعن أقسام الناس فى هذا اليوم ...

قال — تعالى — : « وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ماأصحاب المشأمة . والسابقون السابقون .... » .

٥ — وبعد أن فصل — سبحانه — الحديث عن كل قسم من هذه الأقسام ، وبين ما أعد له من جزاء عادل ... أتبع ذلك بالحديث عن مظاهر قدرته ، وسعة رحمته ، وعظيم فضله ، فقال — تعالى — : « نحن خلقناكم فلولا تصدقون . أفرأيتم ماتمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ...

أفرأيتم ماتحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ...

أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون .

أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ..

٦ — وكما افتتحت السورة الكريمة ببيان أهوال يوم القيامة ، وببيان أنواع الناس فى هذا اليوم ... اختتمت — أيضا — بالحديث عن أقسام الناس يوم الحساب ، وعاقبة كل قسم ، قال — تعالى — : فأما إن كان المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم . إن هذا لهو حق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم » .

٧ — هذا ، والمتدبر فى هذا السورة الكريمة ، يراها قد ساقت بأسلوب بليغ مؤثر ، مايحمل الناس على حسن الاستعداد ليوم القيامة ، عن طريق الإيمان العميق ، والعمل الصالح ، ومايبين لهم عن طريق المشاهدة مظاهر قدرة الله — تعالى — ووحدانيته ، وما يكشف لهم النقاب عن أقسام الناس فى يوم الحساب ، وعن عاقبة كل قسم ، وعن الأسباب التى وصلت بكل قسم منهم إلى ماوصل إليه من جنة أو نار ...

وماريهم عجزهم المطلق أمام قدرة الله ـ تعالى ـ وأمام قضائه وقدره .. فهم يرون بأعينهم أعز إنسان عندهم ، تنتزع روحه من جسده ... ومع ذلك فهم عاجزون عن أن يفعلوا شيئا ...

وصدق الله إذ يقول : « فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين » ...

نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعلنا من عباده المقربين ... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدوحة ـ قطر
مساء الاثنين ٧ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ
١٧ من مارس سنة ١٩٨٦ م

د . محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية
والعربية ـ جامعة الأزهر

التفسير

قال الله تعالى : « إذَا وقَعتِ الواقِعةُ (١) ليسَ لوقْتِها كاذِبةٌ (٢) خافِضةٌ رَافِعةٌ (٣) إذا رُجَّتِ الأرضُ رَجًّا (٤) وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا (٥) فكانتْ هباءً مُنبَثًّا (٦) وكنتُم أزْوَاجاً ثلاثةً (٧) فأصحابُ المَيْمنةِ ما أَصْحابُ المَيْمنة (٨) وأَصحابُ المشأَمةِ ما أصحابُ المَشْأَمةِ (٩) والسابقُونَ السَّابقُونَ (١٠) أولئكَ المقرَّبُونَ (١١) فى جنَاتِ النَّعيمِ (١٢) ثُلةٌ من الأوَّلينَ (١٣) وقَليلٌ منَ الآخرينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوضُونةٍ (١٥) متكِئينَ عَليهاَ مُتَقابلِينَ (١٦) يطُوفُ عليهِم ولدَانٌ مخلَّدونَ (١٧) بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعينٍ (١٨) لايُصَدَّعُونَ عنها ولا يُنْزِفُونَ (١٩) وفاَكهةٍ مما يتخيَّرُونَ (٢٠) ولَحْمِ طَيرٍ مما يَشْتَهُونَ (٢١) وحُورٌ عِينٌ (٢٢) كأمثالِ اللؤْلُوْ المكنونِ (٢٣) جزَاءً بما كانوا يَعمَلُونَ (٢٤) لا يَسْمَعُونَ فيهـا لَغواً ولا تأْثِيماً (٢٥) إلاَّ قيلاً سلاَماً سلاَماً (٢٦) » .

افتتحت سورة « الواقعة » بتقرير الحقيقة التى لاشك فيها ، وهى أن يوم القيامة حق ، وأن الحساب حق ، وأن الجزاء حق ...

وقد اختير الافتتاح بالظرف المتضمن معنى الشرط ، لأنه ينبه الأذهان ويحرك النفوس لترقب الجواب .

والواقعة من أسماء القيامة كالقارعة ، والحاقة ، والآزفة ...

قال الجمل : وفى « إذا » هنا أوجه : أحدها : أنها ظرف محض ، ليس فيها معنى الشرط ، والعامل فيها ليس ، من حيث ما فيها من معنى النفى ، كأنه قيل : ينتفى التكذيب بوقوعها إذا وقعت .

الثاني : أن العامل فيها اذكر مقدرا . الثالث : أنها شرطية وجوابها مقدر ، أي إذا وقعت الواقعة ، كان كيت وكيت ، وهو العامل فيها ...»[١] .

وقال بعض العلماء : والذي يظهر لي صوابه ، أن إذا هنا : هي الظرفية المتضمنة معنى الشرط ، وأن قوله الآتي : «إذا رجت الأرض رجا» بدل من قوله : «إذا وقعت الواقعة» ، وأن جواب إذا هو قوله : فأصحاب الميمنة ...

وعليه فالمعنى : إذا قامت القيامة ، وحصلت هـــذه الأحوال العظيمة ، ظهرت منزلة أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ...»[٢] .

وقوله - تعالى - : «ليس لوقعتها كاذبة» مؤكد لما قبله ، من أن وقوع يوم القيامة حق لا ريب فيه .

وكاذبة صفة لموصوف محذوف ، وهي اسم فاعل بمعنى المصدر ...

أي : عندما تقع القيامة ، لا تكذبها نفس من النفوس ، التي كانت تجحدها في الدنيا ، بل كل نفس حينئذ تكون مصدقة لها .

قال القرطبي : قوله : «ليس لوقعتها كاذبة» . الكاذبة مصدر بمعنى الكذب ، والعرب قد تضع الفاعل والمفعول موضع المصدر ، كقوله - تعالى - لا تسمع فيها لاغية ، أي : لغو ...

أي : ليس لقيام القيامة كذب ولا تخلف بل هي واقعة يقينا -.

أو الكاذبة صفة والموصوف محذوف ، أي : ليس لوقعتها حال كاذبة أو نفس كاذبة ...»[٣] .

---

(١) راجع حاشية الجمل جـ ٤ ص ٢٧٠ .
(٢) راجع أضواء البيان جـ ٧ ص ٧٦١ للشيخ الشنقيطي - رحمه الله - .
(٣) سورة النساء الآية ٨٧

وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ : « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ... »(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين »(٢) .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما يترتب على قيام الساعة من أحوال فقال : « خافضة رافعة » أى : هى خافضة للأشقياء إلى أسفل الدركات ، وهى رافعة للسعداء إلى أعلى الدرجات .

والخفض والرفع يستعملان عند العرب فى المكان والمكانة ، وفى العز والإهانة .. ونسب ـ سبحانه ـ الخفض والرفع إلى القيامة على سبيل المجاز .

والمقصود بالآية الكريمة ترغيب الصالحين فى الازدياد من العمل الصالح ، لترفع منزلتهم يوم القيامة ، وترهيب الفاسقين من سوء المصير الذى ينتظرهم ، إذا ما استمروا فى فسقهم وعصيانهم .

ويرى بعضهم أن المراد بالخفض والرفع فى هذا اليوم ، ما يترتب عليه من تناثر النجوم ، ومن تبدل الأرض غير الأرض ، ومن صيرورة الجبال كالعهن المنفوش ...

وعلى هذا يكون المقصود بالآية : التهويل من شأن يوم القيامة ، حتى يستعد الخلق لاستقباله ، بالإيمان والعمل الصالح ، حتى لا يصيبهم فيه ما يصيب العصاة المفسدين ، من خزى وهوان ...

والآية الكريمة تسع المعنيين ، لأن فى هذا اليوم يرتفع الأخيار ، وينخفض الأشرار ولأن فيه ـ أيضا ـ « تبدل الأرض غير الأرض والسموات ... » .

والمراد بالرج فى قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « إذا رجت الأرض رجا » .

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٩٤
(٢) سورة غافر الآية ٨٤

وبست الجبال بسا . . . التحريك الشديد ، والاضطراب الواضح . يقال : رج فلان الشيء رجا ، إذا حركه بعنف ، وزلزله بقوة . . .

وقوله : « وبست » من البس بمعنى التفتيت والتكسير الدقيق ، ومنه قولهم : بس فلان السويق ، إذا فتته ولته وهيأه للأكل . .

أى : إذا رجت الأرض وزلزلت زلزالا شديدا ، وفتتت الجبال تفتيتا حتى صارت كالسويق الملتوت . . فكانت تلك الجبال كالهباء المنبث أى : المتفرق الذى يلوح من خلال شعاع الشمس إذا مادخل من نافذة . . .

إذا ما حدث كل ذلك ، وجد كل إنسان جزاءه من خير أو شر « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

فجواب الشرط ماذكرته الآيات بعد ذلك من حسن عاقبة أصحاب الميمنة وسوء عاقبة أصحاب المشأمة .

ومن الآيات الكثيرة ، التى وردت فى معنى هذه الآيات ، قوله ـ تعالى ـ : « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا »[1] .

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ : « وكنتم أزواجا ثلاثة » للناس جميعا ، وكان بمعنى صار ، والأزواج بمعنى الأصناف والأنواع . . .

أى : وصرتم ـ أيها الناس ـ فى هذا اليوم الهائل الشديد ، أصنافا ثلاثة ، على حسب أحوالكم فى الدنيا . . .

ثم فصل ـ سبحانه ـ الحديث عن الأزواج الثلاثة فقال : « فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون » .

والمراد بأصحاب الميمنة ، أولئك السعداء الذين يؤتون كتبهم يوم القيامة بأيمانهم ، أو لأنهم يذهب بهم ذات اليمين إلى الجنة . . .

---

(١) سورة المزمل . الآية ١٤

أو سموا بذلك ، لأنهم ميامين ، أى : أصحاب بركة على أنفسهم ، لأنهم أطاعوا ربهم وخالفوا أهواءهم ... فكانت عاقبتهم الجنة .

وسمى الآخرون بأصحاب المشأمة ، لأنهم مشائيم ، أى : أصحاب شؤم على أنفسهم ، لأنهم طغوا وآثروا الحياة الدنيا .: فكانت عاقبتهم النار . .

أو سموا بذلك ، لأنهم يؤتون كتبهم بشمالهم ، أو لأنهم يذهب بهم ذات الشمال إلى النار ... والعرب تسمى الشمال شؤما ، كما تسمى اليمين يمنا .

والتعبير بقوله : « ما أصحاب الميمنة » للتفخيم والإعلاء من شأنهم ، كما أن التعبير بقوله - تعالى - . « ما أصحاب المشأمة » للتحقير والتعجيب من حالهم .

وجملة : « ما أصحاب الميمنة » مكونة من مبتدأ - وهو ما الاستفهامية - ، وخبر وهو مابعدها ، وهذه الجملة خبر لقوله « فأصحاب الميمنة » .. ووضع فيها الاسم الظاهر موضع الضمير للتفخيم ، بخلاف وضعه فى أصحاب المشأمة ، فهو للتشنيع عليهم .

وشبيه بهذا الأسلوب قوله - تعالى - الحاقة ما الحاقة . والقارعة ما القارعة . ولا يؤتى بمثل هذا التركيب إلا فى مواضع التفخيم ، أو التعجيب ...

والمعنى : فأصحاب الميمنة ، أى شىء هم فى أحوالهم وصفاتهم الكريمة ، وأصحاب المشأمة ، أى شىء هم فى أحوالهم وصفاتهم القبيحة ؟

وقد ترك هذا الاستفهام التعجيبى على إبهامه ، لتذهب النفس فيه كل مذهب من الثواب أو العقاب ...

وقوله : « والسابقون السابقون » هؤلاء هم الصنف الثالث ، وهم الذين سبقوا غيرهم إلى كل قول أوفعل فيه طاعة لله - تعالى - وتقرب إلى جلاله .

والأظهر فى إعراب مثل هذا التركيب ، أنه مبتدأ وخبر ، على عادة العرب فى تكريرهم اللفظ ، ، وجعلهم الثانى خبرا عن الأول ، ويعنون بذلك أن اللفظ المخبر عنه ، معروف خبره ، ولا يحتاج إلى تعريفه ، كما فى قول الشاعر : أنا ابو النجم ، وشعرى شعرى ...

يعنى ، أن شعرى هو الذى أتاك خبره ، وانتهى إليك وصفه ...

والمعنى : والسابقون هم الذين اشتهرت أحوالهم ، وعرفت منزلتهم ، وبلغت من الرفعة مبلغا لا يفى به إلا الإخبار عنهم بهذا الوصف.

وحذف - سبحانه - المتعلق فى الآية لإفادة العموم . أى : هم السابقون إلى كل فضل ومكرمة وطاعة ...

وأخرهم - سبحانه - عن أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، لتشويق السامع إلى معرفة أحوالهم ، وبيان ما أعد لهم من ثواب عظيم ، فصله بعد ذلك فى قوله - تعالى - « أولئك المقربون . فى جنات النعيم .. » أى : والسابقون غيرهم إلى كل فضيلة وطاعة . أولئك هم المقربون عند الله - تعالى - وأولئك هم الذين مقرهم جنات النعيم .

فالجملة الكريمة مستأنفة استئنافا بيانيا، لأنها جواب عما يثيره فى النفوس قوله - تعالى - « والسابقون السابقون » و « أولئك » مبتدأ ، وخبره ما بعده وما فيه من معنى البعد، مع قرب العهد بالمشار إليه، للإشعار بسمو منزلتهم عند الله - تعالى - ولفظ « المقربون » مأخوذ من القربة بمعنى الحظوة . وهو أبلغ من القريب ، لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء ....

أى : أولئك هم المقربون من ربهم - عز وجل - قربا لا يعرف أحد مقداره ...

وقوله - سبحانه - : « فى جنات النعيم » بيان لمظهر من مظاهر آثار هذا التقرب .

قال الآلوسى : وقوله : « فى جنات النعيم » متعلق بقوله « المقربون » أو بمضمر هو حال من ضميره ، أى : كائنين فى جنات النعيم .

وعلى الوجهين ، فيه إشارة إلى أن قربهم محض لذة وراحة ، لا كقرب

خواص الملك القائمين بأشغاله عنده ، بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لا شغل لهم ، ولا يرد عليهم أمر أو نهى ، ولذا قيل « جنات النعيم » دون جنات الخلود ونحوه .... » (١)

ثم قال ـ تعالى ـ « ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين ، والثلة : الجماعة الكثيرة من الناس ، وأصلها : القطعة من الشيء . وهى خبر لمبتدأ محذوف . وللمفسرين فى المراد بالثلة من الأولين ، وبالقليل من الآخرين ، إتجاهان :

أولهما : يرى أصحابه أن المراد بقوله : « ثلة من الأولين » : أولئك السابقون من الأمم الكثيرة السابقة على الأمة الإسلامية ، وهم الذين صدقوا أنبياءهم وعزروهم ونصروهم ...

والمراد بقوله : « وقليل من الآخرين » المؤمنون من هذه الأمة الإسلامية

وعلى هذا المعنى سار صاحب الكشاف ، فقد قال : الثلة : الأمة الكثيرة من الناس ، قال الشاعر :

وجاءت إليهم ثلة خندقية بجيش كتيار من السيل مزبد

وقوله ـ عز وجل ـ : « وقليل من الآخرين » كفى به دليلا على الكثرة أى فى لفظ « ثلة » ـ ، وهو من الثل وهو الكسر ... كأنها جماعة كسرت من الناس وقطعت منهم .

والمعنى : أن السابقين من الأولين كثير ، وهم الأمم من لدن آدم ـ عليه السلام ـ إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ . « وقليل من الآخرين » وهم أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم .... » (٢)

وأما الإتجاه الثانى فيرى أصحابه ، أن الخطاب فى قوله ـ تعالى ـ « وكنتم أزواجا ثلاثة » للأمة الإسلامية خاصة ، وأن المراد بقوله : « ثلة من الأولين صدر هذه الأمة الاسلامية ...

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٣٣

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣

وأن المراد بقوله - تعالى - : « وقليل من الآخرين » من أتى بعد صدر هذه الأمة إلى يوم القيامة ...

وقد أفاض الامام ابن كثير فى ترجيح هذا القول ، فقال ما ملخصه : وقد إختلفوا فى المراد بقوله : « ثلة من الأولين وقليل من الآخرين » فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، بالآخرين هذه الأمة . . . وهو إختيار ابن جرير ...

وهذا الذى إختارة ابن جرير ههنا فيه نظر ، بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة ، هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل بمجموع الأمم بهذه الأمة ...

فالقول الراجح أن يكون المراد بقوله - تعالى - « ثلة من الأولين » أى : من صدر هذه الأمة .

والمراد بقوله : « وقليل من الآخرين » أى : من هذه الأمة . ..

وروى عن الحسن أنه قال : أما السابقون فقد مضوا ، ولكن اللهم إجعلنا من أصحاب اليمين »[1]

وقد رجح بعض العلماء القول الأول فقال ما ملخصه : وقد إختلف أهل العلم فى المراد بهذه الثلة من الأولين ، وهذا القليل من الآخرين المذكورين هنا .

كما إختلفوا فى الثلتين المذكورين فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » ...

وظاهر القرآن يفيد فى هذا المقام : أن الأولين فى الموضعين من الأمم الماضية .

والآخرين فيهما من هذه الأمة .

وأن قوله - تعالى - : « ثلة من الأولين . وقليل من الآخرين » فى السابقين خاصة .

وأن قوله - تعالى - : « ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » فى أصحاب اليمين خاصة .

وذلك لشمول الآيات لجميع الأمم ، إذ قوله - تعالى - : « وكنتم أزواجا ثلاثة . . » خطاب لجميع أهل المحشر ، فظهر أن السابقين وأصحاب اليمين ، منهم من هو من الأمم السابقة . ومنهم من هو من هذه الأمة ...

ولا غرابة فى أن يكون السابقون من الأمم السابقة أكثر ... لأن الأمم الماضية أمم كثيرة ، وفيهم أنبياء كثيرون ...

وأما أصحاب اليمين من هذه الأمة ، فيحتمل أن يكونوا أكثر من أصحاب اليمين من جميع الأمم ، لأن الثلة تتناول العدد الكثير ، وقد يكون أحد العددين الكثيرين ، أكثر من الآخر ، مع أنهما كلاهما كثير .

ولهذا تعلم أن مادل عليه ظاهر القرآن ، واختاره ابن جرير ، لاينافى ماجاء من أن نصف أهل الجنة من هذه الأمة ... »(١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء السابقين بالخيرات من عطاء كريم ، فقال : « على سرر موضونة » .

والسرر : جمع سرير ، وهو ما يستعمله الإنسان لنومه أو الإتكاء عليه فى جلسته ...

والموضونة : أي المنسوجة بالذهب نسجا محكما ، لراحة الجالس عليها ولتكريمه . يقال وضن فلان الغزل يَضِنُه ، إذا نسجه نسجا متقنا جميلا ...

أى : مستقرين على سرر قد نسجت أطرافها بالذهب وبما يشبهه ، نسجا بديعا يشرح الصدر . فقوله : « على سرر موضونة » حال من المقربين ...

(١) راجع أضواء البيان جـ ٧ ص ٧٦٩ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

ومثله قوله : « متكئين عليها متقابلين » أى : مضطجعين عليها إضطجاع الذى إمتلأ قلبه بالراحة ، وفراغ البال من كل مايشغله ، وقد قابل وجه كل واحد منهم وجه الآخر ، ليتم سرورهم ونعيمهم ، إذ تقابل وجوه الأحباب يزيد الأنس والبهجة ..

« يطوف عليهم ولدان مخلدون » أى : يدور عليهم من أجل خدمتهم ، غلمان شبابهم باق لا يتغير ، وهيئتهم الجميلة على حالها لاتتبدل . فهم دائما على تلك الهيئة المنعوتة بالشباب والمنظر الحسن .

« بأكواب وأباريق وكأس من معين » أى : يطوفون عليهم ، بأكواب أى بأقداح لاعرا لها ، وأباريق ـ أى : وبأوان ذات عرا ، وكأس من معين » أى: وبإناء مملوء بالخمر الكثير الجارى، فقوله « معين » من المعن بمعنى الكثرة

« لايصدعون عنها .. » أى : لا يصيبهم صداع أوتعب بسبب شرب هذه الخمر ، فمن هنا بمعنى باء السببية .

وقوله « ولا ينزفون » أى : ولا تذهب الخمر عقولهم ، كما تفعل خمر الدنيا بشاربيها ، مأخوذ من النَّزْفِ ، بمعنى إختلاط العقل .

وقوله : « وفاكهة مما يتخيرون » أى : ويطاف عليهم بفاكهة يتلذذون بأكلها ، وهذه الفاكهة تأتيهم من كل نوع ، على حسب مايريدون ويشتهون.

ويطاف عليهم ـ أيضا ـ بلحم مما يشتهون » مما يحبونه ويختارونه من هذه اللحوم الطيبه المحببه إلى النفوس .

وقوله « وحور عين » معطوف على قوله « ولدان مخلدون » أى: ويطوف عليهم ـ أيضا ـ نساء عيونهن شديدة البياض والسواد فى سعة وجمال .

وهؤلاء الحور العين « كأمثـال اللؤلؤ المكنون » أى : يشبهن اللؤلؤ المكنون الذى لم تلمسه الأيدى .. فى صفاء بيضهن ، وفى شدة جمالهن .

وقوله - سبحانه - : «جزاء بما كانوا يعملون» بيان للأسباب التى أوصلتهم إلى هذا النعيم الكبير ..

ولفظ «جزاء» منصوب على أنه مفعول لأجله لفعل محذوف . أى : أعطيناهم هذا العطاء الجزيل ، جزاء مناسبا بسبب ما كانوا يعملونه فى الدنيا من أعمال صالحة .

وقوله - تعالى - : «لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما» تتميم للنعم التى أنعم - سبحانه - عليهم بها فى الجنة .

واللغو : الكلام الساقط الذى لا فائدة منه . ولا وزن له يقال : لغا فلان يلغو ، إذا قال كلاما يلام عليه .

والتأثيم : مصدر أثم ، إذا نسب غيره إلى الإثم وفعل ما لا يليق .

أى : أن هؤلاء المقربين لا يسمعون فى الجنة كلاما لا يعتـد به ، ولا يسمعون - أيضا - كلاما سيئا أو قبيحا ، بأن ينسب بعضهم إلى بعض ما لا يليق به . وإنما الذى يسمعونه هو الكلام الطيب المشتمل على الأمان المتكرر ، والتحية الدائمة .

والاستثناء منقطع ، لأن السلام لا يندرج تحت اللغو ، وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم ، و«قيلا» بمعنى «قـولا» وهو منصوب على الاستثناء .

ولفظ «سلاما» الأول ، بدل من قوله «قيلا» أو نعت له . . . أى : سالما من العيوب والتكرير لهذا اللفظ القصد منه التأكيد ، والإشعار بكثرة تحيتهم بهذا اللفظ الدال على المحبة والوئام .

أى : لا يسمعون فى الجنة إلا سلاما إثر سلام ، وتحية فى أعقاب تحية ، ومودة تتلوها مودة .

وإلى هنا نجد الآيات الكريمة ، قد بينت أقسام الناس يوم القيامة ، وفصلت ما أعده - سبحانه - للسابقين ، من عطاء جزيل ، وفضل عظيم .

* * *

وبعد هذا الحديث الزاخر بالخيرات والبركات عن السابقين . . . جاء الحديث عن أصحاب اليمين وعما أعده الله - تعالى - لهم من ثواب فقال - سبحانه - :

« وأصحابُ اليمينِ ما أصحابُ اليمين (٢٧) في سِدْرٍ مَخضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ (٢٩) وظِلٍّ مَمْدُودٍ (٣٠) وماءٍ مَسكُوبٍ (٣١) وفاكِهةٍ كثيرةٍ (٣٢) لا مقطوعةٍ ولا مَمْنُوعةٍ (٣٣) وفُرُشٍ مرفُوعةٍ (٣٤) إنَّا أَنْشَأْناهُنَّ إنشاءً (٣٥) فجعلناهُنَّ أبكاراً (٣٦) عُرُباً أتراباً (٣٧) لأصحابِ اليَمينِ (٣٨) ثُلَّةٌ من الأولينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ من الآخِرينَ (٤٠) » .

قال الآلوسي : قوله - تعالى - « وأصحاب اليمين . . . » شروع في بيان تفاصيل شئونهم ، بعد بيان شئون السابقين .

وأصحاب : مبتدأ . وقوله : « ما أصحاب اليمين » جملة استفهامية مشعرة بتفخيمهم ، والتعجب من حالهم . وهي خبر المبتدأ . . أو معترضة ، والخبر قوله : في سدر مخضود . . . »[1] .

والسدر : شجر النَّبِق ، واحده سِدْرة . ومخضود أي : منزوع الشوك . يقال : خضد فلان الشجر ، إذا قطع الشوك الذي به فهو خضيد ومخضود . أو مخضود بمعنى ملىء بالثمر حتى قذفت أغصانه ، من خضدت الغصن ، إذا ثنيته وأملته إلى جهة أخرى .

---

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٧ ص ١٣٩ .

أى : وأصحاب اليمين ، المقول فيهم ما أصحاب اليمين على سبيل التفخيم، مستقرون يوم القيامة فى حدائق مليئة بالشجر الذى خلا من الشوك وإمتلأ بالثمار الطيبة ، التى تثنت أغصانها لكثرتها . . .

قال القرطبى : وذكر ابن المبارك قال : حدثنا صفوان عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب النبى – صلى الله عليه وسلم – يقولون : إنه لينفعنا الأعراب ومسائلهم . قال : أقبل أعرابى يوما فقال : يارسول الله ، لقد ذكر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أرى فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ .

فقال صلى الله عليه وسلم – وما هى ؟ قال : السدر ، فإن له شوكا مؤذيا . فقال – صلى الله عليه وسلم – : ألم يقل الله – تعالى – « فى سدر مخضود » ؟ خضد الله – تعالى – شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة .(١)

وقوله – تعالى : « وطلح منضود » بيان لنعمة ثانية . والطلح : قالوا هو شجر الموز ، واحده طلحة . والمنضود : المتراكب بعضه فوق بعض ، بحيث صار ثمرة متراصا على هيئة جميلة تسر الناظرين .

فقوله « منضود » إسم مفعول من النضد وهو الرصّ . يقال : نضد فلان متاعه ، – من باب ضرب – إذا وضع بعضه فوق بعض بطريقة منسقة جميلة . ومنه قوله – تعالى – : « والنخل باسقات لها طلع نضيد »

وقوله – سبحانه – « وظل ممدود » أى : ممتد متسع منبسط ، بحيث لا يزول كما يزول الظل فى الدنيا ، ويحل محله ضوء الشمس .

أخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها عام - . إقرءوا إن شئتم « وظل ممدود »(٢)

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٠٧

(٢) واجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٨٩

وقوله - سبحانه - : «وماء مسكوب» أى : وفيها ماء كثير مصبوب يجرى على الأرض ، ويأخذون منه ما شاءوا ، بدون جهد أو تعب ..

يقال : سكب فلان الماء سكبا ، إذا صبه بقوة وكثرة .

وقوله - تعالى - : «وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة» أى : وهم بجانب كل ذلك يتلذذون فى الجنة بفاكهة كثيرة ، هذه الفاكهة ليست مقطوعة عنهم فى وقت من الأوقات ، ولا تمتنع عن طالبها متى طلبها .

وجمع - سبحانه - بين إنتفاء قطعها ومنعها ، للإشعار بأن فاكهة الجنة ليست كفاكهة الدنيا فهى تارة تكون مقطوعة ، لأنها لها أوقات معينة تظهر فيها ، وتارة تكون موجودة ولكن يصعب الحصول عليها ، لامتناع أصحابها من إعطائها ...

وقوله - تعالى - : «وفرش مرفوعة» أى . وفيها - أيضا - فرش منضدة ، قد إرتفعت عن الأرض ، ليتكىء عليها أهل الجنة وأزواجهم .

والضمير فى قوله - تعالى - : «إنا أنشأناهن إنشاء . . . .» عائد إلى غير مذكور ، إلا أنه يفهم من سياق الكلام ، لأن الحديث عن الفرش المرفوعة يشير إلى من يجلس عليها ، وهم الرجال ونساؤهم . أى : نساؤهم من أهل الدنيا أو الحور العين . ويرى بعضهم أنه يعود إلى مذكور ، لأن المراد بالفرش النساء ، والعرب تسمى المرأة لباسا ، وإزارا ، وفراشا ...

والإنشاء : الخلق والإيجاد ، فيشمل إعادة ما كان موجودا ثم عدم ، كما يشمل الإيجاد على سبيل الابتداء .

أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء المطهرات من كل رجس حسى أو معنوى ، إنشاء جيلا ، يشرح الصدور ...

«فجعلناهن» بقدرتنا «أبكارا» أى : فصيرناهن أبكارا ليكون ذلك أكثر تلذذا بهن .

قال الآلوسى : وفى الحديث الذى أخرجه الطبرانى عن أبى سعيد مرفوعا « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم ، عدن أبكارا »[١]

وقوله : « عربا أترابا » صفة أخرى من صفات هؤلاء النساء الفضليات الجميلات .

وقوله : « عربا » جمع عروب - كرسل ورسول - من أعرب فلان فى قوله إذا نطق بفصاحة وحسن بيان .

وأترابا : جمع ترب - بكسر التاء وسكون الراء - ، وترب الإنسان هو ما كان مساويا له فى السن .

أى : إنا أنشأنا هؤلاء النساء على تلك الصورة الجميلة ، فجعلناهن أبكارا كما جعلناهن - أيضا - محببات إلى أزواجهن . ومستويات فى سن واحدة .

روى الترمذى عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت يارسول الله ، أدع الله - تعالى - أن يدخلنى الجنة ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « ياأم فلان إن الجنة لاتدخلها عجوز ، فولت تبكى .

فقال - صلى الله عليه وسلم - أخبروها أنها لاتدخلها وهى عجوز ، إن الله - تعالى - يقول : « إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا »[٢]

واللام فى قوله : « لأصحاب اليمين » متعلقة بأنشأناهن ، أو بجعلناهن ..

أى : أنشأناهن كذلك ، ليكن فى صحبة أصحاب اليمين ، على سبيل التكريم لهم ...

وقوله : « ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين » خبر لمبتدأ محذوف . أى : أصحاب اليمين جماعة كبيرة منهم من الأمم الماضية ، وجماعة كبيرة أخرى من هذه الأمة الإسلامية .

---

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٤٢

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩١

وبذلك نرى أن الله - تعالى - قد ذكر لنا ألوانا من النعم التى أنعم بها على أصحاب اليمين، كما ذكر قبل ذلك ألوانا أخرى مما أنعم به على السابقين.

قال الآلوسى: «ولم يقل - سبحانه - فى حق أصحاب اليمين: «جزاء بما كانوا يعملون».

كما قال - سبحانه - ذلك فى حق السابقين، رمزا إلى أن الفضل فى حقهم متمحض، كأن عملهم لقصوره عن عمل السابقين، لم يعتبر اعتباره.

ثم الظاهر أن ماذكر من أصحاب اليمين، هو حالهم الذى ينتهون إليه فلا ينافى أن يكون منهم من يعذب لمعاصى فعلها، ومات غير تائب عنها، ثم يدخل الجنة ...»[1].

* * *

وبعد هذا الحديث الذى يشرح الصدور، ويقر العيون، وترتاح له الأفئدة، عن السابقين وعن أصحاب اليمين... جاء الحديث عن أصحاب الشمال، وهم الذين استحبوا العمى على الهدى وآثروا الغى على الرشد، فقال - تعالى:

«وَأَصْحَابُ الشِّمالِ ما أصحابُ الشِّمالِ (٤١) فى سَمُومٍ وحَمِيمٍ (٤٢) وظِلٍّ من يَحْمُومٍ (٤٣) لا بَاردٍ ولا كريمٍ (٤٤) إنَّهم كانوا قبلَ ذلكَ مُترفينَ (٤٥) وكانوا يُصِرُّونَ عَلَى الحِنْثِ العظيمِ (٤٦) وكانوا يقولونَ أئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أو آباؤُنَا

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٤٣.

الأوَّلونَ (٤٨) قُلْ إنَّ الأوَّلينَ والآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إلى ميقَاتِ يوم مَعْلُوم (٥٠) ثم إنكم أيُّها الضالُّونَ المكَذِّبُونَ (٥١) لآكلونَ من شَجرٍ من زَقُّومٍ (٥٢) فالِئُونَ منها البُطُونَ (٥٣) فشارِبونَ عليهِ من الحَميمِ (٥٤) فشارِبونَ شُرْبَ الهِيمِ (٥٥) هذا نُزُلُهم يومَ الدِّينِ (٥٦) » .

وقوله - تعالى - : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال » أى : ما قصة هؤلاء القوم ؟ وما حالهم ؟ وما جزاؤهم ؟

ثم بين - سبحانه - ذلك فقال : « فى سموم وحميم » والسموم : الريح الشديدة الحرارة ، التى تدخل فى مسام الجسد ، فكأنها السم القاتل .

والحميم : الماء الذى بلغ النهاية فى الغليان . أى : هم فى الآخرة مستقرون فيما يهلكهم من الريح الحارة ، والماء الشديد الغليان .

وهم كذلك فى « ظل من يحموم » أى : فى دخان أسود شديد يخنق أنفاسهم . والعرب يقولون لكل شىء شديد السواد : أسود يحموم . مأخوذ من الشىء الأحم ، وهو الأسود من كل شىء ، ومثله الحمم .

و « من » فى قوله : « من يحموم » للبيان ، إذ للظل هنا هو نفس اليحموم وتسميته ظلا من باب التهكم بهم .

وقوله - تعالى - : لا « لا بارد ولا كريم » صفتان الظل . أى : هذا الظل لا شىء فيه من البرودة التى يستروح بها من الحر ، ولا شىء فيه من النفع لمن يأوى إليه .

فهاتان الصفتان لبيان انتفاء البرودة والنفع عنه ، ومتى كان كذلك انتفت عنه صفات الظلال التى يحتاج إليها .

قال صاحب الكشاف : قوله - تعالى - : « لا بارد ولا كريم » نفى لصفتى الظل عنه ، يريد أنه ظل ولكن لا كسائر الظلال . سماه ظلا ثم نفى عنه برد الظل وروحه ونفعه لمن يأوى إليه من أذى الحر ، ليمحق ما فى مدلول الظل من الاسترواح إليه ، والمعنى : أنه ظل حار ضار ، إلا أن للنفى فى نحو هذا شأنا ليس للإثبات ، وفيه تهكم بأصحاب المشأمة ، وأنهم لا يستأهلون الظل البارد الكريم ، الذى هو لأضدادهم فى الجنة »(١) .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت بهؤلاء الأشقياء إلى هذا المصير الأليم ، فقال - تعالى - : « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » أى : إنهم كانوا قبل ذلك العذاب الذى حل بهم ، أى : كانوا فى الدنيا « مترفين » أى : متنعمين بطرين ، متبعين لهوى أنفسهم ، وسالكين خطوات الشيطان ، دون أن يصدهم عن ذلك صاد ، أو يردعهم رادع .

فالمراد بالترف هنا : بطر النعمة ، وعدم شكر الله - تعالى - عليها . والمترف : هو الذى يتقلب فى نعم الله - تعالى - ، ولكنه يستعملها فى المعاصى لا فى الطاعات ، وفى الشرور لا فى الخيرات .

وقوله - سبحانه - : « وكانوا يصرون على الحنث العظيم » بيان لسبب آخر من الأسباب التى أدت بهم إلى هذا المصير السىء .

والحنث : الذنب الكبير ، والمعصية الشديدة ، ويندرج تحته الإشراك بالله - تعالى - ، وإنكار البعث والجزاء ، والحلف الكاذب مع تعمد ذلك .

أى : وكانوا فى الدنيا يصرون على ارتكاب الذنوب العظيمة ، ويتعمدون إتيانها بدون تحرج أو تردد ، ومن مظاهر ذلك أنهم أقسموا بالأيمان المغلظة أنه لا بعث ولا حساب ، ولا جزاء ، كما قال - تعالى - « وأقسموا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٠

بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ... »(١).

ثم حكى - سبحانه - لونا من أقوالهم الباطله، وحججهم الداحضة فقال: « وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ».

أى: أنهم فوق ترفهم وإصرارهم على ارتكاب الآثام كانوا يقولون - على سبيل الإنكار - لمن نصحهم باتباع الحق: أئذا متنا، وانتهت حياتنا، ووضعنا فى القبور، وصرنا ترابا وعظاما، أئنا لمبعوثون ومعادون إلى الحياة مرة أخرى؟ وهل آباؤنا الأولون الذين صاروا من قبلنا عظاما ورفاتا يبعثون - أيضا -؟

ولا شك أن قولهم هذا دليل على انطماس بصائرهم، وعلى شدة غفلتهم عن آثار قدرة الله - تعالى -، التى لا يعجزها شىء، والتى من آثارها إيجادهم من العدم..

ولذا لقن الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - الجواب الذى يخرس ألسنتهم فقال - سبحانه -: « قل إن الأولين والآخرين، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ».

أى: قل لهم - أيها الرسول الكريم - إن الأمم السابقه التى من جملتها آباؤكم، والأمم اللاحقه التى من جملتها أنتم .. الكل مجموعون ومسوقون إلى المحشر فى وقت واحد محدد فى علم الله - تعالى -، وعندما يأتى هذا الوقت ماله من دافع.

فالميقات هنا: بمعنى الوقت والأجل، والمراد به هنا: يوم القيامة.

ووصفه - سبحانه - بأنه معلوم، للاشعار بكونه معينا وواقعا وقوعا لاريب فيه، ولكن فى الوقت الذى يشاؤه الله - تعالى - ويختاره.

(١) سورة النحل. الآيه ٣٨

ثم بين — سبحانه — ما سيحل بهم من عذاب فى هـــذا اليوم فقال : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . . . . . . » .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : « إن الأولين والآخرين لمجموعون .. » ، وداخلة فى حيز القول . و « ثم » للتراخى الزمانى أو الرتبى والخطاب للمشركين الذين أعرضوا عن دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم - .

و « من » فى قوله « من شجر » إبتدائية ، وفى قوله « من زقوم » بيانية .

وشجر الزقوم : لا وجود له فى الدنيا ، وإنما يخلقه الله - تعالى - فى النار ، كما يخلق غيره من أصناف العذاب ، كالحيات والعقارب ...

وقيل : هو شجر شام ، متى مسه جسد إنسان ، تورم هذا الإنسان ومات ويوجد هذا الشجر فى الأراضى المجدبة المجاورة للصحراء .

والزقوم من التزقم ، وهو ابتلاع الشىء الكريه ، وبمشقة شديدة ...

والمعنى . ثم قل لهم — أيها الرسول الكريم — على سبيل التقريع والتبكيت : إنكم أيها الضالون عن الحق ، المكذبون بالبعث والجزاء ، لآكلون يوم القيامة من شجر ، هو شجر الزقوم ، الذى هو أخبث الشجر وأبشعه . . . .

« فمالئون منها البطون » أى : فمالئون من هذه الشجرة الخبيثة بطونكم ، لشدة الجوع الذى حل بكم ...

وجاء الضمير مؤنثا فى قوله : « منها » لأن الشجر هنا بمعنى الشجرة ، أو لأن ضمائر الجمع لغير العاقل ، تأتى مؤنثة فى الغالب .

ثم قال — تعالى — : « فشاربون عليه من الحميم : فشاربون شرب الهيم » والضمير فى قوله « عليـــه » يعود على الأكل المستفاد من قوله : « لآكلون » ....

أي : ثم إنكم - أيها الضالون المكذبون - بعد هذا الأكل الخبيث من شجرة الزقوم .. تشربون عليه في بطونكم - ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة ، فصرتم في شرابكم كالإبل العطاش التي لا يرويها الماء مهما كثر ، لأنها مصابة بداء هذا الداء يمنعها من الشبع منه ، فما تزال تشرب منه حتى تهلك .

فقوله : « الهيم » صفة لموصوف محذوف ، أي : الإبل الهيم . جمع أهيم المذكر . وهيماء للمؤنث .

والهيام - بضم الهاء - داء يصيب الإبل ، يجعلها تشرب فلا تشبع ، وما تزال تشرب حتى تهلك ، أو تسقم سقما شديدا يؤدي إلى موتها . والفاء في قوله - تعالى - « فشاربون عليه » عطف على « لآكلون . . . » ، لإفادة أن شربهم مع عطشهم الشديد . يأتي بعد أكلهم من الزقوم ، بدون مهلة أو استراحة .

وقوله : « فشاربون شرب . . . » تأكيد لما قبله ، للتنبيه على أن هذا الشراب - مع فظاعته وقبحه - لامفر لهم منه ، ولا انفكاك لهم عنه .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات بقوله : « هذا نزلهم يوم الدين » والنزل : ما يعد للضيف من منزل حسن ، ومأكل حسن لإكرامه .

أي : هذا المذكور من أنواع العذاب المهين . . نزلهم ومسكنهم ومقرهم ، أول قدومهم يوم الجزاء .

فالإشارة بقوله : « هذا » إلى ما ذكر قبل ذلك من عذاب مهين ، من مظاهره أكلهم من الزقوم ، وشربهم من الحميم .

والتعبير عما أعدلهم من عذاب بالنزل ، على سبيل التهكم ، كما في قول الشاعر :

وكنا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلا

وبذلك نرى الآيات الكريمة، قد بينت ما أعد لأصحاب الشمال، من عذاب مهين، بأسلوب تقشعر من هو له الأبدان . . .

* * *

وبعد هذا الحديث الجامع عن أقسام الناس يوم القيامة، وعن جزاء كل قسم . . . أخذت السورة الكريمة، فى إقامة الأدلة على وحدانية الله - تعالى -، وعلى كمال قدرته . . .

وجاءت هذه الأدلة لا عن طريق أمور تخييلية، أو فلسفية . أو غيبية... وإنما عن طريق أمور يحسونها بأنفسهم، ويشاهدونها بأعينهم . . عن طريق خلقهم، وزروعهم التى يزاولونها بأيديهم، والماء الذى يشربونه، والنار التى يوقدونها . . .

لنستمع إلى السورة الكريمة، وهى تحكى كل ذلك فتقول :

« نَحنُ خَلقْناكُمْ فلولاَ تُصَدِّقونَ (٥٧) أفرَأَيتُم ما تُمنونَ (٥٨) أأنتُم تخلقُونَهُ أَمْ نحنُ الخالِقُونَ (٥٩) نحنُ قدَّرنَا بَينكُمُ الموتَ وَما نحنُ بِمسبُوقِينَ (٦٠) على أنْ نُبدِّلَ خَلقكُمْ وَنُنشِئكُمْ فِيما لا تَعلمونَ (٦١) ولقَدْ عَلِمتُم النَّشأَةَ الأولى فَلولاَ تذكَّرون (٦٢) أفرأَيتُم ما تحرُثُونَ (٦٣) أأنتُم تَزْرَعُونَه أم نَحنُ الزَّارِعُون (٦٤) لو نشاءُ لجعلناهُ حُطاماً فَظلتُم تفكَّهُونَ (٦٥) إنَّا لمغرَمُونَ (٦٦) بَلْ نحنُ محرومُونَ (٦٧) أفرأَيتُم الماءَ الذى تَشرَبُونَ (٦٨) أأنتُم أنزلتُموهُ من المزْنِ أَمْ نَحنُ المنزِلُونَ (٦٩) لو نشاءُ جَعَلْناهُ أُجاجاً فلولاَ تشكُرُون (٧٠) أفرأَيتُم النَّارَ التى تُورُنَ (٧١) أأنتُم أنشأتُم

شجرَتَها أَمْ نحنُ المنشِئُونَ (٧٢) نحنُ جَعلناهَا تَذكرةً ومتاعاً للمُقْوينَ (٧٣) فَسبِّح باسمِ ربِّكَ العظيمِ (٧٤) ».

وقوله - تعالى -: «نحن خلقناكم فلولا تصدقون» رد على إنكار المشركين للبعث والجزاء. ولولا هنا للتحضيض. والفاء لترتيب التحضيض على ماقبله.

أى: نحن الذين خلقناكم - أيها الجاحدون - هذا الخلق الأول بقدرتنا وحدها، فهلا صدقتم بذلك، وأطعتم رسولنا - صلى الله عليه وسلم - فيما جاءكم به عندنا، وأيقنتم بأن الأولين والآخرين سيقفون أمامنا يوم القيامة للحساب؟

فالمراد بقوله - تعالى - «خلقناكم»: خلقهم من سلالة من طين، ثم جعلهم نطفة فى قرار مكين. كما قال - تعالى -: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين...»(١)

فإن قيل: إنهم كانوا يعترفون بأن الله - تعالى - قد خلقهم، بدليل قوله - تعالى -: «ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله...» فما فائدة قول - سبحانه - نحن خلقناكم...»؟

فالجواب أنهم لما كان اعترافهم بمنزلة العدم، حيث أشركوا مع الله - تعالى - آلهة أخرى فى العبادة قيل لهم على سبيل الإلزام والتبكيت: نحن خلقناكم...

ثم ذكر - سبحانه - بعد ذلك أربعة أدلة على صحة البعث وإمكانه، أما

(١) سورة المؤمنون الآيات ١٢ - ١٤

الدليل الأول فنراه فى قوله - تعالى - : « أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . . . » ؟

وقوله : « تمنون » مأخوذ من أمنى بمعنى قذف المنى . يقال أمنى الرجل النطفة إذا قذفها، والاستفهام للتقرير . والرؤية علمية . و « ما » موصولة وهى المفعول الأول لقوله « أرأيتم » والجملة الفعلية صلة الموصول ، والعائد إلى الصفة محذوف . وجمله : أأنتم تخلقونه . . . هى المفعول الثانى .

والضمير المنصوب فى قوله « تخلقونه » يعود إلى الاسم الموصول فى قوله : « ماتمنون » . أى : أخبرونى - أيها المشركون - عما تصبونه وتقذفونه من المنى فى أرحام النساء ؟ أأنتم تخلقون ما تمنونه من النطف علقا فمضغا ... أم نحن الذين خلقنا ذلك ؟ لاشك أنكم تعرفون بأننا نحن الذين خلقنا كل ذلك ، ومادام الأمر كما تعرفون ، فلماذا عبد مع الله -تعالى- آلهة أخرى .

فالاستفهام للتقرير حيث إنهم لايملكون إلا الاعتراف بأن الله -تعالى- وحده خلق الإنسان فى جميع أطواره .

قال الجمل : و « أم » فى هذه المواضع الأربعة منقطعة ، لوقوع جملة بعدها ، والمنقطعة تقدر ببل والهمزة الاستفهاميه ، فيكون الكلام مشتملا على استفهامين ، الأول : أأنتم تخلقونه ؟ وجوابه : لا . والثانى : مأخوذ من « أم » أى : بل أنحن الخالقون ؟ وجوابه نعم »[1]

ثم أكد - سبحانه - خلقه لكل شىء . وقدرته على كل شىء ، فقال -تعالى- « نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم ، وننشئكم فى ما لا تعلمون »

أى : نحن وحدنا الذين قدرنا لموتكم آجالا مختلفة ، وأعمارا متفاوتة ،

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٢٧٨

فنكم من يموت صغيرا ، ومنكم من يموت كبيرا ، وما نحن بمسبوقين . أى : وما نحن بمغلوبين على ذلك ، بل نحن قادرون قدرة تامة على تحديد آجالكم ، فمن حضره أجله فلن يستطيع أن يتأخر عنه ساعة ، أو يتقدم عنه ساعة ، كما قال - تعالى - : « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » .

وقوله - تعالى - : « على أن نبدل أمثالكم » متعلق بقوله : « نحن قدرنا بينكم الموت » .

والمراد بتبديل أمثالهم : إيجادقوم آخرين من ذريه أولئك الذين ماتوا

والمعنى : نحن وحدنا الذين قدرنا بينكم الموت ، وحددناه على حسب مشيئتنا ونحن الذين فى قدرتنا أن نبدل من الذين ماتوا منكم أشباها لهم ، نوجدهم بقدرتنا - أيضا - كما قال - سبحانه - : « وربك الغنى ذو الرحمة أن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء ، كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » (٢)

ويصح أن يكون قوله - تعالى - : « قدرنا » بمعنى قضينا وكتبنا ، ويكون قوله : « على أن نبدل أمثالكم » متعلق بقوله « بمسبوقين » ، ويكون المراد بتبديل أمثالهم : إيجاد قوم آخرين سواهم ..

والمعنى : نحن الذين وحونا كتبنا عليكم الموت ، وقضيناه على جميع الخلق فكل نفس ذائقة الموت ، ومانحن بمغلوبين على إهلاككم ، وعلى خلق أمثالكم بدلا منكم كما قال - تعالى - : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز » (١)

وقوله - سبحانه - : « وننشئكم فى ما لا تعلمون » بيان للون آخر من ألوان قدرته - تعالى -

أى : نحن لسنا بعاجزين ولا بمغلوبين ... على أن نهلككم ونأتى بدلا منكم

---

(١) سورة الأنعام . الآية ١٢٣

(٢) سورة فاطر . الآيات ١٥ - ١٧

بغيركم. ولسنا - أيضا - بعاجزين على أن ننشئكم بعد إهلاككم فيما لا تعلمونه من الصور، والهيئات، والصفات.

قال صاحب الكشاف: قوله - تعالى -: «نحن قدرنا بينكم الموت» أي: قدرناه تقديرا، وقسمناه عليكم قسمة الرزق على إختلاف وتفاوت كما تقتضيه مشيئتنا، فاختلفت أعماركم من قصير وطويل ومتوسط..

وقوله: «وما نحن بمسبوقين» يقال: سبقته على الشيء إذا أعجزته عنه، وغلبته عليه، ولم تمكنه منه. فمعنى قوله «وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم» أنا قادرون على ذلك لا تغلبوننا عليه. وأمثالكم جمع مثل - بسكون الثاء - أي: على أن نبدل منكم ومكانكم أشباهكم من الخلق «و» على أن ننشئكم» في خلق لا تعلمونها وما عهدتم مثلها. يعني أنا نقدر على الأمرين جميعا: على خلق ما يماثلكم وما لا يماثلكم، فكيف نعجز عن إعادتكم.

ويجوز أن يكون أمثالكم جمع مثل، - بفتحتين - أي: على أن نبدل ونغير صفاتكم التي أنتم عليها في خلقكم وأخلاقكم. وننشئكم في صفات لا تعلمونها ...»(١)

ثم لفت - سبحانه - أنظارهم إلى مالا يعلمونه من حالهم فقال: «ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون»

أي: والله لقد علمتم النشأة الأولى من خلقكم، حيث أوجدناكم من نطفة فعلقة فمضغة... فهلا تذكرتم ذلك وعقلتموه، وعرفتم أن من قدر على خلقكم ولم تكونوا شيئا مذكورا ... قادر على إعادتكم إلى الحياة مرة أخرى؟

فالمقصود بهذه الآيات الكريمة إقامة الأدلة الساطعة، على إمكانية البعث وعلى أن من قدر على خلق الإنسان من العدم، قادر على إعادته.

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٦

قال القرطبي : وفى الخبر : عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الأخرى ، وهو يرى النشأة الأولى. وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة ، وهو لا يسعى لدار القرار »[1] .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى بيان الدليل الثانى على صحة البعث وإمكانيته فقال - تعالى -: « أفرأيتم ما تحرثون. أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون. لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون إنا لمغرمون. بل نحن محرومون » .

والحرث : شق الأرض من أجل زراعتها. والمراد به هنا : وضع البذور فيها بعد حرثها .

أى : أخبرونى عن البذور التى تلقون بها فى الأرض بعد حرثها ، أأنتم التى تنبتونها وتصيرونها زرعا بهيجا نضرا أم نحن الذين نفعل ذلك ؟ لا شك أننا نحن الذين نصير هذه البذور زروعا ونباتا يانعا ، ولو نشاء لجعلنا هذا النبات « حطاما » أى : مكسرا مهشما يابسا لا نفع فيه ، فظلتم بسبب ذلك « تفكهون » أى : فصرتم بسبب ما أصاب زرعكم من هلاك ، تتعجبون مما أصابه ، وتتحسرون على ضياع أموالكم ، وتندمون على الجهد الذى بذلتموه من غير فائدة . .

وأصل التفكه : التنقل فى الأكل من فاكهة إلى أخرى ، ثم استعير للتنقل من حديث إلى آخر ، وهو هنا ما يكون من أحاديثهم المتنوعة بعد هلاك الزرع .

والمراد بالتفكه هنا : التعجب والندم والتحسر على ما أصابهم .

وقوله - سبحانه - : « إنا لمغرمون » مقول لقول محذوف . أى : فصرتم بسبب تحطيم زروعكم تتعجبون ، وتقولون على سبيل التحسر : إنا لمهلكون

(١) تفسير القرطبى ج١٧ ص٢١٦

بسبب هلاك أقواتنا . من الغرام بمعنى الهـــلاك . أو إنا لمصابون بالغرم والاحتياج والفقر ، بسبب ما أصاب زرعنا . من الغرم وهو ذهاب المـال بلا مقابل .

ويقولون ـ أيضا ـ : «بل نحن محرومون» من منافع هذا الزرع الذى كنا نعلق الآمال على الانتفاع به ، والاستفادة بثماره . . .

قال الإمام القرطبى ـ رحمه الله ـ عند تفسيره لهذه الآيات : والمستحب لكل من يلقى البذر فى الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة: «أفرأيتم ماتحرثون . . » الآيات . ثم يقول : بل الله الزارع ، والمنبت والمبلغ . اللهم صل على محمد ، وارزقنا ثمر هذا الزرع ، وجنبنا ضرره ، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين ، ولآلائك من الذاكرين ، وبارك لنا فيه يارب العالمين . . »(1).

ثم ذكر ـ سبحانه ـ الدليل الثالث على إمكانية البعث ، وعلى كمال قدرته ـ تعالى ـ فقال : أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » .

أى : وأخبرونى ـ أيضا ـ عن الماء الذى تشربونه ، أأنتم الذين أنزلتموه من « المزن » أى : من السحاب أم نحن الذين أنزلناه ؟

لا شك أننا نحن الذين أنزلناه ، ولا تستطيعون إنكار ذلك ، لأن إنكاركم لذلك يعتبر نوعا من المكابرة المكشوفة ، والمغالطة المفضوحة .

وتخصيص هذا الوصف ، وهو « الذى تشربون » بالذكر ، مع كثرة منافع الماء ، لأن الشرب أهم المقاصد التى من أجلها أنزل ـ سبحانه ـ الماء من السحاب .

وقوله ـ سبحانه ـ : لو نشاء جعلناه أجاجا . . . » بيان لمظهر من مظاهر رحمته ـ سبحانه ـ .

---

(1) راجع تفسير القرطبى جـ١٧ ص٢١٨

ومفعولى المشيئة هنا وفى ما قبله إلى قوله « لو نشاء لجعلناه حطاما .... » محذوف ، للاكتفاء عنه بجواب الشرط .

والماء الأجاج : هو الماء الشديد الملوحة والمرارة فى وقت واحد .

أى : لو نشاء أن نجعل هذا الماء النازل من المزن لشربكم ، ماء جامعا بين الملوحة والمرارة لفعلنا ، ولكننا لم نشأ ذلك رحمة بكم ، وفضلا منا عليكم .

وقوله : « فلولا تشكرون » حض على الشكر لله ـ تعالى ـ أى : فهلا شكرتم الله ـ تعالى ـ على هذه النعم ، وأخلصتم له العبادة والطاعة ، ووضعتم نعمه فى مواضعها .

فالمراد بالشكر هنا : أن يواظب العبد على شكر ربه ، وعلى المداومة على ما يرضيه وعلى استعمال النعم فيما خلقت له .

أما شكر الرب ـ عز وجل ـ لعبده فمعناه : منحه الثواب الجزيل على عمله الصالح ، ومنه قوله ـ تعالى ـ : « ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم » .

قال بعض العلماء : واعلم أن مادة الشكر تتعدى إلى النعمة تارة ، وإلى المنعم أخرى ،

فإن عديت إلى النعمة تعدت إليها بنفسها دون حرف الجر ، كقوله تعالى : « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على .... » ...

وإن عديت إلى المنعم تعدت إليه بحرف الجر الذى هو اللام ، كقوله ـ تعالى ـ : « واشكروا لى ولا تكفرون » ...(١) .

وقال ـ سبحانه ـ هنا « لو نشاء جعلناه أجاجا » وقال فى الآيات السابقة : « لو نشاء لجعلناه حطاما .. » بلام التأكيد ، لأن إنزال الماء من السماء وتحويله

---

(١) أضواء البيان جـ٧ ص٧٩٤ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى .

من ماء عذب إلى ماء ملح ، مما لا يتوهم أن لأحد قدرة عليه سوى الله ـ تعالى ـ، لذا لم يحتج الأمر إلى تأكيد . . .

أما جفاف الزرع بعد نضارته حتى يعود حطاما ، فمما يحتمل أنه من فعل الزارع ، أو لأى سبب آخر كآفة زراعية ، لذا أكد ـ سبحانه ـ أنه هو الفاعل لذلك على الحقيقة، وأنه ـ تعالى ـ قادر على تحطيمه بعد نموه وريعانه .

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى الدليل الرابع على قدرته ـ تعالى ـ على البعث والنشور ، فقال ـ تعالى ـ : « أفرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين فسبح باسم ربك العظيم » .

وقوله : « تورون » أي : توقدون ، من أورى النار إذا قدحها وأوقدها . ويقال: ورَى الزندُ يَرِى وَرْياً ، إذا خرجت ناره ، ـ وفعله من باب وعى ـ وأوراه غيرُه ، إذا استخرج النار منه .

وقوله : « للمقوين » مأخوذ من أقوى الرجل ، إذا دخل فى القَوَاء ، وهو الفضاء الخالى من العمران . والمراد بهم هنا المسافرون ، لأنهم فى معظم الأحيان يسلكون فى سفرهم الصحارى والفضاء من الأرض .

وخصهم ـ سبحانه ـ بالذكر ، لأنهم أكثر من غيرهم انتفاعا بالنار ، وأحوج من غيرهم إليها .

والمراد بشجرة النار : المرخ والعفار ، وهما شجرتان ، يقدح غصن إحداهما بغصن الأخرى فتتولد النار منهما بقدرة الله ـ تعالى ـ .

ومن أمثال العرب : لكل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار . أى : وعلا على غيرهما المرخ والعفار لأنهما أكثر الشجر نصيبا فى استخراج النار . فهو مثل يضرب فى تفضيل الشىء على غيره .

والمعنى : وأخبرونى ـ أيضا ـ عن النار التى تقدحونها وتستخرجونها

من الشجر الرطب الأخضر ، أ أنتم خلقتم شجرتها ، واخترعتم أصلها ، أم نحن الخالقون لها وحدنا ؟

لاشك أن الجواب الذى لاجواب غيره ، أننا نحن الذين أنشأنا شجرتها لا أنتم .

ونحن الذين جعلناها تذكرة ، نذكر الناس بها فى دار الدنيا إذا أحسوا بشدة حرارتها ، بنار الآخرة التى هى أشد وأبقى ، حتى يقلعوا عن الأقوال والأفعال التى تؤدى بهم إلى نار الآخرة .

ونحن - أيضا - الذين جعلنا هذه النار « متاعا » أى : منفعة « للمقوين » أى : للمسافرين ، وللذين هم فى حاجة إليها فى شئونهم المختلفة .

والفاء فى قوله - تعالى - : « فسبح باسم ربك العظيم » لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

أى : ومادام الأمر كذلك ، فسبح - أيها العاقل - باسم ربك العظيم ، بأن تنزهه عن الشريك والولد ، وبأن تخلص له العبادة والطاعة .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد ذكرت أربعة أدلة على إمكانية البعث : الأول عن طريق خلق الإنسان . والثانى : عن طريق إنبات النبات . والثالث عن طريق إنزال الماء من السحاب . والرابع عن طريق إنشاء الشجر الذى تستخرج منه النار .

وإنها لأدلة واضحة على كمال قدرة الله - تعالى - ووحدانيته . لكل عبد منيب .

* * *

وبعد أن ساق - سبحانه - هذه الأدلة المتنوعة على كمال قدرته ، وعلى صحة البعث ... التفت - سبحانه - بالحديث إلى أولئك الذين وصفوا القرآن بأنه أساطير الأولين ... فرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ونعت القرآن بنعوت جليلة فقال - تعالى - :

« فلاَ أُقسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجوم (٧٥) وإِنَّهُ لقَسمٌ لوْ تعلَمونَ عظِيمٌ (٧٦) إنَّهُ لقُرآنٌ كرِيمٌ (٧٧) فى كتَابٍ مكنُونٍ (٧٨) لا يَمسُّهُ إلاّ المُطهَّرونَ (٧٩) تَنزِيلٌ من ربِّ العالَمِينَ (٨٠) » .

قال بعض العلماء : ورد القسم على هذا النحو فى القرآن الكريم كثيرا ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ : « فلا أقسم بالشفق . والقمر وما وسق » ، وقوله : « فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس » . . .

وقد جاء على غير هذه الصورة ، أى : من غير لا النافية ، ومن غير الفعل « أقسم » ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « فورب السماء ـ الأرض إنه لحق . . وتا الله لأكيدن أصنامكم » . . .

وتارة يكون القسم بأشياء مختلفة من خلقه ـ تعالى ـ كالصافات ، والطور ، والتين ، والقرآن . . .[1] والفاء فى قوله ـ تعالى ـ : « فلا أقسم بمواقع النجوم » للتفريع على ما تقدم من أدلة البعث . . .

و « لا » عند أكثر المفسرين فى هذا التركيب وأمثاله : مزيدة للتأكيد ، كما فى قوله ـ تعالى ـ : « لئلا يعلم أهل الكتاب ... » أى ليعلم أهل الكتاب . والمعنى هنا : فأقسم بمواقع النجوم . . .

قالوا : وزيادتها هنا جاءت جريا على سنن العرب من زيادتها قبل القسم ، كما فى قولهم : لا وأبيك ، كأنهم ينفون ما سوى المقسم عليه . فيفيد الكلام التأكيد .

ويرى بعضهم أن « لا » هنا : للنفى ، فيكون المعنى : فلا أقسم بمواقع النجوم ، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم أصلا ، فضلا عن هذا القسم العظيم .

قال الآلوسى ما ملخصه : « فلا أقسم . . » لا مزيدة للتأكيد مثلها فى قوله

(١) راجع تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ٩٦ للشيخ محمد على السايس .

- تعالى - : « لئلا يعلم أهل الكتاب » . أو هى لام القسم - بعينها - أشبعت فتحتها فتولدت منها ألف . . . - أى : فلأ قسم . . .

وقيل إن «لا» هنا للنفى والرد على مايقوله الكفار فى القرآن من أنه سحر. كأنه قيل : فلا صحة لما يقولون فيه . ثم استؤنف فقيل : أقسم . . .

وقال بعضهم إن « لا » كثيرا ما يؤتى بها قبل القسم على نحو الاستفتاح، كما فى قولهم : لا وأبيك . .

وقال أبو مسلم وجمع : إن الكلام على ظاهره المتبادر منه . والمعنى : لا أقسم إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم . أى : لا يحتاج إلى قسم أصلا ، فضلا عن هذا القسم العظيم .....»(١)

والمواقع : جمع موقع ، وموقع الشىء ما يوجد فيه ، وما يسقط فيه من مكان مرتفع .

فالمراد بمواقع النجوم : مساقطها التى تسقط فيها عند غروبها .. وقيل : مواضعها من بروجها فى السماء ، ومنازلها منها ... وقيل : المراد مواقعها يوم القيامة عندما تنتشر وتتفرق ... وأقسم - سبحانه - بذلك ، للتنويه بشأنها ، ولما فيها من الدلالة على أن لهذا الكون خالقا قادرا حكيما ، يسير كواكبه بدقة ونظام بديع ، لا اختلال معه ولا اضطراب ... إذ كل نجم من هذه النجوم المتناثرة فى الفضاء ، له مجاله الذى يغيب فيه، وله مكانه الذى لايصطدم فيه بغيره .

قال بعض العلماء : إن هذه النجوم والكواكب ، التى تزيد على عدة بلايين نجم ، ما يمكن رؤيته بالعين المجردة ، وما لا يرى إلا بالمجاهر والأجهزة ، وما يمكن أن تحس به الأجهزة ، دون أن تراه . هذه كلها تسبح فى الفلك

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٥٢ .

الغامض ، ولا يوجد أى احتمال أن يقترب مجال مغناطيسى لنجم ، من مجال نجم آخر ، أو يصطدم بكوكب آخر ...»(١) .

ومن العلماء من يرى أن المراد بمواقع النجوم: أوقات نزول القرآن نجما نجما ، وطائفة من الآيات تلى طائفة أخرى ...

قال ابن كثير : واختلفوا فى معنى قوله « بمواقع النجوم » فعن ابن عباس أنه يعنى نجوم القرآن فإنه نزل جملة ليلة القدر ، من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقا بعد ذلك ...

وعن قتادة . « مواقع النجوم » منازلها .. وقال مجاهـــد : مطالعها ومشارقها ... وعن الحسن : انتشارها يوم القيامة ...»(٢) .

ويبدو لنا أن تفسير النجوم هنا ، بنجوم السماء هو الأرجح ، لأنه هو الظاهر من معنى الآية الكريمة .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » كلام معترض بين القسم وجوابه والضمير فى « وإنه » يعود إلى القسم المذكور فى قوله « فلا أقسم بمواقع النجوم » ، أو يعود إلى « مواقع النجوم » بتأويله بمعنى المذكور .

قال صاحب الكشاف : « بمواقع النجوم » أى : بمساقطها ومغاربها ... واستعظم ذلك بقوله : « وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » ... وهو اعتراض فى اعتراض ، لأنه اعترض به بين المقسم والمقسم عليه ، وهو قوله : « إنه لقرآن كريم » . واعترض بقوله ـ لو تعلمون ـ بين الموصوف وصفته..(٣)

وجواب « لو » إما محذوف بالكلية لأنه لا يتعلق بذكره غرض ، إذ

---

(١) من كتاب «الله والعلم الحديث» ص ٣٣ للأستاذ عبد الرازق نوفل .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٩ .

المقصود هو نفى علمهم ، أى : أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسم عظيم، ولكنكم لا تعلمون قيمته ومنزلته ...

وإما أن يكون جوابها مقدرا ، فيكون المعنى : أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم عظيم لو كان عندكم علم نافع ، لعظمتموه ، ولآمنتم بما أقسمنا عليه ، ولكنكم لم تعظموه ولم تؤمنوا لجهلكم ، ولانطماس بصائركم ...

والضمير فى قوله - سبحانه - إنه لقرآن كريم ، راجع إلى غير مذكور فى الكلام ، إلا أن علم المخاطبين به واستحضارهم له ، نزل منزلة ذكره .

أى : أقسم بمواقع النجوم ، إن هذا الذى يتلوه عليكم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - لقرآن كريم ، أى : رفيع القدر ، طاهر الأصـــل ، كثير المنافع ، ظاهر الفضل ، لأن الناس يجدون فيه كل مايريدونه من سعادة وخـــير ...

وليس أمره - كما زعمتم - من أن الشياطين تنزلت به ، أو من أنه أساطير الأولين ..

وقوله - سبحانه - : « فى كتاب مكنون » وصف آخر للقرآن الكريم . والمكنون : المستور والمحجوب عن أنظار الناس ، بحيث لايعلم كنهه إلا الله - تعالى - . والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ . أى: أن هذا القرآن الكريم، قد جعله الله - تعالى - فى كتاب مصون عن غير الملائكة المقربين ، بحيث لا يطلع عليه أحد سواهم ...

وقوله - سبحانه - : « لا يمسه إلا المطهرون » : صفة للكتاب الذى هو اللوح المحفوظ ، أى : أن هذا القرآن قد اقتضت حكمتنا أن نجعله فى كتاب مصون بحيث لا يطلع عليه قبل نزوله ، من اللوح المحفوظ ولا يمسه أحد ، إلا الملائكة المطهرون من كل مايوجب الطهارة ...

وعلى هذا التفسير يكون الغرض من الآيات الكريمة ، نفى مازعمه

المشركون من أن القرآن تنزلت به الشياطين ، وإثبات أن هذا القرآن مصون في كتاب مستور عن الأعين ، هو اللوح المحفوظ ، وأن الملائكة المطهرون وحدهم هم الذين يطلعون على هذا القرآن من اللوح المحفوظ ، وهم وحدهم الذين ينزلون به على الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

كما قال - تعالى - : « وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين : بلسان عربي مبين . . . »(١) .

وكما قال - سبحانه - : « وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون . . . »(٢) ،

ومنهم من يرى أن قوله - تعالى - : « لا يمسه إلا المطهرون » صفة أخرى للقرآن الكريم . فيكون المعنى : إن هذا القرآن الكريم ، لا يصح أن يمسه إلا المطهرون من الناس ، عن الحدث الأصغر ، والحدث الأكبر ، فيكون المراد بالطهارة : الطهارة الشرعية . . .

وقد رجح العلماء الرأي الأول الذي يرى أصحابه أن قوله - تعالى - : « لا يمسه إلا المطهرون » صفة للوح المحفوظ المعبر عنه بأنه كتاب مكنون ، وأن المراد بالمطهرين : الملائكة المقربون . . .

وقالوا في تأييد ما ذهبوا إليه : إن الآيات مسوقة لتنزيه القرآن عن أن تنزل به الشياطين ، وأنه في مكان مأمون لا يصل إليه إلا الملائكة المقربون .

والآيات - أيضا - مكية ، والقرآن المكي أكثر اهتمامه كان موجها إلى إبطال شبهات المشركين ، وليس إلى الأحكام الفرعية ، التي تحدث عنها القرآن المدني كثيرا .

كذلك قالوا : إن وصف الكتاب بأنه « مكنون » يدل على شدة الصون

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ ، ١٩٥ .
(٢) سورة الشعراء الآيات ٢١٠ ، ٢١٢ .

والستر عن الأعين ، بحيث لاتناله أيدي البشر ، وهذا لاينطبق إلا على اللوح المحفوظ ، أما القرآن فيمسه المؤمن وغير المؤمن »[1] .

قال الإمام القرطبي ماملخصه قوله : « لايمسه إلا المطهرون » اختلف في معنى « لايمسه » ، هل هو حقيقة في المس بالجارحة أو معنى ؟ وكذلك اختلف في « المطهرون » من هم ؟

فقال : أنس وسعيد بن جبير : لايمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب وهم الملائكة ...

وقيل المراد بالكتاب : المصحف الذى بأيدينا . وهو الأظهر . وقد روى مالك وغيره أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان في كتابه الذى كتبه إلى شرحبيل بن كلال ... « ألا يمس القرآن إلا طاهر » .

وقالت أخت عمر لعمر عند إسلامه : « لايمسه إلا المطهرون » فقام واغتسل ... ثم أخذ الصحيفة التي بيدها ، وفيها القرآن .

ثم قال : واختلف العلماء في مس المصحف على غير وضوء : فالجمهور على المنع ...

وفى مس الصبيان إياه على وجهين : أحدهما المنع اعتبارا بالبالغ . والثانى الجواز ، لأنه لو منع لم يحفظ القرآن ، لأن تعلمه حال الصغر ، ولأن الصبى وإن كانت له طهارة إلا أنها ليست بكاملة ، لأن النية لاتصح منه . فإذا جاز أن يحمله على طهارة ، جاز أن يحمله محدثا[2] .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات الكريمة بقوله : « تنزيل من رب العالمين » أى : هذا الكتاب الكريم ، منزل من رب العالمين ، لارب سواه ، ولاخالق غيره ، وبذلك نرى ، ان هذه الآيات الكريمة ، قد وصف الله ـ تعالى ـ فيها

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٠٣ .
(٢) راجع تفسير القرطبي ج ١٧ ص ٢٢٦ .

القرآن الكريم ، بجملة من الصفات الجليلة ، فقد وصفه - سبحانه - بأنه كريم ، ووصفه بأنه مصون ومحفوظ من أن يمسه أحد سوى ملائكته المقربين ، وسوى عباده المطهرين من الأحداث ، ووصفه بأنه منزل من عنده لا من عند أحد سواه كما زعم أولئك الجاهلون ...

* * *

ثم تتحدث السورة فى أواخرها ، بأسلوب مؤثر ، عن لحظات الموت .. عن اللحظات التى يفارق الإنسان فيها هذه الحياة ، وأحباؤه من حوله لا يملكون له نفعا ... ، وعن بيان الحالة التى يكون عليها هذا المفارق لهم .. فتقول :

« أَفَبِهَذَا الحَدِيثِ أَنتُم مُدهِنُونَ (٨١) وتجعلُونَ رزقكم أنكم تُكَذِّبُونَ (٨٢) فلولاَ إذا بلغتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وأنتم حينئذٍ تنظُرونَ (٨٤) ونحنُ أقربُ إليهِ منكم ولكنْ لا تُبصِرُون (٨٥) فلولاَ إن كنتُم غيرَ مَدِينِينَ (٨٦) ترجِعُونهاَ إن كنتُم صادقِينَ (٨٧) فأمَّا إن كانَ من المقرَّبينَ (٨٨) فروحٌ وريحانٌ وجنَّةُ نعيمٍ (٨٩) وأمَّا إن كانَ من أصحابِ اليمينِ (٩٠) فسلامٌ لكَ مِنْ أصحابِ اليمينِ (٩١) وأمَّا إن كانَ من المكذِّبينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فنزُلٌ من حَميمٍ (٩٣) وتَصْلِيةُ جَحيمٍ (٩٤) إنَّ هذا لهُوَ حقُّ اليقِينِ (٩٥) فسبِّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ (٩٦) » .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « أفبهذا الحديث أنتم مدهنون » للإنكار والتوبيخ . وهو داخل على مقدر .

والمراد بالحديث : القرآن الكريم ، وما تضمنه من هدايات وإرشادات وتشريعات ...

وقوله : « مدهنون » من الإدهان وأصله جعل الجلد ونحوه مدهونا بشيء من الدهن ، ليلين ، ثم صار حقيقة عرفية فى الملاينة والمسايرة والمداراة ، ومنه قوله - تعالى - : « ودوا لو تدهن فيدهنون » .

والمراد به هنا : تظاهر المشركين بمهادنة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبما جاء به من قرآن كريم ، وإبداؤهم من اللين خلاف ما يبطنون من المكر والبغضاء .

ويصح أن يكون الإدهان هنا : بمعنى التكذيب والنفاق ، إذ أن هذه المعانى - أيضا - تتولد عن المداهنة والمسايرة .

أى : أتعرضون - أيها المشركون - عن الحق الذى جاءكم به رسولنا - صلى الله عليه وسلم - ، فتظهرون أمامه بمظهر المداهن والمهادن ، الذى يلين أمام خصمه ، ولا يقابله بالشدة والحزم ، مع أنه فى الوقت نفسه يضمر له أشد أنواع السوء والكراهية ؟

إذا كان هذا شأنكم ، فاعلموا أن تصرفكم هذا لا يخفى علينا ! ؟

وقوله - سبحانه - : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » معطوف على ما قبله من باب عطف الجملة على الجملة ، والكلام على حذف مضاف .

والمعنى : أتعرضون عن هـــذا القرآن على سبيل المداهنة والملاينة ، وتجعلون شكر نعمة رزقنا لكم به ، وبالمطر الذى لا حياة لكم بدونه ، أنكم تكذبون بكونهما من عند الله - تعالى - فتقولون فى شأن القرآن : أساطير الأولين . وتقولون إذا ما أنزلنا المطر عليكم : مطرنا بسبب نوء كذا . أى : بسبب سقوط النجم فى جهة المغرب مع الفجر .

قال الآلوسى : قوله : « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » أى : وتجعلون شكركم أنكم تكذبون ، تقولون : أمطرنا بنوء كذا وكذا ، وبنجم كذا وكذا . وأكثر الروايات أن قوله - تعالى - « وتجعلون رزقكم .. » نزل فى القائلين :

مطرنا بنوء كذا .. أخرج مسلم - فى صحيحه - عن ابن عباس قال : مطر الناس على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فقال - صلى الله عليه وسلم - أصبح من الناس شاكر ومنهم كافر : قالوا : هذه رحمة وضعها الله . وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا ، فنزلت هذه الآية : « فلا أقسم بمواقع النجوم » حتى بلغ « وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون » . . .

ثم قال الإمام الآلوسى : والآية على القول بنزولها فى قائلى ذلك ، ظاهرة فى كفرهم المقابل للإيمان ، فكأنهم كانوا يقولونه عن اعتقاد أن الكواكب مؤثرة حقيقة ، موجدة للمطر ، وهو كفر بلا ريب ، بخلاف قوله مع اعتقاد أنه من فضل الله - تعالى - ، وأن النوء ميقات وعلامة فإنه ليس بكفر [1] .

وقد ذكر المفسرون هنا جملة من الأحاديث فى هذا المعنى فارجع إليها إن شئت [2] .

ثم انتقلت الآيات إلى توبيخهم على أمر آخر ، وهو غفلتهم عن قدرة الله - تعالى - ووحدانيته وهم يشاهدون آثار قدرته أمام أعينهم فقال - تعالى - : « فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين » .

ولولا فى الموضعين للتحضيض على التذكر والاعتبار ، ولإبراز عجزهم فى أوضح صورة ، إذ إظهار عجزهم هو المقصود هنا بالحض . .

وقوله « إذا بلغت » ظرف متعلق بقوله « ترجعونها » أى : تردونها . وقد قدم عليه لتهويله ، وللتشويق إلى الفعل المحضوض عليهم ، وهو إرجاع الروح إلى صاحبها .

والضمير فى « بلغت » يعود إلى الروح ، وهى وإن كانت لم تذكر إلا أنها مفهومة من الكلام .

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٥٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٩٩ . وتفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٢٨

والحلقوم : مجرى الطعام وأل فيه للعهد الجنسى .

وجملة : « وأنتم حينئذ تنظرون » حال من ضمير « بلغت » ، ومفعول « تنظرون » محذوف والتقدير : تنظرون وتبصرون صاحب الروح وهو فى تلك الحال العصيبة .

وجملة « ترجعونها . . . » جواب للشرطين فى قوله : « إن كنتم غير مدينين » وفى قوله : « إن كنتم صادقين » .

وجملة « ونحن أقرب إليه منكم » مستأنفة لتأكيد توبيخهم على جهالاتهم وعدم اعتبارهم حتى فى أوضح المواقف التى تدل على قدرة خالقهم — عز وجل — .

والمعنى : إذا كنتم - أيها الجاحدون المكذبون - لم تعتبروا ولم تتعظوا بكل ماسقناه لكم من ترغيب وترهيب على لسان رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - . . . فهلا اعتبرتم واتعظتم وآمنتم بوحدانيتنا وقدرتنا .. حين ترون أعز وأحب إنسان إليكم ، وقد بلغت روحه حلقومه ، وأوشكت على أن تفارق جسده . . .

« وأنتم » أيها المحيطون بهذا المحتضر العزيز عليكم « حينئذ » أى : حين وصل الأمر به إلى تلك الحالة التى تنذر بقرب نهايته ، أنتم « تنظرون » إلى ما يقاسيه من غمرات الموت ، وتبصرون مافيه من شدة وكرب ، وتحرصون كل الحرص على انجائه مما حل به ولكن حرصكم يذهب أدراج الرياح .

« ونحن » فى هذه الحالة وغيرها « أقرب إليه منكم أى: ونحن أقرب إليه منكم بعلمنا وبقدرتنا ، حيث إنكم لا تعرفون حقيقة ماهو فيه من أهوال ولا تدركون عظم مافيه من كرب . ولا تقدرون على رفع شىء من تضائقنا فيه وفى غيره . .

وقوله : « ولكن لاتبصرون » استدراك للكلام السابق . أى : ونحن

أقرب إلى هذا المحتضر منكم ، ولكنكم لا تدركون ذلك لجهلكم بقدرتنا النافذة ، وحكمتنا البالغة ...

« فلولا إن كنتم غير مدينين » أى : فهلا إن كنتم غير عاجزين عن رد قضائنا فى هذا المحتضر الحبيب إليكم ، وغير مربوبين لنا ، وخاضعين لسلطاننا ... يقال : دان السلطان الرعية ، إذا ساسهم وأخضعهم لنفوذه .

هلا إن كنتم غير خاضعين لنا « ترجعونها » أى : ترجعون الروح إلى صاحبها « إن كنتم صادقين » فى اعتقادكم بأن آلهتكم تستطيع الدفاع عنكم وفى اعتقادكم بأنه لا بعث ولا حساب بعد الموت ، وفى توهمكم أن هناك قوة سوى قوة الله ـ عز وجل ـ يمكنها أن تساعدكم عند الشدائد والمحن .

وهكذا نجد هذه الآيات الكريمة ، تقيم أوضح الأدلة وأكثرها تأثيرا فى النفوس ، على كمال قدرة الله ـ تعالى ـ ، وعلى نفاذ مشيئته وإرادته ...

فهى تتحدى البشر جميعا أن يعيدوا الروح إلى أحب الناس إليهم ، وهم واقفون من حوله وقفة الحائر المستسلم . العاجز عن فعل أى شىء من شأنه أن يدفع عن هذا المحتضر ما فيه من كرب ، أو أن يؤخر انتزاع روحه من جسده ، ولو لزمن قليل ....

ثم تمضى السورة الكريمة بعد ذلك ، فى بيان مصير هذه الروح ، التى توشك أن تستدبر الحياة الفانية ، وتستقبل الحياة الباقية فتقول : « فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم » .

والروح : بمعنى الراحة والأمان والاطمئنان . والريحان شجر طيب الرائحة .

أى : فأما إن كان صاحب هذه النفس التى فارقت الدنيا ، من المقربين إلينا السابقين بالخيرات .... فله عندنا راحة لا تقاربها راحة ، وله رحمة واسعة ، وله طيب رائحة عند قبض روحه ، وعند نزوله فى قبره ، وعند وقوفه بين

أيدينا للحساب يوم الدين ، وله جنات يتنعم فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على بال بشر .

« وأما ، إن كان هذا الإنسان « من أصحاب اليمين » وهم الذين ثقلت موازين حسناتهم ..

« فسلام لك من أصحاب اليمين » أي: فتقول له الملائكة عند قبض روحه وفى قبره ، وفى الجنة ، سلام لك يا صاحب اليمين ، من أمثالك أصحاب اليمين .

قال الآلوسى : وقوله : « فسلام لك من أصحاب اليمين » قيل هو على تقدير القول : أى : فيقال لذلك المتوفى منهم : سلام لك يا صاحب اليمين من من إخوانك أصحاب اليمين ....

وجوز أن يكون المعنى : فسلامة لك عما يشغل القلب من جهتهم فإنهم فى خير ، أى : كن فارغ البال من جهتهم فإنهم بخير ..

وذكر بعض الأجلة أن هذه الجملة ، كلام يفيد عظمة حالهم ، كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق حد التفصيل .... » (١)

« وأما إن كان ، هذا المتوفى « من المكذبين الضالين ، وهم أصحاب الشمال « فنزل من حميم » أى : فله نزل - أى : مكان - « من حميم » أى : من ماء قد بلغ أقصى درجات الحرارة وعبر عن المكان الذى ينزل فيه بالنزل ، على سبيل التهكم ، إذ النزل فى الأصل يطلق على مايقدم للضيف على سبيل التكريم ...

وقوله « وتصلية جحيم » أى : وله - أيضا - إدخال فى نار جهنم التى تشوى جسده وتحرقه .

« إن هذا لهو حق اليقين » أى: إن هذا الذى قصصناه عليك - أيها الرسول

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ١٦٠

الكريم ـ فى هذه السورة وغيرها ، لهو الحق الثابت الذى لايحوم حـوله شك أو ريب ....

فقوله : « حق اليقين » من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى : لهو اليقين الحق . . .

أو هو من إضافة الشيء إلى نفسه مع إختلاف اللفظين ، كما فى قـوله ـ تعالى ـ : « حبل الوريد » إذ الحبل هو الوريد . والقصد من مثل هـذا التركيب التأكيد .

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بقوله : « فسبح باسم ربك العظيم » أى : إذا كان الأمر كما ذكرنا لك ـ أيها الرسول الكريم ـ فنزه ربك العظيم فى ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، عن كل مالا يليق به . . .

وبعد فهذا تفسير لسورة « الواقعة » نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

كتبه الراجى عفو ربه

الدوحة ـ قطر محمد سيد طنطاوى

صباحا الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦/٣/٢٦ م

التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير
سورة الحديد

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية
جامعة الأزهر

(الجزء السابع والعشرون)

١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الحديد » هي السورة السابعة والخمسون في ترتيب المصحف، وسميت بذلك لقوله - تعالى - فيها : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ... » .

وعدد آياتها تسع وعشرون آية في المصحف الكوفي، وثمان وعشرون في غـــيره .

٢ - وقد اختلف المفسرون في كونها مدنية أم مكية. فابن كثير والقرطبي يقولان بأنها مدنية، ولا يذكران خلافا في ذلك ...

بينما نرى صاحب الكشاف يقول إنها مكية، ولا يذكر - أيضا - خلافا في ذلك .

ومن المفسرين من يرى بأن سورة الحديد، منها ما هو مكي ومنها ما هو مدني.

قال الآلوسي : أخرج جماعة عن ابن عباس أنها نزلت بالمدينة . وقال النقاش وغيره : هي مدنية بإجماع المفسرين . ولم يسلم له ذلك، فقد قال قوم إنها مكية ...

وقال ابن عطية : لا خلاف أن فيها قرآنا مدنيا، لكن يشبه أن يكون صدرها مكيا ... ويشهد لهذا ما أخرجه البزار في مسنده، والطبراني، وابن مردويه ... عن عمر - رضي الله عنه - أنه دخل على أخته قبل أن يسلم، فإذا صحيفة فيها أول سورة الحديد، فقرأه حتى بلغ قوله - تعالى - : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ... فأسلم »(١) .

---

(١) راجع تفسير الآلوسي ج ٢٧ ص ١٦٤ .

والذي يبدو لنا ـ بعد تدبرنا لهذه السورة الكريمة ـ أنها يغلب عليها طابع القرآن المدني ، الذي يتحدث عن الجهاد في سبيل الله ، وعن الإنفاق من أجل إعلاء كلمته ، وعن سوء مصير المنافقين ، وعن إرشاد المؤمنين إلى كيفية إقامة الدولة القوية العادلة ... وهذا لا يمنع من أن يكون من بين آياتها ماهو مكي ، متى ثبت ذلك عن طريق النقل الصحيح .

٣ ـ وقد افتتحت السورة الكريمة ببيان أن الله ـ تعالى ـ قد نزهه عن كل مالا يليق به ، جميعُ مافي السموات ومافي الأرض ، وأنه ـ عز وجل ـ هو مالكهما ، وهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن، والمحيي والمميت، والخالق لكل شيء ، والعليم بكل شيء ...

قال ـ تعالى ـ : سبح لله مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ...

٤ — ثم حضت السورة الكريمة المؤمنين على الثبات على إيمانهم ، وعلى الإنفاق في سبيل الله ، ووعدتهم على ذلك بأجزل الثواب ...

قال ـ تعالى ـ : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

٥ — ثم تتحدث السورة الكريمة بعد ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر ، عن حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المنافقين ، فتحكي جانبا مما يدور بين الفريقين من محاورات فتقول : يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم . قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى . ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم ، وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور .

٦ ـ وبعد أن تنتقل السورة الكريمة إلى حث المؤمنين على الخشوع لله، وعلى تذكر الموت، وعلى البذل فى سبيل الله ... بعد كل ذلك تبين لهم مصير الحياة الدنيا، وتدعوهم إلى إيثار الآجلة على العاجلة، والباقية على الفانية فتقول: «اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو، وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور. سابقوا إلى مغفرة من ربكم، وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم ...».

٧ ـ ثم تقرر السورة بعد ذلك أن كل شىء بقضاء الله وقدره، وأنه ـ سبحانه ـ قد أرسل رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم بنشر العدل بين الناس، كما أمرهم بإعداد القوة لإرهاب أعداء الحق، لأن الناس فى كل زمان ومكان فيهم المهتدون، وفيهم الضالون، كما قال ـ تعالى ـ: «فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون».

٨ ـ ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة بهذا النداء الحكيم للمؤمنين فقال: «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته، ويجعل لكم نورا تمشون به، ويغفر لكم والله غفور رحيم. لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

٩ ـ وبعد، فهذا عرض مجمل لسورة «الحديد» ومنه نرى أنها زاخرة بالحديث عن مظاهر قدرة الله ـ تعالى ـ، وعن صفاته الجليلة ... وعن دعوة المؤمنين إلى التمسك بتعاليم دينهم، تمسكا يكون مقدما على كل شىء من زينة هذه الحياة الدنيا، لأن هذا التمسك يجعلهم يعيشون سعداء فى

دنياهم ، وينالون بسببه الفوز والفلاح فى أخراهم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدوحة ـ قطر
مساء الأربعاء ١٦ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ
٢٦ / ٣ / ١٩٨٦ م

د . محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية
والعربية ـ جامعة الأزهر

التفســـير

قال الله – تعالى – سَبَّحَ لِلَّهِ ما فى السَّمواتِ والأرْضِ وهُوَ العَزِيزُ الحكيمُ (١) لهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ ، يُحيي ويُميتُ وهو عَلَى كلِّ شَيءٍ قديرٌ (٢) هو الأوَّلُ والآخِرُ ، والظَّاهِرُ والبَاطِنُ ، وهو بكلِّ شَيءٍ عَليمٌ (٣) هو الذى خلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ فى ستَّةِ أيَّامٍ ثم استَوَى على العَرْشِ ، يَعلم ما يَلِجُ فى الأرْضِ ، وما يَخرجُ منها ، وما ينْزِلُ من السماء وما يَعرجُ فيها ، وهو مَعكُم أينَما كُنتُم واللهُ بما تَعملونَ بَصيرٌ (٤) لهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ ، وإلى اللهِ ترجَعُ الأمورُ (٥) يولِجُ اللَّيلَ فى النَّهارِ ، ويولِجُ النهارَ فى اللَّيلِ ، وهو عليمٌ بذَاتِ الصُّدور (٦) » .

افتتحت سورة «الحديد» بتنزيه الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به ، وبالثناء عليه - تعالى - بما هو أهله ، وببيان جانب من صفاته الجليلة ، الدالة على وحدانيته . وقدرته ، وعزته ، وحكمته ، وعلمه المحيط بكل شيء .

افتتحت بقوله - عز وجل - : « سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

وقوله : « سبح » من التسبيح ، وأصله الإبعاد عن السوء ، من قولهم سبح فلان فى الماء ، إذا توغل فيه ، وسبح الفرس ، إذا جرى بعيداً وبسرعة.

قالوا : وهذا الفعل « سبح » قد يتعدى بنفسه ، كما فى قوله - تعالى - : « وسبحوه بكرة وأصيلا » وقد يتعدى باللام كما هنا . وهى للتأكيد والتبيين أى : سبح لله لا لغيره ...

والمراد بالتسبيح هنا : تنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله وكماله .

والمعنى : نزه الله - تعالى - وعظمه وخضع له ، وانقاد لمشيئته ... جميع ما فى السموات والأرض من كائنات ، ومخلوقات ... لا يعلمها إلا هو - سبحانه - .

وقد جاء التسبيح تارة بصيغة الفعل الماضى كما فى هذه السورة ، وكما فى سورتى الحشر والصف ، وتارة بصيغة المضارع كما فى سورتى الجمعة والتغابن، وتارة بصيغة الأمر كما فى سورة الأعلى ، وتارة بصيغة المصدر كما فى سورة الإسراء ...

جاء التسبيح بهذه الصيغ المتنوعة ، للإشعار بأن تسبيح هذه المخلوقات لله - تعالى - شامل لجميع الأوقات والأحوال ...

قال - تعالى - : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا »(١) .

وختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « وهو العزيز الحكيم » ، والعزيز : هو الغالب على كل شىء ، إذ العزة معناها : الغلبة على الغير ، ومنه قوله تعالى - : « وعزنى فى الخطاب » ، أى : غلبنى فى الخصام .

وفى أمثال العرب : مَن عزّ بزّ ، أى : من غلب غيره تفوق عليه ...

والحكيم مأخوذ من الحكمة ، وهى وضع الأمور فى مواضعها اللائقة بها ...

أى : وهو - سبحانه - الغالب الذى لا يغلبه شىء . الحكيم الذى يضع الأمور فى مواضعها السليمة .

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : « له ملك السموات والأرض يحي ويميت ، وهو على كل شيء قدير »

أي : له - سبحانه - وحده دون أن يشاركه مشارك . ملك السموات والأرض . إذ هو - تعالى - المتصرف فيهما ، والخالق لهما ، إن شاء أبقاهما ، وإن شاء أزالهما ...

وملكه - سبحانه - للسموات والأرض ، ملك حقيقي ، لأنه لاينازعه فيه منازع ، ولا يشاركه مشارك ... بخلاف ملك غيره لبعض متاع الدنيا ، فإنه ملك زائل مهما طال ، ومفتقر إلى من يحميه ويدافع عنه .

وقوله : « يحي ويميت » صفة أخرى من صفاته - عز وجل - ، أي : هو الخالق للحياة لمن شاء أن يحييه ، وهو الخالق للموت لمن أراد أن يميته .

وهذه الجملة خبر لمبتدأ محذوف، وهي في الوقت نفسه بدل إشتمال مما قبلها إذ الإحياء والإماتة ، مما يشتمل عليه ملك السموات والأرض .

وخص - سبحانه - هاتين الصفتين بالذكر ، لأنه هو المتفرد بهما ، ولا يستطيع أحد أن يدعى أن له عملا فيهما ، ومن إدعى ذلك كانت دعواه من قبيل المغالطة والمجادلة بالباطل، إذ الموجد الحقيقي لهما هو الله - عز وجل - وما سواه فهو سبب لهما .

وقوله - تعالى - : « وهو كل شيء قدير » تذييل مؤكد لما قبله . أي : وهو - سبحانه - على كل شيء من الأشياء - التي من جملتها ما ذكر - قدير على إيجادها أو إعدامها .

ثم ذكر - سبحانه - صفات أخرى من صفاته الجليلة فقال : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم »

أي : هو - سبحانه - الأول والسابق على جميع الموجودات ، إذ هو

موجدها ومحدثها إبتداء، فهو موجود قبل كل شيء وجودا لا حد ولا وقت لبدايته.

وهو الآخر، أي: أي الباقي بعد هلاك وفناء جميع الموجودات، كما قال - تعالى -. «كل شيء هالك إلا وجهه»

وأوثر لفظ «الآخر» على لفظ الباقي، ليتم الطباق بين الوصفين المتقابلين وهو «الظاهر» أي: الظاهر وجوده عن طريق مخلوقاته التي أوجدها بقدرته إذ من المعروف عند كل عاقل، أن كل مخلوق لابد له من خالق، وكل موجود لابد له من موجد..

فلفظ «الظاهر» مشتق من الظهور الذي هو ضد الخفاء. والمراد به هنا ظهور الأدلة العقلية والنقلية على وجوده ووحدانيته وقدرته وعلمه...

ويجوز أن يكون مشتقا من الظهور، بمعنى الغلبة والعلو على الغير، كما في قوله - تعالى -: «إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم..»

وعليه يكون المعنى: وهو الغالب العالي على كل شيء.

وهو «الباطن» من البطون بمعنى الخفاء والاستتار، أي: وهو - سبحانه - المحتجب بكنه ذاته عن أن تدركه الأبصار، أو أن تحيط بحقيقة ذاته العقول، كما قال - تعالى - «لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير»(١)

ويصح أن يكون «الباطن» بمعنى العالم بما بطن وخفي من الأمور. يقال: فلان أبطن بهذا الأمر من غيره، أي: أعلم بهذا الشيء من غيره.

ثم ختم - سبحانه - الآية بقوله: «وهو بكل شيء عليم» أي: وهو - سبحانه - عليم بكل ما في هذا الكون، لا تخفى عليه خافية من شئونه، كما قال - تعالى -: «إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء..»(٢)

(١) سورة الأنعام. الآية ١٠٤

(٢) سورة آل عمران الآية ٣

قال ابن كثير : وهذه الآية هى المشار اليها فى حديث عرباض بن سارية أنها أفضل من ألف آية ...

وقد إختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية على نحو بضعة عشر قولا وقال البخارى : قال يحي : الظاهر على كل شىء علما. والباطن على كل شىء علما

وروى الإمام مسلم - فى صحيحه - ، والامام أحمد - فى سنده - عن أبى هريرة ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يدعو عند النوم فيقول « اللهم رب السموات ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة والإنجيل والقرآن ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء . وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء . وأنت الباطن فليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر ... » (1)

ثم ساق - سبحانه - ألوانا أخرى من الأدلة التى تدل على وحدانيته وقدرته فقال : « هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم إستوى على العرش ...

والأيام : جمع يوم . واليوم فى اللغة مطلق الوقت . أى : فى ستة أوقات لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - . وقيل : هذه الأيام من أيام الدنيا ...

والاستواء فى اللغة : يطلق على الاستقرار ، كما فى قوله - تعالى - : « واستوت على الجودى » أى استقرت سفينة نوح - عليه السلام - عند ذلك الجبل المسمى بذلك الاسم ، كما يطلق بمعنى القصد ، ومنه قولهم : إستوى إلى بخاصمنى . أى : قصد لى ، كما يطلق بمعنى الاستيلاء والقهر ، ومنه قول الشاعر : قد استوى بشر العراق ...

وعرش الله ، مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم ، أما حقيقته وكيفيته فلا يعلمها إلا الله - تعالى -

(1) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٢

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية من القرآن الكريم ، كما ذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أى : هو — سبحانه — الذى خلق السموات والأرض فى ستة أوقات، ثم استوى على العرش ، إستواء يليق به - سبحانه - ، بلا كيف ، ولا تمثيل ، ولا تشبيه ، لاستحالة إتصافه - تعالى - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به « ليس كمثله شيء وهو السميع والبصير » .

قال الإمام مالك - رحمه الله - : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ثم بين - سبحانه - شمول علمه فقال : « يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ... »

وقوله : « يلج » من الولوج بمعنى الدخول . يقال : ولج فلان بيته ، إذا دخله .

وقوله : « يعرج » من العروج وهو الذهاب فى صعود . والسماء : جهة العلو مطلقا .

أى أنه - سبحانه - يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يدخل فيها من ماء نازل من السماء ، ومن جواهر و كنوز قد طويت فى باطنها ، ومن بذور ومعادن فى طياتها .

ويعلم - أيضا - « ما يخرج منها » من نبات وحبوب و كنوز ، وغير ذلك من أنواع الخيرات . ويعلم - كذلك - « ما ينزل من السماء » من أمطار ، وثلوج ، وبرد ، وصواعق ، وبركات ، من عنده - تعالى - لأهل الأرض .

« ويعلم - أيضا - ما يصعد فيها من الملائكة ، ومن الأعمال الصالحة ، كما قال - تعالى - : إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ... »

وعدى العروج بحرف فى ، لتضمنه معنى الاستقرار ، وهو فى الأصل يعدى بحرف إلى ، كما فى قوله - تعالى - : « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . . . » .

وقوله - سبحانه - : « وهو معكم أينما كنتم » أى : وهو معكم بعلمه ولطفه ورحمته . . . أينما كنتم ، وحيثما وجدتم . . .

قال : الآلوسى : قوله - تعالى - : « وهو معكم أينما كنتم » تمثيل لإحاطة علمه - تعالى - بهم ، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا . وقيل المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية والقرينة السباق واللحاق مع استحالة الحقيقة .

وقد أول السلف هذه الآية بذلك ، أخرج البيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه قال فيها : عالم بكم أينما كنتم .

وأخرج - أيضا - عن سفيان الثورى أنه سئل عنها فقال : علمه معكم .

وفى البحر : أنه أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها ، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات . . . »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « والله بما تعملون بصير » أى : والله - تعالى - لا يخفى عليه شىء من أقوالكم أو أفعالكم . . . بل هو مطلع عليكم إطلاعا تاما .

ثم أكد - سبحانه - كمال قدرته فقال : « له ملك السموات والأرض . . » أى : له - سبحانه - التصرف الكلى فى السموات والأرض ، وفيما فيهما من موجودات ، من حيث الإيجاد والإعدام وسائر التصرفات . . . .

« وإلى الله ترجع الأمور » أى : وإلى الله - تعالى - وحده لا إلى غيره ،

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٧ ص ١٦٨ .

مرد الأمور كلها ، والحكم عليها ، والتصرف فيها ... وليس إلى أحد غيره لا على سبيل الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك .

« يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ... أى : يدخل - سبحانه - طائفة من الليل فى النهار ، فيقصر الليل ويزيد النهار ، ويدخل طائفة من النهار فى الليل ، فيقصر النهار ، ويزيد الليل ، ثم يسيران على هذا النظام البديع ، دون أن يسبق أحدهما الآخر ...

« وهو عليم بذات الصدور » و « ذات » هنا مؤنث ذو بمعنى صاحب .

أى : وهو - سبحانه - عليم علما تاما بمكنونات الصدور ، وما تضمره من خير أو شر وما يتردد فيها من خواطر وأفكار ...

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة من أول السورة إلى هنا ، يراها قد اشتملت على بضع عشرة صفة ، من صفات الله - عز وجل - الدالة على وجوب إخلاص العبادة له ، والانقياد لأمره ونهيه .

* * *

ثم دعا - سبحانه - عباده المؤمنين إلى التمسك بهذا الإيمان ، وإلى تنفيذ تكاليفه ، ووعدهم على ذلك بأجزل الثواب ، فقال - تعالى - :

« آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ، وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِي

مِنكُم مَن أنفَقَ مِنْ قبلِ الفَتحِ وقاتَل ، أُولئِكَ أعْظَمَ درجةً من الذين أنفقُوا مِنْ بعدُ وقاتَلُوا ، وكلاً وعَدَ اللهُ الحُسنَى ، واللهُ بما تَعملونَ خَبيرٌ (١٠) مَنْ ذا الّذِي يقرِضُ اللهَ قَرضاً حَسَناً ، فيضاعِفَهُ لهُ ولهُ أجرٌ كريمٌ (١١) » .

والخطاب فى قوله - تعالى - : « آمنوا بالله ورسوله . . . إلى الناس جميعا ويدخل فيه المؤمنون دخولا أوليا ، ويكون المقصود بدعوتهم إلى الإيمان ، المداومة عليه والتمسك بتعاليمه ، وتنفيذ توجيهاته . . . كما قال - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل . . . »[1] .

وقوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » بيان لما يقتضيه هذا الإيمان

وقوله : « مستخلفين » اسم مفعول من الاستخلاف ، بمعنى أن يخلف الإنسان غيره ، أو أن يخلفه غيره من بعده .

أى : آمنوا - أيها الناس - بالله - تعالى - وبرسوله - صلى الله عليه وسلم - إيمانا حقا ، وإن من مقتضيات هذا الإيمان ، أن تنفقوا من أموالكم فى وجوه الخير ، فإن هذه الأموال هى عارية فى أيديكم ، فقد ورثتموها عن غيركم ، وغيركم سيرثها عنكم . وهى فى جميع الأحوال ملك لله - تعالى - وحده على الحقيقة .

قال القرطبى : قوله : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » دليل على أن أصل الملك لله - سبحانه - وأن العبد ليس له فيه التصرف الذى يرضى الله فيثيبه على ذلك بالجنة ، فمن أنفق منها فى حقوق الله ، وهان عليه الإنفاق منها ، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه ، كان له الأجر الجزيل . . .

وقال الحسن : « مستخلفين فيه » : ورثتكم إياه عمن كان قبلكم .

(١) سورة النساء الآية ١٣٦ .

وهذا يدل على أنها ليست بأموالكم فى الحقيقة ، وما أنتم إلا بمنزلة النواب والوكلاء ، فاغتنموا الفرصة فيها بإقامة الحق ، قبل أن تزال عنكم إلى من بعدكم . . . »(١) .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهؤلاء المنفقين فقال : « فالذين آمنوا منكم » إيمانا حقا . . . « وأنفقوا » أموالهم فيما يرضى الله - تعالى - « لهم » منه - عز وجل - « أجر كبير » لا يعلم مقداره إلا الله - تعالى - .

ثم رغبهم - سبحانه - فى الثبات على الإيمان بالله ورسوله فقال: «ومالكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين .

أى : وأى مانع يمنعكم من الثبات على الإيمان ، ومن القيام بتكاليفه ، ومن إخلاص العبادة له - تعالى - وحده ، والحال أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بينكم صباح مساء ، يدعوكم إلى الإيمان بربكم ، وقد أخذ - سبحانه - عليكم العهود والمواثيق على هذا الإيمان ، عن طريق ما ركب فيكم من عقول تعقل ، وعن طريق ما نصب لكم من أدلة متنوعة كلها تدل على وجوب إخلاص العبادة لله الواحد القهار .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : أى وأى شىء يمنعكم من الإيمان ، والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به ، وقد روينا فى الحديث من طرق ، فى أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال يوما لأصحابه : « أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ قالوا : الملائكة .

قال : « وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم » ؟ قالوا : فالأنبياء . قال : « وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم » ؟ قالوا : فنحن . قال : فما لكم

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٣٨

لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم ، يجدون صحفا يؤمنون بما فيها ، . . .

وقوله ـ تعالى ـ : « وقد أخذ ميثاقكم » كما قال ـ تعالى ـ : « واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا . . . » ويعنى بذلك بيعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك : الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم . . . »[1] .

وجواب الشرط فى قوله ـ تعالى ـ : « إن كنتم مؤمنين » محذوف لدلالة ما قبله عليه .

أى : إن كنتم مؤمنين لسبب من الأسباب ، فعلى رأس هذه الأسباب وجود الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينكم يدعوكم إلى هذا الإيمان ويقنعكم بوجوب الاعتصام به .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر فضله على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعليهم فقال : « هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم » .

والرءوف : مبالغة فى الاتصاف بالرأفة ، ومعناها : كراهية إصابة الغير بما يضره أو يؤذيه .

والرحيم : مبالغة فى الاتصاف بصفة الرحمة ، ومعناها : محبة إيصال الخير والنفع إلى الغير .

أى : هو ـ سبحانه ـ وحده ، الذى ينزل على عبده ورسوله محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ « آيات بينات » أى : حججا واضحات ، ودلائل باهرات ، لكى يخرجكم من ظلمات الكفر والجهل ، إلى نور الإيمان والعلم . . .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٥

وإن الله - تعالى - بكم - أيها الناس - لكثير الرأفة والرحمة ، حيث أنزل إليكم كتابه ، وأرسل إليكم رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وكما حضهم - سبحانه - على الثبات على الإيمان ، . . . حضهم أيضا مرة أخرى على الإنفاق فى سبيله بأبلغ أسلوب ، فقال : « ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ، ولله ميراث السموات والأرض . . . » .

والاستفهام فى قوله تعالى : « ومالكم ألا تنفقوا . . . » للتعجيب من حال من يمسك عن الإنفاق فى سبيل الله ، مع أن كل المقتضيات تدعوه إلى هذا الإنفاق . . . والكلام فى قوله - تعالى - : « ولله ميراث السموات والأرض » على حذف مضاف ، والجملة حال من فاعل « ألا تنفقوا » ، أو من مفعوله المعلوم مما تقدم .

وإضافة ميراث إلى السموات والأرض ، من إضافة المصدر إلى المفعول أى : وأى سبب يحملكم على البخل وعدم الإنفاق فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والحال أن لله - تعالى - ميراث أهل السموات وأهل الأرض . . .

إنه لاعذر لكم فى الشح والإمساك بعد أن بينت لكم ما بينت من وجوب الإنفاق فى سبيل الله .

قال الآلوسى : قوله : « ولله ميراث السموات والأرض » أى : يرث كل شىء فيهما ، ولا يبقى لأحد مال ، على أن ميراثهما مجاز أو كناية عن ميراث ما فيهما ، لأن أخذ الظرف يلزمه أخذ المظروف . وجوز أن يراد : يرثهما وما فيهما . واختير الأول ، لأنه يكفى لتوبيخهم ، إذ لا علاقة لأخذ السموات والأرض هنا . . والجملة مؤكدة للتوبيخ ، فإن ترك الإنفاق بغير سبب قبيح منكر ، ومع تحقق مايوجب الإنفاق أشد فى القبح ، وأدخل فى الإنكار . . »(١) .

ثم قال - تعالى - : « لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا . . . » .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٧١

والمراد بمن أنفق من قبل الفتح وقاتلوا : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين أنفقوا الكثير من أموالهم ، قبل فتح مكة . . . وقيل : المراد بالفتح : صلح الحديبية .

وإنما كان الذين أنفقوا وقاتلوا قبل هذا الوقت ، أعظم درجة ممن فعل ذلك بعد هذا الوقت ، لأن الأيام التى سبقت الفتح تعرض المسلمون خلالها لكثير من المصائب والخوف والجوع ونقص الثمرات . . . فكان الإنفاق والجهاد فيها أشق على النفس ، والثواب على قدر المشقة .

أى : لا يستوى منكم - أيها المؤمنون - فى الفضيلة والدرجة من أنفق الكثير من ماله ، من قبل أن تفتح مكة ، وجاهد فى سبيل الله - تعالى - جهادا كبيرا ، أولئك الذين فعلوا ذلك ، أعظم درجة ومنزلة من الذين انفقوا وقاتلوا بعد أن فتحت مكة .

فالجملة الكريمة بيان لتفاوت الدرجات ، على حسب تفاوت الأحوال والأعمال . وعطف - سبحانه - القتال فى قوله « وقاتلوا » على الإنفاق فى قوله : « أنفقوا » للإشعار بشدة ارتباطهما ، وأنه لا غنى لأحدهما عن الآخر .

قال القرطبي : أكثر المفسرين على أن المراد بالفتح : فتح مكة . وقال الشعبي والزهرى : فتح الحديبية . . . وفى الكلام حذف : أى : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل » فحذف لدلالة الكلام عليه .

وإنما كانت النفقة قبل الفتح أعظم ، لأن حاجة الناس كانت أكثر لضعف الإسلام ، وفعل ذلك كان على المنفقين حينئذ أشق ، والأجر على قدر النصب . . . »(١)

وقوله - تعالى - : « من أنفق . . . » عام يشمل جميع من بذل ماله قبل

(١) تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٤٠

الفتح فى سبيل الله .

وقيل : المراد به أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- ، لأنه أول من أسلم، وأول من انفق .

وقوله - عز وجل - : « وكلا وعد الله الحسنى » مدح للفريقين ، ودفع للتوهم من أن يظن ظان ان الفريق الثانى وهو الذى انفق من بعد الفتح وقاتل ، محروم من الأجر .

أى : وكلا الفريقين وعده الله - تعالى - المثوبة الحسنى وهى الجنة ، إلا أن الذين انفقوا من قبل الفتح وقاتلوا . أعظم درجة من الذين انفقوا وقاتلوا بعد ذلك .

فهذه الآية أصل فى تفاضل أهل الفضل فيما بينهم ، وأن الفضل ثابت لهم جميعا إلا أنهم تفاوتوا فيه على حسب أعمالهم وجهادهم وسبقهم . . .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « والله بما تعملون خبير » أى : أنه - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم الظاهرة أو الباطنة ، فأخلصوا أقوالكم وأفعالكم لله -تعالى- ، لتنالوا أجره وثوابه .

وقد ساق الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية جملة من الأحاديث التى تدل على فضل الصحابة - رضوان الله عليهم - ومنها ما جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « لاتسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده ، لو انفق أحدكم مثل أحد ذهبا ، مابلغ مُدَّ أحدهم ولانصيفَه »(١) .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآيات الكريمة ، بتحريض أشد وأقوى على الإنفاق فى وجوه الخير ، فقال - تعالى - : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم » .

قال القرطبي : القرض : اسم لكل مايلتمس عليه الجزاء . وأقرض فلان

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٦

فلانا ، أي : أعطاه مايتجازاه . واستقرضت من فلان . أي : طلبت منه القرض فأقرضني واقترضت منه أي : أخذت منه القرض . وأصل الكلمة : القطع . ومنه المقراض . وأقرضته ، أي : قطعت له من مالي قطعة يجازى عليها .

ثم قال : والتعبير بالقرض في هذه الآية ، إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه ، والله هو الغني الحميد ، لكنه ـ تعالى ـ شبه عطاء المؤمن في الدنيا بما يرجو به ثوابه في الآخرة بالقرض ، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء . . »[1]

والقرض الحسن : هو الإنفاق من المال الحلال ، مع صدق النية ، دون رياء ، أو سمعة ، أو منّ أو أذى ، مع تحرى أوسط الأموال . . .

والاستفهام : للحض على البذل والعطاء ، وللتحريض على التحلي بمكارم الأخلاق .

و « من » اسم استفهام مبتدأ ، و « ذا » اسم إشارة خبره ، و « الذي » وصلته صفة لاسم الإشارة ، أو بدل منه .

والمعنى : من هذا المؤمن القوى الإيمان ، الذي يقدم ماله في الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله ، وفي غير ذلك من وجوه الخير كمعاونة المحتاجين ، وسد حاجة البائسين . . . « فيضاعفه له » أي : فيعطيه ـ سبحانه ـ أجره على إنفاقه أضعافا مضاعفة .

« وله أجر كريم » أي : ولهذا المنفق ـ فضلا عن كل ذلك ـ أجر كريم عند خالقه ، لايعلم مقداره إلا هو ـ تعالى ـ .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة ، قد اشتملت على ألوان من الحض على الإنفاق في وجوه الخير .

(١) تفسير القرطبي ج ٣ ص ٢٣٩ .

ومن ذلك التعبير بالاستفهام فى ذاته ، لأنه للتنبيه وبعث النفوس إلى التدبر والاستجابة .

ومن ذلك - أيضا - التعبير بقوله : « من ذا الذى ... » إذ لا يستفهم بتلك الطريقة إلا إذا المقام ذا كان شأن وخطر ، وكان المخاطب لعظم شأنه ، من شأنه أن يشار إليه ، وأن يجمع له بين اسم الإشارة وبين الاسم الموصول ...

ومن ذلك تسميته ما يبذله الباذل قرضا ، ولمن هذا القرض ؟ إنه لله الذى له خزائن السموات والأرض .

فكأنه - تعالى - يقول : أقرضونى ما أعطيتكم ، وسأضاعف لكم هذا القرض أضعافا مضاعفة ، يوم القيامة ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ...

ومن ذلك إخفاء مرات المضاعفة ، وإضافة الأجر الكريم إليها .

ومن ذلك التعبير عن الإنفاق بالقرض ، إذ القرض معناه : إخراج المال ، وانتظار ما يقابله من بدل .

والخلاصة أن هذه الآية وما قبلها ، فيها ما فيها من الدعوة إلى الإنفاق فى وجوه الخير ، وإلى الجهاد فى سبيله .

* * *

ثم بين - سبحانه - ما أعده للمؤمنين الصادقين من ثواب ، وساق جانبا مما يدور بينهم وبين المنافقين من محاورات ... فقال - تعالى - :

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ الْفَوْزُ

العظيمُ (١٢) يومَ يقولُ المنافِقونَ والمنافِقاتُ للذينَ آمنُوا انظُرونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نورِكُم، قِيلَ ارجِعُوا وراءَكُم فالْتَمِسوا نوراً فَضُرِب بينَهم بسُورٍ لهُ بابٌ باطِنهُ فيه الرَّحمةُ، وظاهِرُه مِنْ قِبَلِه العَذابُ (١٣) يُنَادونَهم ألم نكُنْ معَكم، قالُوا بلَى، ولكِنكم فتَنتُم أنفسكُم وتربَّصْتُم وارْتَبْتُم وغرَّتكم الأمانِيُّ، حتىجاء أمرُ الله وغرَّكُم باللهِ الغَرُور(١٤) فاليومَ لا يؤخَذُ منكُم فِدْيةٌ ولا مِنَ الذينَ كفَرُوا، مَأْواكُم النَّارُ هى مولاكُم وبئْسَ المصيرُ (١٥) ».

وقوله - تعالى - « يوم ترى المؤمنين ... » منصوب بفعل مقدر، والرؤية بصرية، والخطاب لكل من يصلح له ...

والمعنى : واذكر - أيها العاقل - لتتعظ ولتعتبر، يوم تبصر المؤمنين والمؤمنات « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ». والأيمان : جمع يمين. والمراد جهة اليمين.

أى : يتحرك نورهم معهم من أمامهم، ومن جهة يمينهم، على سبيل التشريف والتكريم لهم.

قال ابن كثير : يقول - تعالى - مخبرا عن المؤمنين المتصدقين، أنهم يوم القيامة، يسعى نورهم بين أيديهم فى عرصات القيامة بحسب أعمالهم، كما قال عبد الله بن مسعود : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم، يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ... [1].

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٠٨.

وعطف - سبحانه - « المؤمنات » على « المؤمنين » ، للتنبيه على أن كلا من الذكر والأنثى ، له أجره على عمله الصالح ، بدون إجحاف أو محاباة لجنس على جنس ، كما قال - تعالى - : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[1].

والباء فى قوله : « وبأيمانهم » بمعنى عن ، واقتصر على ذكر الأيمان على سبيل التشريف لتلك الجهة . والمراد أن نورهم يحيط بهم من جميع جوانبهم .

وقوله : « بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » .

مقول لقول محذوف . وقوله : « بشراكم » اسم مصدر من بشر أى : أخبر بما يسر ...

والمعنى : تقول لهم الملائكة على سبيل التكريم والتحية : نبشركم اليوم بجنات عظيمة ، تجرى من تحت ثمارها وأشجارها الأنهار العذبة ، حالة كونكم خالدين فيها خلودا أبديا ، وذلك الذى أنتم فيه من نور يسعى بين أيديكم ، ومن جنات أنتم خالدون فيها ... هو الفوز العظيم ، الذى لا يعادله فوز أو فلاح ...

وقوله - عز وجل - : « يوم يقول المنافقون والمنافقات ... » بدل من قوله - تعالى - : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ... » .

أى : واذكر - أيها العاقل - أيضا - يوم يقول المنافقون والمنافقات ، الذين أظهروا الإسلام ، وأبطنوا الكفر ، يقولون للذين آمنوا ، على سبيل التذلل والتحسر ...

« انظرونا نقتبس من نوركم ... » أى : انتظرونا وتريثوا فى سيركم ،

---

(١) سورة النحل الآية ٩٧ .

لكى نلحق بكم ، فنستنير بنوركم الذى حرمنا منه ، وننتفع بالاقتباس من نوركم الذى أكرمكم الله - تعالى - به .

قال الآلوسى : « انظرونا » أى : انتظرونا « نقتبس من نوركم » نصب منه . وذلك بأن يلحقوا بهم ، فيستنيروا به ... وأصل الاقتباس طلب القبس ، أى : الجذوة من النار ...

وقولهم للمؤمنين ذلك ، لأنهم فى ظلمة لايدرون كيف يمشون فيها . وروى أن ذلك يكون على الصراط ...[1] .

وقوله - سبحانه - « قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ... » حكاية لما يرد به عليهم المؤمنون ، أو الملائكة .

أى : قال المؤمنون فى ردهم على هؤلاء المنافقين : ارجعوا وراءكم حيث الموقف الذى كنا واقفين فيه فالتمسوا منه النور ، أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا نورا ، عن طريق تحصيل سببه وهو الإيمان ، أو ارجعوا خائبين فلا نور لكم عندنا ...

وهذا القول من المؤمنين لهم ، على سبيل التهكم بهم ، إذ لا نور وراء المنافقين .

وقوله : « وراءكم » تأكيد لمعنى « ارجعوا » إذ الرجوع يستلزم الوراء .

ثم بين - سبحانه - ماحدث للمنافقين بعد ذلك فقال : « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب » .

أى : فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين بحاجز عظيم ، هذا الحاجز العظيم ، والسور الكبير ، له باب ، باطن هذا الباب مما يلى المؤمنين « فيه الرحمة » أى : فيه الجنة ، وظاهر هذا الباب مما يلى المنافقين « من قبله العذاب »

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٧٦ .

أى : يأتى من جهته العذاب . قالوا : وهذا السور ، هو الحجاب المذكور فى سورة الأعراف فى قوله - تعالى - : « وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم . . . » .

والمقصود بهذه الآية الكريمة ، بيان أن المؤمنين فى مكان آمن تحيط به الجنة ، أما المنافقون ففى مكان مظلم يؤدى بهم إلى النار وبئس القرار .

ثم حكى - سبحانه - أن المنافقين لم يكتفوا بهذا الرجاء للمؤمنين ، بل أخذوا ينادونهم فى تحسر وتذلل ، فيقولون لهم - كما حكى القرآن عنهم : « ينادونهم ألم نكن معكم . . . » .

أى : ينادى المنافقون المؤمنين نداء كله حسرة وندامة ، فيقولون لهم : ألم نكن معكم فى الدنيا ، نصلى كما تصلون ، وننطق بالشهادتين كما تنطقون ؟

« قالوا بلى » أى : قال المؤمنون للمنافقين : بلى كنتم معنا فى الدنيا تنطقون بالشهادتين .

« ولكنكم » فى الدنيا « فتنتم أنفسكم » أى : أضللتم أنفسكم بالنفاق الذى هو كفر باطن ، وإسلام ظاهر . . .

« وتربصتم » والتربص : الانتظار والترقب . أى : وانتظرتم وقوع المصائب بالمؤمنين .

« وارتبتم » أى : وشككتم فى الحق الذى جاءكم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وأعرضتم عنه .

« وغرتكم الأمانى » والأمانى : جمع أمنية ، وهى مايمنون به أنفسهم من الباطل ، كزعمهم أنهم مصلحون ، وأنهم على الحق ، وأن المسلمين على الباطل . . .

« حتى جاء أمر الله » أى : بقيتم على الفتنة ، والارتياب ، والتربص ، والاغترار بالباطل ، حتى جاءكم أمر الله ، وهو قضاؤه فيكم بالموت . . .

«وغركم بالله الغرور» أى: وخدعكم فى سعة رحمة الله الشيطان، فأطمعكم بأنكم ستنجون من عقابه - تعالى -، مهما فتنتم أنفسكم وتربصتم بالمؤمنين وارتبتم فى كون الإسلام حق...

وها أنتم الآن ترون سوء عاقبة نفاقكم، وإصراركم على كفركم...

«فاليوم لا يؤخذ منكم، أيها المنافقون، فدية، وهى ما يبذل من أجل افتداء النفس من العذاب...

«ولا من الذين كفروا» أى: ولا يؤخذ - أيضا - من الذين كفروا ظاهرا وباطنا فداء.

«مأواكم» جميعا «النار». أى: المكان الذى تستقرون فيه، هو النار.

«هى مولاكم» أى: هذه النار هى أولى بكم من غيرها. والأصل هى مكانكم الذى يقال فيه أولى بكم.

ويجوز أن يكون المعنى: هذه النار: هى ناصركم، من باب التهكم بهم، على حد قول الشاعر: تحيـــة بينهم ضرب وجيع. أى: لا ناصر لكم إلا النار.

والمراد نفى الناصر لهم على سبيل القطع، بعد نفى أخذ الفدية منهم.

قال صاحب الكشاف: قوله: «هى مولاكم» قيل: هى أولى بكم... وحقيقة مولاكم، أى: مكانكم الذى يقال فيه هو أولى بكم كما قيل هو مئنة للكرم. أى مكان لقول القائل إنه لكريم.

ويجوز أن يراد: هى ناصركم. أى: لا ناصر لكم غيرها. والمراد: نفى الناصر على البتات، ونحوه قولهم أصيب فلان بكذا فاستنصر بالجزع. ومنه قوله - تعالى -: «وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل...».

وقيل: هى مولاكم، أى تتولاكم كما توليتم فى الدنيا أعمال أهل النار.

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٤٧٦

وعطف - سبحانه - الذين كفروا على المنافقين فى عدم قبول الفدية ، لاتحادهم فى التكذيب بيوم الدين ، وفى الاستهزاء بالحق الذى جاءهم من عند الله - تعالى - .

والمخصوص بالذم فى قوله تعالى - : « وبئس المصير » محذوف والتقدير : وبئس المصير جهنم التى هى المكان الذى تصيرون إليه .

فأنت ترى أن المؤمنين قد بينوا المنافقين ، أنهم يوافقونهم على أنهم كانوا معهم فى الدنيا ...

ولكن الذى أدى بهؤلاء المنافقين إلى هذا المصير الأليم ، هو : فتنة أنفسهم ، والتربص بالمؤمنين ، والارتياب فى صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، والاغترار بخداع الشيطان ... فما نزل بهم من عذاب إنما هو بسبب أفعالهم القبيحة .

* * *

وبعد هذا الحديث المؤثر عن المؤمنين ونورهم ، وعن المنافقين وظلماتهم وعن تلك المحاورات التى تدور بينهم ... بعد كل ذلك حرض - سبحانه - المؤمنين ، على أن يروضوا أنفسهم على خشية الله - تعالى - ، وحذرهم من أن ينهجوا نهج أهل الكتاب فى قسوة القلب . ووعد - سبحانه - المؤمنين الصادقين بالأجر الجزيل ، وبالنور العظيم ، فقال - تعالى - :

« أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ، وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ ، فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ ، فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ، يُضَاعَفُ لَهُمْ

ولهم أجر كريم (١٨) والذين آمنوا بالله ورسله، أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم (١٩) » .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : « ألم يأن ... » للتقرير ، و « يأن » فعل مضارع، يقال: أنى الشىء - كرمى - أنيا وأناء - بالفتح - ، وإنى - بالكسر إذا حان أناه ، أي : وقته ، فهو فعل معتل حذفت منه الياء لسبقه بلم الجازمة . ومنه قوله - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ... » أى غير ناظرين حلول وقته .

والخطاب فى الآية يحتمل أن يكون من باب العتاب لطائفة من المؤمنين، أصابهم بعض الفتور أو التكاسل، فيما أمروا به من الاجتهاد فى طاعة الله - تعالى - بعد أن فتح الله - تعالى - لهم أقطار الأرض، ورزقهم بالكثير من لين العيش ، وخيرات الدنيا ...

ويؤيد هذا ما أخرجه ابن المبارك ، وعبد الرزاق ، وابن المنذر عن الأعمش قال : لما قدم أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا، بعد ما كان لهم من الجهد - وشظف العيش، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه، فعوتبوا على ذلك . فنزلت هذه الآية .

ويحتمل أن يكون الخطاب فى الآية لجميع المؤمنين ، على سبيل الحض على المداومة على طاعة الله - تعالى - ، والتحذير من التقصير ...

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله - تعالى - : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ... » .

استئناف لعتاب المؤمنين على الفتور والتكاسل فيما ندبوا إليه ، والمعاتب -

- على ما قاله الزجاج - طائفة منهم ، وإلا فإن من المؤمنين من لم يزل خاشعا منذ أن أسلم إلى أن لقى ربه . . . »(1) .

والخشوع : التذلل والخضوع . واللام فى قوله « لذكر الله » للتعليل . والمراد بذكر الله - تعالى - : مايشمل كل قول أو فعل يؤدى إلى الخوف من الله - تعالى - بحيث يظهر أثر ذلك على الجوارح . .

وقيل : المراد به : القرآن الكريم ، فيكون قوله - تعالى - بعد ذلك « وما نزل من الحق » من باب عطف الشىء على نفسه ، لاختلاف اللفظين ، كما فى قوله - تعالى - : « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . . . » .

والمعنى لقد آن الأوان أن تخشع قلوب المؤمنين لذكر الله - تعالى - ، وأن تلين قلوبهم لما أنزله - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - من قرآن ، تقشعر منه جلود الذين يخافون ربهم ، وترق له مشاعرهم ونفوسهم .

وبعد هذا التحريض للمؤمنين على المسارعة فى طاعة الله - تعالى - وخشيته والإكثار من ذكره . . . نهاهم - سبحانه - عن التشبه بأهل الكتاب ، الذين طال عليهم الأمد فى الانغماس فى شهوات الدنيا فقست قلوبهم ، فقال - تعالى - : « ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل . فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم ، وكثير منهم فاسقون » .

والمراد بالذين أوتوا الكتاب : اليهود والنصارى . وبالكتاب : التوراة والإنجيل .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - : « تخشع » والأمد : الغاية من زمان أو مكان . والمراد به هنا : الزمان الطويل .

أى : لقد آن الأوان أن تخشع قلوب الذين آمنوا لذكر الله وما نزل من

(1) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٧٩

الحق، وآن الأوان - أيضا - أن لا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم، حيث طال عليهم الوقت وهم منغمسون فى الشهوات والملذات، فقست قلوبهم، وصارت لا تتأثر لا بالترغيب ولا بالترهيب. ولا تفرق بين الحرام والحلال وأصبح كثير منهم خارجين عن الصراط المستقيم.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد حضت المؤمنين على الركون إلى ذكر الله - تعالى - بشدة ومداومة... ونهتهم من التشبه بأهل الكتاب فى عدم الخشوع، وفى قسوة القلوب، بسبب استيلاء المطامع والشهوات على قلوبهم ...

قال صاحب الكشاف ما ملخصه: قوله - تعالى - : «ألم يأن ...» من أنى الأمر إذا جاء أناه، أى: وقته ... والآية نهى للمؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب فى قسوة القلوب، وذلك أن بنى إسرائيل، كان الحق يحول بينهم وبين شهواتهم، وإذا سمعوا التوراة والإنجيل خشعوا لله ورقت قلوبهم، فلما طال عليهم الزمان، غلبهم الجفاء والقسوة، واختلفوا وأحدثوا ما أحدثوا من التحريف وغيره،

فإن قلت: ما معنى لذكر الله وما نزل من الحق؟ قلت: يجوز أن يراد بالذكر وبما نزل من الحق القرآن، لأنه جامع للأمرين: للذكر والموعظة وأنه حق نازل من السماء.

وأن يراد خشوعها إذا ذكر الله، وإذا تلى القرآن، كقوله - تعالى - : «إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ...»[1].

والآية الكريمة تشير إلى أن الإهمال لذكر الله، والاسترسال فى الشهوات كل ذلك يؤدى إلى قسوة القلوب، وإلى الفسوق عن أمر الله - تعالى - .

ولذا وجدنا كثيرا من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، تحض

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٦٤

على الإكثار من ذكر الله - تعالى - قال - سبحانه - : «والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما » .

وفى الحديث الشريف : يقول - صلى الله عليه وسلم - : « لا يقعد قوم يذكرون الله - تعالى - ، إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم فيمن عنده » .

ولقد كان سماع هذه الآية الكريمة ، بتدبر وتفكر وخشوع ، على رأس الأسباب التى أدت إلى توبة بعض العصاة توبة صادقة نصوحا . .

فهذا هو الفضل بن عياض ، يذهب ليلا لارتكاب مانهى الله عنه ، فيسمع قارئا يقرأ هذه الآية ، فيرتجف ويعود أدراجه وهو يقول : بلى والله قد آن أوان الخشوع لذكر الله . . . اللهم إنى تبت إليك ، وجعلت توبتى إليك ، جوار بيتك الحرام »[1] .

ثم وجه - سبحانه - خطابه إلى المؤمنين فقال : « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » .

وافتتاح الآية بقوله - تعالى - : اعلموا . . ، يؤذن بأن ما سيلقى على مسامعهم من توجيهات ، جدير بالانتباه إلى مضمونه ، وإلى الامتثال لما اشتمل عليه من أمر أو نهى .

وليس المقصود من الآية إخبار المؤمنين بأن الله - تعالى - قادر على إحياء الأرض بعد موتها ، فذلك أمر يعتقدونه ، ولا يتم إيمانهم إلا به . .

وإنما المقصود من هذه الآية الكريمة ، بيان أن المواظبة على ذكر الله - تعالى - ، وعلى تلاوة كتابه ، كل ذلك يكون له أثره فى خشوع النفوس ، وفى طهارة القلوب .. كأثر المطر عندما ينزل على الأرض الجدباء المقفرة . . فما تلبث إلا أن تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ١٥١

قال الإمام الرازى : قوله ـ تعالى ـ : « اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ... » فيه وجهان :

الأول : أنه تمثيل، والمعنى : أن القلوب التى ماتت بسبب القساوة، المواظبةُ على الذى سبب لعودة حياة الخشوع إليها، كما يحيى الله ـ تعالى ـ الأرض بالغيث .

والثانى : أن المراد من قوله : يحيى الأرض بعد موتها » : بعث الأموات، فذكر ذلك ترغيبا فى الخشوع والخضوع ، وزجرا عن القساوة »[1] .

والمراد بالآيات فى قوله ـ تعالى ـ : « قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون »: الدلائل الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلمه ـ سبحانه ـ .

أى : قد بينا لكم الدلائل والبراهين ، الناطقة بقدرتنا وحكمتنا .. لعلكم بهذا البيان تعقلون ما أرشدناكم إليه ، وتعملون بموجب ماعقلتموه ، وبذلك تنالون الفلاح والسعادة ، وتخشع قلوبكم لذكرنا ولآياتنا ...

ثم بين ـ سبحانه ـ ما أعده للمؤمنين الذين يبذلون أموالهم فى سبيله ، والذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فقال: «إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا ، يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم ... »

وقراءة : « إن المصدقين والمصدقات » ـ بتشديد الصاد ـ من التصدق ، فأدغمت التاء فى الصاد بعد قلبها صادا لقرب مخرجيهما .. وأصل الكلام : والمتصدقين والمتصدقات .

وقرأ ابن كثير وغيره « إن المصدقين والمصدقات » ـ بتخفيف الصاد ـ على أنه من التصديق لما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : علام عطف قوله : « وأقرضوا » ؟

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ٢٩ ص ٢٣٢ . طبعة دار الفكر ـ بيروت .

قلت . على معنى الفعل فى المصدقين ، لأن « أل » بمعنى الذين ، واسم الفاعل بمعنى : اصدقوا . فكأنه قيل : إن الذين أصدقوا وأقرضوا . . . »[١] .

والمعنى : إن المؤمنين والمؤمنات الذين تصدقوا بأموالهم فى وجوه الخير، والذين « أقرضوا الله قرضا حسنا » بأن أنفقوا أموالهم الحلال فى سبيل الله، بدون من أو أذى .

هؤلاء الذين فعلوا ذلك « يضاعف لهم » أجرهم عند الله - تعالى - أضعافا كثيرة .

« ولهم » فضلا عن كل ذلك « أجر كريم » لا يعلم مقـــداره إلا هو - سبحانه - .

وقوله : « والذين آمنوا بالله ورسله » مبتدأ .

وقوله : « أولئك هم الصديقون » خبره . أى : والذين آمنوا بالله ورسله إيمانا حقا - لهم منزلة الصديقين ، أى : منزلة المبالغين فى الصدق واليقين .

فالصديق - بتشديد الدال - هو المبالغ فى الصدق بما جاءه به الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وفى تنفيذ ما كلف به تنفيذا تاما .

« والشهداء عند ربهم » وهم الذين استشهدوا فى سبيل الله - تعالى - : « لهم أجرهم » العظيم عند الله - تعالى - ، ولهم « نورهم » الذى يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يوم القيامة .

فعلى هذا التفسير يكون قوله : « والشهداء عند ربهم » مبتدأ ، وجملة « لهم اجرهم ونورهم » ، خبره . ويكون الوقف على « الصديقون » وقفا تاما . والضمائر فى « لهم أجرهم ونورهم » للشهداء .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٥ .

ويصح أن يكون قوله « والشهداء » معطوف على « الصديقون » عطف المفرد على المفرد ، فهو عطف على الخبر . أى : وهم الشهداء عند ربهم ... ويكون الوقف على الشهداء تاما ، وأخبر ـ سبحانه ـ عن الذين آمنوا بالله ورسله ، أنهم صديقون وشهداء .

والمعنى على هذا الوجه : والذين آمنوا بالله ورسله ، أولئك هم الذين فى حكمه ـ تعالى ـ بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو الرتبة ، ورفعة الدرجة .

وقوله : ـ تعالى ـ « عند ربهم لهم أجرهم ونورهم » أى : للذين آمنوا بالله ورسله عند ربهم ، مثل أجر الصديقين والشهداء ولهم مثل نورهم يوم القيامة، وناهيك به من أجر عظيم ، ونور عميم .

وحذف مايفيد التشبيه فى الجملتين ، للتنبيه على قوة المماثلة ، وبلوغها حد الاتحاد .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله : يريد أن المؤمنين بالله ورسله ، هم عند الله ـ تعالى ـ بمنزلة الصديقين والشهداء . وهم الذين سبقوا إلى التصديق ، واستشهدوا فى سبيل الله .

وقوله : « لهم أجرهم ونورهم » أى : لهم مثل أجر الصديقين والشهداء ومثل نورهم .

فإن قلت : كيف يسوى بينهم فى الأجر ولابد من التفاوت ؟ قلت : المعنى أن الله ـ تعالى ـ يعطى الذين آمنوا بالله ورسله أجرهم . ويضاعفه لهم بفضله ، حتى يتساوى أجرهم مع إضافة ، أجر أولئك ، أى أجر الصديقين والشهداء ...

ويجوز أن يكون قوله : « والشهداء » مبتدأ ، وقوله : لهم أجرهم » خبره ... »

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٦٥ .

وقوله - تعالى - : «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» بيان لسوء عاقبة الكافرين ، بعد بيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين .

أى : والذين كفروا بالله ورسله ، وكذبوا بآياتنا الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا أولئك أصحاب الجحيم ، الملازمون لها ملازمة الشىء لصاحبه .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حضت المؤمنين على المواظبة على ذكر الله - تعالى - وطاعته ونهتهم عن التشبه بالذين قست قلوبهم ، وبشرت المصدقين والمصدقات ، والذين آمنوا بالله - تعالى - وبرسله إيمانا حقا ... بالأجر العظيم ، وبالعطاء الجزيل .

° ° °

ثم بين - سبحانه - حال الحياة ، التى ركن إليها الكافرون . واطمأنوا بها ... ودعا المؤمنين إلى أن تكون هممهم متجهة نحو الآخرة ، عن طريق التسلح بالأعمال الصالحة ، فقال - تعالى - :

«اعلَموا أنَّما الْحَياةُ الدُّنيا لعِبٌ ولهوٌ ، وزِينةٌ وتفاخُرٌ بَينكُم وتكاثُرٌ فى الأموالِ والأولادِ ، كمثَلِ غيثٍ أعجَبَ الكفَّارَ نباتُه ثم يهيجُ فتَراه مُصفراً ثم يكُونُ حطاماً ، وفى الآخرةِ عذابٌ شديدٌ ومَغفِرةٌ من الله ورِضوانٌ ، وما الْحياةُ الدُّنيا إلاَّ متاعُ الغُرورِ (٢٠) سابِقوا إلى مغْفِرةٍ مِنْ ربكُم ، وجنَّةٍ عرضُها كعَرضِ السَّماء والأرْضِ أُعِدَّت للَّذِين آمنُوا باللهِ ورُسُله ، ذلكَ فَضْل الله يؤْتِيهِ من يشاء ، والله ذُو الفَضْل العَظيم (٢١) » .

أى : اعلموا - أيها المؤمنون علم استجابة وامتثال لما آمركم به - إنما

الحياة الدنيا، التى تعيشون فيها ما شاء الله لكم أن تعيشوا ... «لعب» واللعب: هو قضاء الوقت فى قول أو فعل لا فائدة من ورائه ..

«ولهو» واللهو: إسم لفعل أو قول يقصد من ورائه التلذذ والتمتع، وصرف الآلام والهموم عن النفس.

«وزينة» الزينة إسم لما يتزين به الإنسان من ملبس أو مسكن أو ما يشبههما مما يفعله من أجل أن يكون فى أعين الناس مهيبا جميلا.

«وتفاخر بينكم» أى: وتفاخر فيما بينكم بالأموال والمناصب والأحساب والأعمال. «وتكاثر فى الأموال والأولاد» والتكاثر تفاعل من الكثرة — كما أن التفاخر تفاعل من الفخر — وصيغة التفاعل جيء بها هنا، للمبالغة فى إظهار ما يتفاخرون به، وما يتكاثرون فيه، حتى لكأنه ينافس غيره فى ذلك ويريد الظهور عليه.

والحرص على التفاخر والتكاثر فى الأموال والأولاد، من طبيعة كثير من الناس، كما قال — تعالى — : «ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ...»

ثم بين — سبحانه — حال الحياة الدنيا، التى يلعب الناس فيها، ويلهون ويتفاخرون، ويتكاثرون.

فقال: «كمثل غيث أعجب الكفار نباته ...»

أى: هذه الحياة الدنيا حالها وصفتها ومثلها كمثل مطر أعجب الكفار وراقهم وسرهم، ما ترتب على هذا المطر، من نبات جميل نبت من الأرض بعد هطول الغيث عليها.

فقوله - تعالى - : «كمثل» خبر لمبتدأ محذوف. أى: مثلها كمثل.

والمراد بالكفار هنا: الجاحدون لنعم الله - تعالى -، الساترون لها، وخصوا بالذكر، لأنهم أشد إعجابا وسرورا وإنغماسا فى زينة الحياة الدنيا من غيرهم.

وروى عن عبدالله بن مسعود - رضى الله عنه - أن المراد بالكفار هنا: الزراع الذين يزرعون الأرض بعد نزول المطر عليها ، و يبذرون فيها البذور سموا كفارا من الكَفر بمعنى الستر والإخفاء . يقال: كفَر الزارع أو زرعه إذا أخفاه فى الأرض ، حتى لا يتعرض للتلف أو الضياع .

وقوله - سبحانه - : « ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما .. »

والهيجان : الاضطراب والثوران . ومنه سميت الحرب بالهيجاء ، لأن فيها يضطرب المقاتلون ، ويثور بعضهم على بعض ..

ويرى بعضهم أن معنى « يهيج » هنا : ييبس ويجف .

وعطف - سبحانه - جملة « يهيج » بحرف « ثم » لافادة التراخى الرتبى ، إذ أن وصول النبات إلى درجة من الهيجان وبلوغ منتهاه ، لا يتأتى إلا بعد زمن طويل من بدء زراعته ...

ولم يرتض بعض المحققين هذا المعنى فقال : تفسير « يهيج » بييبس فيه تسامح ، فإن حقيقته أن يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له أى : - من الطول والغلظ » (1)

أى : ثم يتحرك هذا النبات الذى أعجب الكفار إلى أقصى ما يتأتى له من طول وقوة ، ثم يبدأ فى الضعف ، فتراه - أيها الناظر اليه - نباتا مصفرا متغيرا عما كان عليه من النضرة ، آخذا فى الذبول وفى التهيؤ للحصاد ، ثم يكون بعد ذلك حطاما ، أى : نباتاً محطما مكسرا .

والمقصود بقوله - تعالى - : « كمثل غيث ... الخ » التقرير والتأكيد لما وصفت به الدنيا من كونها لعب ولهو وزينة .

وتشبيهها فى سرعة زوالها ، وانقضاء نعيمها ، وقلة فائدتها ... بحال نبات ظهر على الأرض بعد هطول المطر عليها ، واستمر فى ظهوره وجماله ونضرته

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٢٩٢

وهيجانه ، لفترة ما من الحياة ، أعجب خلالها الكفار به ، ثم حل بهذا النبات اليانع الاصفرار والاضمحلال حتى صار حطاما مفتتا تذروه الرياح ..

والمقصود بهذا التشبيه ، زجر الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا وكونها ينسون معه فرائض الله ـ تعالى ـ ، وتكاليفه التي كلفهم بها ـ سبحانه ـ

وعطف ـ سبحانه ـ : « فتراه مصفرا » بالفاء للإشعار بقصر المسافة ـ مهما طالت في عرف الناس ـ بين نضرة الزرع وإستوائه ، وبين إصفراره ونهايته .

قال صاحب الكشاف ـ رحمه الله ـ : أراد ـ سبحانه ـ أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور ، وهي اللعب واللهو ... وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام ...

وشبه حال الدنيا وسرعة تقضيها ، مع قلة جدواها ، بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتهل ، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله ، فيما رزقهم من الغيث ، والنبات ... فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما ... »[1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة ببيان عظم الآخرة ، وهوان الدنيا فقال : « وفي الآخرة عذاب شديد » أي : لمن كفر بالله ـ تعالى ـ وفسق من أمره .

« ومغفرة من الله ورضوان » أي : لمن آمن بالله ـ تعالى ـ ، واتبع ما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ، وحافظ على أداء ما كلف به بإخلاص وحسن إقتداء .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » أي : وما أحوال الحياة الدنيا وما إشتملت عليه من شهوات ، إلا متاع زائل ، لايقدم عليه ، ولا يتشبع به إلا من خدع بزخرفه ، وإغتر بمظهره .

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٥

فالمراد بالغرور : الخديعة . مصدر غره ، أى : خدعه وأطمعه بالباطل

ثم أمرهم - سبحانه - بالمسارعة إلى ما يسعدهم، بعد أن بين لهم حال الحياة الدنيـــا فقال : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض . . . »

وقوله - تعالى - « سابقوا » من المسابقة وهى محاوله أن يسبق الانسان غيره .

و « من » فى قوله « من ربكم » إبتدائية ، والجار والمجرور صفة للمغفرة.

أى : سارعوا - أيها المؤمنون - مسارعة السابقين لغيرهم ، إلى مغفرة عظيمة كائنه من ربكم .

فالتعبير بقوله : « سابقوا » لالهاب الحماس وحض النفوس إلى الاستجابة لما أمروا به ، حتى لكأنهم فى حالة مسابقة يحرص كل قرين فيهـا إلى أن يسبق قرينه . .

وقوله : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض . . . . » معطوف على المغفرة . أى : سابقوا غيركم - أيها المؤمنون - إلى مغفرة عظيمه من ربكم ، وإلى جنة كريمة ، هـذه الجنة عرضها وسعتها ورحابتها . . . كسعة السماء والأرض . . .

وهذه الجنة قد « أعدت للذين آمنوا بالله ورسله » إيمانا حقا ، جعلهم لايقصرون فى أداء واجب من الواجبات التى كلفهم - سبحانه - بها . . .

قال الامام الفخر الرازى ما ملخصه : وفى كون الجنـة عرضها كعرض السماء والأرض وجوه :

منها : أن المراد لو جعلت السموات والأرضون طبقا طبقا . . . لكان ذلك مثل عرض الجنة ، وهذا غاية فى السعة لا يعلمها إلا الله - تعالى -

ومنها : أن المقصود المبالغة فى الوصف بالسعة للجنة ، وذلك لأنه لاشىء عندنا أعرض منهما . . . »[1] .

وخص - سبحانه - العرض بالذكر ، ليكون أبلغ فى الدلالة على عظمها ، واتساع طولها ، لأنه إذا كان عرضها كهذا ، فإن العقل يذهب كل مذهب فى تصور طولها ، فقد جرت العادة أن يكون الطول أكبر من العرض .

قال الإمام ابن كثير : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد أن هرقل - ملك الروم - كتب إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : إنك دعوتنى إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - : سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار »[2]

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » يعود إلى الذى وعد الله - تعالى - به عباده المؤمنين من المغفرة والجنة .

أى : ذلك العطاء الجزيل فضل الله - تعالى - وحده وهو صاحب الفضل العظيم الذى لا يعلم مقداره إلا هو - عز وجل -

فأنت ترى أن الله - تعالى - بعد أن بين حال الحياة الدنيا . . . دعا المؤمنين إلى المسابقة إلى العمل الصالح ، الذى يوصلهم إلى ما هو أكرم وأبقى . . . وهو الجنة .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله - تعالى - : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة . . . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم . . . »[3]

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٩ ص ٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٠٤

(٣) سورة آل عمران الآيات ١٤ - ١٧

ثم بين ـ سبحانه ـ أن كل شيء في هذه الحياة ، خاضع لقضاء الله ـ تعالى ـ وقدره ، وأن على المؤمن الصادق أن يكون شاكرا عند الرخاء ، صابرا عند البلاء . . . فقال ـ تعالى ـ :

« ما أصابَ من مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنفُسِكُمْ إلاَّ في كتابٍ مِنْ قبلِ أنْ نَبرأها إنَّ ذلكَ على اللهِ يَسيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تأسَوا على ما فاتَكُمْ ولا تفرَحوا بمَا آتاكُم ، واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مختالٍ فَخُور (٢٣) الذينَ يبخَلونَ ويأمُرونَ النَّاسَ بالبُخلِ ، ومَنْ يتولَّ فإنَّ اللهَ هُو الغَنِيُّ الحميدُ (٢٤) » .

و « ما » في قوله ـ تعالى ـ « ما أصاب من مصيبة » نافية . و « من » مزيدة لتأكيد هذا النفي ، وإفادة عمومه . ومفعول « أصاب » محذوف .

وقوله « في الأرض » إشارة إلى المصائب التي تقع فيها من فقر ، وقحط ، وزلازل . . .

وقوله : « ولا في أنفسكم » للإشارة إلى مايصيب الإنسان في ذاته كالأمراض ، والهموم . . .

والاستثناء في قوله ـ تعالى ـ « إلا في كتاب » من أعم الأحوال . والمراد بالكتاب : اللوح المحفوظ ، أو علمه ـ عز وجل ـ الشامل لكل شيء .

وقوله « نبرأها » من البرء ـ بفتح الباء ـ بمعنى الخلق والإيجاد ، والضمير فيه يعود إلى النفس ، أو إلى الأرض ، أو إلى جميع ماذكره الله ـ تعالى ـ من خلق المصائب والأرض والأنفس .

والمعنى : واعلموا ـ أيها المؤمنون علما يترتب عليه آثاره من العمل الصالح ـ أنه ما أصابكم أو ما أصاب أحدا مصيبة ، هذه المصيبة كائنة في

الأرض - كالقحط والزلازل - ، أو فى أنفسكم - كالأسقام والأوجاع - ، إلا وهذه المصائب مسجلة فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.. وهذا التسجيل كائن من قبل أن نخلق هذه الأنفس، وهذه المصائب ..

وكرر - سبحانه - حرف النفى فى قوله « ولا فى أنفسكم » للإيماء إلى أن المصائب التى تتعلق بذات الإنسان، يكون أشد تأثرا واهتماما بها، أكثر من غيرها .

واسم الإشارة فى قوله : « إن ذلك على الله يسير » يعودُ إلى الكتابة فى الكتاب .

أى : إن ذلك الذى أثبتناه فى لوحنا المحفوظ وفى علمنا الشامل لكل شىء ... قبل أن نخلقكم، وقبل أن نخلق الأرض ... يسير وسهل علينا، لأن قدرتنا لا يعجزها شىء، وعلمنا لا يعزب عنه شىء .

فالآية الكريمة صريحة فى بيان أن مايقع فى الأرض وفى الأنفس من مصائب - ومن غيرها من مسرات - مكتوب ومسجل عند الله - تعالى - قبل خلق الأرض والأنفس .

وخص - سبحانه - المصائب بالذكر، لأن الإنسان يضطرب لوقوعها إضطرابا شديدا، وكثيرا مايكون إحساسه بها، وإدراكه لأثرها، أشد من إحساسه وإدراكه للمسرات .

ومن الآيات التى تشبه هذه الآية فى معناها قوله - تعالى - : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون »[1] .

ثم بين - سبحانه - الحكم التى من أجلها فعل ذلك فقال : « لكى لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم .... » .

(١) سورة التوبة الآية ٥١ .

فاللام فى قوله : « لكى لاتأسوا ... » متعلقة بمحذف . وقوله: «تأسوا» من الأسى ، وهو الحزن والضيق الشديد. يقال: أسى فلان على كذا-كفرح- فهو يأسى أسى ، إذا حزن واغتم لما حدث ، ومنه قوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : « فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فكيف آسى على قوم كافرين »[1] .

أى : فعلنا مافعلنا من إثبات مايصيبكم فى كتاب من قبل خلقكم ، وأخبرناكم بذلك ، لكى لا تحزنوا على ماأصابكم من مصائب حزنا يؤدى بكم إلى الجزع، وإلى عدم الرضا بقضاء الله وقدره، ولكى لاتفرحوا بما أعطاكم الله - تعالى - من نعم عظمى وكثيرة ... ، فرحا يؤدى بكم إلى الطغيان وإلى عدم استعمال نعم الله - تعالى - فيما خلقت له ... فإن من علم ذلك علما مصحوبا بالتدبر والاتعاظ ... هانت عليه المصائب ، واطمأنت نفسه لما قضاه الله - تعالى - ، وكان عند الشدائد صبورا ، وعند المسرات شكورا .

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعنى أنكم إذا علمتم أن كل شىء مقدر مكتوب عند الله ، قل أساكم على الفائت ، وفرحكم على الآتى ، لأن من علم أن ماعنده مفقود لا محالة ، لم يتفاقم جزعه عند فقده ، لأنه وطن نفسه على ذلك ، وكذلك من علم أن بعض الخير واصل إليه ، وأن وصوله لايفوته بحال ، لم يعظم فرحه عند نيله ...

فإن قلت : فلا أحد يملك نفسه عند مضرة تنزل به ، ولا عند منفعة ينالها ، أن لايحزن ولا يفرح ؟

قلت : المراد الحزن المخرج إلى مايذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله - تعالى - ، ورجاء ثواب الصابرين ، والفرح المطغى الملهى عن الشكر .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٩٣ .

فأما الحزن الذى لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله، والاعتداد بها مع الشكر، فلا بأس بهما[1].

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله: «والله لا يحب كل مختال فخـــور».

أى: والله - تعالى - لا يحب أحدا من شأنه الاختيال بما آتاه - سبحانه - من نعم دون أن يشكره - تعالى - عليها، ومن شأنه - أيضا - التفاخر والتباهى على الناس بما عنده من أموال وأولاد... وإنما يحب الله - تعالى - من كان من عباده متواضعا حليما شاكرا لخالقه - عز وجل -.

فأنت ترى أن هاتين الآيتين قد سكبتا فى قلب المؤمن، كل معانى الثقة والرضا بقضاء الله وقدره فى كل الأحوال...

وليس معنى ذلك عدم مباشرة الأسباب التى شرعها الله - تعالى - لأن ماسجله الله فى كتابه علينا قبل أن يخلقنا... لا علم لنا به، وإنما علمه مرده إليه وحده - تعالى -.

وهو - سبحانه - لا يحاسبنا على ما نجهله، وإنما يحاسبنا على ما أمرنا به، أو نهانا عنه، عن طريق رسوله - صلى الله عليه وسلم -.

وكما سجل - سبحانه - أحوالنا قبل أن يخلقنا، فقد شرع الأسباب وأمرنا بمباشرتها، وبين لنا فى كثير من آياته، أن جزاءنا من خير أو شر على حسب أعمالنا...

وعندما قال بعض الصحابة للنبى - صلى الله عليه وسلم -: «أفلا نتكل على ماقدره الله علينا»؟

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٦٦

أجابهم بقوله : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

وقوله - سبحانه - بعد ذلك : « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ... » بدل من قوله - تعالى - : « كل مختال فخور » .. والمراد بالذين يبخلون : كل من يبخل بماله أو بعلمه ... فكأنه - تعالى - يقول : والله لا يحب الذين يبخلون بما أعطاهم من فضله ، بخلا يجعلهم لا ينفقون شيئا منه فى وجوه الخير ، لأن حبهم لأموالهم جعلهم يمسكونها ويشحون بها شحا شديدا ... ولا يكتفون بذلك ، بل يأمرون غيرهم بالبخل والشح ...

وعلى رأس هؤلاء الذين لا يحبهم الله - تعالى - المنافقون ، فقد كانوا يبخلون بأموالهم عن إنفاق شىء منها فى سبيل الله ، وكانوا يتواصون بذلك فيما بينهم . فقد قال - سبحانه - فى شأنهم : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون »(١) .

وقوله - سبحانه - : « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » تذييل المقصود به ذم هؤلاء البخلاء على بخلهم ..

وجواب الشرط محذوف ، أغنت عنه جملة « فإن الله هو الغنى الحميد » والغنى : هو الموصوف بالغنى . وهى صفة من صفات الله - عز وجل - إذ هو الغنى غنى مطلقا ، والخلق جميعا فى حاجة إلى عطائه - سبحانه - والحميد : وصف مبالغة من الحمد . والمراد به أنه - تعالى - كثير الحمد والعطاء للمنفقين فى وجوه الخير .

أى : ومن يعرض عن هدايات الله - تعالى - وعن إرشاداته ... فلن يضر الله شيئا ، فإن الله - تعالى - هو صاحب الغنى المطلق الذى لا يستغنى عن

---

(١) سورة المنافقون الآية ٧ .

عطائه أحد ، وهو - سبحانه - كثير الحمد والعطاء لمن استجاب لأمره . فأنفق مما رزقه الله بدون اختيال أو تفاخر أو أذى . . .

. . .

ثم بين - سبحانه - أن حكمته قد اقتضت أن يرسل رسله إلى الناس ، ليهدوهم إلى طريق الحق ، وأن الناس منهم من اتبع الرسل ، ومنهم من أعرض عنهم ، ومنهم من ابتدع أمورا من عند نفسه لم يرعها حق رعايتها . . . فقال - تعالى - :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ، فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا ، وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ، وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ، فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) » .

والمراد بالبينات فى قوله - تعالى - : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات . . . » الحجج والدلائل التى تشهد لهم بأنهم رسل من عند الله - تعالى - ، وتدخل فيها المعجزات دخولا أوليا .

والمراد بالكتاب : جنس الكتب ، وتشمل التوراة والإنجيل وغيرهما .

والميزان : الآلة المعروفة بين الناس لاستعمالها فى المكاييل وغيرها. والمراد بها العدل بين الناس فى أحكامهم ومعاملاتهم . . .

وشاع إطلاق الميزان على العدل ، باستعارة لفظ الميزان على العدل، على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس . والمراد بإنزاله : تبليغه ونشره بين الناس .

أى : بالله لقد أرسلنا رسلنا، وأيدناهم بالحجج والبراهين الدالة على صدقهم، وأنزلنا معهم كتبنا السماوية ، بأن بلغناهم إياها عن طريق وحينا ، وأنزلنا معهم العدل ، بأن أرشدناهم إلى طرقه ، وإلى إعطاء كل ذى حق حقه . .

قال ابن كثير : يقول الله - تعالى - : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات «وأنزلنا معهم الكتاب» وهو النقل الصدق ، « والميزان » وهو العدل. أو وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة . . . »[1] .

وأكد - سبحانه - هذا الإرسال ، للرد على أولئك الجاحدين الذين أنكروا نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - ولبيان أنه واحد من هؤلاء الرسل الكرام ، وأن رسالته إنما هى إمتداد لرسالتهم . . . وقوله - تعالى - : « ليقوم الناس بالقسط » علة لما قبله . أى : أرسلنا الرسل ، وأنزلنا الكتاب، وشرعنا العدل ، ليقوم الناس بنشر مايؤدى إلى صلاح بالهم . واستقامة أحوالهم ، عن طريق التزامهم بالحق والقسط فى كل أمورهم .

قال الآلوسى : والقيام بالقسط ، أى : بالعدل ، يشمل التسوية فى أمور التعامل باستعمال الميزان ، وفى أمور المعاد باحتذاء الكتاب . وهو - أى : القسط - لفظ جامع مشتمل على جميع ماينبغى الاتصاف به ، معاشا ومعادا »[2] .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٤

(٢) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٨٨

وقوله - تعالى - : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » معطوف على ماقبله .

والمراد بإنزال الحديد : خلقه وإيجاده ، وتهيئته للناس ، والإنعام به عليهم ، كما فى قوله - سبحانه - : « وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق . . . »[1] .

والمراد بالبأس الشديد : القوة الشديدة التى تؤدى إلى القتل وإلحاق الضرر بمن توجه إليه . أى : لقد أرسلنا رسلنا بالأدلة الدالة على صدقهم ، وأنزلنا معهم مايرشد الناس إلى صلاحهم . . .

وأوجدنا الحديد ، وأنعمنا به عليكم ، ليكون قوة شديدة لكم فى الدفاع عن أنفسكم ، وفى تأديب أعدائكم ، وليكون كذلك مصدر منفعة لكم فى مصالحكم وفى شئون حياتكم . . .

فمن الحديد تكون السيوف وآلات الحرب . . . ومنه - ومع غيره - تكون القصور الفارهة ، والمبانى العالية الواسعة ، والمصانع النافعة . . . وآلات الزراعة والتجارة . . .

فالآية الكريمة تلفت أنظار الناس إلى سنة من سنن الله - تعالى - فى خلقه ، هذه السنة تتلخص فى أن الله - تعالى - قد أرسل الرسل وزودهم بالهدايات السماوية التى تهدى الناس إلى مايسعدهم . . . وزودهم - أيضا - بالقوة المادية التى تحمى الحق الذى جاءوا به وترد كيد الكائدين له فى نحورهم ، وترهب كل من يحاول الاعتداء عليه ، كما قال - تعالى - : « وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم »[2] .

ورحم الله الإمام ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : ما ملخصه :

(١) سورة الزمر الآية ٦ .

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

أي : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق ، وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بمكة ثلاث عشرة سنة ، تنزل عليه السور المكية ، لبيان أن دين الله حق ...

فلما قامت الحجة على من خالفه ، شرع الله القتال بعد الهجرة ، حماية للحق ، وأمرهم بضرب رقاب من عاند الحق وكذبه .

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

ولهذا قال - تعالى - : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد » يعنى السلاح كالسيف والحراب ...

« ومنافع للناس » أى : فى معايشهم كالفأس والقـــدوم . . . وغير ذلك »(١) .

هذا ، ومن المفسرين الذين فصلوا القول فى منافع الحديد وفى بيان لماذا خصه الله - تعالى - بالذكر : الإمام الفخر الرازى فقد قال - رحمه الله - ما ملخصه : ثم إن الحديد لما كانت الحاجة إليه شديدة ، جعله الله سهل الوجدان ، كثير الوجود ، والذهب لما كانت حاجة الناس إليه قليلة ، جعله الله - تعالى - عزيز الوجود ...

وبهذا تتجلى رحمة الله على عباده ، فإن كل شىء كانت حاجتهم إليه أكثر جعل الحصول عليه أيسر ...

فالهواء - وهو أعظم ما يحتاج الإنسان إليه - جعل الله - تعالى - الحصول عليه سهلا ميسورا ... فعلمنا من ذلك أن كل شىء كانت الحاجة إليه أكثر ، كان وجدانه أسهل ...

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٥ .

ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله - تعالى - أشد من الحاجة إلى كل شيء، فرجوه من فضله أن يجعلها أسهل الأشياء وجدانا كما قال الشاعر :

سبحان من خص العزيز بعزة والناس مستغنون عن أجناسه
وأذل أنفاس الهواء وكل ذى نفس، فمحتاج إلى أنفاسه[1]

وقوله :- سبحانه - : « وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب . . . » معطوف على محذوف يدل عليه السياق .

والمراد قوله : « وليعلم . . » أى : وليظهر علمه - تعالى - للناس ، حتى يشاهدوا آثاره .

أى : وأنزل - سبحانه - الحديد لكى يستعملوه فى الوجوه التى شرعها الله ، وليظهر - سبحانه - أثر علمه حتى يشاهد الناس ، من الذى سيتبع الحق منهم ، فينصر دين الله - تعالى - ، وينصر رسله ، ويستعمل نعمه فيما خلقت له حالة كونه لا يرى الله - تعالى - بعينيه ، وإنما يتبع أمره ، ويؤمن بوحدانيته ووجوده وعلمه وقدرته . . . عن طريق ما أوحاه - سبحانه - إلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

فقوله : « بالغيب » حال من فاعل « ينصره » .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « إن الله قوى عزيز » أى : إن الله - تعالى - هو المتصف بالقوة التى ليس بعدها قوة، وبالعزة التى لا تقاربها عزة .

وختمت الآية بهذا الختام ، لأنه هو المناسب لإرسال الرسل ، ولإنزال الكتب والحديد الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس .

فكان هذا الختام تعليل لما قبله . أى : لأن الله - تعالى - قوى فى أخذه عزيز فى إنتقامه فعل ما فعل من إرسال الرسل ، ومن إنزال الحديد .

وقوله - سبحانه - : « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٢٩ ص ٢٤٣ .

النبوة والكتاب ... » معطوف على جملة : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ... » عطف الخاص على العام .

أى : لقد أرسلنا رسلا كثيرين ... وبالله لقد أرسلنا نوحا وإبراهيم ، وجعلنا فى ذريتهما عددا من الأنبياء ، وأوحينا إليهم كتبنا ، التى تهدى أقوامهم إلى طريق الحق ، كالتوراة التى أنزلناها على موسى ، وكالزبور الذى أنزلناه على داود ...

وخص - سبحانه - نوحا وإبراهيم - عليهما السلام - بالذكر ، لشهرتهما ولأن جميع الأنبياء من نسلهما .

والضمير فى قوله - تعالى - : « فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون » أى : فمن ذريتهم من إهتدى إلى الدين الحق ، وآمن به ، وقام بأداء تكاليفه ، وكثير من أفراد هذه الذرية فاسقون . أى : خارجون عن الاهتداء إلى الحق ، منغمسون فى الكفر والضلال .

« ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم » والتقفية إتباع الرسول برسول آخر . يقال : قفا فلان أثر فلان ... إذا اتبعه ، وقفى على أثره بفلان ، إذا أتبعه إياه ... وأصله من القفا وهو مؤخر العنق ، فكأن الذى يتبع أثر غيره قد أتاه من جهة قفاه .

وضمير الجمع فى قوله « على آثارهم ... » يعود إلى نوح وإبراهيم وذريتهما الذين كانت فيهم النبوة والكتاب ..

أى : ثم أرسلنا بعدهم رسولا بعد رسول ، حتى إنتهينا إلى عيسى - عليه السلام - الذى « آتيناه الإنجيل » أى : أوحيناه اليه ليكون هداية لقومه .

قالوا : والإنجيل كلمة يونانية من النجل وهو الأصل ، يقال : رحم الله ناجليه ، أى : والديه . وقيل : الإنجيل مأخوذ من نجلت الشىء ، إذا إستخرجته وأظهرته . ويقال للماء الذى يخرج من البئر : نجل . وقيل هو من النجل الذى هو سعة العين . ومنه قولهم : طعنة نجلاء ، أى : واسعة .

وسمى الإنجيل بهذا الاسم ، لأنه سعة ونور وضياء ، أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى ، ليكون بشارة وهداية لقومه (١)

وأعاد - سبحانه - مع عيسى - عليه السلام - كلمة « قفينا » للإشعار بأن المسافة التي كانت بين عيسى - عليه السلام - وبين آخر رسول من بنى إسرائيل كانت مسافة طويلة .

ثم بين - سبحانه - بعض السمات التى كانت واضحة فى أتباع عيسى فقال : « وجعلنا فى قلوب الذين إتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية إبتدعوها ما كتبناها عليهم إلا إبتغاء رضوان الله ... »

والرأفة : اللين وخفض الجناح . والرحمة : العطف والشفقة .

قالوا : وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص ، لأن الرأفة ، رحمة خاصة ، تتعلق بدفع الأذى والضر ، أما الرحمة فهى أشمل وأعم ، لأنها عطف وشفقة على كل من كان فى حاجة إليها .

والرهبانية ، معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهم النصارى المبالغون فى الرهبنة والخوف من الله - تعالى - ، والزهد فى متاع الحياة الدنيا .

قال بعض العلماء : والرهبانية : إسم للحالة التى يكون الراهب متصفا بها فى غالب شئون دينه . والياء فيها ياء النسبة إلى الراهب على غير قياس ، لأن قياس النسب إلى الراهب : الراهبية . والنون فيها مزيدة للمبالغة فى النسبة ، كما زيدت فى قولهم : شعرانى ، لكثير الشعر ، ولحيانى لعظيم اللحية . . . (٢)

وقوله - تعالى - « ورهبانية إبتدعوها . . . » منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٧ ص ١٧١

(٢) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٧ ص ٤٢١ للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور - رحمه الله - .

أي : وإبتدعوا رهبانيه إبتدعوها ، فهو من باب الإشتغال .

ويصح أن يكون معطوفا على قوله : « رأفة ورحمه » وقوله : « إبتدعوها » في موضع الصفه ، والكلام على حذف مضاف ، أي : وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة وحب رهبانية مبتدعة لهم .

وجملة « ما كتبناها عليهم » مستأنفه مبينة لجملة « إبتدعوها »

والإستثناء في قوله : « إلا إبتغاء رضوان الله » منقطع

والضمير في قوله : « فما رعوهـا . . . » يعود لهؤلاء الذين إبتدعوا الرهبانية ...

والمعنى : ثم أتبعنا كل رسول من ذرية نوح وإبراهيم برسول آخر ، حتى إنتهينا إلى عيسى - عليه السلام - ، فأرسلناه إلى بني إسرائيل وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين إتبعوه وآمنوا به « رأفة » أي لينا وخفض جناح « ورحمة » ، أي : شفقة وعطفا . وحب « رهبانيه » مبتدعة عنهم ، أي : هم الذين إبتدعوها واخترعوها واختاروها لأنفسهم ، زهدا في متاع الحياة الدنيا

ونحن ما كتبنا عليهم هذه الرهبانية . وإنما هم الذين إبتدعوها من أجل أن يرضى الله عنهم ، « فما رعوها حق رعايتها » أي : ولكنهم بمرور الأيام ، لم يحافظ كثير منهم على ما تقتضيه هذه الرهبانية من زهد وتقى وعفاف : . . بل صارت طقوسا خالية من العبادة الصحيحه ، ولم يصبر على تكاليفها إلا عدد قليل منهم .

ولذا ختم - سبحانه - الآية الكريمه بقوله : « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون » .

أي : أما الذى استمروا على اتباعهم لعيسى - عليه السلام - ، وعلى الإيمان بالحق إيمانا صحيحا خاليا مما يفسده ، .. فقد أعطيناهم أجورهم الطيبة كاملة غير منقوصة ..

وأما الذين بدلوا ماجاء به عيسى - عليه السلام - ، حيث كفروا به وقالوا: الله ثالث ثلاثة، أو قالوا: المسيح ابن الله .. فسيلقون مايستحقونه من عقاب .

وقوله : « وكثير منهم فاسقون » يدل على أن الذين خرجوا عن الدين الحق الذى جاء به عيسى - عليه السلام - وفسقوا عن أمر ربهم ... أكثر من الذين آمنوا به إيمانا صحيحا .

قال الإمام ابن جرير : واختلف أهل التأويل فى الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها . فقال بعضهم : هم الذين ابتدعوها ، ولم يقوموا بها ، ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذى بعث به عيسى : فتنصروا وتهودوا .

وقال آخرون : بل هم قوم جاءوا من بعد الذين ابتدعوها فلم يرعوها حق رعايتها ، لأنهم كانوا كفارا .... فهم الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها .

وأولى الأقوال فى ذلك بالصحة أن يقال : إن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها ، بعض الطوائف التى ابتدعتها ، وذلك لأن الله - تعالى - قد أخبر أنه آتى الذين آمنوا منهم أجرهم . فدل ذلك على أن منهم من قد رعاها حق رعايتها ...

وكثير منهم - أى : من الذين ابتدعوا الرهبانية - أهل معاص ، وخروج عن طاعة الله - تعالى - وعن الإيمان به »[1] .

وقال الامام الآلوسى ما ملخصه : وقوله - تعالى - « ما كتبناها عليهم » جملة مستأنفة . .

وقوله - سبحانه - : « إلا ابتغاء رضوان الله » استثناء منقطع . أى : ما فرضناها نحن عليهم رأسا ، ولكن ابتدعوها وألزموا بها أنفسهم ابتغاء رضوان الله . .

وقوله - تعالى - : « فما رعوها حق رعايتها » أى : ماحافظوا عليها حق

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٧ ص ٢٣٨

المحافظة ، ذم لهم من حيث إن ذلك كالنذر ، وهو عهد مع الله - تعالى - يجب رعايته ، لا سيما إذا قصد به رضاه - عز وجل - ...

وجائز أن يكون الاستثناء متصلا من أعم العلل . أى : ما قضيناها عليهم لشىء من الأشياء ، إلا ليبتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب ، ومن ضرورة ذلك أن يحافظوا عليها .... إلا أنهم لم يحافظوا عليها ، ولم يرعوها حق رعايتها .

والفرق بين الوجهين : أن الأول يقتضى أنهم لم يؤمروا بها أصلا . وأن الثانى يقتضى أنهم أمروا بها ، لابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها .

والظاهر أن الضمير فى قوله « فما رعوها » يعود لأولئك الذين ابتدعوا الرهبانية ، والمراد نفى وقوع الرعاية من جميعهم ، أى : فما رعاها كلهم بل بعضهم ... »(1)

فالآية الكريمة تثنى على الذين أحسنوا اتباع عيسى - عليه السلام - ، فطهروا أرواحهم من كل دنس ، وزهدوا فى متع الحياة الدنيا .... وتذم الذين بدلوا ما جاء به عيسى - عليه السلام - وقالوا الأقوال الباطلة فى شأنه ، وفعلوا الأفعال القبيحة التى تغضب الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه السورة الكريمة بهذا النداء للمؤمنين فقال - تعالى - :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) » .

(1) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ١٩١

أي : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، اتقوا الله فى كل ما تأتون وما تذرون ، وداوموا على الإيمان برسوله - صلى الله عليه وسلم - ، واثبتوا على ذلك ...

« يؤتكم كفلين من رحمته » أي : يعطكم بسبب ذلك نصيبين مضعفين من رحمته - سبحانه - وفضله .

وأصل الكفل - كما يقول القرطبي كساء يكتفل به الراكب فيحفظه من السقوط ... أي يؤتكم نصيبين يحفظانكم من هلكة المعاصى . كما يحفظ الكفل الراكب من السقوط[1] ...

ويجعل لكم نورا تمشو به » أي : ويجعل لكم بفضله نورا تمشون به يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم .... » .

« ويغفر لكم » أي : مافرط منكم من ذنوب ، بأن يزيلها عنكم ...

« والله غفور رحيم » أي : واسع المغفرة والرحمة لمن اتقاه وأطاعه .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد وعد المؤمنين على تقواهم وعلى إيمانهم برسوله ، أن يؤتيهم نصيبين من رحمته .. وأن يجعل لهم نورا يمشون به ، فيهديهم إلى مايسعدهم فى كل شئونهم . وأن يغفر لهم ما سبق من ذنوبهم ... فضلا منه وكرما .

قالوا : وأعطى الله - تعالى - للمؤمنين نصيبين من الأجر ، لأن أولهما بسبب إيمانهم بالرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وثانيهما : بسبب إيمانهم بالرسل السابقين ، كما أعطى مؤمنى أهل الكتاب نصيبين من الأجر : أحدهما للإيمان بالرسول - صلى الله عليه وسلم - والثانى للإيمان - بعيسى - عليه السلام - الذى نسخت شريعته بالشريعة المحمدية .

وقوله - سبحانه - : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ، ص ٢٦٦ .

فضل الله ... ، رد على مزاعم أهل الكتاب أنهم شعب الله المختار ، وأنهم أفضل من الأمة الإسلامية . .

قال الجمل ما ملخصه : لما سمع من لم يؤمن من أهل الكتاب قوله ـ تعالى ـ « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا .... » قالوا للمسلمين : أما من آمن منا بكتابكم فله أجره مرتين لإيمانه بكتابنا وكتابكم ، ومن لم يؤمن منا بكتابكم فله أجر كأجركم ، فبأى شيء فضلتم علينا ؟ فأنزل الله هذه الآية ...

و « لا » زائدة . واللام متعلقة بمحذوف ، وهو معنى الجملة الطلبية المتضمنة لمعنى الشرط ، إذ التقدير : إن تتقوا وتؤمنوا برسوله ، يؤتكم الله من فضله كذا وكذا ـ وقد أعلمناكم بذلك ـ لكى يعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على شيء من فضل الله .

أى : أنهم لا ينالون شيئا مما ذكر من فضله ـ كالكفلين من رحمته وكمغفرة الذنوب ـ لأنهم لم يؤمنوا برسوله ـ صلى الله عليه وسلم ولم يخلصوا العبادة له ـ عز وجل ـ ... »(1).

وقوله ـ سبحانه ـ : « وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » مؤكد لما قبله ، ومقرر له .

أى : ليعلم أهل الكتاب عدم قدرتهم على الظفر بشيء من فضل الله إلا إذا آمنوا بالله ورسله ... وليعلموا ـ أيضا ـ أن الفضل والعطاء بيد الله ـ تعالى ـ وحده ، يمنحه لمن يشاء ويختار من عباده ، وهو ـ سبحانه ـ صاحب الفضل الواسع العظيم .

وعلى هذا التفسير الذى سرنا عليه يكون المقصود من الآيتين تحريض المؤمنين من هذه الأمة على الثبات على تقوى الله ـ تعالى ـ واتباع رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى كل ما جاء به ، وتبشيرهم بالعطاء الجزيل إذا ما فعلوا ذلك ...

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٢٩٨

والرد على المتفاخرين من أهل الكتاب، الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنهم ليس أحد أفضل منهم، وأن الأجر ثابت لهم سواء آمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - أم استمروا على كفرهم.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، أنزل الله هذه الآية «يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ....» في حق هذه الأمة ...

وهي كقوله - تعالى -: «يأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم، ويغفر لكم، والله ذو الفضل العظيم».

ومما يؤيد هذا القول - أي: أن هذه الآية في حق هذه الأمة - ، مارواه الإمام أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود.

ثم قال: من يعمل لي من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ ألا فعملت النصارى.

ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملا وأقل عطاء. قال: هل ظلمتكم من أجركم شيئا؟ قالوا: لا. قال: فإنما هو فضلي أوتيه من أشاء»[١].

ويرى بعض المفسرين أن الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب، فيكون المعنى: يامن آمنتم بموسى وبعيسى وبمحمد - عليهم الصلاة والسلام - اتقوا الله وآمنوا برسوله - صلى الله عليه وسلم - وأثبتوا على ذلك، يؤتكم الله - تعالى - كفلين من رحمته ...

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٠٧.

وليعلم الذين لم يؤمنوا من أهل الكتاب ، أنهم لن ينالوا شيئاً مما ناله المؤمنون منهم ...

ومن المفسرين الذين ساروا على هذا التفسير الإمام ابن جرير ، فقد قال - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية : يقول - تعالى ذكره - : يأيها الذين صدقوا الله ورسوله من أهل الكتابين : التوراة والإنجيل ، خافوا الله ، وآمنوا برسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - « يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم ... » .

أى : يؤتكم أجرين لإيمانكم بعيسى وبمحمد - عليهما الصلاة والسلام - (١) .

ويبدو لنا أن الخطاب فى هذه الآية المؤمنين من هذه الأمة ، على سبيل الحض والتبشير ، وأن قوله - تعالى - بعد ذلك : « لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله ... » واضح فى ذلك ، وأن جعل الخطاب لمؤمنى أهل الكتاب لا دليل عليه ..

ولذا قال بعض المحققين : هذه الآية الكريمة من سورة الحديد ، فى المؤمنين من هذه الأمة ، وأن سياقها واضح فى ذلك ، وأن من زعم من أهل العلم أنها فى أهل الكتاب فقد غلط ، وأن ماوعد الله به المؤمنين من هذه الأمة ، أعظم مما وعد به مؤمنى أهل الكتاب ...(٢) .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الحديد » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصاً لوجهه ، ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

فندق الشيراتون بالدوحه - قطر
صباح الخميس ٢٤ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ
٣ من أبريل سنة ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

---

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٧ ص ٢٤٢ .

(٢) تفسير أضواء البيان جـ ٧ ص ٨١٦ للشيخ محمد الأمين الشنقيطى ..

تفسير
سُورَةِ المُجَادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « المجادلة » - بفتح الدال وكسرها والثانى أظهر ، لأن افتتاح السورة فى المرأة التى جادلت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شأن زوجها - .

وهـــذه السورة : هى السورة الثامنة والخمسون فى ترتيب المصحف ، أما ترتيبها فى النزول فكان بعد سورة « المنافقون » ، وقبل سورة « التحريم »

وعدد آياتها ثنتان وعشرون آية فى المصحف الكوفى والبصرى والشامى ، وإحدى وعشرون آية فى المصحف المكى والمدنى .

٢ - وهى من السور المدنية الخالصة ، ومن قال بأن فيها آيات مكية ، لم يأت بدليل يعتمد عليه فى ذلك .

قال القرطبى : هذه السورة مدنية فى قول الجميع . إلا رواية عن عطاء : أن العشر الأول منها مدنى ، وباقيها مكى . وقال الكلبى : نزل جميعها بالمدينة ، غير قوله - تعالى - : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » نزلت بمكة »(١) .

٣ - وقد افتتحت سورة « المجادلة » بالحديث عن المرأة التى جادلت النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شأن زوجها ، وقد أصدر - سبحانه - حكمه العادل فى مسألتها ، مبينا حكم الظهار ، فقال - تعالى - : « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ،

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٧ ص ٢٦٩ .

فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم » .

٤ - ثم انتقلت السورة إلى الحديث عن الذين يحادون الله ورسوله، فبينت سوء عاقبتهم ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ، فهو - سبحانه - « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم » .

٥ - ثم وجه - سبحانه - ثلاث نداءات إلى المؤمنين ، أمرهم فى أول نداء بأن يتناجوا بالبر والتقوى . . وأمرهم فى النداء الثانى أن يفسح بعضهم لبعض فى المجالس . . . وأمرهم فى النداء الثالث إذا ماناجوا الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يقدموا بين يدى نجواهم صدقة . . .

قال - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول ، فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ، ذلك خير لكم وأطهر، فإن لم تجدوا ، فإن الله غفور رحيم » .

٦ - وبعد أن عجبت السورة الكريمة من أحوال المنافقين ، وبينت سوء عاقبتهم ، وكيف أن الشيطان قد استحوذ عليهم ، فأنساهم ذكر الله . . .

بعد كل ذلك ختمت السورة الكريمة ببيان حسن عاقبة المؤمنين الصادقين وببيان صفاتهم الكريمة ، فقال - عز وجل - : لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » .

٧ - هذا ، والمتأمل فى سورة « المجادلة » يراها قد بينت حكم الظهار ، وأبطلت ما كان شائعا من أن الرجل إذا ظاهر من زوجته لا تحل له . . .

وساقت جانبا من فضل الله - تعالى - على عباده ، حيث أجاب دعاء امرأة

قد اشتكت إليه ، وقضى فى مسألتها قبل أن تقوم من مكانها ، وهى بجانب النبي - صلى الله عليه وسلم - تجادله فى شأن زوجها ..

كما يراها قد كشفت القناع عن المنافقين ، وفضحتهم على أقوالهم الباطلة ، وأفعالهم الذميمة ، وموالاتهم لأعداء الله ورسوله ..

كما يراها قد ساقت ألوانا متعددة من الآداب التى يجب على المؤمنين أن يتحلوا بها ، وبشرتهم برضا الله - تعالى - عنهم ، متى أخلصوا له - سبحانه - العبادة والطاعة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

الدوحة - قطر
صباح الأحد : ٢٧ من رجب سنة ١٤٠٦ هـ
٦ / ٤ / ١٩٨٦ م

د . محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التفسير

قال الله - تعالى - : « قَدْ سَمِعَ اللهُ قولَ التي تُجَادِلُكَ في زوْجِها وتَشْتَكي إلى اللهِ ، واللهُ يسمَعُ تحاوُرَكُما إنّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ (١) الذينَ يظَاهِرُونَ منكُم مِنْ نسائِهم ما هنّ أمّهاتِهِمْ ، إنْ أمّهاتُهم إلاّ اللاّئِي ولدْنَهُم ، وإنّهم ليقُولُون مُنكراً من القَوْلِ وزُوراً وإنّ اللهَ لعفُوٌّ غفُورٌ (٢) والذينَ يظَاهِرونَ من نِسَائِهمْ ثمّ يعُودُونَ لمَا قالُوا فتحريرُ رقَبةٍ مِنْ قبلِ أنْ يتَماسّا، ذلكُم تُوعظُونَ بهِ، واللهُ بما تعملونَ خَبيرٌ (٣) فمَن لم يَجِدْ فصِيامُ شَهرينِ متتابعينِ مِنْ قبلِ أن يتماسّا ، فمَن لم يَستطِعْ فإطْعامُ ستّينَ مِسْكيناً ، ذلكَ لتُؤمِنوا باللهِ ورسُوله ، وتلكَ حدودُ اللهِ وللكافِرينَ عذابٌ أليمٌ (٤) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ما أخرجه الإمام أحمد عن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن خولة بنت ثعلبة قالت : فىّ والله وفى - زوجى - أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة .

قالت : كنت عنده ، وكان شيخا كبيرا قد ساء خلقه . قالت : فدخل علىّ يوما فراجعته بشىء فغضب ، فقال : أنت علىّ كظهر أمى .

قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم رجع ، فإذا هو يريدنى عن نفسى . فقلت له : كلا والذى نفس خولة بيده لا تخلص إلىّ وقد قلت ماقلت ، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . . .

قالت : فواثبنى، فامتنعت عنه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف. فألقيته عنى .

ثم خرجت إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثيابا ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجلست بين يديه ، فذكرت له ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما لقيت من زوجى ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه .

قالت فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ياخويلة ، ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » .

قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فى قرآن ، فتغشى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه . فقال لى : « ياخويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآنا ، ثم قرأ على هذه الآيات ...

وفى رواية ، أنها أتت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت له : يارسول الله ، إن أوسا تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى ، ونثرت بطنى ، جعلنى عليه كأمه ، وتركنى إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة يارسول الله فحدثنى بها .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما أمرت بشىء فى شأنك حتى الآن » ، وفى رواية أنه قال لها : « ما أراك إلا قد حرمت عليه » .

فقالت : يارسول ، إنه ماذكر طلاقا ، وأخذت تجادل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ . ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك فاقتى ، وشدة حالى ، وإن لى من زوجى أولادا صغارا ، إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا ....

قالت : وما برحت حتى نزل القرآن . فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

قبل نزول هذه الآية .

وقوله : « تجادلك » من المجادلة ، وهى المفاوضة على سبيل المغـ
والمنازعة . وأصلها من جدلت الحبل : إذا أحكمت فتله .

وقوله : « وتشتكى » من الشكو . وأصله فتح الشكوة ـ وهى سقاء صـ
يجعل فيه الماء ـ وإظهار مافيها ، ثم شاع هـذا الاستعمال فى إظهار الإنـ
لما يؤلمه ويؤذيه ، وطلب إزالته .

والمعنى : قد سمع الله ـ تعالى ـ سماعا تاما ، قول هـذه المرأة التى تجاد
ـ أيها الرسول الكريم ـ فى شأن مادار بينها وبين زوجها ، وفيما صدر عنه فـ
من الظهار ، وسمع ـ سبحانه ـ شكواها إليه ، والتماسها منه ـ عز وجل ـ
قضيتها ، وتفريج كربتها ، وإزالة ما نزل بها من مكروه . . .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٨ وتفسير ابن جرير جـ ٢٨ صـ
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٠

وقال - سبحانه - « التي تجادلك .. » بأسلوب الإسم الموصول ، للإشعار بأنها كانت في نهاية الجدال والشكوى ، وفي أقصى درجات التوكل على ربها ، والأمل في تفريج كربتها ، ورحمة بها وبزوجها وأبنائها .

وقوله - سبحانه - : « والله يسمع تحاوركما » جملة حالية . والتحاور : مراجعة الكلام من الجانبين . يقال : حاور فلان فلانا في الكلام إذا راجعه فيما يقوله ...

أي : والحـال أن الله - تعالى - يسمع ما يدور بينك - أيها الرسول الكريم - وبين تلك المرأة ، من مراجعة في الكلام ، ومن أخذ ورد في شأن قضيتها .

والمقصود بذلك ، بيان الاعتناء بشأن هذا التحاور ، والتنويه بأهميته ، وأنه - تعالى - قد تكرم وتفضل بإيجاد التشريع الحكيم لحل هذه القضية :

وعبر - سبحانه - بصيغة المضارع ، لزيادة التنويه بشأن ذلك التحاور ، واستحضار صورته في ذهن السامع ، ليزداد عظة واعتبارا .

وجملة : « إن الله سميع بصير » تذييل قصد به التعليل لما قبله بطريق التحقيق .

أي : أنه - سبحانه - يسمع كل المسموعات . ويبصر كل المبصرات ، على أتم وجه وأكمله ، ومن مقتضيات ذلك ، أن يسمع تحاوركما ويبصر ما دار بينكما .

قال القرطبي : أخرج ابن ماجه أن عائشة - رضى الله عنها - قالت : تبارك الذي وسع سمعه كل شيء إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهي تقول : يا رسول الله !! أكل شبابي ، ونثرت له بطني ، حتى إذ كبر سني .. ظاهر مني !! اللهم إني أشكو إليك ..

وفى البخارى عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله - تعالى - : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها .. (١)

ثم شرع - سبحانه - فى بيان شأن الظهار فى ذاته ، وفى بيان حكمه المترتب عليه شرعا فقال : « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ... »

وقوله : « يظاهرون » من الظهار ، وهو لغة مصدر ظاهر ، وهو مفاعلة من الظهر ...

قال الآلوسى : والظهار يراد به معان مختلفة راجعة إلى الظهر معنى ولفظا باختلاف الأغراض . فيقال : ظاهر زيد عمرا ، أى : قابل ظهره بظهره حقيقة ، وكذا إذا غايظه ... وظاهره إذا ناصره باعتبار أنه يقال : قوى ظهره إذا نصره ... »(٢) .

والمراد به هنا : أن يقول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، قاصدا بذلك تحريم زوجته على نفسه . كتحريم أمه عليه .

وكان هذا القول من الرجل لامرأته يؤدى إلى طلاقها منه بحيث لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره وقيل إلى طلاقها منه طلاقا مؤبدا ، لا تحل له بعده ..

وقيل . إن هذا القول لم يكن طلاقا من كل وجه ، بل كانت الزوجة تبقى بعده معلقة ، فلا هى مطلقة ، ولا هى غير مطلقة ...

(١) تفسير القرطبى ج ١٧ ص ٢٧٠ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ٤ .

و « من » فى قوله « من نسائهم » بيانية ، للإفادة أن هذا تشريع عام ، وليس خاصا بخولة بنت ثعلبة ، التى نزلت فى شأنها هذه الآيات .

وجملة : « ماهن أمهاتهم » قائمة مقام الخبر ، ودالة عليه

والمعنى : « الذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من نسائهم » بأن يقولوا لهن : أنتن علينا كظهر - أمهاتنا ، مخطئون فيما يقولون . فإن زوجاتهم لسن بأمهاتهم ...

« إن : أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم » أى : ليس أمهاتهم على سبيل الحقيقة والواقع إلا النساء اللائى ولدنهم وأرضعنهم، وقمن برعايتهم فى مراحل الطفولة والصبا والشباب ...

ثم أكد - سبحانه - هذا المعنى بقوله : « وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ...

أى : وإن هؤلاء الرجال الذين يقولون لأزواجهم : أنتن علينا كظهور أمهاتنا فى الحرمة ، لتيفوهون بما هو منكر من القول ، فى حكم الشرع وفى حكم العقل ، وفى حكم الطبع ، وفضلا عن كل ذلك فهو قول كاذب وباطل إذ لم يحرم الله - تعالى - الزوجة على زوجها . كما حرم عليه أمه . فعلاقة الأزواج بأمهاتهم ، تختلف إختلافا تاما عن علاقتهم بزوجاتهم ...

وإذاً فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : التوبيخ على هذا القول ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت على كظهر أمى ، وذم من ينطق به ، لأنه يعرض مقام الأمهات - وهو مقام فى أسمى درجات الاحترام والتبجيل - إلى تخيلات قبيحة تصاحب النطق بهذا الكلام .

وكعادة القرآن الكريم فى قرن الترغيب بالترهيب ، حتى لا تيأس النفوس من رحمة الله ، ختمت الآية الكريمة بما يدل على فضله - تعالى -

فقال : « وإن الله لعفو غفور » أى : وإن الله — تعالى — لكثير العفو والمغفره ، لمن تاب اليه — سبحانه — وأناب ، وأقلع عن تلك الأقـوال والأفعال التى يبغضها — سبحانه — .

ثم أخذت السورة الكريمة فى تفصيل حكم الظهار ، بعد بيان كونه منكراً من القول وزورا ، فقال — تعالى — : « والذين يظاهرون من نسائهم ، ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا . . . . . »

وقد إختلف العلماء فى معنى قوله — تعالى — : « ثم يعودون لما قالوا . . . »

فمنهم من يرى أن المراد منه ، ثم يرجعون عما قالوا ، قاصدين معاشرة زوجاتهم ، أو قاصدين تحليل ما حرموه على أنفسهم بالنسبة لزوجاتهم بسبب الظهار.

ومنهم من يرى ، أن المراد بهذه الجملة : العوده إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية ، بعد أن هداهم الله — تعالى — إلى الاسلام . فيكون المعنى : ثم يعودون إلى ما كانوا يقولونه فى الجاهلية من ألفاظ الظهار ، التى يبغضها الله — تعالى — .

وهذا القول يبدو عليه الضعف من جهة : جعله الفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال وهو « يظاهرون » ، بمعنى الماضى المنقطع ، ومن جهة جعلهم أن المظاهر بعد الاسلام ، كان قد ظاهر فى الجاهلية ، مع أن هـذا ليس بلازم ، إذ لم يثبت أن « أوس بن الصامت » كان قد ظاهر من زوجته فى الجاهلية ، وهذا الحكم إنما هو حق المظاهر فى الاسلام .

ومنهم من يرى أن المـراد بهذه الجملة : تـكرار لفظ الظهار ، فمعنى ثم يعودون لما قالوا : ثم يعودون إلى تـكرار لفظ الظهار مره أخرى .

وكأن أصحاب هذا القول يرون ، أن الكفارة لا تكون إلا بتـكرار

ألفاظ الظهار، وهو قول لا يؤيده دليل، لأنه لم يثبت أن خولة - أو غيرها - كرر عليها زوجها لفظ الظهار أكثر من مرة، بل الثابت أنه عندما قال لها: أنت على كظهر أمى، ذهبت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقصت عليه ما جرى بينها وبين زوجها ...

وقد رجح الإمام ابن جرير الرأى الأول فقال: «والصواب من القول فى ذلك عندى أن يقال: معنى اللام فى قوله: «لما قالوا» بمعنى إلى أو فى، لأن معنى الكلام: ثم يعودون لنقض ما قالوا من التحريم فيحللونه، وأن قيل: ثم يعودون إلى تحليل ما حرموا، أو فى تحليل ما حرموا فصواب، لأن كل ذلك عود له، فتأويل الكلام: ثم يعودون لتحليل ما حرموا على أنفسهم مما أحله الله لهم»[1]

والمعنى: والذين يظاهرون منكم - أيها المؤمنون - من نسائهم، ثم يندمون على مافعلوا، ويريدون أن يعودوا عما قالوه، وأن يرجعوا إلى معاشرة زوجاتهم ...

فعليهم فى هذه الحالة إعتاق رقبة «من قبل أن يتماسا» أى: من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر، أى يحرم عليهما الجماع ودواعيه قبل التكفير.

والمراد بالرقبة: المملوك. من تسمية الكل باسم الجزء.

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه -: «ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير» يعود إلى الحكم بالكفارة.

أى: ذلكم الذى شرعناه لكم - أيها المؤمنون - وهو الحكم بالكفارة، إنما شرعناه من أجل أن تتعظوا به، وتنزجروا عن النطق بالألفاظ التى تؤدى إلى الظهار، والله - تعالى - خبير ومطلع على كل ما تقولونه من أقوال، وما

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ٨

تفعلونه من أفعال، ـ وسيحاسبكم على ذلك حسابا دقيقا ...

وما دام الأمر كذلك، فافعلوا ما أمركم به. واجتنبوا ما نهاكم عنه.

ثم بين ـ سبحانه ـ جانبا من مظاهر يسره فى أحكامه فقال: « فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ... ».

أى: فمن لم يجد منكم ـ أيها المؤمنون ـ رقبة يعتقها، أو يجد المال الذى يشترى به الرقبة فيعتقها... فعليه فى هذه الحالة، أن يصوم شهرين متتابعين من قبل أن يستمتع أحدهما بالآخر ...

« فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا »، أى: فمن لم يستطع أن يصوم شهرين متتابعين، لسبب من الأسباب كمرض أو غيره فعليه فى هذه الحالة أن يطعم ستين مسكينا، بأن يقدم لهم طعاما يكفى لغدائهم وعشائهم بصورة مشبعة.

واسم الإشارة فى قوله: « ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله » إشارة إلى ما سبق الحديث عنه، من تشريع يتعلق بالظهار. ومحله إما الرفع على الابتداء، أو النصب بمضمر معلل بما بعد.

أى: ذلك واقع، أو فعلنا ذلك ليزداد إيمانكم بالله ورسوله، وعملكم بشريعة الإسلام، وتنفيذكم للتكاليف التى كلفكم الله ـ تعالى ـ بها.

« وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم »، أى: وتلك الأحكام التى ذكرناها لكم هى حدود الله ـ تعالى ـ التى لا يجوز تعديها، فالزموها وقفوا عندها، وللكافرين الذين يتعدونها ولا يقفون عندها، عذاب شديد الألم على من ينزل به.

هذا، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى:

١ ـ أن الدعاء متى صدر عن لسان صادق، وعن قلب عامر باليقين... أجابه الله ـ تعالى ـ لصاحبه فى الحال، أو فى الوقت الذى يريده ـ سبحانه ـ.

والدليل على ذلك أن السيدة خولة بنت ثعلبة، عندما تضرعت إلى الله

ـ تعالى ـ بالدعاء ، أن يكشف كربها ، وأن يحل قضيتها ... أجاب ـ سبحانه ـ دعاءها ، وأنزل قرآنا يتلى ، وأحكاما يعمل بها فى شأن الظهار ...

ورضى الله عن السيدة عائشة فقد قالت : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ماتقول ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها .... » .

وقال القرطبى : المرأة التى اشتكت هى خولة بنت ثعلبة ... وقد مر بها عمر بن الخطاب فى خلافته ، والناس معه، فاستوقفته طويلا ووعظته وقالت: ياعمر قد كنت تدعى عميرا ، ثم قيل لك ياعمر ، ثم قيل لك يا أمير المؤمنين، فاتق الله ياعمر ، فإنه من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب ...

فقيل له : ياأمير المؤمنين : أتقف هذا الوقوف لتلك المرأة العجوز ؟ فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لازلت إلا للصلاة المكتوبة. أتدرون من هذه؟ إنها خولة بنت ثعلبة،سمع الله قولها من فوق سبع سماوات، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر[1] .

٢ ـ أخذ العلماء من قوله ـ تعالى ـ : « الذين يظاهرون منكم من نسائهم ... » أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها، لم يلزمها شىء ... لأن الحل والعقد والتحليل والتحريم فى النكاح ، إنما هو بيد الرجل لا بيد المرأة ...

ويرى بعضهم أن عليها كفارة يمين ، ولا يحول قولها هـذا بينها وبين زوجها من مجامعتها كما أخذ الأحناف والحنابلة والمالكية من هذه الآية ، أن الظهار خاص بالمسلمين ، لأنهم هم المخاطبون ، ولأن غيرهم من الذميين ليسوا من أهل الكفارة ...

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٦٩ .

وقال الشافعية : كما يصح طلاق الذمى وتترتب عليه أحكامه ، يصح ظهار الذمى وتترتب عليه أحكامه ... كذلك أخذ العلماء من هذه الآية : صحة ظهار العبد من زوجته ، لأن أحكام النكاح فى حقه ثابتة ، وإذا تعذر عليه العتق والإطعام ، فإنه قادر على الصوم ...

٣ - يؤخذ من قوله - تعالى - : « وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ... » ، أن الظهار حرام ، لأن الله - تعالى - قد وصفه بأنه منكر من القول ، وبأنه زور ...

والفعل الذى يوصف بهذا الوصف . يجب على المؤمن أن يتنزه عنه .

٤ - يرى الحنفية والظاهرية أنه يكفى فى الكفارة بالنسبة للظهار تحرير رقبة حتى ولو كانت كافرة ، لأن الله - تعالى - يقول : « فتحرير رقبة » ولو كان الإيمان شرطا لبينه كما بينه فى كفارة القتل ، فوجب أن يطلق ما أطلقه ، وأن يقيد ماقيده ، ويعمل بكل منهما فى موضعه .

ويرى جمهور الفقهاء إشتراط الإيمان فى الرقبة ، لأنه من المعروف حمل المطلق على المقيد إذا كان من جنسه ، ومادام قد ورد النص على كون الرقبة مؤمنة فى بعض الآيات ، فيجب حمل بقية الآيات على ذلك .

٥ - دل قوله - تعالى - « من قبل أن يتماسا » على حرمة الجماع قبل التكفير ...

وألحق بعضهم بالجماع دواعيه من التقبيل ونحوه ، لأن الأصل فى الأحكام أنه إذا حرم شىء منها ، أن يلحق بذلك الشىء المحرم مايوصل إليه . إذ طريق المحرم محرم .

ويرى بعضهم أن المحرم إنما هو الجماع فقط ، لأن حرمة الجماع ليست لمعنى يخل بالنكاح ، وعليه فلا يلزم من تحريم الجماع تحريم دواعيه . فإن الحائض يحرم جماعها دون دواعيه ...

قال القرطبى : ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ، ولا يتلذذ منها

بشيء حتى يكفر، خلافا للشافعي في أحد قوليه... فإن وطئها قبل أن يكفر، استغفر الله - تعالى - وأمسك عنها حتى يكفر كفارة واحدة.

وقال مجاهد وغيره: عليه كفارتان...»[1].

٦ - قوله - تعالى -: «فصيام شهرين متتابعين...» صريح في وجوب تتابع الصوم من غير انقطاع بين الأيام، فلو أفطر يوما من الشهرين من غير عذر انقطع التتابع، ولزمه استئناف الصوم من جديد...

أما الإفطار بعذر - كمرض ونحوه -، فيرى بعضهم وجوب الاستئناف، لزوال التتابع الذي صرحت به الآية...

ويرى فريق آخر من العلماء، إلى أن الإفطار بعذر لا يمنع التتابع..

٧ - أخذ العلماء من قوله - تعالى -: «فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا» أن المطلوب من المظاهر أن يطعم هؤلاء المساكين إطعاما يشبعهم في الغداء والعشاء، سواء أكان ذلك بالتمليك أم بالإباحة، فأيهما وقع من المكفر أجزأه، وسواء أطعمهم جملة أم متفرقين...

وأوجب الشافعية تمليك المساكين... بأن يملك لكل مسكين مدا أو صاعا من غالب قوت البلد الذي يسكنه من عليه الكفارة.

أما حكم من عجز عن الكفارة، فيرى جمهور العلماء أنها لا تسقط عنه، بل تستقر في ذمته حتى يتمكن من أدائها، كسائر الديون والحقوق... فإنها لا تسقط، وإنما تبقى في ذمة من عليه، حتى يتمكن من أدائها.

قال القرطبي: «وقد ذكر الله - تعالى - الكفارة هنا مرتبة، فلا سبيل إلى الصيام إلا عند العجز عن الرقبة، وكذلك لا سبيل إلى الإطعام إلا عند عدم الاستطاعة على الصيام...»[2].

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٧٨.

(٢) راجع تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٨٠.

هذا ، ومن أراد التوسع فى هذه الأحكام الفقهية ، فعليه بكتب الفروع وبعض كتب التفسير(١) .

• • •

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة الذين يحاربون الله ورسوله ، ولا يدركون أنه - سبحانه - معهم أينما كانوا ، ويعلم ما يتناجون به من إثم وعدوان ومعصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فقال - تعالى - :

« إِنَّ الذينَ يحادُّونَ اللهَ ورسولَهُ كُبِتُوا كما كُبِتَ الذين مِنْ قبلِهِمْ، وقد أنزلنا آياتٍ بيِّناتٍ وللكافرينَ عذابٌ مُهينٌ (٥) يوم يبعثُهمُ اللهُ جميعاً فينبِّئُهم بما عملوا ، أحصاهُ اللهُ ونَسُوه ، واللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ (٦) أَلم ترَ أَنَّ اللهَ يعلَم ما فى السَّمواتِ وما فى الأرضِ ، ما يكونُ مِنْ نجْوَى ثلاثةٍ إلاَّ هُو رابِعُهم ، ولا خمسةٍ إلاَّ هُو سادسُهم ، ولا أَدْنَى من ذلكَ ولا أَكثرَ إلاَّ هُو معهم أينَما كانوا ، ثمَّ يُنَبِّئهم بما عملُوا يوم القيامةِ ، إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ (٧) أَلم ترَ إلى الذينَ نُهُوا عنِ النَّجْوى ثم يعُودُونَ لما نُهُوا عنْهُ، ويتناجوْنَ بالإثمِ والعُدوانِ ومَعْصيةِ الرسُولِ وإذَا جاءوكَ حيَّوْكَ بما لم يُحَيِّكَ بهِ اللهُ، ويقولُونَ فى أنفُسِهمْ لولاَ يعذِّبنَا اللهُ بما نَقُول ، حَسْبُهمْ جهنَّمُ يَصْلَونَها فَبِئْسَ المصير » (٨) .

وقوله - سبحانه - : « يحادون » من المحادة بمعنى المعاداة والمباغضة. وأصلها أن تكون أنت فى حد - أى : فى جانب - ، وعدوك فى حد آخر . فكنى بها عن المعاداة لأنها لازمة لها .

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٢ وما بعدها .

وقوله : « كبتوا » من الكبت بمعنى الخزى والذل . يقال : كبت الله العدو كبتا ـ من باب ضرب ـ إذا أهانه وأذله وأخزاه .

قال الجمل : والذين يحادون الله هم الكافرون ، وهذه الآية وردت فى غزوة الأحزاب ....

والمقصود منها البشارة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين ، بأن أعداءهم المتحزبين القادمين عليهم ، سيصيبهم الكبت والذل ، وسيتفرق جمعهم .... »[1] .

والمعنى : إن الذين يحاربون دين الإسلام ، الذى شرعه الله ـ تعالى ـ ، وجاء به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كبتوا » وأصابهم الخزى والذل « كما كبت الذين من قبلهم » من أعداء الحق .

وأوثرهنا الفعل « يحادون » ، لوقوعه عقب الكلام عن حدود الله ـ تعالى ـ فى قوله ـ عز وجل ـ « وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم » .

وقوله ـ تعالى ـ : « كبتوا » بمعنى سيكبتون ، وعبر عن ذلك بالماضى ، للإشعار بتحقق الذل والخسران ، لأولئك المتحزبين الذين جمعوا جموعهم لمحاربة الله ورسوله ....

وقد حقق الله ـ تعالى ـ وعده ، إذ ردهم بغيظهم دون أن ينالوا خيرا ...

وجملة : « وقد أنزلنا آيات بينات ... » حال من الضمير فى « كبتوا » .

أى : كبتوا وجملة : « وقد أنزلنا آيات بينات... » حال من الضمير فى كبتوا .

أى : كبتوا لمحادتهم للحق ، والحال أنا قد أنزلنا آيات واضحات ، تدل على صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما جاء به من عند ربه ، وتشهد بأن أعداءه على الباطل والضلال .

« وللكافرين » الذين أعرضوا عن دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحاربوها « عذاب مهين » أى : عذاب يهينهم ويذلهم ويخزيهم ،

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٠١

وقوله - تعالى - : « يوم يبعثهم الله جميعا » يصح أن يكون متعلقا بقوله : « مهين » كما يصح أن يكون منصوبا بفعل مقدر ...

أي : اذكر - أيها العاقل - لتتعظ وتعتبر ، يوم يبعث الله - تعالى - هؤلاء الكافرين جميعا من قبورهم ، فينبئهم ويخبرهم بما عملوا من أعمال سيئة ..

والمراد بالإنباء في قوله : « فينبئهم بما عملوا » : المجازاة والمحاسبة وإنزال حكمه بهم .

وجملة : « أحصاه الله » مستأنفة ، لأنها بمنزلة الجواب عما قبلها . فكأن سائلا سأل وقال : كيف ينبئهم الله بأعمالهم ؟ فكان الجواب : أحصى الله - تعالى - عليهم عملهم ، وسجله عليهم تسجيلا تاما .

وجملة « ونسوه » حال من مفعول « أحصى » أي : والحال أنهم قد نسوا ما عملوه ، لتهاونهم به حين اقترفوه ، ولاعتقادهم بأنهم لن يسألوا عنه يوم القيامة ، فهم قد أنكروا البعث والحساب والثواب والعقاب .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « والله على كل شيء شهيد » أي : والله - تعالى - مشاهد لكل شيء في هذا الكون ، ولا تخفى عليه خافية من أحوال خلقه .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا »(١) .

ثم أقام - سبحانه - الأدلة على شمول علمه فقال : « ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... » .

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٩

والاستفهام فى قوله : « ألم تر .. » للتقرير ، والرؤية بمعنى العلم والإدراك القلبى .. والخطاب لكل من هو أهل له ..

والنجوى : اسم مصدر بمعنى المسارة ، يقال : نجوته نجوا ونجوى وناجيته مناجاة ، أى : ساررته بكلام على انفراد . وأصله : أن تخلو بمن تناجيه بسر معين فى نجوة من الأرض ، أى : فى مكان مرتفع منفصل عما حوله ...

وقيل : أصله من النجاة ، لأن الإسرار بالشىء فيه معاونة على النجاة .

وتطلق النجوى على القوم المتناجين ، كما فى الآية التى معنا .

قال الآلوسى : وقوله - تعالى - : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم .. » استئناف مقرر لما قبله من سعة علمه - تعالى - ، و « يكون » من كان التامة . و « من » مزيدة . و « نجوى » فاعل ، وإضافتها إلى ثلاثة من إضافة المصدر إلى فاعله .. والاستثناء فى قوله - إلا هو رابعهم » مفرغ من أعم الأحوال ... »(1) .

والمعنى : لقد علمت - أيها العاقل - علما لا يخالطه شك أو تردد ، أن الله - تعالى - يعلم علما تاما ، ما فى السموات وما فى الأرض من كائنات مختلفة الأجناس والأنواع .. وأنه - سبحانه - ما يقع من تناجى ثلاثة فيما بينهم إلا وهو تعالى - بعلمه ، كأنه حاضر معهم ، ومشاهد لهم ، كما يعلمه الرابع حين يكون معهم فى التناجى .

« ولا خمسة إلا هو سادسهم » أى : ولا يكون التناجى بين خمسة إلا وهو - سبحانه - معهم ، يعلم ما يتناجون به كما يعلم ذلك سادسهم فيما لو كان التناجى بين ستة .

---

(1) تفسير الآلوسى ج ٧ ص ٢٣

وقوله - تعالى - « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » بيان لشمول علمه لجميع الأحداث .

أى : ولا يقع التناجى بين ما هو أقل من ذلك العدد أو أكثر - كالاثنين والستة - إلا وهو - سبحانه - يعلم علما تاما مايجرى بينهم فى أى مكان كانوا ، وعلى أية حالة وجدوا . . .

« ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة » أى : ثم يخبرهم - سبحانه - يوم القيامة بما عملوه فى الدنيا من أعمال كبيرة أو صغيرة ، ويجازيهم عليها بما يستحقونه من ثواب أو عقاب .

« إن الله بكل شىء عليم » فهو - سبحانه - لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

والمقصود بهذه الآية الكريمة ، بيان شمول علم الله - تعالى - لكل شىء ، وأنه - سبحانه - يحصى على الناس أعمالهم إحصاء الحاضر معهم ، المشاهد لهم ، الذى لا يعزب عنه شىء من حركاتهم أو سكناتهم ، ولذا افتتح - سبحانه - الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم - أيضا - .

قال الإمام الرازى ما ملخصه : ذكر - سبحانه - الثلاثة والخمسة لوجوه : أحدها : أن هذا إشارة إلى كمال رحمته ، وذلك لأن الثلاثة إذا اجتمعوا ، فإذا أخذ اثنان فى التناجى والمشاوره بقى الواحد ضائعاً وحيدا ، فيضيق قلبه فيقول الله - تعالى - له : أنا جليسك وأنيسك .

وثانيها : أن العدد الفرد أشرف من الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ، فخص الأعداد الفردية بالذكر للتنبيه على شرفها . . .

وثالثها : أن الآية نزلت فى قوم من المنافقين ، اجتمعوا على التناجى مغايظة للمؤمنين ، وكانوا على هذين العددين : - أى كانوا فى مرة ثلاثة وفى مرة أخرى خمسة - فنزلت الآية الكريمة بيانا للواقع . . . »(١) .

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى جـ ٢٨ ص ٢٢٦ .

ويبدو لنا أن ذكر العدد وإنما هو من باب التمثيل، وأن المقصود الأصلي من الآية الكريمة ، بيان أن علم الله — تعالى — يشمل كل كبير وصغير ، وكثير وقليل ، ولذا قال ـ سبحانه ـ : « ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ... »

قال القرطبي : قال الفراء : المعنى غير مصمود ، والعدد غير مقصود ، لأنه ـ تعالى ـ إنما قصد ـ وهو أعلم ـ أنه مع كل عدد قل أو كثر ، يعلم ما يقولون سراً وجهراً ، ولا تخفى عليه خافية ، فمن أجل ذلك إكتفى بذكر بعض العدد ، دون بعض .. » (١)

ثم عجَّب الله — تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حال قوم يؤثرون الغي على الرشد ، وينصحون فلا يستجيبون للنصيحة ، وينهون عن الشرور فيأبون إلا الانغماس فيها ، فقال ـ تعالى ـ « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ، ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ... »

قال الآلوسي : قال ابن عباس : نزلت في اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون دون المؤمنين ، وينظرون إليهم ويتغامزون بأعينهم عليهم ، يوهمونهم عند أقاربهم أنهم أصابهم شر .. فلما كثر ذلك منهم ، شكا المؤمنون إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فنهاهم عن التناجي دون المؤمنين ، فعادوا لمثل فعلهم . . . . .

والخطاب للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والهمزة للتعجيب من حالهم وصيغة المضارع للدلالة على تكرار فعلهم وتجدده ، واستحضار صورته الغريبة . . . . . (٢)

والمعنى : إن شئت أن تعجب ـ أيها الرسول الكريم ـ فاعجب من حال

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١٧ ص ٢٩٠
(٢) تفسير الآلوسي جـ ٢٨ ص ٢٥

هؤلاء اليهود والمنافقين الذين نهيتهم أنت عن التناجي فيما بينهم ، بما يقلق المؤمنين ويغيظهم . . . . ولكنهم لم يستجيبوا لنصحك ونهيك ، بل استمروا على تناجيهم بما هو إثم وعدوان ومعصية لك ، ولما جئتهم به من عند الله - تعالى .

وعبر بقوله - تعالى - : « ثم يعودون لما نهوا عنه » للاشعار بأنهم قوم لاتؤثر فيهم النصائح وإنما هم يستمعون اليها ، ثم يهجرون العمل بها ، ويعودون إلى فجورهم وفسقهم .

ووصف تناجيهم بأنه كان مشتملا على الأثم والعدوان ومعصية الرسول لا على الإثم فقط أو على العدوان فقط . . لبيان أن تناجيهم مشتمل على كل أنواع السوء والفحشاء . فهم يتناجون بكلام هو إثم وشر في ذاته ، وبأقوال مشتملة على ظلم المؤمنين والاعتداء على دينهم وعلى أعراضهم ، وبأفعال هي معصية للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، لأنهم لم يستجيبوا لنهيه إياهم عن المناجاة بما يؤذى المؤمنين ويحزنهم . . . بل إستمروا في طغيانهم يعمهون .

والباء في قوله : « بالإثم . . » للملابسة . أى يتناجون متلبسين بالإثم وبالعدوان وبمعصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم من اليهود ، لم يكتفوا بتلك المناجاة القبيحة التي كانوا يرونها فيما بينهم ، لإغاظة المؤمنين . . بل أضافوا إلى ذلك النطق أمام الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالكلام السيء وبالعبارات التي تدل على سوء طويتهم ، فقال - تعالى - : « وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله . . . »

أى : وإذا جاء هؤلاء المنافقون واليهود إلى مجالسك - أيها الرسول الكريم - ألقوا اليك بتحية ، هذه التحية لم يأذن بها الله - تعالى - ، ولم يخاطبك بها .

وقد كان المنافقون عندما يدخلون على الرسول - صلى الله عليهم - لا يقولون له كلمة : « السلام عليكم » - وهى تحية الإسلام » ، إنما يقولون له : أنعم صباحا أو مساء ... متجنبين النطق بتحية الإسلام . ومستعملين تحية الجاهلية .

روى الشيخان عن عائشة : أن ناسا من اليهود ، دخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : السام أى : الموت عليك يا أبا القاسم . فقال - صلى الله عليه وسلم - « وعليكم » .

قالت عائشة : وقلت عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم .

فقال - صلى الله عليه وسلم - ياعائشة إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش»

فقلت : ألا تسمعهم يقولون : السام ؟ فقال - صلى الله عليه وسلم - « أو سمعت قولى : عليكم » فأنزل الله - تعالى - وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله » [1] .

ثم بين - سبحانه - رذيلة أخرى من رذائلهم المتعدده فقال: « ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ... »

والمراد بأنفسهم هنا: أى فيما بينهم وفى مجامعهم، أو فيما بينهم وبين أنفسهم

أى إذا جاءك هؤلاء المنافقون ومن على شاكلتهم فى الضلال ، نطقوا أمامك بتحية لم يحيك بها الله - تعالى - ولا يكتفون بذلك ، بل يقولون فيما بينهم على سبيل التباهى والجحود للحق « لولا يعذبنا الله بما نقول » أى : هلا يعذبنا الله بسبب ماقلناه، لوكان محمدا - صلى الله عليه وسلم - من عنده - تعالى -

أى : أنهم ينكرون نبوته - صلى الله عليه وسلم - لأنها - فى زعمهم لوكانت حقا ، لعذبهم الله - تعالى - بسبب إساءتهم اليه ، وإعراضهم عن نهيه لهم :

(١) تفسير الآلوسى حـ ٢٨ ص ٢٦

وقد رد الله - تعالى - عليهم بما يكبتهم ، وبما يسلى نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير » .

أى : لا تحزن - أيها الرسول الكريم - لمسالك هؤلاء المنافقين معك ومع أصحابك ، فإن هؤلاء المنافقين ومن لف لفهم ، كافيهم من العذاب جهنم ، يصلونها ويقاسون حرها ، فبئس المصير جهنم لو كانوا يعلمون .

* * *

وبعد أن فضح الله - تعالى - المنافقين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال ، وبين سوء عاقبتهم بسبب مسالكهم الخبيثة ... بعد كل ذلك وجه الله - تعالى - ثلاث نداءات إلى المؤمنين ، أدبهم فيها بأدبه السامى ... فقال - تعالى - :

« يأيُّها الذينَ آمنُوا إذَا تنَاجَيْتم فلا تتَنَاجَوا بالإثْم والعُدوَانِ ومعْصيةِ الرسولِ وتنَاجَوا بالبرِّ والتَّقْوى ، واتَّقوا اللهَ الذى إليهِ تُحشَرُونَ (٩) إنَّما النَّجْوى من الشَّيطَانِ ليَحزُنَ الذينَ آمنُوا ، وليسَ بضارِّهمْ شَيئًا إلا بإذْنِ اللهِ ، وعَلَى اللهِ فَليتَوكلِ المؤمنُون (١٠) يأيُّها الذينَ آمنُوا إذا قيلَ لكُم تَفسَّحُوا فى المجَالسِ فَافسَحُوا يَفسحِ اللهُ لكُمْ ، وإذَا قيلَ انشُزُوا فانشُزُوا يرفعِ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُمْ ، والذينَ أُوتُوا العِلمَ درَجاتٍ ، واللهُ بمَا تعملونَ خبيرٌ (١١) يأيُّها الذينَ آمنُوا إذا نَاجيْتُم الرسُولَ فقدِّمُوا بينَ يدَىْ نجواكُم صدقَةً ، ذلكَ خيرٌ لكُم وأطهر ، فإنْ لم تجدُوا فإنَّ اللهَ غفُورٌ رحيمٌ (١٢) أأشْفقتُم أنْ تُقدِّموا بينَ يدَىْ نجواكُم صَدقَاتٍ ، فإنْ لمْ تفعَلُوا وتَابَ اللهُ

عَلَيكُم فأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ ، وأطيعوا الله ورسُولهُ ، والله خَبيرٌ بِما تَعملُونَ (١٣) » .

فقوله ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم ... » تعليم وإرشاد منه ـ سبحانه ـ للمؤمنين ، لكى يكون حديثهم فيما بينهم ، يقوم على الخير لا على الشر ، وعلى الطاعة لا على المعصية ، وعلى البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، حتى لا يتشبهوا بالمنافقين ، الذين كانوا على النقيض من ذلك .

أى : يامن آمنتم بالله ـ تعالى ـ حق الإيمان ، « إذا تناجيتم » بأن أسر بعضكم إلى بعض حديثا « فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » كما هو شأن المنافقين ومن على شاكلتهم فى الكفر والضلال .

وإنما « تناجوا » فيما بينكم « بالبر والتقوى » ، والبر ضد الإثم والعدوان، وهو يعم جميع أفعال الخير التى أمر الله ـ تعالى ـ بها .

والتقوى : الامتثال لأمر الله ـ تعالى ـ ، وصيانة النفس عن كل مالا يرضاه .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله الذى إليه تحشرون » أى : وراقبوا الله ـ تعالى ـ فى كل أحوالكم ، فإليه وحده يكون مرجعكم يوم القيامة ، وسيبعثكم ويجمعكم للحساب والجزاء ...

والمراد بالنجوى فى قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك : « إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ... » : نجوى المنافقين فيما بينهم ، وهى التى عبر عنها ـ سبحانه ـ قبل ذلك بقوله : « ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول » .

فأل فى قوله ـ تعالى ـ : « النجوى » للعهد . أى : إنما النجوى المعهودة

التي كان يتناجى المنافقون بها فيما بينهم ، كائنة من الشيطان لا من غيره ، لأنه هو الذى حرضهم وأغراهم ، بأن يتساروا بالإثم والعدوان ...

وقوله : « ليَحزُن الذين آمنوا ، قرأ الجمهور : « ليحزن » - بفتح الياء وضم الزاى - مضارع حزن ، فيكون « الذين آمنوا » فاعل . والحزن : الهم والغم .

أى : زين الشيطان للمنافقين هذه النجوى السيئة ، لكى يحزن المؤمنون ويغتموا ، بسبب ظنهم أن من وراء هذه النجوى أخبارا سيئة تتعلق بهم أو بذويهم ...

وقرأ نافع « ليُحزِن » - بضم الياء وكسر الزاى - ، فيكون « الذين آمنوا » مفعولا . أى : فعل مافعل الشيطان مع المنافقين ، لكى يدخل الحزن والغم على المؤمنين .

وأسند - سبحانه - النجوى إلى الشيطان ، باعتبار أنه هو الذى يوسوس بها ، ويزينها فى قلوب هؤلاء المنافقين وأشباههم .

وجملة : « وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ... » معترضة لتثبيت المؤمنين ، وتسليتهم عما أصابهم من المنافقين .

واسم ليس : الشيطان أو التناجى ، والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال ، و « شيئا » منصوب على المفعول المطلق .

أى : لا تحزنوا - أيها المؤمنون - لمسالك المنافقين معكم ، ولا تخافوا من تناجيهم فيما بينهم ، فإنها نجوى زينها لهم الشيطان ، واعلموا أن كيد الشيطان لن يضركم شيئا من الضرر فى حال من الأحوال إلا فى حال إرادة الله - تعالى - ومشيئته ...

ومادام الأمر كما بينت لكم ، فاجعلوا توكلكم - أيها المؤمنون - على الله

ـ تعالى ـ وحده ، ولا تبالوا بالمنافقين ، ولا بتناجيهم ، ولا بما يسوله الشيطان لهم من قبائح ، لأن كل شيء بقضاء الله وقدره .

قال الآلوسي ما ملخصه : وحاصل هذا الكلام أن ما يتناجى المنافقون به مما يحزن المؤمنين ، إن وقع فهو بإرادة الله ـ تعالى ـ ومشيئته ، ولا دخل للمنافقين فيه ، ومادام الأمر كذلك ، فلا يكترث المؤمنـــون بتناجيهم ، وليتوكلوا على الله ـ عز وجل ـ ، ولا يخافوا من تناجيهم ...

ثم إن التناجي بين المؤمنين قد يكون منهيا عنه ، فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا كنتم ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الآخر ، حتى تختلطوا بالناس ، من أجل أن ذلك يحزنه » .

ومثل التناجي في ذلك ، أن يتكلم اثنان بحضور ثالث بلغة لا يفهمها الثالث ، إن كان يحزنه ذلك »[1] .

وروى الإمام مسلم عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه »[2] .

والخلاصة أن تعاليم الإسلام ، تنهى عن التناجي في الحالات التي توقع الريبة في القلوب ، وتزعزع الثقة بين الأفراد والجماعات ...

وهذا النهي لون من الأدب الحكيم ، الذي يحفظ للمؤمنين مودتهم ، ومحبتهم ويبعد عن نفوسهم الشكوك والريب ، ويطرد عن قلوبهم نزغات الشيطان « الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم » .

ثم لفت ـ سبحانه ـ أنظار المؤمنين إلى أدب رفيع آخر فقال : « يأيها الذين

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٨ ص ٢٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٤ .

آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ...»

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : ماروى عن قتادة أنه قال : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ، ضنوا بمجالسهم عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة . وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يومئذ فى الصفه، وفى المكان ضيق . وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار . فجاء ناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا : السلام عليكم أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى - صلى الله عليه وسلم - عليهم . ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليهم السلام ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم .

فعرف النبى - صلى الله عليه وسلم - مايحملهم على القيام فلم يُفسح لهم فشق ذلك عليه ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر : قم يافلان ، قم يافلان ...

فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف - صلى الله عليه وسلم - الكراهة فى وجوههم .

فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قد عدل على هؤلاء ... فبلغنا أن رسول - صلى الله عليه وسلم - قال « رحم الله رجلا يفسح لأخيه » . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا ، ونزلت هذه الآية ... »(١)

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٤

وقوله « تفسحوا » من التفسح ، وهو تفعل بمعنى التوسع . يقال فسح فلان لفلان فى المجلس ـ من باب نفع ـ إذا أوجد له فسحة فى المكان ليجلس فيه .

والمعنى : يا من آمنتم بالله حق الإيمان ، إذا قيل لكم توسعوا فى مجالسكم لتسع أكبر قدر من إخوانكم فامتثلوا واستجيبوا ، لأن فعلكم هذا يؤدى إلى أن يفسح الله ـ تعالى ـ لكم فى رحمته ، وفى منازلكم فى الجنة ، وفى كل شىء تحبونه .

وحذف ـ سبحانه ـ متعلق « يفسح الله لكم » ليشمل كل ما يرجو الناس أن يفسح الله لهم فيه ، من رزق ، ورحمته . وخير دنيوى وأخروى .

والمراد بالمجالس : مجالس الخير ، كمجالس الذكر ، والجهاد . والصلاة ، وطلب العلم ، وغير ذلك من المجالس التى يحبها الله ـ تعالى ـ .

وقراءة الجمهور : « إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس » بالإفراد على إرادة الجنس ... أى : قيل لكم تفسحوا فى أى مجلس خير فافسحوا ... لأن هذا التوسع يؤدى إلى ازدياد المحبة والمودة بينكم . وقرأ عاصم بصيغة الجمع .

ثم أرشدهم ـ سبحانه ـ إلى نوع آخر من الأدب السامى فقال : « وإذا قيل انشزوا فانشزوا ... » .

والنشوز الارتفاع عن الأرض . يقال : نشز ينشِز وينشُز ـ من بابى نصر وضرب ـ إذا ارتفع من مكانه ،

أى : وإذا قيل لكم ـ أيها المؤمنون ـ انهضوا من أماكنكم ، للتوسعة على المقبلين عليكم ، فانهضوا ولا تتكاسلوا .

وقوله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » جواب الأمر فى قوله : « فانشزوا ... » .

وعطف الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا من باب عطف الخاص على العام ، على سبيل التعظيم والتنويه بقدر العلماء .

أى : وإذا قيل لكم ارتفعوا عن مواضعكم فى المجالس فارتفعوا ، فإنكم إن تفعلوا ذلك ، يرفع الله - تعالى - المؤمنين الصادقين منكم درجات عظيمة فى الآخرة ، ويرفع العلماء منكم درجات أعظم وأكبر .

ويرى بعضهم أن المراد بالموصولين واحد ، والعطف فى الآية لتنزيل التغاير فى الصفات ، منزلة التغاير فى الذات .

والمعنى : يرفع الله الذين آمنوا العالمين درجات عظيمة لا يعلم مقدارها إلا الله - تعالى - .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بما يدل على شمول علمه فقال . « والله بما تعملون خبير » .

أى : والله - تعالى - مطلع اطلاعا تاما على نواياكم ، وعلى ظواهركم وبواطنكم ، فاحذروا مخالفة أمره ، واتبعوا ما أرشدكم إليه من أدب وسلوك .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية الكريمة : أن إفساح المؤمن لأخيه المؤمن فى المجلس ، من الآداب الإسلامية التى ينبغى التحلى بها ، لأن هذا الفعل بجانب رفعه للدرجات ، فإنه سبب للتواد والتعاطف والتراحم .

قال القرطبى ما ملخصه : والصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس ، اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء أكان مجلس حرب ، أم ذكر ، أم مجلس يوم الجمعة . . . ولكن بدون أذى ، فقد أخرج الشيخان عن ابن عمر أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه » .

وعن ابن عمر - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى أن يقام الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه آخر ، ولكن تفسحوا وتوسعوا ... »(١) .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٩٨ .

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة ترشد المؤمنين فى كل زمان ومكان، إلى لون من مكارم الأخلاق، ألا وهو التوسعة فى المجالس، وتقديم أهل العلم والفضل، وإنزالهم منازلهم التى تليق بهم فى المجلس.

كذلك أخذ العلماء من هذه الآيه الكريمة أنه يجوز القيام للقادم.

قال الإمام ابن كثير: وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال: فمنهم من رخص فى ذلك محتجا بحديث: «قوموا إلى سيدكم».

ومنهم من منع من ذلك. محتجا بحديث: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياما، فليتبوأ مقعده من النار».

ومنهم من فصل فقال: يجوز القيام للقادم من سفر، وللحاكم فى محل ولايته، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ، فإنه لما استقبله النبى - صلى الله عليه وسلم - حاكما فى بنى قريظة، فرآه مقبلا قال للمسلمين: «قوموا إلى سيدكم»، وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه - والله أعلم -.

فأما إتخاذه - أى القيام - ديدنا، فإنه من شعار الأعاجم... وفى الحديث المروى فى السنن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يجلس حيث انتهى به المجلس، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس، وكان الصحابة يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالبا عثمان وعلى لأنهما كانا ممن يكتب الوحى، وكان يأمرهما بذلك....»(١).

كذلك أخذ العلماء من هذه الآية الكريمه، فضل العلماء، وسمو منزلتهم.

قال صاحب الكشاف: عن عبد الله بن مسعود أنه كان إذا قرأ هذه الآيه قال: يأيها الناس افهموا هذه الآية، ولترغبكم فى العلم. وفى الحديث الشريف:

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٥

« بين العالم والعابد مائة درجه .. » وفي حديث آخر : فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر النجوم » ....

وعن بعض الحكماء أنه قال : ليت شعري أي شيء أدرك من فاته العلم، وأي شيء فات من أدرك العلم .

وعن الأحنف : كل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل يصير »[1] .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى لون ثالث من الأدب السامي ، فناداهم للمرة الثالثة بقوله : « يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ذلكم خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا ، فإن الله غفور رحيم » .

والمراد بقوله - تعالى - « إذا ناجيتم » : إذا أردتم المناجاة ، كما في قوله - تعالى - « إذا قمتم إلى الصلاة ... »

والمراد بقوله : « بين يدى نجواكم » أي : قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه وسلم - بقليل ، والكلام من باب الاستعارة التمثيلية . حيث شبهت هيئة قرب الشيء من آخر، بهيئة وصول الشخص إلى من يريد الوصول إليه ، على سبيل تشبيه المعقول بالمحسوس ..

واسم الإشارة في قوله : « ذلك خير لكم وأطهر » يعود إلى تقديم الصدقه ، والجملة بمنزلة التعليل للأمر بتقديمها .

والمعنى . يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان، إذا أردتم مناجاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - . والحديث معه في أمر ما على سبيل السر ، فقدموا صدقه للفقراء قبل مناجاته - صلى الله عليه وسلم ، فذلك التقديم خير لكم لما فيه من الثواب ، وأكثر طهرا لنفوسكم ، فإن لم تجدوا شيئا تتصدقون به قبل مناجاتكم له - صلى الله عليه وسلم - ، فلا تحزنوا فإن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٦

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية روايات منها ما جاء عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال: نزلت بسبب أن المسلمين كانوا يكثرون المسائل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى شقوا عليه، فأراد الله - تعالى - أن يخفف عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - فلما نزلت هذه الآية، كف كثير من الناس، ثم وسع الله عليهم بالآية التى بعدها .... »[1].

وقال بعض العلماء: إن هذا الأمر قد اشتمل على فوائد كثيرة:

منها: تعظيم أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم وإكبار شأن مناجاته، كأنها شىء لا ينال بسهولة.

ومنها: التخفيف عن النبى - صلى الله عليه وسلم - بالتقليل من المناجاة - حتى يتفرغ - صلى الله عليه وسلم - للمهام العظمى التى كلفه - سبحانه - بها.

ومنها: تهوين الأمر على الفقراء، الذين قد يغلبهم الأغنياء على مجلس الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فإنهم إذا علموا أن قرب الأغنياء من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ومناجاتهم له، تسبقها الصدقة، لم يضجروا.

ومنها: عدم شغل الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما لا يكون مهما من الأمور، فيتفرغ للرسالة. فإن الناس وقد جبلوا على الشح بالمال، يقتصدون فى المناجاة التى تسبقها الصدقه.

ومنها: تمييز محب الدنيا من محب الآخرة، فإن المال محك الدواعى[2].

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر لطفه بعباده فقال: «أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقه ...»

(١) تفسير القرطبى حـ ١٧ ص ٣٠١
(٢) تفسير آيات الأحكام حـ ٤ ص ١٣١ للشيخ محمد على السايس

والإشفاق معناه : أن يتوقع الإنسان عدم حصوله على ما يريده . والمراد به هنا : الخوف .

والاستفهام مستعمل فيما يشبه اللوم والعتاب ، لتخلف بعضهم عن مناجاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبب تقديم الصدقة .

و « إذ » فى قوله « فإذ لم تفعلوا » ظرفية مفيدة للتعليل .

والمعنى : أخفتم - أيها المؤمنون - أن تقدموا قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه وسلم - صدقة ، فيصيبكم بسبب ذلك الفقر ، إذا ما واظبتم على ذلك .

« فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم » أى : فحين لم تفعلوا ما كلفناكم به من تقديم الصدقة قبل مناجاتكم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وتاب الله - تعالى - عليكم . بأن رخص لكم فى هذه المناجاة بدون تقديم صدقة ، وخفف عنكم ما كان قد كلفكم به - سبحانه - والفاء فى قوله : فأقيموا الصلاة . وآتوا الزكاة ، وأطيعوا الله ورسوله ، معطوفة على كلام محذوف .

أى : فحين خففنا عنكم الصدقة - بفضلنا ورحمتنا - فداوموا على إقامة الصلاة ، وعلى إعطاء الزكاة لمستحقيها ، وأطيعوا الله ورسوله ، فى كل ما أمركم به أو نهاكم عنه .

واعلموا أن الله - تعالى - خبير بما تعملون ، ولا يخفى عليه شىء من أقوالكم أو أفعالكم ، وسيجازى الذين أساؤا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ناسخة للتى قبلها ، لأنها أسقطت وجوب تقديم الصدقه الذى أمرت به الآيه السابقه .

وقد لخص الإمام الآلوسى كلام العلماء فى هذه المسألة تلخيصا حسنا فقال: واختلف فى أن الأمر للندب أو للوجوب ، لكنه نسخ بقوله - تعالى - : أأشفقتم أن تقدموا .. » وهو وإن كان متصلا به تلاوه ، لكنه غير متصل به نزولا . وقيل : نسخ بآية الزكاة . والمعول عليه الأول .

ولم يعين مقدار الصدقه ، ليجزىء القليل والكثير . أخرج الترمذى عن على بن طالب قال : « لما نزلت ، يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقه .. »

قال لى النبى – صلى الله عليه وسلم – : « ما ترى فى دينار » قلت : « لا يطيقونه ، قال : « نصف دينار قلت : لا يطيقونه . قال : « فكم » ؟ قلت : شعيرة . قال : « فإنك لزهيد » .

فلما نزلت : « أأشفقتم أن تقدموا ..... » قال – صلى الله عليه وسلم – « خفف الله عن هذه الأمة ، ولم يعمل بها على المشهور – غير على - كرم الله وجهه ....

وإختلف فى مدة بقاء هـذا الأمر - أى الأمر بتقديم الصدقه – : فعن مقاتل : عشرة أيام .

وقال قتادة : ساعة من نهار .... »[١]

وقال بعض العلماء : والآية الناسخه متأخرة فى النزول ، وإن كانت تاليه للآية المنسوخة فى التلاوة .

والظاهر - والله أعلم - أن الحادثه من باب الابتلاء والامتحان ، ليظهر للناس محب الدنيا من محب الآخرة ، والله بكل شىء عليم »[٢]

وقال أحد العلماء : « ولا يفهم من قوله - تعالى - : « أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقه .... » .

أن الصحابه قد وقع منهم تقصير . فان التقصير إنما يكون إذا ثبت أنه كانت هناك مناجاة لم تصحبها صـدقه ، والآيه قالت : « فإذ لم تفعلوا » أى :

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ٣١
(٢) صفوة البيان ج ٢ ص ٤١٢ لفضيله الشيخ حسنين محمد مخلوف

ما أمرتم به من الصدقة، وقد يكون عدم الفعل، لأنهم لم يناجوا، فلا يكون عدم الفعل تقصيرا.

وأما التعبير بالإشفاق من جانبهم، فلا يدل على تقصيرهم، فقد يكون الله - تعالى - علم أن كثيرا منهم إستكثر التصدق عند كل مناجاة في المستقبل لودام الوجوب، فقال الله - تعالى - لهم: أأشفقتم.

وكذلك ليس في قوله «وتاب عليكم» ما يدل على أنهم قصروا. فإنه يحمل على أن المعنى انه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفا. ومثل هذا يجوز أن يعبر عنه بالتوبة ...»(١)

٭ ٭ ٭

ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الحديث عن المنافقين وأشباههم، فتصور أحوالهم، وتبين سوء مصيرهم، وتكشف القناع عن الأسباب التي أدت بهم إلى الخسران والهلاك، فقال - تعالى -:

«أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ تولَّوا قوماً غَضِبَ اللهُ عليهِمْ، ما هُمْ مِنكُم ولا مِنْهُم، ويحلِفُونَ على الكَذِبِ وهُمْ يعلَمُونَ (١٤) أعدَّ اللهُ لهم عذاباً شَديداً إنَّهُم ساء ما كانُوا يعملُونَ (١٥) اتَّخذُوا أيْمانَهُم جُنَّةً فَصدُّوا عنْ سَبيلِ اللهِ فلَهُم عـذابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تُغنيَ عَنْهُم أمْوالُهم ولا أولادُهُم مِنَ اللهِ شَيئاً، أُولئِكَ أصْحابُ النَّارِ هُمْ فيها خالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُم اللهُ جميعاً فَيحلِفُونَ لهُ كمَا يحلِفُونَ لـكُم، ويَحْسبُونَ أنَّهُم عَلَى شيء، ألا إنَّهمْ هُمُ الـكاذِبونَ (١٨) استَحوذَ عليهِمُ الشَّيطانُ فأنْساهُم ذِكْرَ اللهِ أُولئِكَ حِزْبُ الشَّيطانِ ألاَ إنَّ حِزْبَ الشَّيطانِ هُمُ الخاسِرُونَ (١٩)».

(١) تفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٣٣

والاستفهام فى قوله - تعالى - : ألم تر إلى الذين تولوا . . . ، للتعجيب من حال هؤلاء المنافقين ، حيث إتخذوا اليهود حلفاء لهم ، ينقلون إليهم أسرار المؤمنين . . .

أى : ألم ينته إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المنافقين ، الذين إتخذوا اليهود أولياء ، يناصحونهم ويطلعونهم على أخباركم .

فالمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم : اليهود . ووصفهم بذلك للتنفير منهم ، ولبيان أن المنافقين قد بلغوا النهاية فى القبح والسوء ، حيث والوا وناصروا من غضب الله عليهم ، لا من - رضى الله عنهم .

ثم دمغ - سبحانه - هؤلاء المنافقين برذيلة أخرى فقال : « ما هم منكم ولا منهم » أى : أن هؤلاء المنافقين بمسلكهم هذا ، صاروا بمنزلة الذين ليسوا منكم - أيها المؤمنون - وليسوا - أيضا - منهم - أى من اليهود -

وإنما هم دائما لا مبدأ لهم ولا عقيدة ، فهم كما قال - تعالى - « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . . . »

وفى الحديث الشريف : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين غنمين - أى المترددة بين قطيعين . لا تدرى أيهما تتبع » .

قال الجمل : وقوله : « ما هم منكم ولا منهم » فيه أوجه : أحدهما : أن هذه الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، فقد أخبرعنهم بأنهم ليسوا من المؤمنين الخلص ، ولا من الكافرين الخلص ، بل هم كقوله - تعالى - : « مذبذبين بين ذلك . . »

والضمير فى قوله « ما هم » يعود على المنافقين ، وفى قوله « منهم » يعود على اليهود .

الثانى : أنها حال من فاعل « تولوا » والمعنى ما تقدم .

الثالث : أنها صفة ثانية لقوله « قوما » ، وعليه يكون الضمير فى قوله : « ما هم » يعود على اليهود ، والضمير فى قوله : « منهم يعود على المنافقين .

يعنى : أن اليهود ليسوا منكم - أيها المؤمنون - ولا من المنافقين.ومع ذلك تولاهم المنافقون ، . . . إلا فى هذا الوجه تنافر بين الضمائر ، فإن الضمير فى « ويحلفون » عائد على المنافقين ، وعلى الوجهين الأولين تتحد الضمائر »[1]

ثم دمغهم - سبحانه - برذيلة ثالثة أشد نكرا من سابقتيها فقال: « ويحلفون على الكذب وهم يعلمون »

أى : أنهم ينقلون إلى اليهود أسرار المؤمنين ، مع أنهم لا تربطهم باليهود أية رابطة ، لا من دين ولا من نسب ... وفضلا عن كل ذلك ، فإن هؤلاء المنافقين يواظبون ويستمرون على الحلف الكاذب المخالف للواقع ، والحال أنهم يعلمون أنهم كاذبون علما لا يخالطه شك أو ريب .

فأنت ترى أن الله - تعالى - قد ذم هؤلاء المنافقين ، بجملة من الصفات القبيحة ، التى على رأسها تعمدهم الكذب ، وإصرارهم عليه .

قال صاحب الكشاف : قوله : « ويحلفون على الكذب » أى : يقولون: والله إنا لمسلمون ، فيحلفون على الكذب الذى هو إدعاء الإسلام « وهم يعلمون » أن المحلوف عليه كذب بحت .

فإن قلت : فما فائدة قوله : « وهم يعلمون » ؟ قلت : الكذب أن يكون لا على وفاق المخبر عنه ، سواء علم المخبر أم لم يعلم . فالمعنى أنهم الذين يخبرون وخبرهم خلاف ما يخبرون عنه ، وهم عالمون بذلك متعمدون له ، كمن يحلف بالغموس ... »[1]

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٣٠٨

(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٧

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنها نزلت فى رجل يقال له: عبد الله بن نبتل - وكان من المنافقين الذين يجالسون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم يرفعون حديثه إلى اليهود - وفى يوم من الأيام كان - صلى الله عليه وسلم - جالسا فى إحدى حجراته، فقال لمن حوله: «يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار، وينظر بعينى شيطان»، فدخل ابن نبتل. - وكان أزرق أسمر ا قصيرا خفيف اللحية -، فقال له - صلى الله عليه وسلم - «علام تشتمنى أنت وأصحابك»؟

فحلف بالله مافعل ذلك. فقال له النبى - صلى الله عليه وسلم -: «فعلت» فانطلق فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ماسبوه. فنزلت هذه الآية»[1]

ومن الآيات الكثيرة التى صرحت بأن المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة على سبيل التعمد، قوله تعالى -: «وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم، يهلكون أنفسهم، والله يعلم إنهم لكاذبون»[2]

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم من عذاب فقال: «أعد الله لهم عذابا شديدا...» أى: هيأ الله - تعالى - لهؤلاء المنافقين عذابا قد بلغ النهاية فى الشدة والألم...

وجملة «إنهم ساء ما كانوا يعملون» تعليل لنزول العذاب الشديد بهم. أى: أن هذا العذاب الشديد المهيأ لهم، سببه سوء أعمالهم فى الدنيا، واستحبابهم العمى على الهدى.

وقوله - سبحانه -: «اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله...» بيان لرذيلة رابعة أو خامسة، لا تقل فى قبحها عما سبقها من رذائل، وقوله: «أيمانهم» جمع يمين بمعنى الحلف.

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٣٠٤

(٢) سورة التوبة. الآية ٤٢

وقوله: «جنة» من الجَنّ بمعنى الستر عن الحاسة، وهذه المادة وما اشتق منها تدور حول الستر والخفاء. وتطلق الجنة على الترس الذى يضعه المقاتل على صدره أو على ذراعيه ليتقى به الضربات من عدوه.

ومفعول: «فصدوا» محذوف للعلم به.

اى: أن هؤلاء المنافقين قد اتخذوا أيمانهم الكاذبة، وهى حلفهم للمسلمين بأنهم معهم، وبأنهم لا يضمرون شرا لهم... اتخذوا من كل ذلك وقاية وسترة عن المؤاخذة، كما يتخذ المقاتل الترس وقاية له من الأذى...

«فصدوا» الناس «عن سبيل الله» أى: عن دينه الحق، وطريقه المستقيم.

«فلهم عذاب مهين» أى: فترتب على تسترهم خلف الأيمان الفاجرة، وعلى صدهم غيرهم عن الحق، أن أعد الله - تعالى - لهم عذابا يهينهم ويذلهم.

وقوله - سبحانه -: «لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا...» رد على ما كانوا يزعمونه من أنهم لن يعذبوا، لأنهم أكثر أموالا وأولادا من المؤمنين.

قال القرطبى: قال مقاتل: قال المنافقون إن محمداً يزعم أنه ينصر يوم القيامة لقد شقينا إذا. فوالله لننصرن يوم القيامة بأنفسنا وأولادنا وأموالنا إن كانت قيامة. فنزلت»(1).

ومن المعروف أن عبد الله بن أبى بن سلول - زعيم المنافقين - ، كان من أغنياء المدينة، وكان يوطن نفسه على أن يكون رئيسا للمدينة قبيل الإسلام، وهو القائل - كما حكى القرآن عنه -: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»...

---

(1) تفسير القرطبى جـ ١٧ ص ٢٠٥

أى : أن هؤلاء المنافقين المتفاخرين بأموالهم وأولادهم ، لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا من الغناء .

« وأولئك » المنافقون هم « أصحاب النار هم فيها خالدون » خلودا أبديا . ثم بين - سبحانه - حالهم يوم القيامة ، وأنهم سيكونون على مثل حالهم فى الدنيا من الكذب والفجور ... فقال - تعالى - : « يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون » ..

أى : اذكر - أيها الرسول الكريم - يوم يبعث الله - تعالى - هؤلاء المنافقين جميعا للحساب والجزاء ، « فيحلفون » لله . تعالى - فى الآخرة بأنهم مسلمون « كما » كانوا « يحلفون لكم » فى الدنيا بأنهم مسلمون ...

« ويحسبون » فى الآخرة - لغبائهم وانطماس بصائرهم « أنهم » بسبب تلك الأيمان الفاجرة « على شىء » من جلب المنفعة أو دفع المضرة .

أى : يتوهمون فى الآخرة أن هذه الأيمان قد تنفعهم فى تخفيف شىء من العذاب عنهم .

« ألا إنهم هم الكاذبون » أى : الذين بلغوا فى الكذب حدا لا غاية وراءه ...

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن هؤلاء المنافقين فى الدنيا ، قد بعثوا والنفاق ما زال فى قلوبهم ، وسلوكهم القبيح ما دام متلبسا بهم ... فهم لم يكتفوا بكذبهم على المؤمنين فى الدنيا ، بل وفى الآخرة - أيضا - يحلفون لله - تعالى - بأنهم كانوا مسلمين .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين »(١) .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٢٣

وقوله - سبحانه - : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون »[١].

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال عند تفسيره لهذه الآية : يعني ليس العجب من حلفهم لكم - في الدنيا بأنهم مسلمون - فإنكم بشر تخفى عليكم السرائر ... ولكن العجب من حلفهم لله عالم الغيب والشهادة - بأنهم كانوا مسلمين في الدنيا ...

والمراد وصفهم بالتوغل في نفاقهم ، ومرونهم عليه ، وأن ذلك بعد موتهم وبعثهم باق فيهم لا يضمحل »[٢].

وقال بعض العلماء ما ملخصه : وقوله : « ويحسبون أنهم على شيء » حذفت صفة شيء ، لظهور معناها من المقام . أي : ويحسبون أنهم على شيء نافع .

وهذا يقتضي توغلهم في النفاق ، ومرونتهم عليه ، وأنه باق في أرواحهم بعد بعثهم ، لأن نفوسهم خرجت من الدنيا متخلقة به ، فإن النفوس إنما تكتسب تزكية أو خبثا في عالم التكليف .

وفي الحديث : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : إن رجلا من أهل الجنة يستأذن ربه أن يزرع ، فيقول الله له : أو لست فيما شئت ؟ قال : بلى يارب ولكن أحب أن أزرع ،فأسرع وبذر،فيبادر الطرفَ نباته واستواؤه واستحصاده وتكويره أمثال الجبال .

وكان رجل من أهل البادية عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يارسول الله لا نجد هذا الرجل إلا قرشيا أو أنصاريا ، فإنهم أصحاب زرع ، فأما نحن - أي أهل البوادي - فلسنا بأصحاب زرع . فضحك النبي - صلى الله عليه وسلم - إقرارا لما فهمه الأعرابي .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٢٨ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٨ .

وفى حديث جابر بن عبد الله الذى رواه الإمام مسلم فى صحيحه، أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: يبعث كل عبد على مامات عليه.

قال عياض: هو عام فى كل حالة مات عليها المرء وقال السيوطى. يبعث الزمار بمزماره، وشارب الخمر بقدحه.

قلت: «ثم تتجلى لهم الحقائق على ماهى عليه، إذ تصير العلوم على الحقيقة»[1].

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى جعلت المنافقين ينغمسون فى نفاقهم فقال: «استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله....».

وقوله: «استحوذ» من الحوذ، وهو أن يتبع السائق حاذيى البعير. أى: أدبار فخذه ثم يسوقه سوقا عنيفا، لايستطيع البعير الفكاك منه.. والمراد به هنا: شدة الاستيلاء والغلبة... ومنه قول السيدة عائشة فى عمر - رضى الله عنهما -: «كان أحوذيا» أى: كان ضابطا للأمور، ومستوليا عليها استيلاء تاما...

والمعنى: إن هؤلاء المنافقين قد استولى عليهم الشيطان استيلاء تاما، بحيث صيرهم تابعين لوساوسه وتزيينه، فهم طوع أمره، ورهن إشارته، فترتب على طاعتهم له أن أنساهم طاعة الله - تعالى -، وحسابه، وجزاءه، فعاشوا حياتهم يتركون ماهو خير، ويسرعون نحو ماهو شر..

«أولئك» الموصوفون بتلك الصفات القبيحة «حزب الشيطان» أى: جنوده وأتباعه «ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون» خسارة لا تقاربها

---

(١) راجع تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ٥٣: للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

خسارة ، لأنهم آثروا العاجل على الآجل ، والفانى على الباقى ، والضلال على الهدى . . .

* * *

ثم ختم ـ سبحانه ـ السورة الكريمة ببيان سنة من سننه فى خلقه ، وهى أن الذلة والصغار لأهل الباطل ، والعزة والغلبة لأهـل الحق . . . الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فقال ـ تعالى ـ :

« إِنَّ الذين يُحَادُّونَ اللهَ ورسولَه أُولَئِكَ فى الأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لاتجدُ قوماً يؤمِنُونَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ من حَادَّ اللهَ ورسولَهُ ، ولو كانُوا آباءَهُمْ أو أَبْنَاءَهُمْ أو إِخْوَانَهُم أو عَشِيرَتَهُم ، أُولَئِكَ كَتَبَ فى قلوبِهِم الإِيمَانَ وأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُدخِلُهم جنَّاتٍ تجرِى مِنْ تحتِها الأنهارُ خَالدينَ فِيهاَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ورَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ المفلِحُونَ (٢٢) » .

أى : إن الذين يحادون دين الله ـ تعالى ـ ، ويحاربون ماجاء به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أولئك » الذين يفعلون ذلك . . .

« فى الأذلين » أى : فى عداد أذل خلق الله ـ تعالى ـ وهم المنافقون ومن لف لفهم ، من الكافرين وأهل الكتاب .

وقال ـ سبحانه ـ : « أولئك فى الأذلين » للإشعار بأنهم مظروفون وكائنون ، فى ذروة أشد خلق الله ذلا وصغارا . . .

ثم بشر ـ سبحانه ـ من هم على الحق بأعظم البشارات فقال : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز » .

أى : أثبت الله - تعالى - ذلك فى اللوح المحفوظ وقضاه ، وأراد وقوعه فى الوقت الذى يشاؤه .

فالمراد بالكتابة : القضاء والحكم . وعبر بالكتابة ، للمبالغة فى تحقق الوقوع .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أنه لما فتح الله - تعالى - للمؤمنين ما فتح من الأرض ، قال المؤمنون : إنا لنرجوا أن يفتح الله لنا فارس والروم .

فقال بعض المنافقين : أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التى تغلبتم عليها ، والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا ، من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت .

قال الآلوسى : « كتب الله » أى : أثبت فى اللوح المحفوظ ، أو قضى وحكم ... وهذا التعبير جار مجرى القسم ، ولذا قال - سبحانه - : « لأغلبن أنا ورسلى » أى : بالحجة والسيف وما يجرى مجراه ، أو بأحدهما ... »[1] .

« إن الله قوى » على نصر رسله وأوليائه « عزيز » لا يغلبه غالب بل هو القاهر فوق عباده .

والمقصود بالآية الكريمة : تقرير سنة من سننه - تعالى - التى لا تتخلف ، وأن النصر سيكون حليفا لأوليائه ، فى الوقت الذى علمه وأراده . . .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »[2] .

وقوله - تعالى - : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم الغالبون »[3] .

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ٣٤ (٢) سورة غافر الآية : ٥١
(٣) سورة الصافات الآية : ١٧١ - ١٧٣

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة لصفات المؤمنين الصادقين فقال : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله .... » .

وقوله : « يوادون » من الموادة بمعنى حصول المودة والمحبة .

أى : لاتجد - أيها الرسول الكريم - قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر حق الإيمان ، يوالون ويحبون من حارب دين الله - تعالى - وأعرض عن هدى رسوله .

والمقصود من هذه الآية الكريمة النهى عن موالاة المنافقين وأشباههم ، وإنما جاءت بصيغة الخبر ، لأنه أقوى وآكد فى التنفير عن موالاة أعداء الله ، إذ الإتيان بصيغة الخبر تشعر بأن القوم قد امتثلوا لهذا النهى ، وأن الله - تعالى - قد أخبر عنهم بذلك .

وافتتحت الآية بقوله : « لاتجد قوما . . . » لأن هذا الافتتاح يثير شوق السامع لمعرفة هؤلاء القوم .

وقوله : « ولو كانوا آباءهم ... » تصريح بوجوب ترك هذه الموادة لمن حارب الله ورسوله ، مهما كانت درجة قرابة هذا المحارب .

أى : من شأن المؤمنين الصادقين أن يبتعدوا عن موالاة أعداء الله ورسوله ، ولو كان هؤلاء الأعداء . «آباءهم» الذين أتوا إلى الحياة عن طريقهم « أو أبناءهم » الذين هم قطعة منهم . « أو إخوانهم » الذين تربطهم رابطة الدم « أو عشيرتهم » التى ينتسبون إليها ، وذلك لأن قضية الإيمان أن تقدم على كل شىء .

وقدم الآباء لأنهم أول من تجب طاعتهم ، وثنى بالأبناء لأنهم ألصق الناس بهم ، وثلث بالإخوان لأنهم الناصرون لهم ، وختم بالعشيرة لأن التناصر بها يأتى فى نهاية المطاف .

ثم أثنى - سبحانه - على هؤلاء المؤمنين الصادقين الذين لم يوالوا أعداء الله مهما بلغت درجة قرابتهم فقال: «أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ...».

أى: أولئك الذين لا يوادون أعداء الله مهما كانوا، هم الذين كتب الله - تعالى - الإيمان فى قلوبهم، فاختلط بها واختلطت به، فصارت قلوبهم لا تحب إلا من أحب دين الله، ولا تبغض إلا من أبغضه.

«وأيدهم بروح منه» أى: وثبتهم وقواهم بنور من عنده - سبحانه -، فصاروا بسبب ذلك أشداء على الكفار، رحماء بينهم.

«ويدخلهم» - سبحانه - يوم القيامة «جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها» خلودا أبديا. «رضى الله عنهم» بسبب طاعتهم له «ورضوا عنه» بسبب ثوابه لهم.

«أولئك» الموصوفون بذلك «حزب الله» الذى يشرف من ينتسب إليه.

«ألا أن حزب الله هم المفلحون» فلاحا ونجاحا ليس بعدهما فلاح أو نجاح.

وقد ذكروا روايات متعددة فى سبب نزول هذه الآية الكريمة، منها: أنها نزلت فى أبى عبيدة عامر بن الجراح، فقد قتل أباه - وكان كافرا - فى غزوة بدر ...

والآية الكريمة تصدق على أبى عبيدة وغيره ممن حاربوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم، عندما استحب هؤلاء الآباء والأبناء الكفر على الإيمان.

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة، وجوب عدم موالاة الكفار والفساق والمنافقين والمجاهرين بارتكاب المعاصى ... مهما بلغت درجة قرابتهم، ومهما كانت منزلتهم ...

ومن دعاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى يدا ولا نعمة ... »(١) .

وبعد فهذا تفسير لسورة « المجادلة » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

قطر - الدوحة مساء الجمعة	كتبه الراجى عفو ربه
غرة شعبان سنة ١٤٠٦ هـ	محمد سيد طنطاوى
١١/٤/١٩٨٦ م	عميد كلية الدراسات الإسلامية العربية

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٣٠ .

تفسير
سُورَةُ الحَشْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ ـ سورة « الحشر » من السور المدنية الخالصة ، وقد عرفت بهذا الاسم منذ العهد النبوى . وسماها ابن عباس بسورة « بنى النضير » ، فقد أخرج البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر . قال : « سورة بنى النضير » ، ولعل ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ سماها بهذا الاسم لحديثها المفصل عن غزوة بنى النضير .

٢ ـ وعدد آياتها أربع وعشرون آية ، وكان نزولها بعد سورة « البينة » وقبل سورة « النصر » ، أى : أنها تعتبر من أواخر مانزل على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سور قرآنية ، فهى السورة الثامنة والتسعون فى ترتيب النزول .

أما ترتيبها فى المصحف ، فهى السورة التاسعة والخمسون .

٣ ـ وقد افتتحت سورة « الحشر » بتنزيه الله ـ تعالى ـ عما لا يليق به ، ثم تحدثت عن غزوة بنى « النضير » ، فذكرت جانبا من نصره لعباده المؤمنين، ومن خذلانه لأولئك الضالين . . .

قال ـ تعالى ـ : « هو الذى أخرج الذين كفروا من ديارهم لأول الحشر، ماظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار . . .

٤ ـ ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن تقسيم أموال بنى النضير ، وعن حكمة الله ـ تعالى ـ فى إرشاده النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى هذا التقسيم ،

فقال - سبحانه - : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب ...

٥ - وبعد أن أثنت السورة الكريمة على المهاجرين لبلائهم وإخلاصهم وعفة نفوسهم ، كما أثنت على الأنصار لسخائهم ، وطهارة قلوبهم ... بعد كل ذلك أخذت السورة فى التعجيب من حال المنافقين ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد المؤمنين ، وذكرت جانبا من أقوالهم الكاذبة ، ووعودهم الخادعة ...

فقال - تعالى - : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون ...

٦ - ثم وجهت السورة فى أواخرها نداء إلى المؤمنين ، أمرتهم فيه بتقوى الله ، ونهتهم عن التشبه بالفاسقين عن أمر الله ، الذين تركوا ما أمرهم به - سبحانه - ، فكانت عاقبة أمرهم خسرا ...

وختمت بذكر جانب من أسماء الله - تعالى - وصفاته . قال - تعالى - : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

٧ - وبذلك نرى السورة الكريمة قد طوفت بنا مع بعض مغازى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومع التشريعات الحكيمة التى شرعها الله - تعالى - فى تقسيم الغنائم ، ومع صور زاهية كريمة من أخلاق المهاجرين

والأنصار، ومع صور قائمة كريهة من أخلاق المنافقين وإخوانهم من اليهود ...

ومع جانب من أسماء الله - تعالى - وصفاته، التي تليق به - عز وجل - .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

قطر - الدوحة
مساء الأحد ٢ من شعبان سنة ١٤٠٦ هـ
١٣ / ٤ / ١٩٨٦ م

د. محمد سيد طنطاوي
عميد كلية الدراسات الإسلامية والعربية

التفسير

قال الله تعالى : « سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فى السَّموات وما فى الأرضِ وَهُوَ العزيزُ الحكيم (١) هُوَ الذى أخرجَ الذينَ كفروا مِنْ أهْلِ الكتابِ من دِيارِهِمْ ، لأوّلِ الْحَشْرِ ، ما ظَنَنتمُ أنْ يَخرجُوا ، وَظَنُّوا أنّهُمْ مَانِعَتُهمْ حصُونُهم مِنَ اللهِ ، فأتاهم اللهُ مِنْ حَيثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ، وقَذَفَ فى قُلوبِهمُ الرُّعبُ ، يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بأيدِيهم وأيدِى المؤمنينَ ، فاعتَبِرُوا يا أُولِى الأبْصَارِ (٢) ولولاَ أنْ كتبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الجلاء لعذَّبَهُم فى الدُّنيا ، ولهم فى الآخرةِ عذابُ النَّارِ (٣) ذلكَ بأنّهُم شاقُّوا اللهَ وَرَسولَهُ ، ومن يُشَاقِّ اللهَ فإنَّ اللهَ شديدُ العِقَابِ (٤) ما قَطَعْتُم من لِينَةٍ أو تركتُموهَا قائمةً عَلَى أُصُولِها ، فَبِإذْنِ اللهِ ولِيُخْزِىَ الفَاسِقِينَ (٥) » .

افتتحت سورة « الحشر » بالثناء على الله - تعالى - ، وبتنزيهه عن كل مالا يليق بذاته الجليلة ، فقال - عز وجل - : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم » .

وأصل التسبيح لغة : الإبعاد عن السوء . وشرعا : تنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق بجلاله وكماله .

والذى يتدبر القرآن الكريم ، يجد أن الله - تعالى - قد ذكر فيه أن كل شىء فى هذا الكون يسبح بحمده - تعالى - ، كما فى قوله : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » ، كما ذكر - سبحانه - أن الملائكة تسبح له ، كما فى قوله : « ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ... » .

وكذلك الرعد، كما فى قوله: «ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ....».

وكذلك الجبال والطير قال - تعالى -: «إنا سخرن الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ....».

وقد سبق أن ذكرنا خلال تفسيرنا لقوله - تعالى -: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم ...» أن الرأى الذى تطمئن إليه النفس، أن التسبيح حقيق، ولكن بلغة لايعلمها إلا الله - تعالى -[1].

والمعنى: سبح لله - تعالى - ونزهه عن كل مالايليق به، جميع مافى السموات وجميع مافى الأرض من كائنات ومخلوقات، وهو - عز وجل - «العزيز» الذى لايغلبه غالب، «الحكيم» فى كل أقواله وأفعاله.

وقد افتتحت بعض السور - كسورة الحديد والحشر والصف، بالفعل الماضى، لإفادة الثبوت والتأكيد، وأن التسبيح قد تم فعلا.

وافتتحت بعض السور - كسورة الجمعة والتغابن - بالفعل المضارع «يسبح»، لإفادة تجدد هذا التسبيح فى كل وقت، وحدوثه فى كل لحظة.

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على المؤمنين حيث نصرهم على أعدائهم، فقال: «هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ....».

والمراد بالذين كفروا من أهل الكتاب هنا: يهود بنى النضير، وقصتهم معروفة فى كتب السنة والسيرة، وملخصها: أن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون فى ضواحى المدينة، فذهب إليهم النبى - صلى الله عليه وسلم - ليستعين بهم فى دفع دية لقتيلين قتلهما بعض المسلمين خطأ، فاستقبلوه استقبالا حسنا،

---

(١) راجع تفسيرنا لسورة الإسراء ص ١١٦.

وأظهروا له - صلى الله عليه وسلم - إستعدادهم المساعدة فيما يطلبه منهم .
ثم خلا بعضكم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ، فمن منكم يصعد إلى أعلى هذا البيت الذى يجلس تحته محمد - صلى الله عليه وسلم - فيلقى عليه حجراً فيريحنا منه .

فتعهد واحد منهم بذلك ، وقبل أن يتم فعله ، نزل جبريل - عليه السلام - على النبى - صلى الله عليه وسلم - فأخبره بما أضمره اليهود من غدر وخيانة فرجع - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، وأخبر أصحابه بما أضمره له يهود بنى النضير ، ونزل قوله - تعالى - : « يا أيها الذين آمنوا أذكروا نعمة الله عليكم، إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم، فكف أيديهم عنكم واتقوا الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١) »

ثم أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أصحابه أن يستعدوا لحصار بنى النضير ، وتأديبهم على غدرهم . . . فحاصرهم المؤمنون بضعا وعشرين ليلة ، وانتهى الأمر بإجلائهم عن المدينة ، فمنهم من ذهب إلى خيبر ، ومنهم من ذهب إلى غيرها .

واللام فى قوله - تعالى - « لأول الحشر » متعلقة بأخرج والحشر: الجمع. يقال حشر القائد جنده إذا جمعهم ، ومنه قوله - تعالى - : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون »

أى : هو - سبحانه - الذى أخرج - بقدرته - الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم وهم يهود بنى النضير ، عند مبدأ الحشر المقدر لهم فى علمه، بأن مكنكم - أيها المؤمنون - من محاصرتهم وجمعهم فى مكان واحد ، ثم طردهم من المدينة المنورة إلى أماكن أخرى ، بسبب غدرهم وسوء صنيعهم .

قال صاحب الكشاف : اللام فى قوله : « لأول الحشر » تتعلق بأخرج ،

(١) سورة المائدة . الآية ١١

وهي مثل اللام في قوله : « يا ليتني قدمت لحياتي » وفي قـولك : « جئته لوقت كذا » .

والمعنى : أخرج الذين كفروا عند أول الحشر . ومعنى أول الحشر : أن هذا أول حشرهم إلى الشام ، وكانوا من سبط لم يصبهم جلاء قط . . . أو المعنى : هذا أول حشرهم ، وآخر حشرهم : إجلاء عمر - رضي الله عنه - لهم من خيبر إلى الشام .

وقيل معناه : أخرجهم من ديارهم لأول ما حشر لقتالهم ؛ لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم . . »[1]

وقصر - سبحانه - إخراجهم عليه فقال : « هو الذي أخرج الذين كفروا » مع أن المسلمين قد إشتركوا في إخراجهم عن طريق محاصرتهم . للإشعار بأن السبب الحقيقي في إخراجهم من ديارهم ، هو ما قذفه الله - تعالى - في قلوبهم من الرعب . . . ، أما محاصرة المؤمنين لهم فهي أسباب فرعية ، قد تؤدي إلى إخراجهم ، وقد لا تؤدي ، وللإشعار - أيضا - بأن كل شيء إنما هو بقضاء الله وقدره .

ووصفهم - سبحانه - بالكفر وبأنهم من أهل الكتاب ، للتشنيع عليهم وزيادة مذمتهم ، حيث إنهم جمعـوا بين رذيلتين : رذيلة الكفر بالحق ، ورذيلة عدم العمل بكتابهم الذي أمرهم بإتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، والذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

و « من » في قوله - تعالى - « من أهل الكتاب » للبيان ، حتى لا يظن بأن المراد بالذين كفروا هنا ، مشركو قريش ، وإن كان الجميع يشتركون في الكفر والفسوق والعصيان .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٧٩

وقوله - تعالى - : « ماظننتم أن يخرجوا . . . » تذكير للمؤمنين بنعم الله - تعالى - عليهم .

أي ما ظننتم - أيها المؤمنين - أن يهود بني النضير سيخرجون من ديارهم بتلك السهولة ، وذلك لتملكهم لألوان من القوة ، كقوة السلاح ، وكثرة العدد ، ووجود من يحميهم ممن يسكنون معكم في المدينة ، وهم حلفاؤهم من بني قومهم ، كبني قريظة وغيرهم ، ومن غير بني قومهم كالمنافقين الذين وعدوهم ومنوهم

وقوله : « وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من عند الله » معطوف على ماقبله

أي : أنتم - أيها المؤمنون - ظننتم أن اليهود لن يخرجوا من ديارهم لما معهم من قوة ، وهم - أيضاً - ظنوا أن حصونهم ستمنع بأس الله عنهم . وأنها ستحول بينهم وبين خروجهم منها ، ونصركم عليهم

وقوله - سبحانه - : « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب . » متفرع على الظن السابق ، الذي ظنه المؤمنون ، والذي ظنه أعداؤهم وهم بنو النضير

أي : أنتم ظننتم أنهم لن يخرجوا من ديارهم ، وهم ظنوا - أيضاً - أن حصونهم ستمنعهم من نصركم عليهم ، فكانت النتيجة أن أتاهم بأس الله وعقابه من حيث لم يحتسبوا ، ومن حيث لم يخطر لهم ببال ، بأن قذف في قلوبهم الرعب والفزع ، فخرجوا من حصونهم التي تمنعوا بها ، ومن ديارهم التي سكنوها زمناً طويلاً صاغرين أذلاء .

والتعبير بقوله : « من حيث لم يحتسبوا » إشارة إلى أن ما نزل بهم من هزيمة ، لم يكونوا يتوقعونها أصلاً ، إذ الإحتساب مبالغة في الحسبان ، أي : أتاهم عقاب الله - تعالى - لهم من المكان الذي كانوا يعتقدون أمانهم فيه ، وفي زمان لم يكونوا أصلاً يتوقعون حلول هزيمتهم عنده .

وعبر ـ سبحانه ـ بالقذف ، لأنه كناية عن الرمى بقوة وعنف وسرعة . والرعب : شدة الخوف والفزع ، وأصله : الامتلاء . تقول رعبت الحوض إذا ملأته .

أى : وقذف ـ سبحانه ـ فى قلوبهم الرعب الذى ملأها بالجزع والفزع، فاستسلموا بسبب ذلك لما حكم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما حدث منهم خلال جلائهم فقال : يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، والتخريب : إسقاط البناء وهدمه أو إفساده ،

أى : أن هؤلاء اليهود ، بلغ من سوء نيتهم ، ومن اضطراب أمرهم، أنهم عندما أجمعوا أمرهم على الرحيل عن المدينة ، أخذوا يخربون بيوتهم بأيديهم ، عن طريق إسقاط بنائها ، وهدم السليم منها ، وإزالة ما اشتملت عليه من أبواب وغيرها ... حتى لا ينتفع المسلمون بها من بعدهم ..

وأخذوا يخربونها ـ أيضا ـ بأيدى المؤمنين، أى: بسبب أن المؤمنين كانوا يزيلون من طريقهم كل عقبة حتى يقتحموا عليهم ديارهم ، فترتب على ذلك أن هدموا بعض بيوت بنى النضير من الخارج ؛ ليستطيعوا التمكن منهم .

قال صاحب الكشاف : ما معنى تخريبهم لها بأيدى المؤمنين ؟ قلت : لما عرضوهم لذلك ، وكانوا السبب فيه ، فكأنهم أمروهم به ، وكلفوهم إياه »(1) .

أى : أن يهود بنى النضير بسبب تحصنهم فى ديارهم ، ومحاولتهم عدم النزول على حكم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حملوا المؤمنين على تخريب هذه الحصون من الخارج ، ليدخلوها عليهم ...

والخطاب فى قوله ـ تعالى ـ : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » لكل من يصلح له .

(1) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨١

قال الجمل فى حاشيته : والاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شىء إلى شىء ، ولهذا سميت العبرة عبرة ، لأنها تنتقل من العين إلى الخد . وسمى علم التعبير بذلك ، لأن صاحبه ينتقل من المتخيل إلى المعقول ، وسميت الألفاظ عبارات . لأنها تنقل المعانى من لسان القائل إلى عقل المستمع ، ويقال : السعيد من اعتبر بغيره ، لأنه ينتقل بواسطة عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه . . .

ولهذا قال القشيرى : الاعتبار هو النظر فى حقائق الأشياء ، وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شىء آخر »(١) .

أى : إذا كان الأمر كما بينا لكم - أيها الناس - ، فاعتبروا واتعظوا يا أصحاب العقول السليمة ، والعيون الناظرة ، بما جرى لهؤلاء اليهود ، حيث دبر الله - تعالى - أمر إخراجهم من ديارهم تدبيراً حكيما ، ونصر المؤمنين عليهم بأيسر طريق ، وجعل ديارهم من بعدهم ، خير عبرة وعظة لكل ذى بصر ، فقد خلفوها من بعدهم شاهد صدق على أن الغدر نهايته الخسران ... وعلى أن النصر إنما هو لمن اتبع الصدق والوفاء بالعهد . .

قال الآلوسى : واشتهر الاستدلال بهذه الجملة ، على مشروعية العمل بالقياس الشرعى ، قالوا : لأنه - تعالى - أمر فيها بالاعتبار ، وهو العبور والانتقال من الشىء إلى غيره ، وذلك متحقق فى القياس ؛ إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع ... »(٢) .

ثم بين - سبحانه - جانبا من حكمته فى إخراجهم فقال : « ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء ، لعذبهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار » .

ولفظ « لولا » هنا حرف امتناع لوجود - أى : امتنع وجود جوابها

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣١١

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤١

لوجود شرطها - و« أن » مصدرية ، وهى مع ما فى حيزها فى محل رفع على الابتداء ، لأن لولا الامتناعية لا يليها إلا المبتدأ ، والخبر محذوف .

والجلاء : الإخراج . يقال : جلا فلان عن مكان كذا . إذا خرج منه ، وأجلاه عنه غيره ، إذا أخرجه عنه .

قال القرطبى : والجلاء مفارقة الوطن ، يقال : جلا بنفسه جلاء ، وأجلاه غيره إجلاء .

والفرق بين الجلاء والإخراج - وإن كان معناهما فى الإبعاد واحدا - من وجهين :

أحدهما : أن الجلاء ما كان مع الأهل والولد ، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد .

الثانى : أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة ، والإخراج يكون لواحد ولجماعة ... (١) .

أى : ولولا أن الله - تعالى - قد قدر على هؤلاء اليهود ، الجلاء عن ديارهم ، لولا أن ذلك موجود ، لعذبهم فى الدنيا عذابا شديداً ، استأصل معه شأفتهم .

ولكن الله - تعالى - كتب عليهم الجلاء دون القتل والإهلاك ، لمصلحة اقتضتها حكمته ، لعل من مظاهرها أن يغنم المسلمون ديارهم وأموالهم ، دون أن تراق دماء من الفريقين . ودون أن يعرض المؤمنون أنفسهم لمخاطر القتال .

وجملة : ولهم فى الآخرة عذاب النار ، مستأنفة . أى : أن هؤلاء اليهود إن نجوا من القتل والإهلاك فى الدنيا ، فلن ينجو فى الآخرة من العذاب الذى يذلهم ويهينهم ، بل سيحل بهم عذاب مقيم ، لا فكاك لهم منه .

واسم الإشارة فى قوله - تعالى - « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله » يعود إلى ما نزل وما سينزل بهم من عذاب .

وقوله : - تعالى - : « شاقوا » من المشاقة بمعنى المعاداة والمخاصمة ، حتى

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٦

لكان كل واحد من المتخاصمين فى شق ومكان يخالف شق صاحبه ومكانه ....

أى : ذلك الذى حل بهم فى الدنيا من عقاب ، والذى سيحل بهم فى الآخرة من عذاب، سببه أن هؤلاء الذين كفروا من أهل الكتاب ، عادوا الله - تعالى - وخالفوا دعوة رسوله - صلى الله عليه وسلم - .

« ومن يشاق الله » بأن يخالف ما أمر به ، أو نهى عنه ، يعذبه الله - تعالى - ويخذله ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب .

وجملة « فإن الله شديد العقاب » قائمة مقام جواب الشرط ، أى : ومن يخالف أمر الله - تعالى - عذبه ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب ، لمن أعرض عن طاعته وذكره .

ثم ساق - سبحانه - لمايغرس الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، الذين اشتركوا فى تخريب ديار بنى النضير ، وفى قطع نخيلهم ، فقال - تعالى - : « ماقطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ، فبإذن الله وليخزى الفاسقين » .

و « ما » شرطية فى موضع نصب ، بقوله : « قطعتم » وقوله : « ومن لينة » بيان لها .

وقوله : « فبإذن الله » جزاء الشرط . واللام فى قوله - تعالى - : « وليخزى الفاسقين » متعلقة بمحذوف .

واللينة واحدة اللين ، وهو النخل كله ، أو كرام النخل فقط .

- قال الآلوسى ما ملخصه : اللينة هى النخلة مطلقا .. وهى فعلة من اللون ، وياؤها مقلوبة عن واو لكسر ماقبلها - فأصل لينة : لونة - ...

وقيل : اللينة : النخلة مطلقا .. وقيل : هى النخلة القصيرة ، وقيل : الكريمة من النخل ... ويمكن أن يقال : أراد باللينة النخلة الكريمة »(1) .

(1) راجع تفسير الآلوسى حـ ٢٨ ص ٤٣

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية روايات منها : أن المسلمين عندما أخذوا فى تقطيع نخيل اليهود ، قال اليهود للنبى - صلى الله عليه وسلم - : يامحمد إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع النخيل ؟ فأنزل الله هذه الآية .

وقيل : إن المسلمين بعد أن قطعوا بعض النخيل ، ظنوا أنهم قد أخطأوا فى ذلك ، فقالوا : لنسألن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فنزلت هذه الآية .

وقيل : إن المسلمين نهى بعضهم بعضا عن قطع النخيل ، وقالوا إنما هى مغانم المسلمين ، فنزلت هذه الآية لتصديق من نهى عن القطع ، وتحليل من قطع من الإثم .

والمعنى : لا تختلفوا - أيها المؤمنون - فى شأن مافعلتموه بنخيل بنى النضير ، فإن الذى قطع شيئا من هذه النخيل لا إثم عليه ، والذى لم يقطع لا إثم عليه - أيضا - ، لأن كلا الأمرين بإذن الله - تعالى - ورضاه ، وفى كليهما مصلحة لكم .

لأن من قطع يكون قد فعل مايغيظ العدو ويذله ، ويحمله على الاستسلام والخضوع لأمركم ...

ومن ترك يكون قد فعل مايعود بالخير عليكم ، لأن تلك النخيل الباقية ، منفعتها ستئول إليكم ...

وقد شرع - سبحانه - لكم كلا الأمرين فى هذا المقام وليخزى الفاسقين ، عن أمره ، وهم يهود بنى النضير ، ومن ناصرهم ، وأيدهم ، وسار على طريقتهم فى الخيانة والغدر .

فالآية الكريمة المقصود بها : إدخال المسرة والبهجة فى قلوب المؤمنين ، حتى لايتأثروا بما حدث منهم بالنسبة لنخيل بنى النضير ، وحتى يتركوا الخلاف فى شأن هذه المسألة ، بعد أن صدر حكم الله - تعالى - فيها ، وهو

أن القطع والترك بإذنه ورضاه ، لأن كلا الأمرين يغرس الحسرة فى قلوب الأعداء ...

وعبر - سبحانه - باللينة عن النخلة ، لأن لفظ « لينه » أخف لفظا ، وأدخل فى كونها نخلة من كرام النخل .

وقال - سبحانه - : « أو تركتموها قائمة على أصولها » ، لتصوير هيئتها وحسنها وأن فروعها قد بقيت قائمة على أصولها، التى هى جذورها وجذوعها.

قال الآلوسى : وقوله : «وليخزى الفاسقين» متعلق بمقدر على أنه علة له، وذلك المقدر عطف على مقدر آخر . أى: ليعز المؤمنين ، وليخزى الفاسقين. أى : ليذلهم ...

والمراد بالفاسقين : أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب . ووضع الظاهر موضع المضمر ، إشعارا بعلة الحكم - أى أن فسقهم هو السبب فى إخزائهم ... »[1] .

هذا ، ومن الأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآية : أن تخريب ديار العدو ، وقطع الأشجار التى يملكها ، وهدم حصونه ومعسكراته ... جائز مادام فى ذلك مصلحة تعود على المسلمين ، ومادامت هناك حرب بينهم وبين أعدائهم .

* * *

ثم بين - سبحانه - حكم الفىء الذى أفاءه على المسلمين فى غزوة بنى النضير وفيما يشبهها من غزوات ، وأمر المؤمنين بأن يطيعوا رسوله - صلى الله عليه وسلم - فى أمره ونهيه ، وأثنى - سبحانه - على المهاجرين والأنصار لقوة إيمانهم ، ولنقاء قلوبهم ، وسخاء نفوسهم ... فقال - تعالى - :

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤٣ .

« وما أفاء اللهُ على رسُولِه منهُم فما أوجفْتُم عليهِ منْ خيلٍ ولا ركابٍ ولـكنَّ اللهَ يسلِّطُ رسُلهُ عَلَى من يشاءُ واللهُ عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ (٦) ما أفاء اللهُ عَلَى رسُولهِ منْ أهلِ القُرى ، فَللهِ وللرَّسولِ ولذِي القُربى واليتامَى والمساكينِ وابنِ السَّبيلِ ، كيْ لا يكونَ دولةً بينَ الأغنياءِ منكُم ، وما آتاكُم الرسُولُ فَخذُوه ، وما نَهاكُم عنه فانتَهوا ، واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شديدُ العقابِ (٧) للفقراءِ المهاجرينَ الذينَ أُخرِجُوا منْ ديارِهمْ وأموالِهم ، يبتغونَ فَضلاً من اللهِ ورضواناً ، وينصرُونَ اللهَ ورسُولهُ ، أولئكَ هم الصَّادقُونَ (٨) والذينَ تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ منْ قبلِهم ، يُحبُّونَ من هاجرَ إليهم ، ولا يجدُونَ فى صُدورِهم حاجةً مِمَّا أُوتُوا ، ويؤثِرُونَ عَلَى أنفُسِهم ولو كانَ بِهمْ خصاصةٌ ، ومنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فأولئكَ هم المُفلحونَ (٩) والذينَ جاءُوا من بعدِهم يَقولُونَ ربَّنا اغفرْ لنا ولإخوانِنا الذينَ سبقُونا بالإيمانِ ، ولا تجعلْ فى قلُوبنا غِلا للذينَ آمنُوا ، ربَّنا إنَّكَ رءوفٌ رَحِيمٌ (١٠) » .

وقوله : « وما أفاء الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ... » معطوف على قوله ـ تعالى ـ : « ما قطعتم من لينة ... » لبيان نعمة أخرى من النعم التى أنعم بها ـ سبحانه ـ على المؤمنين ، فى غزوة بنى النضير .

و « أفاء » من الفىء بمعنى الرجوع . يقال : فاء عليه ، إذا رجع . ومنه قوله ـ تعالى ـ فى شأن الإيلاء : « فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » .

والمراد به هنا معناه الشرعى : وهو ما حصل عليه المؤمنون من أموال

أعدائهم بدون قتال ، كأن يكون هذا المال عن طريق الصلح ، كما فعل بنو النضير ، فقد صالحوا المؤمنين على الخروج من المدينة ، على أن يكون لكل ثلاثة منهم حمل بعير - سوى السلاح - وأن يتركوا بقية أموالهم للمسلمين . . .

والضمير فى قوله « منهم » يعود إلى بنى النضير ، الذين عبر - سبحانه - عنهم بقوله : « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب . . . » .

وقوله : « فما أوجفتم . . . » من الإيجاف بمعنى الإسراع فى السير ، يقال : وجف الفرس يجف وجفا ووجيفا ، إذا أسرع فى سيره . والجملة خبر « ما » الموصولة فى قوله : « وما أفاء . . . » و « ما » فى قوله « فما أوجفتم » نافية .

والركاب : اسم جمع الإبل التى تركب ، وفى الكلام حذف أغنى عنه قوله - سبحانه - « فما أوجفتم . . . » .

والمعنى : اعلموا - أيها المؤمنون - أن ما أعطاه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - من أموال بنى النضير التى صالحوه عليها ، فلا حق لكم فيها ، لأنكم لم تنالوها بقتالكم لهم على الخيل أو الإبل ، وإنما تفضل بها - سبحانه - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - بلا قتال يذكر ، فقد كانت ديار بنى النضير على بعد ميلين من المدينة ، فذهب إليها المسلمون راجلين ، وحاصروها حتى تم استسلام بنى النضير لهم . . .

قال الآلوسى : روى ان بنى النضير لما أجلُوا عن أوطانهم ، وتركوا رباعهم وأموالهم ، طلب المسلمون تخميسها كغنائم بدر ، فأنزل الله - تعالى - : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب . . . » فكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة .

فقد أخرج البخارى ومسلم وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وغيرهم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : كانت أموال بنى النضير ، مما

أفاء الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، وكانت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل مابقى فى السلاح والكراع عدة فى سبيل الله - تعالى -

وقال الضحاك: كانت أموال بنى النضير لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة، فآثر بها المهاجرين، وقسمها عليهم، ولم يعط الأنصار منها شيئا. إلا ثلاثة منهم أعطاهم لفقرهم ...»(1).

وقوله - سبحانه -: «ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ...» استدراك على النفى فى قوله - تعالى -: «فما أوجفتم عليه ...».

أى: ليس لكم الحق - أيها المؤمنون - فى أموال بنى النضير، لأنكم لم تظفروا بها عن طريق قتال منكم لهم، ولكن الله - تعالى - سلط رسوله - صلى الله عليه وسلم - عليهم وعلى مافى أيديهم، كما كان يسلط رسله على من يشاء من أعدائهم، والله - تعالى - قدير على كل شىء ...

ومادام الأمر كذلك، فاتركوا رسولكم - صلى الله عليه وسلم - يتصرف فى أموال بنى النضير بالطريقة التى يريدها ويختارها، بإلهام من الله - عز وجل - .

وقوله - تعالى -: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذى القربى ...» يرى كثير من العلماء أنه وارد على سبيل الاستئناف الابتدائى، وأنه سيق لبيان حكم شرعى جديد، يختلف عن الحكم الذى أوردته الآية السابقة على هذه الآية ..

---

(1) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٤٥.

إذ أن الآية السابقة ، واردة فى حكم أموال بنى النضير بصفة خاصة ، وهذه فى حكم الفيء بعد ذلك بصفة عامة .

وعليه يكون المعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - حكم أموال بنى النضير ، وهى أنها لرسولنا - صلى الله عليه وسلم - يضعها حيث يشاء .

أما ما أفاءه الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أموال أهل القرى الأخرى ، كقريظة وفدك وغيرها فحكم هذا الفيء أنه يقسم إلى خمسة أقسام .

قسم للرسول - صلى الله عليه وسلم - ينفق منه على نفسه وأهله ، وما تبقى منه يكون فى مصالح المسلمين .

وقسم لأقاربه - صلى الله عليه وسلم - وهم : بنو هاشم وبنو المطلب ..

وقسم لليتامى : وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم عنهم قبل أن يبلغوا .

وقسم للمساكين وهم الذين ليس لهم مال يكفيهم ضروريات الحياة .

وقسم لأبناء السبيل ، وهم ، المسافرون المنقطعون عن مالهم فى سفرهم ، ولو كانوا أغنياء فى بلدهم ...

وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأى ، فقال - بعد استعراضه للأقوال - : والصواب من القول فى ذلك عندى أن هذه الآية حكمها غير حكم الآية التى قبلها وذلك أن الآية التى قبلها ، مال جعله الله - عز وجل - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - خاصة دون غيره . لم يجعل فيه لأحد نصيبا ..

فإذا كانت هذه الآية التى قبلها مضت ، وذكر المال الذى خص الله به رسوله - صلى الله عليه وسلم - ، ولم يجعل لأحد منه شيئا ، وكانت هذه الآية خبرا عن المال الذى جعله الله لأصناف شتى ، كان معلوما بذلك أن المال الذى

جعله لأصناف من خلقه ، غير المال الذي جعله للنبي - صلى الله عليه وسلم - »[١] .

وقال الآلوسي عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : قوله - تعالى - : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى . . » بيان لحكم ما أفاءه الله على رسوله من قرى الكفار على العموم ، بعد بيان حكم ما أفاءه من بني النضير ...

فالجملة جواب سؤال مقدر ناشىء مما فهم من الكلام السابق ، فكأن قائلا يقول : قد علمنا حكم ما أفاء الله - تعالى - من بني النضير ، فما حكم ما أفاءه - عز وجل - من غيرهم ؟

فقيل : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى » . ولذا لم يعطف على ما تقدم ، ولم يذكر في الآية فيه الإيجاف ولا عدمه ...

وسهمه - سبحانه - وسهم رسوله واحد . وذكره - تعالى - : افتتاح كلام للتيمن والتبرك . فإن الله له ما في السموات وما في الأرض ، وفيه تعظيم لشأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وأهل القرى المذكورون في الآية ، هم : أهل الصفراء ، وينبع ، ووادي القرى ، وما هنالك من قرى العرب ، التي تسمى قرى عرينة ، وحكمها مخالف لحكم أموال بني النضير »[٢] .

ومن العلماء من يرى أن الآية التي معنا ، بمنزلة البيان والتفسير للآية التي قبلها ، لأن الآية الأولى لم تبين المستحقين للفيء الذي أفاءه الله - تعالى - على رسوله من أموال بني النضير ، فجاءت الآية الثانية وبينت المستحقين له .

وعلى رأس المفسرين الذين قالوا بهذا الرأي صاحب الكشاف ، فقد

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٥ ص ٢٨
(٢) راجع تفسير الآلوسي جـ ٢٨ ص ٤٥

قال عند تفسيره لهذه الآية : لم يدخل ـ سبحانه ـ العاطف على هـــذه الجملة ـ وهي قوله : ما أفاء ... ـ لأنها بيان للأولى ، فهي منها غير أجنبية عنها . بين لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يصنع بما أفاءه الله عليه ، وأمره أن يضعه حيث الخمس من الغنائم ، مقسوما على الأقسام الخمسة »(١) .

وقال الإمام ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » أي جميع البلدان التي تفتح هكذا ، فحكمها حكم أموال بني النضير ، ولهذا قال : فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه ... »(٢) .

ومن هذا نرى أن أصحاب الرأي الأول ، يقولون إن الآيتين في حكمين مختلفين ، لأن الآية الأولى في بيان حكم أموال بني النضير ، وأن الله ـ تعالى ـ قد جعلها للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضعها حيث يشاء ، وأما الآية الثانية فهي في حكم أموال القرى الأخرى، التي أفاءها الله ـ تعالى ـ على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وأن الله ـ تعالى ـ قد حدد له وجوه صرفها ، فقال : « فلله وللرسول ولذي القربى » .

وأما أصحاب الرأي الثاني فيرون أن الآية الثانية مفصلة لما أجملته الآية الأولى ، وأن كل فيء يقسم بالطريقة التي بينتها الآية الثانية .

ويبدو لنا أن الرأي الأول أقرب إلى الصواب ، لأن الثابت في السنة الصحيحة ، أن أموال بني النضير ، لم يخمسها ـ صلى الله عليه وسلم . بل كانت له خاصة ، يوزعها كما يشاء ، وقد آثر بها المهاجرين ، وقسمها عليهم: ولم يعط الأنصار منها شيئا سوى ثلاثة رجال منهم ، كانت بهم حاجة فأعطاهم ، وبذلك

---

(١) راجع تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٨٢

(٢) تفسير ابن كثير حـ ٤ ص ٣٣٥

نرى أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يتقيد فى التوزيع لهذه الأموال ، بمن ورد ذكرهم فى الآية الثانيه .

وما دام الأمر كذلك ، فلا حاجة إلى القول بأن الآيه الثانية ، بيان وتفصيل الآية الأولى .

هذا ، وهناك أقوال أخرى فى معنى هذه الآية ، مبسوطة فى كتب الفقه والتفسير ، فليرجع إليها من شاء المزيد من الأحكام الفقهية [1]

وقوله - سبحانه - : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ... » بيان لحكمة هذا التشريع الذى شرعه - سبحانه - بالنسبة للأموال التى أتت عن طريق الفيء .... والضمير المستتر فى قوله : « يكون » للفيء .

و « الدولة » بضم الدال المشددة - إسم لما يتداوله الناس فيما بينهم من أموال ، فيكون فى يد هذا تارة ، وفى يد ذاك تارة أخرى .

و « الدوله » بفتح الدال المشددة - إسم للنوبة من الظفر والنصر فى الحرب وغيرها .

يقال لفلان على فلان دوله ، أى : غلبة ونصر .

وبعضهم يرى أن الدولة - بالضم والفتح - بمعنى واحد ، وهو مايدور ويدول للانسان من الغنى والنصر .

والمعنى : شرعنا لكم هذه الأحكام المتعلقة بتقسيم الفيء ، كى لايكون المال الناجم عنه ، متداولا بين أيدى أغنيائكم دون فقرائكم .

والمقصود بهذه الجمله الكريمة ، إبطال ما كان شائعاً فى الجاهلية ، من

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٢

إستئثار قواد الجيوش ، ورؤساء القبائل ، بالكثير من الغنائم دون غيرهم ممن إشترك معهم فى الحروب ، كما قال أحد الشعراء ، لأحد الرؤساء أو القادة :

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

أى : لك - أيها القائد وحدك من الغنيمة ربعها ، والصفايا أى : والنفيس منها ، ولك - أيضا - ما تحكم به على العدو ، ولك النشيطة ، وهى ما يصيبه الجيش من العدو قبل الحرب ، ولك - كذلك - الفضول ، أى : ما يبقى بعد قسمة الغنائم .

وقد أبطل الإسلام كل ذلك ، حيث جعل مصارف الفيء ، تعود إلى المسلمين جميعا ، بطريقة عادلة ، بينها - سبحانه - فى هذه الآية وفى غيرها .

قال بعض العلماء : والجدير بالذكر هنا : أن دعاة بعض المذاهب الاقتصادية الفاسدة ، يحتجون بهذه الآية على مذهبهم الفاسد ، ويقولون : يجوز للدولة أن تستولى على مصادر الإنتاج ورءوس الأموال ، لتعطيها أو تشرك فيها الفقراء ، وما يسمونهم طبقة العمال ، وهذا على ما فيه من كساد إقتصادى ، وفساد إجتماعى ، قد ثبت خطؤه وظهر بطلانه بجانب حقيقة الاستدلال .

لأن هذا المال ترك لمرافق المسلمين العامة ، من الإنفاق على المجاهدين ، وتأمين الغزاة فى الحدود والثغور ، وليس يعطى الأفراد كما يقولون ، ثم - هو أساسا - مال جاء غنيمة للمسلمين ، وليس نتيجة كدح الفرد وكسبه الحلال

ولما كان مال الغنيمة ليس ملكا لشخص ، ولا هو - أيضا - كسب لشخص معين ، تحقق فيه العموم فى مصدره ، وهو الغنيمة ، والعموم فى مصرفه وهو عموم مصالح الأمة ، ولا دخل ولا وجود للفرد فيه ، فشتان بين هذا الأصل فى التشريع ، وهذا الفرع فى التضليل ... (١)

ثم أمر - سبحانه - المسلمين ، أن يمتثلوا أمر رسولهم - صلى الله عليه

---

(١) راجع تفسير أضواء البيان جـ ٨ ص ٤٥ للشيخ الشنقيطى - رحمه الله - .

وسلم - إمتثالا تاما ، فقال: «وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب» .

وقوله : «آتاكم» ، من الإتيان ،والمقصود به هنا ما جاءهم به الرسول -صلى الله عليه وسلم - من هدايات ،وتشريعات ، وآداب .. ويدخل فى ذلك دخولا أوليا قسمته لفىء بنى النضير بين المهاجرين ، دون الأنصار .

أى : ما أمركم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بفعله - أيها المؤمنون - فافعلوه ، وما نهاكم عن فعله فاجتنبوه ، واتقوا الله فى كل أحوالكم ، فإنه - سبحانه - شديد العقاب لمن خالف أمره . ومنهم من جعل «آتاكم» هنا بمعنى أعطاكم من الفىء ، وجعل «نهاكم» بمعنى نهاكم عن الأخذ منه ، وكأن صاحب هذا الرأى يستعين على ما ذهب إليه بفحوى المقام .

قال صاحب الكشاف : قوله «وما آتاكم الرسول» من قسمة غنيمة أو فىء «فخذوه» ، «وما نهاكم عنه» أى : عن أخذه منها «فانتهوا» عنه .

والأجود أن يكون - الأمر والنهى - عاما فى كل «ما آتى» رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونهى عنه ، وأمر الفىء داخل فى عمومه »[1]

وقال الامام ابن كثير : وقوله - تعالى - : «وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا» .

أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير ، وينهى عن شر ...

أخرج الشيخان عن ابن مسعود أنه قال :لعن الله الواشمات،والمستوشمات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن ، والمغيرات لخلق الله - عز وجل - . فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب ، وكانت تقرأ القرآن ، فأتته فقالت : بلغنى أنك قلت كذا وكذا ، فقال : وما لى لا ألعن من لعن رسول الله - صلى الله صلى الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فى كتاب الله .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٢

فقالت : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه ، أما قرأت : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ؟ قالت بلى .

قال : فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عنه . قالت : إنى لأظن أهلك يفعلونه !!

قال : اذهبى فانظرى، فذهبت فلم تر من حاجتها شيئا . فجاءت، فقالت : ما رأيت شيئا . قال : لو كان كذا لم تجامعنا »(١)

وقال بعض العلماء : وفى الآية دليل على وجوب الأخذ بالسنن الصحيحة فى كل الأمور .

وعن أبى رافع أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمر مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى !! ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

وهذا الحديث من أعلام النبوة ، فقد وقع ذلك بعد من الجاهلين بكتاب الله ، وبمنصب الرسالة ، ومن الزنادقة الصادين عن سبيل الله »(٢)

ثم أثنى ـ سبحانه ـ على المهاجرين الذين فارقوا أموالهم وعشيرتهم ، من أجل إعلاء كلمته ـ تعالى ـ فقال : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » .

قال الإمام الرازى : أعلم أن هذا بدل من قوله ـ تعالى ـ : « ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . . » كأنه قيل : أعنى بأولئك الأربعة ، هؤلاء الفقراء والمهاجرين الذين من صفتهم كذا وكذا .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٣٦

(٢) تفسير « صفوة البيان » ج ٢ ص ٤١٦ لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف

ثم إنه ـ تعالى ـ وصفهم بأمور أولها : أنهم فقراء ، ثانيها : أنهم مهاجرون وثالثها : أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم . يعنى أن الكفار أجبروهم على الخروج .. ورابعها : أنهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا . والمراد بالفضل ثواب الجنة ، وبالرضوان : قوله : « ورضوان من الله أكبر » .

وخامسها : قوله : « وينصرون الله ورسوله » أى : بأنفسهم وأموالهم . وسادسها : قوله : « أولئك هم الصادقون » يعنى أنهم لما هجروا لذات الدنيا ، وتحملوا شدائدها لأجل الدين ، ظهر صدقهم فى دينهم ... (١)

فأنت ترى أن الله ـ تعالى ـ قد وصف المهاجرين فى سبيله ، بجملة من المناقب الحميدة ، والتى إستحقوا بسببها الفلاح والفوز برضوان الله.

ثم مدح ـ سبحانه ـ بعد ذلك الأنصار ، الذين يحبون من هاجر إليهم فقال : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم ، يحبون من هاجر إليهم : »

والجملة الكريمة معطوفة على « المهاجرين » أو مبتدأ وخبره : « يحبون » والتبوؤ : النزول فى المكان ، ومنه المباءة للمنزل الذى ينزل فيه الإنسان .

والمراد بالدار : المدينة المنورة . وأل للعهد . أى : الدار المعهودة المعروفة وهى دار الهجرة .

وقوله : « الإيمان » منصوب بفعل مقدر . أى : وأخلصوا الايمان .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى عطف الايمان على الدار ، ولا يقال : تبوؤ الايمان ؟ .

قلت معناه : تبوؤ الدار وأخلصوا الايمان ، كقوله : علفتها تبنا وماء بارداً . . . .

أى : وجعلوا الايمان مستقرا ومتوطنا لهم ، لتمكنهم منه ، واستقامتهم عليه ، كما جعلوا المدينة كذلك .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٩ ص ٢٨٧

أو أراد : دار الهجرة ودار الإيمان ، فأقام لام التعريف فى الدار مقام المضاف إليه ، وحذف المضاف من دار الإيمـان ، ووضع المضاف إليه مقـامه .

أو سمى المدينة - لأنها دارالهجرة ، ومكان ظهور الإيمان - بالإيمان(١).

وقوله : « من قبلهم » أى : من قبل المهاجرين . وهو متعلق بقـــوله « تبوؤا » .

وقوله : « يحبون من هاجر إليهم » خبر المبتدأ ، أو حال من الذين تبوؤا الدار . . .

أى : هذه هى صفات المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم . . . وهذا هو جزاؤهم . . .

أما الذين سكنوا دار الهجرة وهى المدينة المنورة ، من قبل المهاجرين ، وأخلصوا إيمانهم وعبادتهم لله - تعالى - ، فإن من صفاتهم أنهم يحبون إخوانهم الذين هاجروا إليهم حبا شديدا ، لأن الإيمان ربط بين قلوبهم برباط المودة والمحبة . وقوله : « ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا » صفة أخرى من صفات الأنصار .

ومعنى « يجدون » هنا : يحسون ويعلمون . والضمير للأنصار ، وفى قوله « أوتوا » للمهاجرين . والحاجة فى الأصل : اسم مصدر بمعنى الاحتياج ، أى : الافتقار إلى الشىء .

والمراد بها هنا : المآرب أو الرغبة الناشئة عن التطلع إلى ما منحه النبى - صلى الله عليه وسلم - للمهاجرين دون الأنصار ، من فىء أو غيره .

أى : أن من صفات الأنصار - أيضا - ، أنهم لا تتطلع نفوسهم إلى شىء

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٨٣ .

ما أعطى للمهاجرين ، من الفيء أو غيره ، لأن المحبة التى ربطت قلوب الأنصار بالمهاجرين ، جعلت الأنصار يرتفعون عن التشوف إلى شيء مما أعطاه النبى - صلى الله عليه وسلم - للمهاجرين وحدهم ...

ثم وصفهم - سبحانه - بصفة ثالثة كريمة فقال : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .... »

والإيثار معناه : أن يؤثر الإنسان غيره على نفسه ، على سبيل الإكرام والنفع والخصاصة : شدة الحاجة ، وأصلها من خصاص البيت ، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفرج والفتحات .

أى : أن من صفات الأنصار أنهم كانوا يقدمون فى النفع إخوانهم المهاجرين على أنفسهم ، ولو كانوا فى حاجة ماسة ، وفقر واضح ، إلى ما يقدمونه لإخوانهم المهاجرين .

ولقد ضرب الأنصار - رضى الله عنهم - أروع الأمثال وأسماها فى هذا المضمار ، ومن ذلك ما رواه الشيخان والترمذى والنسائى وغيرهم عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد شيئا فقال - صلى الله عليه وسلم - : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقام رجل من الأنصار وفى رواية أنه أبو طلحة - فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب به إلى أهله، فقال لامرأته : أكرمى ضيف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . قالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية !! قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالى فأطفئى السراج، ونطوى بطوننا الليلة لضيف رسول الله - صلى الله عليه سلم - ففعلت .

ثم غدا الضيف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة ، وأنزل الله فيهما : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان

بهم خصاصة ...»[1].

وقوله - سبحانه - : «ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون» تذييل قصد به حض الناس على التحلي بفضيلة السخاء والكرم.

والشح يرى بعضهم أنه بمعنى البخل، ويرى آخرون أن الشح غريزة في النفس تحملها على الإمساك والتقتير، وأما البخل فهو المنع ذاته، فكأن البخل أثر من آثار الشح.

قال صاحب الكشاف: الشح - بالضم والكسر وقد قرئ بهما - : اللؤم، وأن تكون نفس المرء كزة حريصة على المنع، كما قال الشاعر:

يمارس نفسا بين جنبيه كزة   إذا هم بالمعروف قالت له مهلا.

وقد أضيف إلى النفس لأنه غريزة فيها، وأما البخل فهو المنع نفسه، ومنه قوله - تعالى - : «وأحضرت الأنفس الشح ...»[2].

أي: ومن يوق بتوفيق الله وفضله، شح نفسه وحرصها على الإمساك، فيخالفها فيما تأمره به من المنع والتقتير، فأولئك الذين يخالفونها هم المفلحون، الفائزون برضا الله - عز وجل -.

ومن الأحاديث التي وردت في النهي عن الشح، ما أخرجه مسلم - في صحيحه - عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم»[3].

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٨ ص ٥٢. وراجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٥٤

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٣٢٩.

(٣) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٢٩.

ثم مدح - سبحانه - كل من سار على نهج المهاجرين والأنصار فى قوة الإيمان، وفى طهارة القلب، وسماحة النفس فقال - تعالى - : والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ... » .

قال الآلوسى : قوله : « والذين جاؤا من بعدهم ... » عطف عند الأكثرين أيضا على المهاجرين . والمراد بهؤلاء قيل : الذين هاجروا حين قوى الاسلام ، فالمجىء حسى ، وهو مجيئهم إلى المدينة ، وضمير « من بعدهم » للمهاجرين الأولين .

وقيل : هم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ، فالمجىء إما إلى الوجود أو إلى الايمان ، وضمير « من بعدهم » للفريقين : المهاجرين والأنصار .

وهذا هو الذى يدل عليه كلام عمر - رضى الله عنه - وكلام كثير من السلف كالصريح فيه ، فالآية قد استوعبت جميع المؤمنين »(١) .

ويبدو لنا أن هذا الرأى الثانى ، وهو كون الذين جاؤوا من بعدهم يشمل المؤمنين الصادقين جميعا ، أقرب إلى الصواب ، لأنهم هم التابعون بإحسان للمهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ... »(٢) .

وعليه يكون المعنى : والذين جاؤا من بعد المهاجرين والأنصار، واتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامة ، يقولون » على سبيل الدعاء لأنفسهم ولاخوانهم فى العقيدة ، « ربنا اغفر لنا » أى : ياربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، واغفر « لاخواننا » فى الدين « الذين سبقونا بالايمان » فهم أسبق منا إلى

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ٥٤ .

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠ .

الخير والفضل .. « ولا تجعل » يا ربنا « فى قلوبنا غلا » أى : حسدا وحقدا « للذين آمنوا » أى : يا ربنا لا تجعل فى قلوبنا أى غل أو حسد لإخواننا المؤمنين جميعا .

« ربنا إنك رءوف رحيم » أى : يا ربنا إنك شديد الرأفة بعبادك، واسع الرحمة بهم

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن من حق الصحابة - رضى الله عنهم - على من جاء بعدهم ، أن يدعو لهم ، وأن ينزلوهم فى قلوبهم منزلة الاحترام والتبجيل والتكريم ...

ورحم الله الإمام القرطبى فقد أفاض فى بيان هذا المعنى ، فقال ما ملخصه: قوله - تعالى - : « والذين جاءوا من بعدهم ... » يعنى التابعين ، ومن دخل فى الإسلام إلى يوم القيامة .

قال ابن أبى ليلى : الناس على ثلاثة منازل : المهاجرون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم . فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل ...

وهذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة ...

وقال الإمام الرازى : واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين ، لأنهم إما المهاجرون ، أو الأنصار ، أو الذين جاءوا من بعدهم ، وبين أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار ، أن يذكر السابقين ، وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة ، فمن لم يكن كذلك ، بل ذكرهم بسوء ، كان خارجا من جملة أقسام المؤمنين ، بحسب نص هذه الآية »[1] .

* * *

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٢٩ ص ٢٨٩ .

وبعد أن رسمت السورة الكريمة ، تلك الصورة الوضيئة المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ... بعد كل ذلك أخذت فى رسم صورة أخرى ، متباينة تمام المباينة مع صورة هؤلاء الصادقين ، ألا وهى صورة المنافقين ، الذين انضموا إلى كل مناوىء للدعوة الإسلامية : فقال - تعالى - :

« ألم تَرَ إلى الذينَ نَافقُوا يقُولُونَ لإخوانهم الذينَ كفَرُوا مِنْ أَهْلِ الـكتابِ ، لئنْ أُخرجتُم لنَخرجَنَّ معـكُمْ ولا نُطيعُ فِيـكُمْ أحداً أبداً ، وإنْ قُوتلتُم لننصُرنـكم ، واللهُ يشهَدُ إنَّهم لـكاذِبُونَ (١١) لئنْ أُخرِجُوا لا يَخرُجُونَ معهُم ، ولئنْ قُوتِلوا لا ينصُرونَهم ، ولئنْ نصَرُوهمْ ليُوَلُّنَّ الأدبارَ ثم لاَ يُنصرُونَ (١٢) لأنتُم أشَدُّ رَهْبـةً فى صُدُورهمْ من اللهِ، ذلكَ بأنَّهُم قَومٌ لاَ يَفْقهُونَ (١٣) لا يقَاتِلُونكم جميعاً إلا فى قُرًى مُحصَّنةٍ ، أوْ مِنْ وراءِ جُـدرٍ ، بأسُهم بينَهم شَدِيدٌ ، تحسَبُهم جَميعاً وقُلوبُهم شتَّى ، ذلكَ بأنَّهم قَومٌ لا يَعقِلونَ (١٤) كَمَثَلِ الذينَ مِنْ قبلِهمْ قرِيبـاً ، ذَاقوا وبَالَ أمرِهمْ ولهُمْ عذابٌ أليمٌ (١٥) كمَثَلِ الشَّيطانِ إذْ قَالَ للإنْسَانِ اكْفُر، فلمَّا كفَر قالَ إنِّى برىءٌ منكَ إنِّى أخافُ اللهَ ربَّ العالَمينَ (١٦) فكانَ عاقبتَهُما أنَّهما فى النَّارِ خالِدَيْنِ فيها ، وذلكَ جزَاءُ الظَّالمِينَ (١٧) » .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « ألم تر إلى الذين نافقوا ... » حكاية لما جرى بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة ، والأحوال الفاسدة ، وتعجيب منها بعد حكاية محاسن أحوال المؤمنين على اختلاف طبقاتهم . والخطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب ...

والآية - كما روى عن ابن عباس - نزلت فى رهط من بنى عوف منهم عبد الله بن أبى سلول ... بعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل الحكية، بقوله - تعالى - «يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب..»(١).

والمراد بالأخوة فى قوله - سبحانه - : «يقولون لإخوانهم» : أخوة فى الكفر والفسوق والعصيان ...

والمعنى : ألم يصل إلى علمك - أيها الرسول الكريم - حال أولئك المنافقين الذين أظهروا الإسلام، وأبطنوا الكفر، وهم يقولون لإخوانهم فى الكفر من أهل الكتاب، وهم : يهود بنى النضير، أثناء محاصرتكم لهم - أيها المؤمنون - .

يقولون لهم : «والله لئن أخرجتم» من دياركم «لنخرجن معكم» أى : لنخرجن من ديارنا معكم، لنكون مصاحبين لكم حيثما سرتم.

ويقولون لهم: -أيضا- : «ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ...» أى: ولا نطيع فى شأنكم أحدا أبدا، يريد العدوان عليكم، أو يريد منعنا من الخروج معكم، ومؤازرتكم ...

ويقولون لهم - كذلك - : «وإن قوتلتم لننصرنكم» أى : وإن قاتلكم المسلمون، لنقفن إلى جواركم، ولنقدمن لكم العون الذى يؤدى إلى نصركم.

وقوله - سبحانه - : «والله يشهد إنهم لكاذبون» رد عليهم، وإبطال لمزاعمهم.

أى : والله - تعالى - يشهد بأن هؤلاء المنافقين لكاذبون فى أقوالهم، وفى عهودهم ...

ثم أبطل -سبحانه- أقوالهم بصورة أكثر تفصيلا فقال : «لئن أخرجوا

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٥٦.

لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون » .

أى : والله لئن أخرج المؤمنون اليهود من ديارهم ، فإن هؤلاء المنافقين لا يخرجون معهم ، ولئن قاتل المؤمنون اليهود ، فإن المنافقين لن ينصروا اليهود ، ولئن نصروهم – على سبيل الفرض والتقدير – ، ليولن المنافقون الأدبار فرارا منكم – أيها المؤمنون – ، ثم لا ينصرون بعد ذلك ، لا هم ولا من قاموا بنصرهم ، لأن الفريقين اجتمعوا على الباطل واتحدت قلوبهم فى الجبن والخور والحرص على الحياة ...

فأنت ترى أن هاتين الآيتين الكريمتين ، قد وصفتا المنافقين ، بالكفر والعصيان ، وبالتحالف مع كل محارب للدعوة الإسلامية ، وبنقض العهود ، وخلف الوعود ، وبالجبن الخالع ، والكذب الواضح ...

وقد تحقق ما أخبرت عنه الآيتان عن هؤلاء المنافقين ، فإن يهود بنى النضير عندما جد الجد ، وحانت ساعة رحيلهم ... أرسلوا إلى المنافقين يطلبون عونهم ، فما كان من المنافقين إلا أن خذلوهم ، وتحللوا من وعودهم لهم ...

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : « ولئن نصروهم ... » بعد الإخبار بأنهم لا ينصرونهم ؟ قلت : معناه ، ولئن نصروهم على سبيل الفرض والتقدير ... كقوله « لئن أشركت ليحبطن عملك » ، وكما يعلم – سبحانه – ما يكون ، فهو يعلم مالا يكون ...

والمعنى : ولئن نصر المنافقون اليهود لينهزمن المنافقون ثم لا ينصرون بعد ذلك . أى : يهلكهم الله – تعالى – ولا ينفعهم نفاقهم ، لظهور كفرهم ، أو لينهزمن اليهود ثم لا ينفعهم نصر المنافقين لهم .

وفيه دليل على صحة النبوة لأنه إخبار بالغيب ... »(١).

وبعد أن بشر الله – تعالى – المؤمنين بهزيمة أعدائهم أمامهم، أتبع ذلك ببشارة أخرى، وهى أن هؤلاء المنافقين وإخوانهم فى الكفر، يخشون المؤمنين خشية شديدة، فقال – سبحانه – : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ... ».

والرهبة : مصدر رهِبَ، بمعنى خاف. يقال : رهب فلان فلانا، إذا خافه خوفا شديدا من داخل نفسه ...

أى : لأنتم – أيها المؤمنون – أشد خوفا فى نفوس هؤلاء المنافقين واليهود، من ربهم الذى خلقهم وأوجدهم.

وقوله « ذلك بأنهم قوم لا يفقهون » تعليل لسبب جبنهم وخوفهم. واسم الإشارة يعود إلى كون المؤمنين أشد رهبة فى صدور المنافقين واليهود من الله – تعالى –.

أى : أنتم أشد رهبة فى قلوبهم من الله – تعالى –، بسبب أنهم قوم لا يفقهون الحق، ولا يعلمون شيئا عن عظمة الله – سبحانه – وجلاله وقدرته ...

والمقصود من هذه الآية الكريمة، تهوين أمر هؤلاء الأعداء فى نفوس المؤمنين، وبيان أن هؤلاء الأعداء قد بلغ الجبن والخور فيهم مبلغا كبيرا، لدرجة أن خشيتهم لكم، أشد من خشيتهم لله – تعالى –.

والتعبير بالرهبة للإشعار بأنها رهبة خفية لا يعلمها إلا الله – تعالى – وأن هؤلاء المنافقين واليهود، مهما تظاهروا أمام المؤمنين بالبأس والقوة، فهم فى قرارة نفوسهم يخافون المؤمنين خوفا شديدا ...

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٥.

قال صاحب الكشاف : رهبة مصدر رهب المبنى للمفعول ، كأنه قيل أشد مرهوبية .

وقوله : « في صدورهم » : دلالة على نفاقهم يعني : أنهم يظهرون لكم في العلانية خوف الله ، وأنتم أهيب في صدورهم من الله - تعالى - .

فإن قلت : كأنهم كانوا يرهبون من الله حتى تكون رهبتهم منهم أشد؟

قلت : معناه أن رهبتهم في السر منكم ، أشد من رهبتهم من الله التي يظهرونها لكم ، وكانوا يظهرون لهم رهبة شديدة من الله . . . »(1) .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد قررت حقيقة راسخة في نفوس المنافقين وأشباههم ، وإن كانوا يحاولون إخفاءها وسترها ، وهي أن خشيتهم من الناس أشد من خشيتهم من الله - تعالى - .

ثم يقرر - سبحانه - حقيقة أخرى ، أيدتها التجارب والمشاهد الواقعية ، فقال - تعالى - : « لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ، بأسهم بينهم شديد . تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى . . . » .

والآية الكريمة بدل اشتمال من التي قبلها ، لأن شدة الخوف من المؤمنين ، جعلت اليهود وحلفاءهم ، لا يقاتلون المسلمين ، إلا من وراء الخنادق والحصون . .

والجدر : جمع جدار ، وهو بناء مرتفع يحتمي به من يقاتل من خلفه .
و « جميعا » بمعنى مجتمعين كلهم . . .

أي : أن هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين ، لا يقاتلونكم مجتمعين كلهم في موطن من المواطن إلا في قرى محصنة بالخنادق وغيرها . أو يقاتلونكم

(1) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٨٥ .

من وراء الجدران التي يتستترون بها ، لأنهم يعجزون عن مبارزتكم ، وعن مواجهتكم وجها لوجه ، لفرط رهبتهم منكم ...

قال ابن كثير : يعنى أنهم من جبنهم وهلعهم ، لايقدرون على مواجهة جيش الإسلام ، بالمبارزة والمقاتلة ، بل إما فى حصون ، أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلونكم للدفع عنهم ضرورة ... »(١) .

وقوله - تعالى - : « بأسهم بينهم شديد » جملة مستأنفة ، كأن قائلا قال : ولماذا لايقاتلون المؤمنين إلا على هذه الصورة؟ فكان الجواب : بأسهم بينهم شديد . أى : عداوتهم فيما بينهم عداوة شديدة ، بحيث لايتفقون على رأى ، وقوتهم يستعملونها فيما بينهم استعمالا واسعا ، فإذا ما التقوا بكم تحولت هذه القوة إلى جبن وهلع ...

قال صاحب الكشاف : يعنى أن البأس الشديد الذى يوصفون به ، إنما هو فيما بينهم إذا اقتتلوا ، ولو قاتلوكم لم يبق لهم ذلك البأس والشدة ، لأن الشجاع يجبن ، والعزيز يذل ، عند محاربة الله ورسوله »(٢) .

وقوله - تعالى - : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » استئناف آخر للإجابة عما يقال : من أنه كيف تكون عداوتهم فيما بينهم شديدة ، ونحن نراهم متفقين ؟

فكان الجواب : ليس الأمر كما يظهر من حالهم من أن بينهم تضامن وترابط ... بل الحق أنهم متدابرون مختلفون متباغضون ... وإن كانت ظواهرهم تدل على خلاف ذلك ...

أى : تحسبهم أيها الناظر إليهم مؤتلفين ... والحال أن قلوبهم متفرقة ،

(١) تفسير ابن كثير حـ ٤ ص ٣٤٠ .
(٢) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٨٥ .

ومنازعهم مختلفة، وبواطنهم تباين ظواهرهم ... ومادام الأمر كذلك فلا تبالوا بهم - أيها المؤمنون - ، بل أغلظوا عليهم، وجاهدوهم بكل قوة وجسارة ...

واسم الإشارة فى قوله: «ذلك بأنهم قوم لايعقلون» يعود إلى ماسبق ذكره، من شدة عداوتهم فيما بينهم، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم.

أى: ذلك الذى ذكرناه لكم من شدة بأسهم فيما بينهم، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم، سببه أنهم قوم لايعقلون الحق والهدى والرشاد ... وإنما هم ينساقون وراء أهوائهم بدافع من الأحقاد والمطامع والشهوات، بدون إدراك لعواقب الأمور، أو للفهم الصحيح ...

ثم ساق - سبحانه - مثلين زيادة فى تثبيت المؤمنين، وفى التهوين من شأن أعدائهم فقال - تعالى - : «كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم».

وقوله: «كمثل ...» خبر لمبتدأ محذوف. والمراد بالذين من قبلهم: يهود بنى قينقاع، وكفار قريش الذين حل بهم ماحل من هزائم فى غزوة بدر.

والوبال: المرعى الضار الذى ترعاه الماشية، دون أن تدرك سوء عاقبته.

أى: مثل هؤلاء اليهود والمنافقين، وحالهم العجيبة ... كمثل الذين من قبلهم، وهم يهود بنى قينقاع، الذين أخرجوا من المدينة بسبب غدرهم، وكان خروجهم قبل خروج بنى النضير بزمن ليس بالطويل، وكمثل مشركى قريش الذين حلت بهم الهزيمة فى غزوة بدر، فإن هؤلاء وهؤلاء قد ذاقوا فى الدنيا سوء عاقبة كفرهم بدون إمهال ...

أما فى الآخرة فلهم عذاب شديد الألم والإهانة .

ووجه الشبه بين السابقين واللاحقين ، أن الجميع قد اغتروا بما لهم وقوتهم فتطاولوا على المؤمنين ، ونقضوا عهودهم معهم ... فكانت عاقبتهم جميعا أن أذلهم الله ـ تعالى ـ فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ...

وأما المثل الثانى فيتجلى فى قوله ـ تعالى ـ : «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برىء منك ...

أى : مثل المنافقين فى تزيينهم الشر والفساد ليهود بنى النضير . . . كمثل الشيطان إذ قال للإنسان فى الدنيا اكفر بالله ـ تعالى ـ فلما كفر ذلك الإنسان ومات على الكفر ، وبعث يوم القيامة ، ووجد مصيره السىء ... ندم وألقى التبعة على الشيطان الذى قال له: «إنى برىء منك» ومن كفرك . . . إنى أخاف الله رب العالمين ووجه الشبه : أن المنافقين تبرءوا من معاونتهم ومن مناصرتهم ... عندما حانت ساعة الجد ... كما يتبرأ الشيطان من كفر الكافر يوم القيامة .

ومن الآيات التى وردت فى هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ : «وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم . وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ...»(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ «فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها ....» من تمام المثل الذى ضربه الله ـ تعالى ـ المنافقين واليهود .

أى : فكان عاقبة ذلك الشيطان وذلك الإنسان ، أنهما كائنين فى النار ، حالة كونهما خالدين فيها خلوداً أبديا ، وكذلك حال المنافقين واليهود . .

«وذلك» الخلود فى النار «جزاء الظالمين» الذين تجاوزوا حدود الله ـ تعالى ـ ، وحاربوا أولياءه ـ سبحانه ـ .

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٢ .

والمراد بالشيطان والإنسان جنسهما ، وقد ذكر بعضهم هنا قصصا تدل على أن المراد بالإنسان شخص معين ، وقد أضربنا عنها صفحا لضعفها .[1].

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد ذمت المنافقين واليهود ذما شنيعا، وأضعفت من شأنهم ، وساقت لهم من الأمثلة ما يجعل المؤمنين يستخفون بهم ، ويجاهرونهم بغلظة وشدة .

* * *

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين أمرهم فيه بتقواه وبتقديم العمل الصالح الذى ينفعهم يوم يلقونه . ونهاهم عن التشبه بالقوم الفاسقين . . . فقال - تعالى - :

« يأَيُّها الذينَ آمنُوا اتَّقوا اللهَ ولتَنظُر نفسٌ ما قدَّمتْ لغَدٍ، واتَّقوا اللَّهَ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بِمَا تعملُونَ (١٨) ولا تكونُوا كالَّذينَ نَسُوا اللهَ فأنساهُمْ أنفُسَهُم أولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ (١٩) لا يَستَوِى أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنَّةِ أصحابُ الجنَّةِ هم الفائِزُونَ (٢٠) لو أنزَلنَا هـذَا القرآنَ عَلَى جَبلٍ لرَأَيتَه خَاشِعاً مُتصدِّعاً من خَشيةِ اللهِ ، وتِلكَ الأمثالُ نضرِبُها للنَّاسِ لعلَّهم يتفَكَّرُونَ (٢١) » .

والمراد بالغد فى قوله - تعالى - : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد . . . » : يوم القيامة . . .

أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، « اتقوا الله » أى صونوا أنفسكم عن كل ما يغضب الله - تعالى - ، وراقبوه فى السر والعلن ، وقفوا عند حدوده فلا تتجاوزها .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٤١ . وتفسير القرطبى ج ١٨ ص ٣٨ .

« ولتنظر نفس ما قدمت لغد » أى : ولتنظر كل نفس ، ولتتأمل فى الأعمال التى عملتها فى الدنيا ، والتى ستحاسب عليها فى يوم القيامة : فإن كانت خيرا ازدادت منها ، وإن كانت غير ذلك أقلعت عنها .

وعبر - سبحانه - عن يوم القيامة بالغد للإشعار بقربه ، وأنه آت لاريب فيه ، كما يأتى اليوم الذى يلى يومك . والعرب تخبر عن المستقبل القريب بالغد كما فى قول الشاعر :

فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظره قريب

وقال - سبحانه - : « ولتنظر نفس » لإفادة العموم ، أى : كل نفس عليها أن تنظر نظر محاسبة ومراجعة فى أعمالها ، بحيث لاتقدم إلا على ما كان صالحا منها .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما معنى تنكير النفس والغد ؟ قلت : أما تنكير النفس فاستقلالا للأنفس النواظر فيما قدمت للآخرة . كأنه قيل : ولتنظر نفس واحدة فى ذلك . وأما تنكير الغد ، فلتعظيمه وإبهام أمره ، كأنه قيل : لغد لا يعرف كنهه لعظمه .

وعن مالك بن دينار : مكتوب على باب الجنة : وجدنا ما عملنا ، وربحنا ما قدمنا ، وخسرنا ما خلفنا (١) .

وكرر - سبحانه - الأمر بالتقوى فقال : « واتقوا الله » للتأكيد . أى : اتقوا الله بأن تؤدوا ما كلفكم به من واجبات ، وبأن تجتنبوا مانهاكم عنه من سيئات .

وقوله - سبحانه - : « إن الله خبير بما تعملون » تعليل للحض على التقوى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٠٨ .

أى . اتقوه فى كل ما تأتون وما تذرون ، لأنه ـ تعالى ـ لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، بل هو ـ سبحانه ـ محيط بها إحاطة تامة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون يوم القيامة .

وقد جاء الأمر بتقوى الله ـ تعالى ـ فى عشرات الآيات من القرآن الكريم ، لأن تقوى الله ـ تعالى ـ هى جماع كل خير ، وملاك كل بر وفضيلة، ومن الأدلة على ذلك :

أننا نرى القرآن يبين لنا أن تقوى الله ، قد أمر بها كل نبى قومه . قال ـ تعالى ـ : كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم: أخوهم نوح ألا تتقون. إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون ... » .

وتارة نجد القرآن الكريم يبين لنا الآثار الطيبه التى تترتب على تقوى الله فى الدنيا والآخرة ، فيقول : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض . . . » .

ويقول : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

ويقول: ـ سبحانه ـ : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ».

ويقول ـ عز وجل ـ : « إن المتقين فى جنات ونهر . فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

وبعد هذا الأمر المؤكد بالتقوى ، جاء النهى عن التشبه بمن خلت قلوبهم من التقوى ، فقال ـ تعالى ـ : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ..... » .

أى تمسكوا ـ أيها المؤمنون ـ بتقوى الله ـ تعالى ـ ومراقبته . والبعد عن كل ما لا يرضيه ، واحذروا أن تكونوا كأولئك الذين تركوا التكاليف التى كلفهم الله ـ تعالى ـ بها ، فتركهم ـ سبحانه ـ إلى أنفسهم ، بأن جعلهم ناسين لها ، فلم يسعوا إلى ماينفعها ، بل سعوا فيما يضرها ويرديها .

فالمراد بالنسيان هنا : الترك والإهمال ، والكلام على حذف مضاف . أى : نسوا حقوق الله - تعالى - وما أوجب عليهم من تكاليف .

والفاء فى قوله : « فأنساهم . . . » للسببية ، أى : أن نسيانهم لما يجب عليهم نحو أنفسهم من تهذيب وتأديب . . . كان سببه نسيانهم لما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وخشيته .

ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : « أولئك هم الفاسقون » أى : أولئك الذين تركوا مايجب عليهم نحو خالقهم ونحو أنفسهم ، هم الفاسقون عن أمره ، الخارجون على شريعته ودينه ، الخالدون يوم القيامة فى العذاب المهين .

ثم حذر - سبحانه - المؤمنين من نسيان طاعته وخشيته بأسلوب آخر فقال : « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون » .

أى : لا يستوى فى حكم الله - تعالى - وفى جزائه « أصحاب النار » الذين استحقوا الخلود فيها ، « وأصحاب الجنة » الذين ظفروا برضوانه - تعالى - بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ...

« أصحاب الجنة هم الفائزون » بالسعادة التى ليس بعدها سعادة ، وبالنعيم الذى لا يقاربه نعيم .

وقال - سبحانه - : « لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . . . » بدون بيان ما لا يستويان فيه ، للإشعار بالبون الشاسع بين الفريقين ، فى سلوكهم ، وفى أعمالهم ، وفى تفكيرهم ، وفى نظرتهم إلى الحياة ، وفى العاقبة التى ينتهى إليها كل فريق . .

قال صاحب الكشاف : هذا تنبيه للناس ، وإيذان لهم بأنهم لفرط غفلتهم ، وقلة فكرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إيثار العاجلة ، واتباع

الشهوات : كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار والبون العظيم بين أصحابهما وأن الفوز مع أصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك وينبهوا عليه . كما تقول لمن يعق أباه ، هو أبوك ، تجعله بمنزلة من لا يعرفه ، فتنبهه بذلك على حق الأبوة ، الذى يقتضى البر والتعطف ... »[1] .

ومن الآيات الكثيرة التى تشبه هذه الآية فى معناها ، قوله - تعالى - : « وما يستوى الأعمى والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا المسىء قليلا ما تتذكرون »[2] .

ثم نوه - سبحانه - بشأن القرآن الكريم ، المشتمل على ألوان من الهدايات والمواعظ ، والآداب والأحكام ، التى فى إتباعها سعادة الناس وفوزهم فقال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ... » .

والمراد بالجبل : حقيقته ، والكلام على سبيل الفرض والتقدير ، واختير الجبل ، لأنه أشد الأشياء صلابة وقلة تأثر بما ينزل به .

أى : لو أننا أنزلنا - على سبيل الفرض والتقدير - هذا القرآن العظيم الشأن على جبل من الجبال العالية الشامخة الصلبة وخاطبناه به ... لرأيت - أيها العاقل - هذا الجبل الذى هو مثال فى الشدة والغلظة والضخامة وعدم التأثر .. لرأيته « خاشعا متصدعا من خشية الله » .

أى : لرأيته متذللا متشققا من شدة خوفه من الله - تعالى - ، ومن خشيته ...

قال الآلوسى وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن ، وقوة تأثيره والغرض - من هذه الآية - توبيخ الإنسان على قسوة قلبه ، وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٠٨ .

(٢) سورة غافر الآية ٥٨ .

الكريم، وتدبر ما فيه من القوارع. وهو الذى لو أنزل على جبل - وقد ركب فيه العقل - لخشع وتصدع.

ويشير إلى كونه تمثيلا، قوله - تعالى -: «وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»(١).

أى: وتلك الأمثال الباهرة التى اشتمل عليها هذا القرآن العظيم، نضربها ونسوقها للناس، لكى يتفكروا فيها، ويعملوا بما تقتضيه من توجيهات حكيمة ومن مواعظ سديدة: ومن إرشادات نافعة..

* * *

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالثناء على ذاته - تعالى -، وببيان بعض أسمائه الحسنى. فقال - تعالى -:

«هُوَ اللهُ الذى لا إله إلاَّ هُوَ، عالمُ الغَيبِ والشَّهادةِ هو الرحمنُ الرحيمُ (٢٢) هُوَ اللهُ الذى لا إلهَ إلاَّ هُوَ الملِكُ القُدُّوسُ السلامُ المؤمِنُ المُهيمِنُ العزيزُ الجبارُ المتكبرُ، سُبحانَ اللهِ عمَّا يُشرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللهُ الخالقُ البارِئُ المُصَوِّر، لهُ الأسماءُ الحسنَى، يسبِّح له ما فى السَّمواتِ الأرْض، وهُوَ العَزيزُ الحَكيم (٢٤)».

قال الجمل: لما وصف - تعالى - القرآن بالعظم، ومعلوم أن عظم الصفة تابع لعظم الموصوف، أتبع ذلك بوصف عظمه - تعالى - فقال: «هو الله الذى لا إله إلا هو» أى: هو الله الذى وجوده من ذاته، فلا عدم له بوجه من الوجوه، فلا شىء يستحق الوصف بهذا غيره، لأنه هو الموجود أزلا

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٧ ص ٦٣.

وأبدا ، فهو حاضر فى كل ضمير ، غائب بعظمته عن كل حس ، فلذلك تصدع الجبل من خشيته .

أى : هو المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له ، الذى لا إله هو ، فإنه لا مجانس له ، ولا يليق ولا يصح ، ولا يتصور ، أن يكافئه أو يدانيه شىء . . . . » (١) .

وقوله : « عالم الغيب والشهادة » أى : هو - سبحانه - العليم علما تاما بما غاب عن أذهان الخلائق وعقولهم ، وبما هو حاضر ومشاهد أمام أعينهم .

فالمراد بالغيب : كل ما غاب عن إحساس الناس وعن مداركهم . . .

والمراد بالشهادة : ما يشاهدونه بعيونهم ، ويدركونه بعقولهم . . . .

والتعريف فيهما للاستغراق الحقيقى ، لأن الله - تعالى - لا يخفى عليه شىء فى هذا الكون .

وقوله - تعالى - : « هو الرحمن الرحيم » أى : هو العظيم الرحمة الدائمها . لأن لفظ « الرحمن » صيغه مبالغة لكثرة الشىء وعظمته ، ولفظ « الرحيم » صيغة تدل على الدوام والاستمرار .

وقوله - سبحانه - : « هو الله الذى لا إله إلا هو . . . » تأكيد لأمر التوحيد لأن مقام التعظيم يقتضى ذلك .

ثم عدد - سبحانه - بعد ذلك بعض أسمائه الحسنى ، وصفاته الجليلة فقال : « الملك » أى : المالك لجميع الأشياء ، والحاكم على جميع المخلوقات ، والمتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه .

« القدوس » أى : المنزه عن كل نقص ، البالغ أقصى ما يتصوره

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٣٢١ .

العقل فى الطهارة وفى البعد عن النقائص والعيوب ، وعن كل مالا يليق .

من القدس بمعنى الطهارة . والقدس - بفتح الدال - اسم للإناء الذى يتطهر به ، ومنه القادوس .

وجاء لفظ القدس بعد لفظ الملك ، للإشعار بأنه - تعالى - وإن كان مالكا لكل شيء ، إلا أنه لا يتصرف فيما يملكه تصرف الملوك المغرورين الظالمين ، وإنما يتصرف فى خلقه تصرفا منزها عن كل ظلم ونقص وعيب . .

« السلام » أى : ذو السلامة من كل مالا يليق ، أو ذو السلام على عباده فى الجنة ، كما قال - تعالى - : « سلام قولا من رب رحيم » .

« المؤمن » أى : الذى وهب لعباده نعمة الأمان والاطمئنان ، والذى صدق رسله بأن أظهر على أيديهم المعجزات التى تدل على أنهم صادقون فيما يبلغونه عنه .

« المهيمن » أى : الرقيب على عباده ، الحافظ لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ، من الأمن ، ثم قلبت همزته هاء . وقيل أصله هيمن بمعنى رقيب ، فهاؤه أصلية .

« العزيز » أى : الذى يغلب غيره ، ولا يتجاسر على مقامه أحد ...

« الجبار » أى : العظيم القدرة ، القاهر فوق عباده .

قال القرطبي : قال ابن عباس : الجبار : هو العظيم . وجبروت الله عظمته . وهو على هذا القول صفة ذات ، من قولهم : نخلة جبارة ...

وقيل هو من الجبر وهو الإصلاح ، يقال : جبرت العظم جبرا ، إذا أصلحته بعد الكسر ، فهو فعال من جبر ، إذ أصلح الكسير وأغنى الفقير »[1] .

« المتكبر » أى : الشديد الكبرياء ، والعظمة والجلالة ، والتنزه عما

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٤٦

لا يليق بذاته ، وهاتان الصفتان ـ الجبار المتكبر ـ صفتا مدح بالنسبة لله ـ تعالى ـ ، وصفتا ذم بالنسبة لغيره ـ تعالى ـ ، وفى الحديث الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فيما يرويه عن ربه : «الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى فى واحد منهما ، قصمته ثم قذفته فى النار » .

« سبحان الله عما يشركون » أى : تنزه ـ سبحانه ـ وتقدس عن إشراك المشركين ، وكفر الكافرين .

« هو الخالق » لكل شىء ، الموجد لهذا الكون على مقتضى حكمته ..
«البارىء» أى : المبدع المخترع للأشياء ، والمبرز لها من العدم إلى الوجود.
« المصور » أى : المصور للأشياء والمركب لها ، على هيئات مختلفة ، وأنواع شتى ، من التصوير ، وهو التخطيط والتشكيل ...

« له الأسماء الحسنى » والحسنى تأنيث الأحسن ، أى : له الأسماء التى هى أحسن الأسماء ، لدلالتها على أفضل المعانى ، من تحميد ، وتقديس ، وقدرة ، وسمع ... وغير ذلك من الأسماء الكريمة ، والصفات الجليلة .

« ويسبح له » ـ تعالى ـ وينزهه عن كل سوء « ما فى السموات والأرض » من مخلوقات .

« وهو العزيز الحكيم » أى : وهو ـ عز وجل ـ الغالب لغيره ، الحكيم فى كل تصرفاته .

قال الإمام ابن كثير : وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إن لله تسعة وتسعين اسما ـ مائة إلا واحدا ـ من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » ...

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ هذه الأسماء نقلا عن سنن الترمذى فقال : هو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ،

المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز المذل ، السميع ، البصير الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدى ، المعيد ، المحيى ، المميت ، الحى ، القيوم، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرءوف ، مالك الملك ، ذوالجلال والإكرام ، المقسط الجامع ، الغنى المغنى ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى، الوارث الرشيد الصبور ، .

ثم قال الإمام ابن كثير : وسياق ابن ماجه ـ لهذا الحديث ـ بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير . . والذى عول عليه جماعة من الحفاظ ، أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ـ أى : ذكر الراوى فى الحديث كلاما لنفسه أو لغيره من غير فصل بين ألفاظ الحديث وألفاظ الراوى ـ وأن أهل العلم جمعوا هذه الأسماء من القرآن الكريم .

ثم ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست منحصرة فى التسعة والتسعين ، بدليل مارواه الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم انى عبدك ، وابن عبدك ، ابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أعلمته أحدا من خلقك ، أو أنزلته فى كتابك ... أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب به همه وحزنه ، وأبدله مكانه فرحا .

منها فقيل يارسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ فقال : بلى : ينبغى لكل من سمعها أن يتعلمها وذكر أبو بكر بن العربى أن بعضهم جمع من الكتاب والسنة ألف اسم لله - تعالى -(1) .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الحشر » نسأل الله -تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة - مساء الخميس ٢٢ من شعبان ١٩٨٦/٥/١ م

كتبه الراجى عفو ربه
محمد سيد طنطاوى

تفسير
سورة الممتحنة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة «الممتحنة» هي السورة الستون في ترتيب المصحف، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة الأحزاب، وقبل سورة النساء. وهي من السور المدنية الخالصة. وعدد آياتها ثلاثة عشرة آية.

واشتهرت بهذا الاسم منذ العهد النبوي، إلا أن منهم من يقرؤها بفتح الحاء، على أنها صفة للمرأة التي نزلت فيها، ومنهم من يقرؤها بكسر الحاء على أنها صفة للسورة.

قال القرطبي: الممتحنة - بكسر الحاء - أي: المختبرة، أضيف الفعل إليها مجازا، كما سميت سورة براءة بالفاضحة، لما كشفت من رذائل المنافقين. ومن قال في هذه السورة الممتحنة - بفتح الحاء - فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها. وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. قال الله - تعالى - : «فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن». وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن»[1].

وقال صاحب الإتقان: وتسمى «سورة الامتحان» و «سورة المودة».

٢ - وقد افتتحت هذه السورة بتوجيه نداء إلى المؤمنين، نهتهم فيه عن اتخاذ أعداء الله وأعدائهم أولياء، وبينت لهم ما جبل عليه هؤلاء الأعداء من كراهية للحق، كما بينت لهم سوء عاقبة من يوالي هؤلاء الأعداء..

(١) تفسير القرطبي حـ ١٨ ص ٤٩.

قال ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى ، وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل .... » .

٣ — ثم انتقلت السورة الكريمة إلى دعوتهم إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، الذى قطع صلته بأقرب الناس إليه ، عندما رآه مصرا على كفره ، وأعلن أنه عدو لكل من أشرك مع الله ـ تعالى ـ فى العبادة آلهة أخرى ...

قال ـ تعالى ـ : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم إنا برءا منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه ، لأستغفرن لك ، وما أملك لك من الله من شىء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا ، وإليك المصير .... » .

٤ — ثم بشر ـ سبحانه ـ المؤمنين ، بأنه ـ بفضله وكرمه ـ سيجمع شملهم بأقاربهم الذين تشددوا فى عداوتهم ، بأن يهدى هؤلاء الأقارب إلى الحق ، فيتصل حبل المودة بينهم جميعا ، ببركة اجتماعهم تحت كلمة الإسلام ، فقال ـ تعالى ـ : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور رحيم .... » .

٥ — وبعد أن رخص للمؤمنين فى مودة الكفار الذين لم يقاتلوهم ولم يلحقوا بهم أذى ... ونهاهم عن مودة الكفار الذين قاتلوهم وآذوهم ... بعد كل ذلك وجه ـ سبحانه ـ نداء ثانيا إلى المؤمنين بين لهم حكم النساء

اللائى أتين مؤمنات إليهم ، بعد أن تركن أزواجهن الكفار ، وفصل - سبحانه - هذه الأحكام حرصا على النساء المؤمنات . . .

فقال - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، الله أعلم بإيمانهن ، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لاهن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن . . . » .

٦ - ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يبايع النساء المؤمنات على ما بايع عليه الرجال ، وأن يأخذ عليهن العهود على الطاعة لله - تعالى - ، والبعد عن محارمه . . .

قال - تعالى - : « يأيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف ، فبايعهن واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » .

٧ - ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بتوجيه نداء ثالث إلى المؤمنين ، نهاهم فيه مرة أخرى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم . . . فقال - سبحانه - : « يأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور » .

٨ - هذا والمتأمل فى هذه السورة الكريمة ، يراها قد ساقت المؤمنين ألوانا من التربية التى تغرس العقيدة السليمة فى قلوبهم ، وتجعلهم يضحون من أجلها بكل شىء ، ويقدمونها فى تصرفاتهم على محبة الآباء والأبناء والعشيرة والأموال ، وتكشف لهم عن سوء نيات الكافرين نحوهم ، وعن حرصهم على إنزال الضر بهم ، كما ضربت لهم الأمثال بإبراهيم - عليه السلام - لكى يقتدوا به فى قوة إيمانه ، وفى إخلاصه لدينه ، كما بينت لهم من يجوز لهم

مودتهم من الكافرين، ومن لا يجوز لهم ذلك منهم .. ثم ختمت ببيان بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء المؤمنات المتزوجات من الكافرين، وبالنساء اللائى جئن إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لكى يبايعنه على الإيمان والطاعة ...

وسنفصل القول فى هذه الأحكام خلال تفسيرنا لهذه السورة الكريمة.

نسأل الله - تعالى - أن يلهمنا الرشد، وأن يجنبنا الزلل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

القاهرة - مدينة نصر
٢٣ من شعبان سنة ١٤٠٦ هـ
٢ / ٥ / ١٩٨٦ م

د. محمد سيد طنطاوى
عميد كلية الدراسات الإسلامية
والعربية

التفسير

قال الله - تعالى - :

« يأيها الذينَ آمنُوا لا تتَّخِذُوا عَدُوِّى وعدُوَّكم أوْلياء ، تُلقُونَ إليهم ، بالمودَّةِ ، وقد كفَروا بما جاءكم من الحقّ ، يُخرجُونَ الرَّسُول وإيَّاكُم أنْ تُؤمنُوا باللهِ رَبكُم إنْ كُنتُم خرجتُم جِهاداً فى سَبيلِى ، وابتِغاءَ مَرْضاتى تسِرُّونَ إليهم بالمودَّةِ ، وأنا أعْلم بما أخْفَيتُم وما أعْلنتُم ومَنْ يفْعَلهُ منكُم فقَدْ ضَلَّ سَواء السَّبيلِ (١) إنْ يَثْقَفُوكُم يكُونُوا لكُم أعدَاء ، ويبْسُطوا إليكُم أيديَهُم وألسِنتَهُم بالسُّوءِ ، وَوَدُّوا لو تكفُرُونَ (٢) لن تنفعكُم أرحَامُكُم ولا أولادُكُم يومَ القيامةِ ، يَفْصِل بَينكُم ، واللهُ بما تعملُونَ بَصيرٌ (٣) » .

افتتحت سورة « الممتحنة » بهذا النداء للمؤمنين ، وقد تضمن هذا النداء نهيهم عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها. ماذكره الإمام الآلوسى فقال : نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ... فقد أخرج الإمام أحمد ، والبخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن حبان ، وجماعة عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : بعثنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا والزبير والمقداد فقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ - وهو مكان بين مكة والمدينة - ، فإن بها ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها فأتونى به . فخرجنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة فقلنا لها : أخرجى الكتاب . قالت : مامعى من كتاب . فقلنا : أخرجى الكتاب أو لنلقين

الثياب ، فأخرجته من عقاصها . فأتينا به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة ، إلى أناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : «ماهذا ياحاطب» ؟ فقال حاطب: لاتعجل علي يارسول الله ، إني كنت إنسانا ملصقا فى قريش ، ولم أكن منها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيها ، أن اصطنع إليهم يدا ، يحمون بها قرابتي ، ومافعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن الإسلام .

فقال عمر : دعني يارسول الله أضرب عنقه. فقال - صلى الله عليه وسلم - «إنه شهد بدرا ، ومايدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ، فنزلت هذه الآيات . . . »[1] .

وقد ذكروا أن هذه القصة كانت فى الوقت الذى أعد فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - العدة لأجل العمرة ، سنة صلح الحديبيه . وقيل كانت هذه القصة فى الوقت الذى تهيأ النبي - صلى الله عليه وسلم - لفتح مكة ، وكان من بين الذين علموا ذلك حاطب بن أبي بلتعة .

والمراد بالعدو هنا : الأعداء عموما ، ويدخل فيهم دخولا أوليا كفار قريش ، الذين أرسل إليهم حاطب بن أبي بلتعة خطابه ، لكي يحذرهم من مهاجمة المسلمين لهم .

والمراد بالعداوة : العداوة الدينية التي جعلت المشركين ، يحرصون كل الحرص على أذى المسلمين . أى : يامن آمنتم بالله - تعـالى - إيمانا حقا ،

(١) راجع تفسير الآلوسى حـ ٢٨ ص ٦٥ . وتفسير ابن كثير حـ ٨ ص ١٠٨ .

احذروا أن تتخذوا أعدائى وأعداءكم أولياء وأصدقاء وحلفاء ، بل جاهدوهم وأغلظوا عليهم ، واقطعوا الصلة التى بينكم وبينهم . .

وناداهم بصفة الإيمان، لتحريك حرارة العقيدة الدينية فى قلوبهم، ولحضهم على الاستجابة لما نهاهم عنه .

وقدم - سبحانه - عداوته للمشركين ، على عداوة المؤمنين لهم ، لأن عداوة هؤلاء المشركين لله - تعالى - أشد وأقبح ، حيث عبدوا غير خالقهم، وشكروا غير رازقهم ، وكذبوا رسل ربهم وآذوهم . . .

وفى الحديث القدسى : إنى والجن والإنس فى نبأ عظيم . أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر غيرى . . . خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلىَّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعم ، ويتبغضون إلىَّ بالمعاصى . . . » .

وعبر - سبحانه - بالاتخاذ الذى هو افتعال من الأخذ ، للمبالغة فى نهيهم عن موالاة هؤلاء الأعداء ، إذ الاتخاذ يشعر بشدة الملابسة والملازمة .

والمفعول الأول لقوله « تتخذوا » قوله : « عدوى » والمفعول الثانى قوله : « أولياء » .

وقوله - سبحانه - : « تلقون إليهم بالمودة » تفسير وتوضيح لهذه الموالاة التى نهوا عنها . أو فى موضع الحال من ضمير « لاتتخذوا » .

وحقيقة الإلقاء : قذف مافى اليد على الأرض أو فى الفضاء ، والمراد به هنا : إيصال مايدخل السرور على قلوب أعدائهم . والباء فى قوله: « بالمودة » لتأكيد اتصال الفعل بمفعوله .

أى : احذروا أن تعاملوا أعدائى وأعداءكم معاملة الأصدقاء والحلفاء ، بأن تظهروا لهم المودة والمحبة .

ويصح أن تكون الباء للسببية فيكون المعنى : تلقون إليهم بأخباركم التى لايجوز لكم إظهارها لهم ، بسبب مودتكم لهم .

وقد ذكروا أن حاطبا أرسل بهذه الرسالة إلى أهل مكة ، عندما تجهز النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه للذهاب إليها لأجل العمرة عام الحديبية، أو لأجل فتح مكة . . .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : « تلقون » بم يتعلق ؟ قلت : يجوز أن يتعلق بقوله : « لا تتخذوا » حالا من ضميره . . . ويجوز أن يكون استئنافا . . .

والإلقاء : عبارة عن إيصال المودة والإفضاء بها إليهم . يقال : ألقى إليه خراشى صدره - أى أسرار صدره - ، وأفضى إليه بقشوره .

والباء فى « بالمودة » إما زائدة مؤكدة للتعدى مثلها فى قوله : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » ، وإما ثابتة على أن مفعول تلقون محذوف ، ومعناه : تلقون إليهم أخبار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبب المودة التى بينكم وبينهم . . . »(١) .

ثم ساق - سبحانه - الأسباب التى من شأنها أن تحمل المؤمنين على عدم موالاة أعداء الله وأعدائهم ، فقال : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق » أى : لا تتخذوا - أيها المؤمنون - هؤلاء الأعداء أولياء ، وتلقون إليهم بالمودة ، والحال أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بما جاءكم على لسان رسولكم - صلى الله عليه وسلم - من الحق الذى يتمثل فى القرآن الكريم ، وفى كل ما أوحاه - سبحانه - إلى رسوله .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٤ ص ٥١٢ .

فالمقصود من هذه الجملة الكريمة . تصوير حال هؤلاء الكافرين ، بما ينفر المؤمنين من إلقاء المودة إليهم . وهى حال من فاعل « تلقون » .

وقوله - تعالى - : « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » بيان لسبب آخر من الأسباب التى تدعو المؤمنين إلى مقاطعة أعدائهم الكافرين .

وجملة : « يخرجون الرسول » يصح أن تكون مستأنفة لبيان كفرهم ، أو فى محل نصب من فاعل « كفروا » ، وقوله : « وإياكم » معطوف على الرسول ، وقدم عليهم على سبيل التشريف لمقامه - صلى الله عليه وسلم - ، وجملة « أن تؤمنوا » فى محل نصب مفعول لأجله .

أى : أن هؤلاء الكافرين لم يكتفوا بكفرهم بما جاءكم - أيها المؤمنون - من الحق ، بل تجاوزوا ذلك إلى محاولة إخراج رسولكم - صلى الله عليه وسلم - وإخراجكم من مكة ، من أجل إيمانكم بالله ربكم ، وإخلاصكم العبادة له - تعالى - .

وأسند - سبحانه - محاولة الإخراج إلى جميع الأعداء ، لأنهم كانوا راضين بهذا الفعل ، ومتواطئين على تنفيذه ، بعضهم عن طريق التخطيط له ، وبعضهم عن طريق التنفيذ الفعلى .

والمتأمل فى هذه الجمل الكريمة، يراها قد ساقت أقوى الأسباب وأعظمها، للتشنيع على مشركى قريش ، ولإلهاب حماس المؤمنين من أجل عدم إلقاء المودة إليهم .

وجواب الشرط فى قوله - تعالى - : « إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى . . . » محذوف لدلالة ماقبله عليه .

أى : إن كنتم - أيها المؤمنون - قد خرجتم من مكة من أجل الجهاد فى

سبيلى ، ومن أجل طلب مرضاتى ، فاتركوا اتخاذ عدوى وعدوكم أولياء ، واتركوا مودتهم ومصافاتهم .

فالمقصود من الجملة الكريمة ، زيادة التهييج للمؤمنين ، حتى لا يبقى فى قلوبهم أى شىء من المودة نحو الكافرين .

وقوله - سبحانه - : « تسرون إليهم بالمودة » بدل من قوله - تعالى - قبل ذلك : « تلقون إليهم بالمودة » بدل بعض من كل ، لأن إلقاء المودة أعم من أن تكون فى السر أو فى العلن .

ويصح أن يكون بدل اشتمال ، لأن الإسرار إليهم بالمودة ، مما اشتمل عليه إلقاء المودة إليهم .

وهذه الجملة جىء بها على سبيل العتاب والتعجيب ممن فى قلبه مودة لهؤلاء الكافرين ، بعد أن بين الله - تعالى - له ، ما يوجب قطع كل صلة بهم .

ومفعول « تسرون » محذوف . أى : ترسلون إليهم أخبار المسلمين سرا ، بسبب مودتكم لهم ؟ وجملة : « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » هى مناط التعجيب ممن يتخذ هؤلاء الأعداء أولياء ، أو ممن يسر إليهم بالمودة . وهى حالية من فاعل « تلقون وتسرون » .

أى : تفعلون ما تفعلون من إلقاء المودة إلى عدوى وعدوكم ، ومن إسراركم بها إليهم ، والحال أنى أعلم منهم ومنكم بما أخفيتموه فى قلوبكم ، وما أعلنتموه ، ومخبر رسولنا - صلى الله عليه وسلم - بذلك . . .

ومادام الأمر كذلك ، فكيف أباح بعضكم لنفسه ، أن يطلع عدوى وعدوكم على ما لا يجوز إطلاعه عليه ؟!

قال الآلوسى : قوله : « وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم » فى موضع الحال و « أعلم » أفعل تفضيل . والمفضل عليه محذوف ، أى : منكم . . . و « ما » موصولة أو مصدرية ، وذكر « ما أعلنتم » مع الاستغناء عنه ، للاشارة إلى تساوى العلمين فى علمه ـ عز وجل ـ .

ولذا قدم « ما أخفيتم » ، وفى هذه الحال إشارة إلى أنه لاطائل لهم فى اسرار المودة إليهم ، كأنه قيل : تسرون إليهم بالمودة والحال أنى أعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ، ومطلع رسولى على ماتسرون ، فأى فائدة وجـــدوى لـكم فى الإسرار ؟ »[1] .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة ببيان سوء عاقبة من يخالف أمره فقال « ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » .

والضمير فى قوله : « يفعله » يعود إلى الإتخاذ المفهوم من قوله « لاتتخذوا » . . .

أى : ومن يفعل ذلك الاتخاذ لعدوى وعدوكم أولياء ، ويلق إليهم بالمودة فقد أخطأ طريق الحق والصواب ، وضل عن الصراط المستقيم .

ثم بين ـ سبحانه ـ حال هؤلاء الأعداء عندما يتمكنون من المؤمنين فقال : « إن يثقفوكم يكونوا لـكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون » .

ومعنى « يثقفوكم » يظفروا بكم ، ويدركوا طلبتهم منكم . وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، ومنه رجل ثقف إذا كان سريع الفهم ، ويقال: ثقفت الرجل فى الحرب إذا أدركته وظفرت به . . .

أى إن يظفر بكم هؤلاء الأعداء ـ أيها المؤمنون ـ ، ويتمكنوا منكم ، يظهروا

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٦٨

لكم ما انطوت عليه قلوبهم نحوكم من بغضاء ، ولا يكتفون بذلك ، بل يمدون إليكم أيديهم بما يضركم ، وألسنتهم بما يؤذيكم ...

ثم هم بعد كل ذلك يودون و يتمنون أن تصيروا كفارا مثلهم ...

فأنت ترى أن الآية الكريمة ، قد وضحت أن هؤلاء الكافرين ، قد سلكوا فى عداوتهم المؤمنين كل مسلك ، فهم عند تمكنهم من المؤمنين يظهرون حقدهم القديم ، و يؤذونهم بأيديهم وألسنتهم ، ويتمنون فى جميع الأحوال ، أن يردهم بعد إيمانهم كافرين .

وقال - سبحانه - : « ويبسطوا إليكم . . . » للاشعار بكثرة ماينزلونه بالمؤمنين من أذى . إذ التعبير بالبسط يدل على الكثرة والسعة .

وقوله : « وودوا لو تكفرون » معطوف على جملة الشرط والجزاء ، ويكون - سبحانه - قد أخبر عنهم بخبرين :

أحدهما : ماتضمنته الجملة الشرطية من عداوتهم للمؤمنين .

وثانيهما : تمنيهم ارتدادهم من الإيمان إلى الكفر .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف أورد جواب الشرط مضارعا مثله . ثم قال : « ودوا » بلفظ الماضى ؟

قلت : الماضى وإن كان يجرى فى باب الشرط مجرى المضارع فى علم الإعراب . فإن فيه نكتة . كأنه قيل : ودوا قبل كل شىء كفركم وارتدادكم يعنى : أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً . من قتل الأنفس وتمزيق الأعراض ، وردكم كفارا .

وهذا الرد إلى الكفر أسبق المضار عندهم وأولها ، لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم ، لأنكم بذالون لها دونه . والعدو أهم شىء عنده . أنه يقصد أعز شىء عند صاحبه »(1) .

(1) تفسير الكشاف ح ٤ ص ٥١٣ .

ثم بين - سبحانه - الآثار السيئة التي تترتب على ضلالهم عن سواء السبيل فقال: « لن تنفعكم أرحامكم ، ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم .... » .

والأرحام : جمع رحم ، والمراد بهم الأقارب ، الذين كان بعض المؤمنين يوالون المشركين من أجلهم .

أى : منكم - أيها المؤمنون - من أفشى أسراركم للكافرين خوفا على أقاربه أو أولاده الذين يعيشون فى مكة مع هؤلاء الكافرين ، والحق أنه لن تنفعكم قراباتكم ولا أولادكم الذين توالون المشركين من أجلهم شيئا من النفع يوم القيامة ، لأنه فى هذا اليوم « يفصل بينكم » أى يفرق بينكم وبين أقاربكم وأولادكم يوم القيامة ، كما قال - تعالى - : « فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » وكما قال - سبحانه - : يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وخص - سبحانه - الأولاد بالذكر مع أنهم من الأرحام ، لمزيد المحبة لهم - والحنو عليهم .

قال الشوكانى : وجملة « يوم القيامة يفصل بينكم » مستأنفة لبيان عدم نفع الأرحام والأولاد فى ذلك اليوم : ومعنى « يفصل بينكم » يفرق بينكم ، فيدخل أهل طاعته الجنة ، وأهل معصيته النار . وقيل المراد بالفصل بينهم ، أنه يفر كل منهم من الآخر من شدة الهول ... قيل : ويجوز أن يتعلق « يوم القيامة » بما قبله . أى : لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ، فيوقف عليه . ويبتدأ بقوله : « يفصل بينكم . والأولى أن يتعلق بما بعده - أى : يفصل بينكم يوم القيامة ، فيوقف على « أولادكم » ويبتدأ بيوم القيامة »(١) .

وقراءة الجمهور «يفصل بينكم» - بضم الياء وتخفيف الفاء وفتح الصاد -

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٢١١ .

على البناء للمجهول . وقرأ عاصم «يُفصل بينكم» ـ بفتح الياء وكسر الصاد ـ على البناء للفاعل . وقرأ حمزة والكسائى «يفصل بينكم» ـ بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الكسر ـ بالبناء للفاعل ـ أيضا ـ .

وقرأ ابن عامر «يفصل بينكم» ـ بضم الياء وفتح الفاء وتشديد الصاد مع الفتح ـ على البناء للمجهول .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : «والله بما تعملون بصير» أى : والله ـ تعالى ـ لا يخفى عليه شىء من أعمالكم ، بل هو مطلع عليها إطلاعا تاما وسيجازيكم يوم القيامة بما تستحقونه من ثواب أو عقاب .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآيات الكريمة ما يأتى :

١ ـ أن هذه الآيات أصل فى النهى عن موالاة الأعداء ومصافاتهم بأية صورة من الصور ، وشبيه بها قوله ـ تعالى ـ : «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا»(١) .

وقوله ـ سبحانه ـ : «يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ...»(٢) .

٢ ـ أن هذه الآيات الكريمة تتجلى فيها رحمة الله ـ تعالى ـ بعباده المؤمنين ، حيث ناداهم بهذه الصفة مع وقوع بعضهم فى الخطأ الجسيم ، وهو إفشاء أسرار المؤمنين لأعدائهم . قالوا وفى هذا رد على المعتزلة الذين يقولون : إن المعصية تنافى الإيمان ...

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١١٨ .

٣ - أن هذه الآيات الكريمة فيها ما فيها من الأساليب الحكيمة فى الدعوة إلى الفضائل واجتناب الرذائل، لأن الله - تعالى - عندما نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأعدائهم، ساق لهم الأسباب التى تحملهم على قطع كل صلة بهؤلاء الأعداء، بأن ذكر لهم أن هؤلاء الأعداء قد كفروا بالحق، وحرصوا على إخراج الرسول والمؤمنين من ديارهم، وأنهم إن يتمكنوا من المؤمنين، فسينزلون بهم أشد ألوان الأذى.

وهكذا يجب أن يتعلم الدعاة إلى الله - تعالى -، أن على رأس الوسائل التى توصلهم إلى النجاح فى دعوتهم، أن يأتوا فى دعوتهم بالأسباب المقنعة لاعتناق الحق، واجتناب الباطل.

٤ - أن هذه الآيات الكريمة صريحة فى أن ما يتعلق بالدين والعقيدة، يجب أن يقدم على ما يتعلق بالأرحام والأولاد. لأن الأرحام والأولاد لن تنفع يوم القيامة، وإنما الذى ينفع هو ما يتعلق بالاستجابة لما يفرضه الدين علينا من واجبات وتكاليف.

* * *

وبعد هذا النهى للمؤمنين عن موالاة أعداء الله وأعدائهم... ساقت لهم السورة الكريمة، جانبا من قصة إبراهيم - عليه السلام - الذى تبرأ من كل صلة تربطه بغيره سوى صلة الإيمان، وإخلاص العبادة لله - تعالى -، وأمرتهم بأن يقتدوا به فى ذلك لينالوا رضا الله - عز وجل -، فقال:

« قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ، وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ، كَفَرْنَا بِكُمْ، وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً، حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ، إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ، لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ، وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ

من شيء ، ربَّنَا عليكَ توكَّلنَا ، وإليكَ أنبْنَا وإليكَ المصيرُ (٤) ربَّنَا لا تجعَلْنا فتنةً للذينَ كفَرُوا واغفِرْ لنا ربَّنَا ، إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ (٥) لقدْ كانَ لكم فيهِمْ أسوةٌ حسَنةٌ لمن كانَ يرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ ، ومَنْ يتولَّ فإنَّ اللهَ هُو الغنِيُّ الحميدُ (٦) » .

والأسوة كالقدوة ، وهى إتباع الغير على الحالة التى يكون عليها . قال - تعالى - : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ... » .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم ... » تأكيد لأمر الإنكار عليهم ، والتخطئة فى موالاة الكفار ، بقصة إبراهيم - عليه السلام - ومن معه، ليعلم أن الحب فى الله - تعالى - ، والبغض فيه - سبحانه - ، من أوثق عرا الإيمان ، فلا ينبغى أن يغفل عنهما .

والأسوة - بضم الهمزة وكسرها - بمعنى الائتساء والاقتداء ، وتطلق على الخصلة التى من حقها أن يؤتسى ويقتدى بها ، وعلى نفس الشخص المؤتسى به ... »[1] .

والمعنى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة ، وخصلة حميدة ، ومنقبة كريمة ، فى قصة أبيكم إبراهيم - عليه السلام - ، وفى قصة الذين آمنوا معه .

وافتتح - سبحانه - الكلام بقوله : « قد كانت ... » لتأكيد الخبر ، فإن هذا الأسلوب المشتمل على قد وفعل الكون ، يفيد التأكيد بموجب الخبر ، والتعريض بغفلة من يخالفه .

ووصف - سبحانه - الأسوة بالحسن، على سبيل المدح لها، والتحريض على الاقتداء بصاحبها .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٦٩ .

وعطف - سبحانه - على إبراهيم الذين آمنوا معه ، ليتم التمثيل لحال المسلمين مع رسولهم - صلى الله عليه وسلم - أى : كونوا - أيها المؤمنون - متأسين ومقتدين برسولكم - صلى الله عليه وسلم - ومطيعين له . ومستجيبين لتوجيهاته ، كما كان أتباع أبيكم إبراهيم كذلك .

ثم بين - سبحانه - ما يجب عليهم الاقتداء به من حال إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنين معه ، فقال : « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ، ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده ... » و « إذ » ظرف زمان بمعنى وقت وحين ، وهو بدل اشتمال من إبراهيم والذين معه . أو خبر لكان ...

و « برآء » جمع برىء . يقال : برىء فلان من كذا يبرأ براء وبراءة ... إذا ابتعد عنه ، لكراهته له .

أى : قد كان لكم - أيها المؤمنون - أسوة حسنة فى إبراهيم - عليه السلام - ، وفى الذين آمنوا معه ، وقت أن قالوا لقومهم الكافرين ، بشجاعة وقوة : إنا برآء منكم ، ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله - عز وجل - وإننا قد كفرنا بكم وبمعبوداتكم ، « وبدا » أى : وظهر بيننا وبينكم العداء والبغض على سبيل التأبيد والاستمرار ، ولن نتخلى عن ذلك معكم ، حتى تؤمنوا بالله - تعالى - وحده ، وتتركوا عبادتكم لغيره - تعالى - .

فأنت ترى أن إبراهيم - عليه السلام - والمؤمنون معه ، قد أعلنوا بكل شجاعة وشدة ، وإيمانهم الكامل بالحق ، وبراءتهم وكراهيتهم واحتقارهم ، لكل من أشرك مع الله - تعالى - فى العبادة آلهة أخرى .

وأنهم لم يكتفوا بالتغيير القلبى المنكر ، بل جاهروا بعداوتهم له ، وبالتنزه عن اقترابهم منه ، وبتجافيهم عنه ... ولعل هذا هو أقصى ما كانوا يملكونه بالنسبة لتغيير هذا المنكر فى ذلك الوقت ..

وقد أخبرنا القرآن أن إبراهيم - عليه السلام - لم يكتف بذلك ، بل حطم الأصنام التى كان يعبدها قومه . وقال لهم : « أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .

قال صاحب الكشاف : أى كان فيهم - أى : فى إبراهيم ومن آمن معه - مذهب حسن مرضى ، جدير بأن يؤتسى به ، ويتبع أثره ، وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا ، حيث كاشفوهم بالعداوة ، وقشروا لهم العصا ، وأظهروا البغضاء والمقت ، وصرحوا بأن سبب عداوتهم وبغضائهم ، وليس إلا كفرهم بالله .

وما دام هذا السبب قائما ، كانت العداوة قائمة ، حتى إن أزالوه وآمنوا بالله وحده ، انقلبت العداوة موالاة ، والبغضاء محبة ، والمقت مِقَةً - أى : محبة - فأفصحوا عن محض الإخلاص ... »(١)

وقوله - تعالى - : « إلا قول إبراهيم لأبيه ، لأستغفرن لك . . » كلام معترض بين الأقوال التى حكاها - سبحانه - عن إبراهيم - عليه السلام .

والاستثناء يترجح أنه منقطع ، لأن هذا القول من إبراهيم لأبيه ، ليس من جنس الكلام السابق ، الذى تبرأ فيه هو ومن معه مما عليه أقوامهم الكافرون ....

والمعنى : اقتدوا - أيها المؤمنون - بأبيكم إبراهيم - عليه السلام - وبالذين آمنوا معه ، فى براءتهم من الشرك والمشركين ... ولكن لا تقتدوا به فى استغفاره لأبيه الكافر ، لأن استغفاره له كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

قال الإمام الشوكانى ما ملخصه : قوله : « إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك . » هو استثناء متصل من قوله : « فى إبراهيم » بتقدير مضاف .. أى :

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥١٤ .

قد كانت لكم أسوة حسنة فى مقالات إبراهيم ، إلا فى قوله لأبيه : لأستغفرن لك .

ويصح أن يكون استثناء متصلا من قوله : « أسوة حسنة » ، وصح ذلك لأن القول من جملة الأسوة ، فكأنه قيل : قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم فى جميع أقواله وأفعاله ، إلا فى قوله لأبيه لأستغفرن لك .

أو هو استثناء منقطع ، أى : اقتدوا بإبراهيم فى كل أقواله وأحواله ، لكن لا تقتدوا به فى قوله لأبيه المشرك : لأستغفرن لك ، بأن تستغفروا لآبائكم المشركين ، لأن استغفار إبراهيم لأبيه المشرك كان عن موعدة وعدها إياه ، أو أنه ظن أن أباه قد أسلم . »[1] .

وقوله - سبحانه - « وما أملك لك من الله من شىء » حكاية لبقية كلام إبراهيم لأبيه ، وليس الاستثناء متوجها إليه ، لأن هذه الجملة بيان لما تحلى به إبراهيم عليه السلام - من آداب مع ربه - تعالى - ، حيث فوض الأمر إليه - سبحانه .

أى : وعد إبراهيم أباه بالاستغفار له ، أملا فى هدايته ، وقال له : ياأبت إنى لا أملك لك من أمر قبول الاستغفار شيئا ، بل الأمر كله لله ، إن شاء عذبك وإن شاء عفا عنك ، والجملة الكريمة فى محل نصب على الحال من فاعل « لأستغفرن لك » . أى : لأستغفرن لك حالة كونى لا أملك من أمر المغفرة أو غيرها شيئا ، وإنما الذى يملك ذلك هو الله - عز وجل - .

ثم حكى - سبحانه - بعد ذلك جانبا مما تضرع به إبراهيم - عليه السلام - إلى خالقه فقال : « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » .

أى : يا ربنا عليك وحدك فوضنا أمورنا ، وإليك وحدك قبول توبتنا ، وإليك لا إلى أحد سواك مرجعنا ومصيرنا .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٢١٢ .

« ربنا لا تجعلنافتنة للذين كفروا . . » والفتنة هنا مصدر بمعنى المفتون ، أى : المعذب ، مأخوذ من فتن فلان الفضة إذا أذابها . . .

أى : ياربنا لاتجعلنا مفتونين معذبين لهؤلاء الكافرين ، بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لا نستطيع صده ، كما قال ـ تعالى ـ : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات . . » أى : عذبوهم وحاولوا إنزال الضرر والأذى بهم .

ويصح أن يكون المعنى : ياربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا ، بأن تعذبنا بأيديهم ، فيظنوا بسبب ذلك أنهم على الحق ، ونحن على الباطل ، لأننا لو كنا على الحق لما انتصروا علينا .

ولبعض العلماء رأى آخر فى فهم هذه الاية ، وهو أن المراد بالفتنة هنا : إضطراب حال المسلمين وفساده ، وكونهم لايصلحون أن يكونوا قدرة لغيرهم فى وجوه الخير . . . فيكون المعنى : ياربنا لا تجعل أعمالنا وأقوالنا سيئة . فيترتب على ذلك أن ينفر الكافرون من ديننا ، بحجة أنه لو كان ديننا سليما ، لظهر أثر ذلك على أتباعه . ولكانوا بعيدين عن كل تفرق وتباعد وتأخر .

قال بعض العلماء ماملخصه : قوله : « ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا »: الفتنة : اضطراب الحال وفساده ، وهى اسم مصدر ، فتجىء بمعنى المصدر ، كقوله ـ تعالى ـ : « والفتنه أشد من القتل » .

وتجىء وصفا للمفتون والفاتن .

ومعنى جعلهم فتنة للذين كفروا : جعلهم مفتونين يفتنهم الذين كفروا ، فيصدق ذلك بأن يتسلط عليهم الدين كفروا فيفتنون . . .

ويصدق ـ أيضا ـ بأن تختل أمور دينهم بسبب الذين كفروا ، أى : بسبب محبتهم والتقرب منهم .

وعلى الوجهين ، فالفتنة من إطلاق المصدر على اسم المفعول . . .

واللام فى «للذين كفروا» على الوجهين - أيضا - للملك، أى: مفتونين مسخرين لهم.

ويجوز عندى أن تكون «فتنة» مصدرا بمعنى اسم الفاعل. أى: لاتجعلنا فاتنين، أى: سبب فتنة للذين كفروا، فيكون كناية عن معنى: لا تغلب الذين كفروا علينا، واصرف عنا ما يكون من اختلال أمرنا، وسوء الأحوال، كى لا يكون شىء من ذلك فاتنا للذين كفروا.. أى: يزيدهم كفرا، لأنهم يظنون أنا على الباطل وأنهم على الحق..»(١)

وقوله: «واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم» أى: واغفر لنا يا ربنا ذنوبنا، إنك أنت الغالب الذى لا يغالب، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله.

وقوله - سبحانه -: «لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...» تأكيد لقوله - تعالى - قبل ذلك: «قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم..»، والغرض من هذا التأكيد، تحريض المؤمنين على التأسى بالسابقين فى قوة إيمانهم، وشدة إخلاصهم..

أى: لقد كان لكم أيها المؤمنون - أسوة حسنة، وقدوة طيبة، فى أبيكم إبراهيم - عليه السلام -، وفيمن آمن به، وهذه القدوة إنما ينتفع بها من كان يرجو لقاء الله - تعالى - ورضاه، ومن كان يرجوا ثوابه وجزاءه الطيب..

وجىء بلام القسم فى قوله: «لقد كان لكم...» على سبيل المبالغة فى التأكيد بوجوب التأسى بإبراهيم، وبمن آمن معه.

وجملة «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر...» بدل من قوله «لكم» بدل اشتمال.

وفائدة هذا البدل: الإيذان بأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، لا يترك

(١) تفسير التحرير والتنوير جـ ٢٨ ص ١٣٩ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

الاقتداء بإبراهيم - عليه السلام - وبمن آمن معه ، وأن ترك ذلك من علامات عدم الإيمان الحق ...

كما ينبىء عنه التحذير فى قوله - تعالى - بعد ذلك : « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » .

أى : ومن يعرض عن هذا التأسى ، فوبال إعراضه عليه وحده ، فإن الله - تعالى - هو الغنى عن جميع خلقه ، الحميد لمن يمتثل أمره .

والمتدبر فى هذه الآيات الكريمة ، من أول السورة إلى هنا ، يجد أن الله - تعالى - لم يترك وسيلة للتنفير من موالاة أعدائه ، إلا أظهرها وكشف عنها .

° ° °

ثم فتح - سبحانه - لعباده باب رحمته وفضله ، فبشرهم بأنه قد يهدى إلى الاسلام قوما من الأعداء الذين تربط بينهم وبين المؤمنين رابطة الدم والقرابة وحدد لهم القواعد التى عليها يبنون مودتهم وعداوتهم لغيرهم ، فقال - تعالى - :

« عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُم وبَيْنَ الذينَ عادَيْتُم مِنهم مَوَدَّةً ، واللَّهُ قدِيرٌ ، واللَّهُ غفورٌ رحِيمٌ (٧) لا يَنهاكُم اللَّهُ عن الذينَ لم يُقاتِلُوكُم فى الدِّين ، ولَم يُخرِجوكُم من دِيارِكُم أنْ تبَرُّوهُمْ وتُقسِطُوا إليْهِمْ ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقسطِينَ (٨) إنَّما يَنهاكُم اللهُ عن الذينَ قاتَلُوكُم فى الدِّين ، وأخرَجُوكُم من دِيارِكُم ، وظاهَرُوا عَلَى إخراجِكُم أنْ تَوَلَّوْهُمْ ، ومَنْ يَتوَلَّهُم فأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) » .

وعسى ، فعل مقاربة يدل على الرجاء ، وإذا صدر من الله - تعالى - كان متحقق الوقوع ، لصدوره من أكرم الأكرمين .

قال صاحب الكشاف : « عسى » وعد من الله على عادات الملوك حيث

يقولون فى بعض الحوائج : عسى أو لعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك . أو قصد به إطماع المؤمنين ... » (١)

وقال الجمل فى حاشيته : « لما أمر الله المؤمنين بعداوة الكفار ، عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين وأظهروا لهم العداوة والبراءة ، وعلم الله شدة ذلك على المؤمنين ، فوعد - سبحانه - المسلمين بإسلام أقاربهم الكفار ، فيوالوهم موالاة جائزة . وذلك من رحمته - تعالى - بالمؤمنين ، ورأفته بهم ، فقال : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة .. » (٢)

والمعنى : عسى الله - تعالى - أن يجعل بينكم - أيها المؤمنون - وبين الذين عاديتموهم من أقاربكم الكفار ، مودة ومحبة ... بأن يهديهم إلى الدخول فى دين الإسلام ، فتتحول عداوتكم لهم ، إلى أخوة صادقة ، وصلة طيبة ، ومحبة شديدة .

وقد أنجز الله - تعالى - وعده ، فهدى كثيراً من كفار قريش إلى الدخول فى الاسلام ، والتقوا هم وأقاربهم الذين سبقوهم إلى الاسلام ، على طاعة الله ومحبته ، والدفاع عن دينه ، وبذل أنفسهم وأموالهم فى سبيله .

« والله قدير ، والله غفور رحيم » أى : والله - تعالى - شديد القدرة على أن يغير أحوال القلوب ، فيصبح المشركون مؤمنين ، والأعداء أصدقاء ، والله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة ، لمن إستجاب لأمره ونهيه ، وأقلع عن المعصية إلى الطاعة ، ونبذ الكفر وتحول إلى الايمان .

فالآية الكريمة بشارة عظيمة المؤمنين ، بأنه - سبحانه - كفيل بأن يجمع شملهم بكثير من أقاربهم الكافرين ، وبأن يحول العداء الذى بينهم ، إلى مودة

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥١٥
(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٢٨

ومحبة ، بسبب التقاء الجميع على طاعة الله - تعالى - وإخلاص العبادة له . . .

وقد تم ذلك بصورة موسعة ، بعد أن فتحت مكة ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا .

ثم بين - سبحانه - للمؤمنين القاعدة التى يسيرون عليها فى مودتهم وعداوتهم وصلتهم ومقاطعتهم ... فقال - تعالى - : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، إن الله يحب المقسطين » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب ذلك نزول هذه الآية والتى بعدها روايات منها، ماأخرجه البخارى وغيره عن أسماء بنت أبى بكر الصديق قالت: أتانى أمى راغبة - أى : فى عطائى - وهى مشركة فى عهد قريش ... فسألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أأصلها ؟ فأنزل الله - تعالى - : « لا ينهاكم الله . . . »

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « نعم صلى أمك »

وروى الامام أحمد وجماعة عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قتيله بنت عبد العزى - وهى مشركة - على إبنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها ، أو تدخلها بيتها ، حتى أرسلت إلى عائشة ، لكى تسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم عن هذا ، فسألته ، فأنزل الله - تعالى - « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين . »

وقال الحسن وأبو صالح : نزلت هذه الآية فى قبائل من العرب كانوا قد صالحوا النبى - صلى الله عليه وسلم - على أن لايقاتلوه ، ولا يعينوا عليه .

وقال مجاهد : نزلت فى قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا ، فكان المهاجرون والأنصار يتحرجون من برهم لتركهم فرض الهجرة

قال الآلوسى - بعد أن ذكر هذه الروايات وغيرها - : والأكثرون على أنها فى كفرة إنصفوا بما فى حيز الصلة . »(١)

والذى تطمئن اليه النفس أن هاتين الآيتين ، ترسمان للمسلمين المنهج الذى يجب أن يسيروا عليه مع غيرهم، وهو أن من لم يقاتلنا من الكفار ، ولم يعمل أو يساعد على إلحاق الأذى والضر بنا . فلا بأس من بره وصلته .

ومن قاتلنا ، وحاول إيذاءنا منهم . فعلينا أن نقطع صلتنا به ، وأن نتخذ كافة الوسائل لردعه وتأديبه ، حتى لا يتجاوز حدوده معنا .

والمعنى : « لا ينهاكم الله » - تعالى - أيها المؤمنون - « عن » مودة وصلة الكافرين « الذين لم يقاتلوكم ، فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم » أى : لم يقاتلوكم من أجل أنكم مسلمون ، ولم يحاولوا الحاق أى أذى بكم ، كالعمل على إخرجكم من دياركم

لا ينهاكم الله - تعالى - عن « أن تبروهم » أى : عن أن تحسنوا معاملتهم وتكرموهم . وعن أن « تقسطوا اليهم » أى تفضوا اليهم بالعدل ، وتعاملوهم بمثل معاملتهم لكم ، ولا تجوروا عليهم فى حكم من الأحكام .

« إن الله يحب المقسطين » أى : العادلين فى أقوالهم وأفعالهم وأحكامهم، الذين ينصفون الناس، ويعطونهم العدل من أنفسهم، ويحسنون إلى من أحسن اليهم .

« إنما ينهاكم الله - تعالى - » عن بر وصلة « الذين يقاتلوكم فى الدين » أى قاتلوكم لأجل أنكم على غير دينهم « وأخرجوكم من دياركم » التى تسكنونها « وظاهروا على إخراجكم »

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٧٤

أى : وعاونوا غيرهم على إخراجكم من دياركم، يقال : ظاهر فلان فلانا على كذا، إذا عاونه فى الوصول إلى مطلبه .

وقــوله : « أن تولهم » بدل إشتمال « من الذين قاتلوكم » أى : ينهاكم - سبحانه - عن موالاة ومواصلة وبر ، الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم .

« ومن يتولهم » أى : ومن يبرمنكم - أيها المؤمنون - هؤلاء الذين قاتلوكم « فأولئك » الذين يفعلون ذلك «هم الظالمون » لأنفسهم ظلما شديداً، يستحقون بسببه العقاب الذى لا يعلمه إلا هو - سبحانه -

فأنت ترى أن الآية الأولى قد رخصت لنا فى البر والصلة - قولا وفعلا - للكفار الذين لم يقاتلونا لأجل ديننا ، ولم يحاولوا الإساءة إلينا .

بينما الآية الثانية قد نهضتنا عن البر أو الصلة لأولئك الكافرين ، الذين قاتلونا من أجل مخالفتنا لهم فى العقيدة ، وحاولوا إخراجنا من ديارنا أو أخرجوا بعضنا بالفعل - ، وعاونوا غيرهم على إنزال الأذى بنا .

هذا ، ويرى بعض العلماء أن الآية الأولى منسوخة .

قال القرطبى : قال إبن زيد : كان هذا فى أول الاسلام عند الموادعة ، وترك الأمر بالقتال ، ثم نسخ هذا الحكم .

قال قتادة : نسخها قوله - تعالى - : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .(١)

والذى عليه المحققون من العلماء ، أن الآية محكمة وليست منسوخة ، لأنها تقرر حكما يتفق مع شريعة الاسلام فى كل زمان ومكان ، وهو أننا لا نؤذى إلا من آذانا ، ولا نقاتل إلا من أظهر العداوة لنا بأية صورة من الصور .

---

(١) راجع تفسير القرطبى حـ ١٨ ص ٥٩

وأقوال النبى – صلى الله عليه وسلم – وأفعاله يؤيد عدم النسخ ، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - يستقبل الوفود التى تأتيه لمناقشته فى بعض الأمور الدينية ، مقابلة كريمة ، ويتجلى ذلك فيما فعله مع وفد نجران ، ووفد تميم وغيرهما ...

كذلك مما يؤيد عدم النسخ ، أنه لا تعارض بين هذه الآية ، وبين آية السيف ، لأن الأمر بالقتال إنما هو بالنسبة لقوم يستحقونه ، بأن يكونوا قد قاتلونا أو أخرجونا من ديارنا ، كما جاء فى الآية الثانية .

وأما الرخصة فى البر والصلة . فهى فى شأن الذين لم يقاتلونا. ولم يخرجونا من ديارنا ، وهذا ما صرحت به الاية الأولى .

ورحم الله الامام ابن جرير فقد قال بعد أن ذكر الآراء فى ذلك : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب ، قول من قال : عنى بقوله - تعالى - : «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ... » جميع أصناف الملل والأديان ، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم .. ويشمل ذلك من كانت صفته ، دون تخصيص لبعض دون بعض .

ولا معنى لقول من قال : ذلك منسوخ ، لأن بر المؤمن من أهل الحرب ، ممن بينه وبينه قرابة نسب ، أو ممن لا قرابة بينه ولا نسب ، غير محرم ، ولا منهى عنه ، إذا لم يكن فى ذلك ، دلالة له ، أو لأهل الحرب ، على عورة لأهل الاسلام ، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح ، »(١)

* * *

ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى بيان بعض الأحكام التى تتعلق بالنساء المؤمنات ، اللائى تركن أزواجهن الكفار ، ورغبن فى الهجرة إلى دار الاسلام فقال - تعالى - :

« يأيها الذين آمنُوا إذَا جاءَكُم المؤمناتُ مهاجِرات فامتحِنُوهنّ
الله أعلمُ بإيمانِهنّ فإنْ علِمتُموهنّ مؤمِنات فلا ترجِعُوهُنّ إلى الكفارِ
لاهُنّ حلٌّ لهُم ولا هُم يحلون لهنّ وآتوهم ما أنفقُوا ، ولا جُناح عليكُم
أنْ تنكِحُوهُنّ إذَا آتيتموهُنّ أجُورَهُنّ ، ولا تُمسكوا بعصِم
الكوافِر ، واسألوا ما أنفقتُم وليسْألوا ما أنفقوا ، ذلِكُم حكمُ الله
يحكُم بينكُم، والله عليمٌ حكِيمٌ (١٠) وإنْ فاتكُم شىءٌ مِنْ أزوَاجِكُم
إلى الكفارِ فعاقبتُم ، فآتُوا الذينَ ذهبَتْ أزوَاجُهم مثلَ ما أنفقُوا ،
واتقُوا اللهَ الذى أنتُم به مُؤمنُونَ (١١) » .

قال الإمام القرطبي : قوله ـ تعالى ـ « يأيها النبى إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ... » : لما أمر الله المسلمين بترك موالاة المشركين ، اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة ، فبين ـ سبحانه ـ أحكام مهاجرة النساء .

قال ابن عباس: جرى الصلح مع مشركى قريش عام الحديبية، على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم، فجاءت سعيدة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديبية بعد ، فأقبل زوجها ـ وكان كافرا ... فقال : يامحمد ، اردد على امرأتى فإنك شرطت ذلك . وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية .

وقيل : جاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، فجاء أهلها يسألون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يردها .

وقيل: هربت من زوجها عمرو بن العاص ومعها أخواها. فرد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخويها وحبسها، فقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: ردها علينا للشرط، فقال: «كان الشرط في الرجال لا في النساء، فأنزل الله هذه الآية ...»(١).

والمعنى: يا من آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان، «إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات»، من دار الكفر إلى دار الإيمان، وراغبات في فراق الكافرين، والبقاء معكم ...

«فامتحنوهن» أي: فاختبروهن اختبارا يغلب معه الظن بأنهن صادقات في هجرتهن وفي إيمانهن، وفي موافقة قلوبهن لألسنتهن.

وقد ذكر ابن جرير في كيفية امتحانهن صيغا منها: ما جاء عن ابن عباس أنه قال. كانت المرأة إذا أتت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حلفها بأنها ما خرجت بغضا لزوجها، ولا رغبة في الانتقال من أرض إلى أرض، ولا التماسا لدنيا، وإنما خرجت حبا لله ولرسوله».(٢)

وجملة: «الله أعلم بإيمانهن» معترضة لبيان أن معرفة خفايا القلوب، مردها إلى الله - تعالى - وحده..

قال صاحب الكشاف: قوله: «الله أعلم بإيمانهن» أي: منكم: لأنكم لا تكسبون فيه علما تطمئن معه نفوسكم، وإن استحلفتموهن ورزتم أحوالهن، وعند الله حقيقة العلم به»(٣).

والمراد بالعلم في قوله - تعالى -: «فإن علمتوهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار» الظن الغالب..

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ٦١.
(٢) راجع تفسير ابن جرير ج ٢٨ ص ٤٥.
(٣) تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٧٥.

أى : فإن غلب على ظنكم بعد امتحانهن أنهن مؤمنات صادقات فى إيمانهن، فأبقوهن عندكم، ولا ترجعوهن إلى أزواجهن أو إلى أهلهن من الكفار .

وسمى الظن القوى علما للإيذان بأنه كالعلم فى وجوب العمل بمقتضاه وإنما رد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرجال الذين جاءوه مؤمنين بعد صلح الحديبية، ولم يرد النساء المؤمنات، لأن شرط الرد كان فى الرجال ولم يكن فى النساء ـ كما سبق أن ذكرنا نقلا عن القرطبى ـ ، ولأن الرجل لا يخشى عليه من الفتنه فى الرد، ما يخشى على المرأة، من إصابة المشرك إياها، وتخويفها وإكراهها على الردة ...

قال بعض العلماء : قال كثير من المفسرين : إن هذه الآية مخصصة لما جاء فى معاهدة صلح الحديبية، والتى كان فيها من جاء من الكفار مسلما إلى المسلمين، ردوه إلى المشركين، ومن جاء من المسلمين كافرا للمشركين، لا يردونه على المسلمين، فأخرجت الآية النساء من المعاهدة، وأبقت الرجال، من باب تخصيص العموم .

وتخصيص السنن بالقرآن، وتخصيص القرآن بالسنن، أمر معلوم .

ومن أمثله تخصيص السنة بالكتاب، قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ما أبين من حى فهو ميت، أى : فهو محرم . فقد جاء تخصيص هذا العموم بقوله ـ تعالى ـ : «ومن أصوافها وأوبارها» ، أى : ليس محرما . ومن أمثلة تخصيص الكتاب بالسنة قوله ـ تعالى ـ : «حرمت عليكم الميتة والدم ..» فقد جاء تخصيص هذا العموم بحديث : «أحلت لنا ميتتان ودمان: أما الميتتان فالجراد والحوت ....»

وقال بعض المفسرين: إنها ليست مخصصة للمعاهدة . لأن النساء لم يدخلن فيها ابتداء، وإنما كانت فى حق الرجال فقط ...

والذى يظهر ـ والله أعلم ـ أنها مخصصة لمعاهدة الحديبية، وهى من أحسن

الأمثلة لتخصيص السنة بالقرآن ـ كما قال الإمام ابن كثير ـ »(١)

وقوله ـ سبحانه : « لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن » تعليل للنهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى دار الكفر ، أو إلى أزواجهن الكفار .

أى : لا ترجعوا ـ أيها المؤمنون ـ النساء المؤمنات المهاجرات إليكم من أرض الكفر إلى أزواجهن الكافرين ، فإن هؤلاء المؤمنات حرق بسبب إيمانهن لا يصح ارتباطهن بأزواجهن الكفار ، كما لا يصح لهؤلاء الكافرين الارتباط بالنساء المؤمنات .

فالجملة الكريمه المقصود بها تأكيد النهى عن رد المؤمنات المهاجرات إلى أرض الكفر ، ووجوب التفرقة بين المرأة المؤمنة وزوجها الكافر فى جميع الأحـــوال .

قال ابن كثير : هذه الآية هى التى حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان ذلك جائزا فى أول الإسلام ، أن يتزوجه المشرك المؤمنة .. »(٢)

وقوله ـ تعالى ـ : « وآتوهم ما أنفقوا » بيان لمظهر من مظاهر عدالة الإسلام فى أحكامه . والخطاب لولاة الأمور . وهذا الإيتاء إنما هو للأزواج المعاهدين ، أما إذا كانون حربيين فلا يعطون شيئا .

أى : وسلموا إلى المشركين الذين جاءكم نساءهم مؤمنات ، ما دفعوه لهن من مهور قال القرطبى : قوله : « وآتوهم ما أنفقوا » : أمر الله ـ تعالى ـ إذا أمسكت المرأة المسلمة ، أن يرد إلى زوجها المشرك ما أنفق ، وذلك من الوفاء بالعهد ، لأنه لما منع من أهله ، بحرمة الإسلام ، أمر ـ سبحانه ـ برد المال إليه ، حتى لا يقع عليهم خسران من الوجهين : الزوجة والمال »(٣) .

---

(١) راجع أضواء البيان جـ ٨ ص ١٦٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١١٨ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ٦٥ .

فالمراد بقوله - تعالى - « ما أنفقوا » : ما دفعه المشركون لأزواجهم المؤمنات .

وعبر عن هذه المهور بالنفقة ، للإشعار بأن هؤلاء الزوجات المؤمنات ، أصبحن لا صلة لهن بأزواجهن المشركين .

وقوله - سبحانه - : « ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن » تكريم لهؤلاء النساء المسلمات اللائى فررن بدينهن من أزواجهن المشركين .

أى : ولا حرج عليكم - أيها المؤمنون - فى نكاح هؤلاء المؤمنات ، بعد فراقهن لأزواجهن المشركين ، وبعد استبرائكم لأرحامهن ، وعليكم أن تدفعوا لهن مهورهن كاملة غير منقوصة .

ونص على دفع المهر لهن - مع أنه أمر معلوم - ، لكى لا يتوهم متوهم ، أن رد المهر إلى الزوج الكافر ، يغنى عن دفع مهر جديد لهن إذا تزوجن بعد ذلك بأزواج مسلمين ، إذ المهر المردود للكفار ، لا يقوم مقام المهر الذى يجب على المسلم إذا ما تزوج بامرأة مسلمة فارقت زوجها الكافر .

والمراد بالإيتاء : ما يشمل الدفع العاجل ، والتزام الدفع فى المستقبل .

ثم نهى الله - تعالى - المسلمين عن إبقاء الزوجات المشركات فى عصمتهم فقال : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » .

والعصم : جمع عصمة ، والمراد بها هنا : عقد النكاح الذى يربط بين الزوج والزوجة ، والكوافر : جمع كافرة ، كضوارب جمع ضاربة .

أى : ولا يصح لكم - أيها المؤمنون - أن تبقوا فى عصمتكم،زوجاتكم اللائى آثرن الكفر على الإيمان ، وأبين الهجرة معكم من دار الكفر إلى دار الاسلام ، وقد بادر المسلمون بعد نزول هذه الآية بتطليق زوجاتهم الكافرات، فطلق عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - امرأتين له كانتا مشركتين، وطلق طلحة بن عبيد الله إحدى زوجاته وكانت مشركة ...

وهذه الجملة الكريمة تأكيد لقوله - تعالى - قبل ذلك : « لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » .

ثم بين - سبحانه - حكما آخر من الأحكام التى تدل على عدالة الإسلام فى تشريعاته فقال : « واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا » والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : « وآتوهم ما أنفقوا » .

أى : كما أنى شرعت لكم أن تعطوا الأزواج المشركين ، مهور نسائهم المسلمات اللائى فررن إليكم ، وتركن أزواجهن الكفار ... فكذلك شرعت لكم أن تطلبوا مهور نسائكم المشركات اللائى انفصلتم عنهن لكفرهن ، ولحقن بهؤلاء المشركين ، وليطلب المشركين ، وليطلب المشركون منكم مهور نسائكم المؤمنات اللائى انفصلن عنهم وهاجرن إليكم .

ثم ختم - سبحانه - هذه الآية الكريمة ببيان أن هذه الأحكام ، إنما هى من الله تعالى - العليم بأحوال النفوس ، الحكيم فى أقواله وأفعاله ، فقال : « ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم » .

أى : ذلكم الذى ذكرناه لكم من تشريعات تتعلق بالمؤمنات المهاجرات هى أحكام من الله - تعالى - فاتبعوها ، فهو - سبحانه - صاحب الحكم المطلق بينكم ، وهو - سبحانه - عليم بأحوال عباده ، حكيم فى كل تصرفاته وتشريعاته .

وقوله - سبحانه - : « وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم » بيان لحكم آخر يتعلق بالنساء اللائى التحقن بالمشركين ، وتركن أزواجهن المسلمين ، وأبى المشركون ان يدفعوا للمسلمين مهور هؤلاء الزوجات .

والجملة الكريمة معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك : واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا » .

وقد ذكروا أن المسلمين لما نزل قوله - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا إذا

جاءكم المؤمنات مهاجرات . . . الآيه ، كتبوا إلى المشركين يعلمونهم بما تضمنته هذه الآية .

فامتنع المشركون عن دفع مهور النساء اللائى ذهبن إليهم ، بعد أن تركن أزواجهن المسلمين ، فنزل قوله - تعالى - : « وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم »(1) .

قال ابن كثير : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى أنفقوها على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله ، فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله - تعالى - للمؤمنين به : « وإن فاتكم شىء من أزواجكم .. الآية »(2) .

وقوله « فاتكم » من الفوت بمعنى الفراق والترك والهرب . . . يقال : فاتنى هذا الشىء ، إذا لم أتمكن من الحصول عليه ، وعدى بحرف إلى لتضمنه معنى الفرار .

ولفظ « شىء » هنا المراد به بعض . وقوله ، « من أزواجكم » بيان للفظ شىء .

وقوله : « فعاقبتم » يرى بعضهم أنه من العقوبة . .

وعليه يكون المعنى : وإن انفلتت وفرت امرأة من أزواجكم - أيها المؤمنون - إلى الكفار ، وامتنعوا عن دفع مهرها لكم « فعاقبتم » أى : فغزوتم أنتم بعد ذلك هؤلاء الكافرين وانتصرتم عليهم وظفرتم بغنائم منهم .

فآتوا الذين ذهبت أزواجهم « منكم إلى الكفار من هذه المغانم

---

(1) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٦٨

(1) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٢١

« مثل ما أنفقوا » أى : مثل المهور التى أنفقوها على زوجاتهم اللائى فررن إلى المشركين .

ويرى بعضهم أن قوله « فعاقبتم » صيغة تفاعل من العقبة - بضم العين وسكون القاف وهى النوبة ، بمعنى أن يصير الإنسان فى حالة تشبه حالة غيره ...

قال الآلوسى : قوله : « فعاقبتم » من العقبة لا من العقاب ، وهى فى الأصل النوبة فى ركوب أحد الرفيقين على دابة لهما والآخر بعده : أى : فجاءت عقبتكم أى نوبتكم من أداء المهر ...

شبه الحكم بالأداء المذكور ، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب .

وحاصل المعنى : إن لحق أحد من أزواجكم بالكفار ، أوفاتكم شىء من مهورهن ...

« فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا » من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ، ولا تعطوا شيئاً لزوجها الكافر ، ليكون قصاصا ... »[1].

وعبر عن هؤلاء الزوجات اللائى تركن أزواجهن المؤمنين ، وفررن إلى المشركين ، بلفظ « شىء » ، لتحقير هؤلاء الزوجات ، وتهوين أمرهن على المسلمين ، وبيان أنهن بمنزلة الشىء الضائع المفقود الذى لا قيمة له ...

قال صاحب الكشاف : وجميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة ...

وقد أعطى الرسول - صلى الله عليه وسلم - المؤمنين مهور نسائهم - اللاحقات بالمشركين - من الغنيمة »[2] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة بقوله : « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ٧٩ .
(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥١٩ .

أى : واتقوا الله تعالى - أيها المؤمنون - فى كل شئونكم ، ونفذوا ما أمركم به أو نهاكم عنه ، فإن الإيمان الحق به - عز وجل - يستلزم منكم ذلك .

فالمقصود بهذا التذيل . الحض على الوفاء بما أمر الله - تعالى - به ، بدون تهاون أو تقاعس .

* * *

وبعد أن بين - سبحانه - حكم النساء المؤمنات المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام ، أتبع ذلك بأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - بمبايعتهن وغيرهن على عدم الاشراك بالله - تعالى - ، وعلى اجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقال - تعالى - :

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا ، وَلَا يَسْرِقْنَ ، وَلَا يَزْنِينَ ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ ، وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ ، وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) » .

فهذه الآية الكريمة ، اشتملت على أحكام متممة للأحكام المشتملة عليها الآيتان السابقتان عليها ...

فكأن الله - تعالى - يقول : إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن ، ولا ترجعوهن إلى الكفار . . . وبايعهن أيها الرسول الكريم على إخلاص العبادة لله - تعالى - .

قال القرطبي ما ملخصه : وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت : كانت المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يمتحن بهذه الآية ... وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أقررن بذلك من قولهن ، قال لهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « انطلقن فقد بايعتكن » .

ولا والله ما مست يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام ... وما مست كف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «قد بايعتكن كلاما»[1].

والمعنى: «يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك..»، أى: مبايعات لك، أو: قاصدات مبايعتك، ومعاهدتك على الطاعة لما تأمرهن به، أو تنهاهن عنه.

وأصل المبايعة: مقابلة شىء بشىء على سبيل المعاوضة. وسميت المعاهدة مبايعة، تشبيها لها بها، فإن الناس إذا التزموا قبول ماشرط عليهم من التكاليف الشرعية، - طمعا فى الثواب وخوفا من العقاب، وضمن لهم - صلى الله عليه وسلم - ذلك فى مقابلة وفائهم بالعهد - صار كأن كل واحد منهم باع ما عنده فى مقابل ما عند الآخر.

والمقتضى لهذه ومبايعة بعد الامتحان لهن، أنهن دخلن فى الاسلام، بعد أن شرع الله - تعالى - ما شرع من أحكام وآداب،... فكان من المناسب أن يأخذ النبى - صلى الله عليه وسلم - عليهن العهود، بأن يلتزمن بالتكاليف التى كلفهن الله - تعالى - بها.

ثم بين - سبحانه - ما تمت عليه المبايعه فقال: «على أن لا يشركن بالله شيئا»، أى: يبايعنك ويعاهدنك على عدم الإشراك بالله - تعالى - فى أى أمر من الأمور التى تتعلق بالعقيدة أو بالعبادة أو بغيرهما.

«ولا يسرقن ولا يزنين..» أى ويبايعنك - أيضا - على عدم ارتكاب

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٧. وتفسير ابن كثير جـ ٨.

فاحشة السرقة ، أو فاحشة الزنا ، فإنهما من الكبائر التى نهى الله - تعالى عنها .

« ولا يقتلن أولادهن » أى : ويبايعنك كذلك ، على عدم قتلهن لأولادهن .

والمراد به هنا : والنهى عن قتل البنات ، وكان ذلك فى الجاهلية يقع تارة من الرجال ، وأخرى من النساء . فكانت المرأة إذا حانت ولادتها حفرت حفرة ، فولدت بجانبها ، فإذا ولدت بنتا رمت بها فى الحفرة ، وسوتها بالتراب ، وإذا ولدت غلاما أبقته .

قال ابن كثير : وقوله ولا يقتلن أولادهن ، وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء . تطرح نفسها لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه »[1] .

وقوله : « ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن » معطوف على ما قبله ، وداخل تحت النهى .

والبهتان : الخبر الكاذب الصريح فى كذبه ، والذى يجعل من قيل فيه يقف مبهوتا ومتحيرا من شدة أثر هذا الكذب السافر .

والافتراء : اختلاق الكذب واختراع الشخص له من عند نفسه .

وللمفسرين فى معنى هذه الجملة الكريمة أقوال منها : أن المرأة فى الجاهلية ، كانت تلتقط المولود وتقول لزوجها : هذا ولدى منك ، فذلك هو البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن ، لأن الولد إذا وضعته الأم ، سقط بين يديها ورجليها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٢٦ .

ويرى بعض أن معنى الجملة الكريمة: ولا تأتوا بكذب شنيع تختلقونه من جهة أنفسكم، فاليد والرجل كناية عن الذات، لأن معظم الأفعال بهما، ولذا قيل لمن ارتكب جناية قولية أو فعلية: هذا جزاء ما كسبت يداك(1).

وقوله - سبحانه -: «ولا يعصينك فى معروف» من الأقوال الجامعة لكل ما يخبر به النبى - صلى الله عليه وسلم - ويأمر بفعله. أو ينهى عن الاقتراب منه.

ويشمل ذلك النهى عن شق الجيوب، ولطم الخدود، ودعوى الجاهلية. وغير ذلك عن المنكرات التى نهى الإسلام عنها.

وقوله - سبحانه -: «فبايعهن واستغفر لهن الله...» جواب «إذا» التى فى أول الآية.

أى: إذا جاءك المؤمنات قاصدات لمبايعتك على الالتزام بتعاليم الإسلام. فبايعهن على ذلك.. واستغفر لهن الله - تعالى - عما فرط منهن من ذنوب. «إن الله غفور رحيم» أى: إن الله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة لعباده المؤمنين.

وهذه المبايعة يبدو أنها وقعت منه - صلى الله عليه وسلم - للنساء أكثر من مرة، إذ منها ما وقع فى أعقاب صلح الحديبية، بعد أن جاءه بعض النساء المؤمنات مهاجرات من دار الكفر إلى دار الاسلام، كما حدث من أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط، ومن سبيعة الأسلمية، ومن أميمة بنت بشر، ومن غيرهن من النساء اللائى تركن أزواجهن الكفار، وهاجرن إلى دار الاسلام.

ومنها ما وقع فى أعقاب فتح مكة، فقد جاء إليه - صلى الله عليه وسلم - بعد فتحها، نساء من أهلها ليبايعنه على الاسلام.

(1) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٨

قال الآلوسى : والمبايعة وقعت غير مرة . ووقعت فى مكة بعد الفتح ، وفى المدينة .

وممن بايعنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مكة ، هند بنت عتبة ، زوج أبى سفيان ... فقرأ عليهن ـ صلى الله عليه وسلم ـ الآية ، فلما قال... ولا يسرقن، قالت : والله إنى لأصيب الهنة من مال أبى سفيان ولا أدرى أيحل لى ذلك ؟ فقال أبو سفيان : ما أصبت من شىء فيما مضى فهو حلال لك .. فلما قرأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ولا يزنين » قالت : أو تزنى الحرة ؟ ..

فلما قرأ « ولا يقتلن أولادهن » قالت : ربيناهم صغارا ، وقتلتهم كبارا، وفى رواية أنها قالت . قتلت الآباء وتوصينا بالأولاد ...

فلما قرأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ولا يأتين ببهتان ... » قالت : والله إن البهتان لقبيح ، ولا يأمر الله ـ تعالى ـ إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فلما قرأ « ولا يعصينك فى معروف » قالت : والله ما جلست مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء ...

والتقييد بالمعروف ، مع أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يأمر إلا به ، للتنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق فى معصية الخالق .

وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر فى حقهن ، لكثرة وقوعها فيما بينهن ... »[1] .

وقد ذكر الإمام ابن كثير ، جملة من الأحاديث التى تدل على أن هذه البيعة قد تمت فى أوقات متعددة ، وفى أماكن مختلفة ، وأنها شملت الرجال والنساء ...

ومن هذه الأحاديث ما أخرجه الإمام أحمد عن سلمى بنت قيس ـ إحدى

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٨١ .

نساء بنى عدى بن النجار ـ قالت : جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبايعه ، فى نسوة من الأنصار ، فشرط علينا: ألا نشرك بالله شيئا، ولا نسرق، ولا نزنى ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف .. ثم قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ولا تغششن أزواجكن » . قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا .

فقلت لامرأة منهن : ارجعى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسليه : ما غش أزواجنا ؟ فسألته فقال : « تأخذ ماله ، فتحابى به غيره » .

وفى الصحيحين عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى مجلس فقال : بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ... فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه .(١) .

* * *

وكما افتتح ـ سبحانه ـ السورة الكريمة بنداء للمؤمنين ، نهاهم فيه عن موالاة أعدائه وأعدائهم ، اختتمها ـ أيضا ـ بنداء لهم ، نهاهم فيه مرة أخرى عن مصافاة قوم قد غضب الله عليهم ، فقال ـ تعالى ـ :

« يأيها الذينَ آمَنُوا لا تتولَّوا قَومًا غَضِبَ اللهُ علَيهِم ، قَدْ يئِسُوا مِنَ الآخِرَة ، كما يئِسَ الـكُفَّار من أصحابِ القُبورِ (١٣) » .

والمراد بالقوم الذين غضب الله عليهم : المشركون: بصفة عامة . ويدخل فيهم دخولا أوليا اليهود ، لأن هذا الوصف كثيرا ما يطلق عليهم .

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٢٤ .

فقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآية ، أن قوما من فقراء المؤمنين ، كانوا يواصلون اليهود ، ليصيبوا من ثمارهم ، وربما أخبروهم عن شىء من أخبار المسلمين ، فنزلت هذه الآية لتنهاهم عن ذلك .

أى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، ينهاكم الله - تعالى - عن أن تتخذوا الأقوام الذين غضب الله عليهم أولياء ، وأصفياء ، بأن تفشوا إليهم أسرار المسلمين . أو بأن تطلعوهم على ما لا يصح الإطلاع عليه ...

وقوله - تعالى - : «قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور» تعليل للنهى عن موالاتهم . وتنفير من الركون إليهم .

واليأس : فقدان الأمل فى الحصول على الشىء ، أو فى توقع حدوثه .

والكلام على حذف مضاف ، أى قد يئس هؤلاء اليهود من العمل للآخرة ، وما فيها من ثواب ، وآثروا عليها الحياة الفانية ... كما يئس الكفار من عودة موتاهم إلى الحياة مرة أخرى للحساب والجزاء ، لاعتقادهم بأنه لا بعث بعد الموت ، ولا ثواب ولا عقاب - كما حكى القرآن عنهم ذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - «وقالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون» .

فالمقصود من الآية الكريمة . تشبيه حال هؤلاء اليهود فى شدة إعراضهم عن العمل للآخرة ... بحال أولئك الكفار الذين أنكروا إنكارا تاما ، أن هناك بعثا للأموات الذين فارقوا الحياة ، ودفنوا فى قبورهم .

وعلى هذا الوجه يكون قوله - تعالى - : «من أصحاب القبور» متعلق بقوله «يئسوا» ، و «من» لابتداء الغاية .

ويصح أن يكون قوله - تعالى - : «من أصحاب القبور» بيانا للكفار ، فيكون المعنى : قد يئسوا من الآخرة ، وما فيها من جزاء ... كما يئس الكفار الذين ماتوا وسكنوا القبور ، من أن ينالوا شيئا - ولو قليلا - من الرحمة ، أو تخفيف العذاب عنهم ، أو العودة إلى الدنيا ليعملوا عملا صالحا غير الذى أرداهم وأهلكهم .

وعلى كلا القولين ، فالآية الكريمة تنهى المؤمنين عن موالاة قوم غضب الله عليهم ، بأبلغ أسلوب ، وأحكم بيان . . .

حيث وصفت هؤلاء القوم ، بأنهم قد أحاط بهم غضب الله ـ تعالى ـ ، بسبب فسوقهم عن أمره ، وإعراضهم عن طاعته ، وإنكارهم للدار الآخرة وما فيها من جزاء .

وبعد فهذا تفسير لسورة « الممتحنة » نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر　　　　　كتبه الراجى عفو ربه

صباح السبت : ٢ من رمضان ١٤٠٦ هـ　　　　　محمد سيد طنطاوى

١٠ من مايو ١٩٨٦ م

تفسير
سُورَةِ الصَّفّ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ - سورة « الصف » من السور المدنية الخالصة ، وقد اشتهرت بهذا الاسم منذ عهد النبوة .

فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيسأله عن أحب الأعمال إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل إلينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجلا . فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعنى سورة الصف كلها »(١) .

قال الآلوسى : « وتسمى - أيضا - سورة الحواريين ، وسورة عيسى - عليه السلام - » .

وعدد آياتها أربع عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « التغابن » وقبل سورة « الفتح » .

٢ - وقد افتتحت بتسبيح الله - تعالى - عن كل ما لا يليق به ، ثم وجهت نداء إلى المؤمنين نهتهم فيه أن يقولوا قولا لم تطابقه أفعالهم ، فقال - تعالى - « يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

وبعد أن ذكر - سبحانه - جانبا مما قاله موسى - عليه السلام - لقومه ، وما قاله عيسى - عليه السلام - لقومه ، أتبع ذلك ببيان ما جبل عليه الكافرون من كذب على الحق ومن كراهية لظهور نوره ، فقال - تعالى - « ومن أظلم من افترى على الله الكذب ، وهو يدعى إلى الإسلام ، والله لا يهدى القوم

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٢١ .

الظالمين، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون».

٣ - ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين، دعاهم فيه - بأبلغ أسلوب - إلى الجهاد في سبيله، بالأنفس والأموال، وحضهم على أن يقتدوا بالحواريين فقال: «يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله، قال الحواريون نحن أنصار الله، فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم، فأصبحوا ظاهرين».

٤ - وهكذا نجد السورة الكريمة. تفتتح بتنزيه الله - تعالى - عن كل نقص، وتنهى عن أن تكون الأقوال مخالفة للأفعال، وتبشر الذين يجاهدون في سبيل الله - تعالى - بمحبته ورضوانه، وتذم الذين آذوا رسل الله - تعالى - وأنكروا نبوتهم بعد أن جاءوهم بالبينات، وترشد إلى التجارة الرابحة التي توصل إلى الفوز العظيم ...

نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا جميعا من الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة - مدينة نصر د. محمد سيد طنطاوي

٢ من رمضان ١٤٠٦ هـ - ١٠/٥/١٩٩٦ م

التفسير

قال الله - تعالى - سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَالَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (٤) » .

افتتحت سورة « الصف » - كما افتتحت قبلها سورة الحديد والحشر - بتنزيه الله - تعالى - عن كل مالا يليق به .

أى : نزه الله - تعالى - وقدسه ، جميع مافى السموات وجميع ما فى الأرض من مخلوقات ، وهو - عز وجل - « العزيز » الذى لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أقواله وأفعاله .

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين فقال : « ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ... » .

وقد ذكروا فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها : ما روى عن ابن عباس أنه قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه . إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به .

فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فنزلت هذه الآيات .

وقال قتادة والضحاك : نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون : قَتَلْنَا ، ضربنا طعنا ، وفعلنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك[١] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير حـ ٨ ص ١٣٢ .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : «لم تقولون . . . » للإنكار والتوبيخ ، على أن يقول الإنسان قولا لا يؤيده فعله ، لأن هذا القول إما أن يكون كذبا ، وإما أن يكون خلفا للوعد . وكلاهما يبغضه الله - تعالى - .

و «لم» مركبة من اللام الجارة ، وما الاستفهامية ، وحذفت ألف ما الاستفهامية مع حرف الجر ، تخفيفا لكثرة استعمالهما معا ، كما فى قولهم: بم ، وفيم ، وعم ...

أى : يامن آمنتم بالله واليوم الآخر .... لماذا تقولون قولا ، تخالفه أفعالكم ، بأن تزعموا بأنكم لو كلفتم بكذا لفعلتموه ، فلما كلفتم به قصرتم فيه ، أو بأن تقولوا بأنكم قد فعلتم كذا وكذا ، مع أنكم لم تفعلوا ذلك .

وناداهم بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة الإيمان فى قلوبهم ، وللتعريض بهم ، إذ من شأن الإيمان الحق أن يحمل المؤمن على أن يكون قوله مطابقا لفعله .

وقوله - سبحانه - : «كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» بيان للآثار السيئة التى تترتب على القول الذى يخالفه الفعل .

وقوله . «كبر» بمعنى عظم ، لأن الشىء الكبير ، لا يوصف بهذا الوصف ، إلا إذا كان فيه كثرة وشدة فى نوعه .

والمقت : البغض الشديد ، ومنه قوله - تعالى - : «ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا» . وهو منصوب على التمييز المحول عن الفاعل: للإشعار بأن قولهم هذا مقت خالص لا تشوبه شائبة من الرضا .

أى : كبر وعظم المقت الناشىء عن قولكم قولا لا تطابقه أفعالكم .

وقال - سبحانه - : «كبر مقتا عند الله» للاشعار بشناعة هذا البغض من الله - تعالى - لهم ، بسبب مخالفة قولهم لفعلهم ، لأنه إذا كانت هذه الصفة عظيمة الشناعة عند الله ، فعلى كل عاقل أن يجتنبها ، ويبتعد عنها .

قال صاحب الكشاف ماملخصة : ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم ، وهذا من أفصح الكلام وأبلغه فى معناه . وقصد فى « كبر » التعجب من غير لفظه ... ومعنى التعجب : تعظيم الأمر فى قلوب السامعين ، لأن التعجب لا يكون إلا من شىء خارج عن نظائره وأشكاله .

وأسند إلى « أن تقولوا » ونصب « مقتا » على تفسيره ، للدلالة على أن قولهم مالا يفعلون مقت خالص لاشوب فيه ، لفرط تمكن المقت منه . واختير لفظ المقت ، لأنه أشد البغض وأبلغه ، ومنه قيل نكاح المقت - وهو أن يتزوج الرجل امرأة أبيه - ...

وإذا ثبت كبر مقته عند الله ، فقد تم كبره وشدته ، وانزاحت عنه الشكوك ..... »(١) .

فأنت ترى أن الله - تعالى - ، قد ذم الذين يقولون مالا يفعلون ذماشديدا، ويندرج تحت هذا الذم ، الكذب فى القول ، والخلف فى الوعد ، وحب الشخص للثناء دون أن يكون قد قدم عملا يستحق من أجله الثناء .

وبعد أن وبخ - سبحانه - الذين يقولون مالا يفعلون ، أتبع ذلك ببيان من يحبهم الله - تعالى - فقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

ومحبة الله - تعالى - لشخص ، معناها : رضاه عنه ، وإكرامه له .

والصف يطلق على الأشياء التى تكون منتظمة فى مظهرها ، متناسقة فى أماكنها والمرصوص : هو المتلاصق الذى انضم بعضه إلى بعض . يقال : رصصت البناء ، إذا ألزقت بعضه ببعض حتى صار كالقطعة الواحدة .

والمعنى : إن الله - تعالى - يحب الذين يقاتلون فى سبيل إعلاء دينه قتالا شديدا ، حتى لكأنهم فى ثباتهم ، واجتماع كلمتهم ، وصدق يقينهم .... بنيان قد التصق بعضه ببعض ، فلا يستطيع أحد أن ينفذ من بين صفوفه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٢٣

فالمقصود بالآية الكريمة، الثناء على المجاهدين الصادقين، الذين يثبتون أمام الاعداء وهم يقاتلونهم، ثباتا لا اضطراب معه ولا تزلزل ...

قال الإمام الرازى: أخبر الله - تعالى - أنه يحب من يثبت فى الجهاد، ويلزم مكانه، كثبوت البناء المرصوص.

ويجوز أن يكون على أن يستوى أمرهم فى حرب عدوهم، حتى يكونوا فى اجتماع الكلمة، وموالاة بعضهم بعضا، كالبنيان المرصوص ...»(1)

* * * * *

ثم ساق سبحانه - جانبا مما قاله موسى - عليه السلام - لقومه، وكيف أنهم عندما انصرفوا عن الحق، عاقبهم - سبحانه - بما يستحقون من عقاب فقال:

« وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ، يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ، فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ».

وموسى - عليه السلام - هو ابن عمران، وهو واحد من أولى العزم من الرسل، وينتهى نسبه إلى إبراهيم - عليه السلام -.

وقد أرسله الله - تعالى - إلى فرعون وقومه. وإلى بنى إسرائيل، وقد لقى - عليه السلام - من الجميع أذى كثير.

ومن ذلك أن فرعون وقومه وصفوه بأنه ساحر، وبأنه مهين ولا يكاد يبين ....

وأن بنى إسرائيل قالوا له عندما أمرهم بطاعته «سمعنا وعصينا»، وقالوا

(1) تفسير الفخر الرازى جـ ٨ ص ١٢٩.

له : « أرنا الله جهرة » وقالوا له : « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ... » وقالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون » .

وقالوا عنه بأنه مصاب فى جسده بالأمراض ، فبرأه الله - تعالى - مما قالوا .

قال ابن كثير : وفى هذا تسلية لرسوله الله - صلى الله عليه وسلم - فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال : رحمة الله على موسى ، لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وفيه نهى للمؤمنين عن أن ينالوا من النبي - صلى الله عليه وسلم - ، أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال - تعالى - « يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها »[1] .

أى واذكر - أيها الرسول الكريم - وذكر أتباعك ليتعظوا ويعتبروا ، وقت أن قال موسى - عليه السلام - لقومه على سبيل الإنكار والتعجيب من حالهم ...

« يا قوم لم تؤذوننى » أى ، قال لهم : يا أهلى ويا عشيرتى لماذا تلحقون الأذى بى ؟

و « وقد » فى قوله - تعالى - : « وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم » للتحقيق ، والجملة حالية ، وجىء بالمضارع بعد « قد » للدلالة على أن علمهم بصدقه متجدد بتجدد ما يأتيهم به من آيات ومعجزات .

قال الجمل . قوله : « وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم » قد للتحقيق . أى : تحقيق علمهم .

---

(١) من ابن كثير جـ ٨ ص ١٢٥ .

أى : لا للتعذيب ولا للتقليل ، وفائدة ذكرها التأكيد ، والمضارع بمعنى الماضى .

أى : وقد علمتم . وعبر بالمضارع ليدل على استصحاب الحال ، وعلى أنها مقررة للإنكار ، فإن العلم برسالته يوجب تعظيمه ، ويمنع إيذاءه ، لأن من عرف الله - تعالى - وعظمته ، عظم رسوله »(١) .

ثم يبين - سبحانه - ما ترتب على إيثارهم الغى على الهدى ، فقال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم . . . »

والزيغ : هو الميل عن طريق الحق . يقال . زاغ يزيغ زيغا وزيغانا ، إذا مال عن الجادة ، وأزاغ فلان فلانا ، إذا حوله عن طريق الخير إلى طريق الشر .

أى : فلما أصروا على الميل عن الحق مع علمهم به ، واستمروا على ذلك دون أن تؤثر المواعظ فى قلوبهم ... أمال الله - تعالى - قلوبهم عن قبول الهدى ، لإيثارهم الباطل على الحق ، والضلالة على الهداية . . .

كما قال - تعالى - : « ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا »(٢) .

وقوله سبحانه - : « والله لا يهدى القوم الفاسقين » تذييل قصد به التقرير لما قبله « من أن الزيغ يؤدى إلى عدم الهداية ، وبيان سنة من سنن الله فى خلقه ، وهى أن من استحب العمى على الهدى ، وأصر على ذلك ... كانت عاقبته الخسران .

أى : وقد اقتضت حكمة الله - تعالى - أن لا يهدى القوم الخارجين عن

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٢٦ .
(٢) سورة النساء . الآية ١١٥ .

طريق الحق ، إلى ما يسعدهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، لأنهم هم الذين اختاروا طريق الشقاء ، وأصروا على سلوكها .

◦ ◦ ◦ ◦ ◦

ثم ذكر - سبحانه - جانبا مما قاله عيسى - عليه السلام - لبنى إسرائيل ، فقال - تعالى - :

« وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) » .

أى : واذكر - أيضا - أيها الرسول الكريم - وذكر الناس ليعتبروا ويتعظوا ، وقت أن قال عيسى ابن مريم ، مخاطبا من أرسله الله إليهم بقوله : « يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم » لكى أخرجكم من ظلمات الكفر والشرك ، إلى نور الإيمان والتوحيد .

ولم يقل لهم يا قوم - كما قال لهم موسى - عليه السلام - ، بل قال : يا بنى إسرائيل » ، لأنه لا أب له فيهم ، وإن كانت أمه منهم ، والأنساب إنما تكون من جهة الآباء ، لا من جهة الأمهات .

وفى قوله « إنى رسول الله إليكم » إخبار صريح منه لهم . بأنه ليس إلها وليس ابن إله - كما زعموا وإنما هو عبد الله ورسوله .

وقوله : « مصدقا لما بين يدى من التوراة » جملة حالية لإثبات حقيقة رسالته ، وحضهم على تأييده وتصديقه والإيمان به .

أى : إنى رسول الله - تعالى - إليكم بالكتاب الذى أنزل الله على وهو الإنجيل ، حال كونى مصدقا للكتاب الذى أنزله الله - تعالى - على نبيه

موسى - عليه السلام - ، وهذا الكتاب هو التوراة ، وما دام الأمر كذلك فمن حقى عليكم ، أن تؤمنوا به ، وأن تتبعونى ، لأنى لم آتكم بشىء يخالف التوراة ، بل هى مشتملة على ما يدل على صدق ، فكيف تعرضون عن دعوتى .

وقوله : مصدقا لما بين يدى ، فيه نوع مجاز ، لأن ما بين يدى الإنسان هو ما أمامه ، فسمى ما مضى كذلك لغاية ظهوره واشتهاره . واللام فى « لما » لتقوية العامل . نحو قوله - تعالى « فعال لما يريد » .

وقوله - سبحانه - : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » معطوف على ما قبله .

والتبشير : الإخبار بما يسر النفس ويبهجها ، بحيث يظهر أثر ذلك على بشرة الإنسان ، وكان إخباره بأن نبيا سيأتى من بعده اسمه أحمد تبشيرا ، لأنه سيأتيهم بما يسعدهم ، ويرفع الأغلال عنهم ، كما قال - تعالى - : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

ولفظ « أحمد » اسم من أسماء نبينا - صلى الله عليه وسلم - وهو علم منقول من الصفة ، وهذه الصفة يصح أن تكون مبالغة من الفاعل . فيكون معناها ، أنه - صلى الله عليه وسلم - أكثر حمدا لله - تعالى - من غيره .

ويصح أن تكون من المفعول ، فيكون معناها أنه يحمده الناس لأجل ما فيه من خصال الخير ، أكثر مما يحمدون غيره .

قال الآلوسى : وهذا الاسم الجليل ، علم لنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وصح من رواية مالك ، والبخارى ، ومسلم ... عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن لى أسماء . أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب ... »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ٨٦

وبشارة عيسى - عليه السلام - بنبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - ثابتة ثبوتا قطعيا بهذه الآية الكريمة، وإذا كانت بعض الأناجيل قد خلت من هذه البشارة، فبسبب ما اعتراها من تحريف وتبديل، على أيدى علماء أهل الكتاب.

ومع ذلك فقد وجدت هذه البشارة فى بعض الأناجيل، كإنجيل يوحنا، فى الباب الرابع عشر، قال الإمام الرازى: فى الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: وأنا أطلب لكم إلى أبى، حتى يمنحكم ويعطيكم الفار قليط حتى يكون معكم إلى الأبد.

والفار قليط هو روح الحق واليقين...»[1].

ومنهم من يرى أن لفظ فار قليط معناه باليونانية: أحمد أو محمد[2].

ومن أصرح الأدلة على أن صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - موجودة فى التوراة والإنجيل، قوله - تعالى - «الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل...»[3].

وقوله - سبحانه -: «فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين» بيان لموقف بنى إسرائيل الجحودى من أنبياء الله - تعالى -.

والضمير فى قوله «جاءهم» يرى بعضهم أنه يعود لعيسى، ويرى آخرون أنه يعود لمحمد - صلى الله عليه وسلم -، أى: فلما جاء عيسى - عليه السلام - أو محمد - صلى الله عليه وسلم -، إلى بنى إسرائيل بالآيات البينات الدالة على صدقه، قالوا على سبيل العناد والجحود: هذا سحر واضح فى بابه، لا يخفى على أى ناظر أو متأمل.

(1) راجع تفسير الفخر الرازى ج ٨ ص ١٣٩
(2) راجع تفسير القاسمى ج ١٦ ص ٥٧٨٨
(3) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف الآية ١٥٧ ص ٢٠٥

ومن المعروف أن بنى إسرائيل قد كذبوا عيسى - عليه السلام -، وكفروا به، ونسبوا إلى أمه الطاهرة، ماهى بريئة منه، ومنزهة عنه . . .

كما كذبوا محمدا - صلى الله عليه وسلم -، وكفروا به ، وصدق الله إذ يقول : « فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين »

ووصفوا ماجاء به بأنه سحر مبين ، على سبيل المبالغة ، فكأنهم يقولون إن ماجاء به هو السحر بعينه ، مع أنهم يعرفون أن ماجاء به هو الحق كما يعرفون أبناءهم ، ولكن ما جبلوا عليه من جحود وعناد ، حال بينهم وبين النطق بكلمة الحق .

* * *

ثم بين - سبحانه - أن هؤلاء المشركين هم أشد الناس ظلما للحق ، وأنه - سبحانه - سيظهره لامحالة، رضوا بذلك أم كرهوا، وأن هذا الدين سيظهره الله - تعالى - على بقية الأديان ، مهما كره الكارهون ، فقال - تعالى - :

« ومَن أظلَمُ مِمَّن افترَى عَلَى اللهِ الكذِبَ وهُو يُدعَى إلى الإسْلَامِ ، واللهُ لا يَهدى القَومَ الظَّالِمِينَ (٧) يريدُونَ ليُطفِئُوا نورَ اللهَ بأَفواهِهم ، واللهُ مُتِمُّ نورِه ولو كَرِه الكافِرون (٨) هُو الذى أرسَلَ رسُولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِه المُشركُون (٩) » .

والاستفهام فى قوله : « ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب . . . » للإنكار والنفى . . والافتراء : أختلاق الكذب واختراعه من جهة الشخص دون أن يكون له أساس من الصحة . وقوله : « وهو يدعى إلى الإسلام » جملة حالية.

أى : ولا أحد أشد ظلما من إنسان يختلق الكذب من عند نفسه على دين

الله - تعالى - وشريعته، والحال أن هذا الإنسان يدعوه الداعى الى الدخول فى دين الإسلام الذى لا يرتضى الله - تعالى - سواه دينا.

«والله» - تعالى - «لا يهدى القوم الظالمين» إلى ما فيه فلاحهم، لسوء استعدادهم، وإيثارهم الباطل على الحق...

ثم بين - سبحانه - ما يهدف إليه هؤلاء الظالمون من وراء افترائهم الكذب على الدين الحق، فقال - تعالى -: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم».

والمراد بنور الله: دين الإسلام الذى ارتضاه - سبحانه - لعباده دينا، وبعث به رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقيل المراد به: حججه الدالة على وحدانيته - تعالى -. وقيل المراد به: القرآن.. وهى معان متقاربة.

والمراد بإطفاء نور الله: محاولة طمسه وإبطاله والقضاء عليه، بكل وسيلة يستطيعها أعداؤه، كإثارتهم للشبهات من حول تعاليمه، وكتحريضهم لمن كان على شاكلتهم فى الضلال على محاربته...

والمراد بأفواههم: أقوالهم الباطلة الخارجة عن تلك الأفواه، التى تنطق بما لا وزن له من الكلام..

والمعنى: يريد هؤلاء الكافرون بالحق، أن يقضوا على دين الإسلام، وأن يطمسوا تعاليمه السامية التى جاء بها النبى - صلى الله عليه وسلم -، عن طريق أقاويلهم الباطلة الصادرة عن افواههم، من غير أن يكون لها مصداق من الواقع تنطبق عليه، أو أصل تستند إليه، وإنما هى أقوال من قبيل اللغو الساقط المهمل الذى لا وزن له ولا قيمة.

قال صاحب الكشاف: مثّل حالهم فى طلبهم إبطال نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - بالتكذيب، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم منبثق فى الآفاق، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى فى الإشراق أو الإضاءة، ليطفئه بنفخه ويطمسه...»[1].

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٦٥

والجملة الكريمة فيها مافيها من التهكم والاستهزاء بهؤلاء الكافرين ، حيث شبههم ـ سبحانه ـ فى جهالاتهم وغفلتهم ، بحال من يريد إطفاء نور الشمس الوهاج ، بنفخة من فمه الذى لا يستطيع إطفاء ماهو دون ذلك بما لايحصى من المســرات .

وقوله ـ تعالى ـ : « والله متم نوره ولو كره الكافرون » بشارة للمؤمنين بأن ماهم عليه من حق ، لابد أن يعم الآفاق ..

أى : والله ـ تعالى ـ بقدرته التى لا يعجزها شىء ، متم نوره ، ومظهر دينه ومؤيد نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولو كره الكافرون ذلك ، فإن كراهيتهم لظهور دين الله ـ تعالى ـ لا أثر لها ولاقيمة . فالآية الكريمة وعد من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين ، بإظهار دينهم ، وإعلاء كلمتهم ، لكى يزيدهم ذلك ثباتا على ثباتهم ، وقوة على قوتهم ...

ثم أكد ـ سبحانه ـ وعده بإتمام نوره ، وبين كيفية هذا الإتمام فقال : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .... » .

والمراد بالهدى : القرآن الكريم . المشتمل على الإرشادات السامية ، والتوجيهات القويمة . والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة .

والمراد بدين الحق : دين الإسلام الذى هو خاتم الأديان .

وقوله : « ليظهره على الدين كله » من الإظهار بمعنى الإعلاء والغلبة بالحجة والبرهان ، والسيادة والسلطان .

والجملة تعليلية لبيان سبب هذا الإرسال والغاية منه .

والضمير فى « ليظهره » يعود على الدين الحق ، أو على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

أى : هو الله ـ سبحانه ـ الذى أرسل رسوله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالقرآن الهادى للتى هى أقوم ، وبالدين الحق الثابت الذى لاينسخه دين آخر ، وكان هذا الإرسال لإظهار هذا الدين الحق على سائر الأديان بالحجة والغلبة .

« ولو كره المشركون » ذلك ، فإن كراهيتهم لا أثر لها فى ظهوره ، وفى علائه على جميع الأديان .

ولقد أنجز الله - تعالى - وعده ، حيث جعل دين الإسلام ، هو الدين الغالب على جميع الأديان بحججه وبراهينه الدالة على أنه الدين الحق الذى لا يحوم حوله باطل ..

هذا ، وقد ساق الإمام ابن كثير بعض الأحاديث التى تؤيد ذلك ، ومنها : ماثبت فى الصحيح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها »(١) .

° ° °

ثم وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين، أرشدهم فيه إلى مايسعدهم ، وينجيهم من كل سوء ، فقال - تعالى - :

« يأيها الذينَ آمنُوا هَل أدُلكُم على تجارةٍ تُنْجيكُم من عذابٍ أليمٍ (١٠) تؤمِنُونَ باللهِ ورسولهِ ، وتجاهِدُون فى سَبيلِ اللهِ بأموالكُم وأنفسِكُم ، ذلِكُم خيرٌ لكُم إنْ كنتُم تعلَمونَ (١١) يَغفِرْ لكُم ذُنوبكُم ، ويُدخلكُم جنَّاتٍ تَجرِى مِنْ تحتِها الأنهارُ ، ومساكِنَ طَيبة فى جنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الفوزُ العَظِيمُ (١٢) وأُخرَى تحبُّونَها نصرٌ من اللهِ وفَتحٌ قريبٌ وبشّرِ المؤمنينَ (١٣) » .

وهذه الآيات الكريمة جواب عما قاله بعض المؤمنين لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملناها ، كما سبق

---

(١) راجع تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٣٤٩

أن ذكرنا فى سبب قوله ـ تعالى ـ : « يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون .... » .

فكأنه ـ سبحانه ـ بعد أن نهاهم عن أن يقولوا قولا، تخالفه أفعالهم، وضرب لهم الأمثال بجانب من قصة موسى وعيسى ـ عليه السلام ـ ، وبشرهم بظهور دينهم على سائر الأديان ...

بعد كل ذلك أرشدهم إلى أحب الأعمال إليه ـ سبحانه ـ فقال : « يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة .... » .

والتجارة فى الأصل معناها : التصرف فى رأس المال ، وتقليبه فى وجوه المعاملات المختلفة ، طلبا للربح .

والمراد بها هنا : العقيدة السليمة ، والأعمال الصالحة ، التى فسرت بها بعد ذلك فى قوله ـ تعالى ـ « تؤمنون بالله ورسوله .... »

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « هل أدلكم ... » للتشويق والتخصيص إلى الأمر المدلول عليه .

والمعنى : يامن آمنتم بالله ـ تعالى ـ وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ألا تريدون أن أدلكم على تجارة رابحة ، تنجيكم مزاولتها ومباشرتها ، من عذاب شديد الألم ؟ إن كنتم تريدون ذلك ، فهاكم الطريق إليها ، وهى : « تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم » .

فقوله ـ سبحانه ـ : « تؤمنون بالله ورسوله ... » استئناف مفسر وموضح لقوله « هل أدلكم ... » ؟ فكأن سائلا قال : وماهذه التجارة ؟ دلنا عليها ، فكان الجواب : تؤمنون بالله ورسوله ...

أى : تداومون مداومة تامه على الإيمان بالله ـ تعالى ـ ، وبرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وتجاهدون فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه بأموالكم وأنفسكم ..

قالوا : وقوله « تؤمنون . . . » خبر فى معنى الأمر ، ويدل عليه قراءة ابن مسعود : آمنوا بالله ورسوله ، وجاهدوا فى سبيله . . .

وفائدة العدول إلى الخبر : الإشعار بأنهم قد امتثلوا لما أرشدوا إليه ، فكأنه - سبحانه - يخبر عن هذا الامتثال الموجود عندهم .

وجه التعبير بقوله : « هل أدلكم » ، لإفادة أن ما يذكر بعد ذلك من الأشياء التى تحتاج إلى من يهدى إليها ، لأنها أمور مرد تحديدها إلى الله - تعالى - .

وتنكير لفظ التجارة ، للتهويل والتعظيم ، أى : هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن .. ؟

وأطلقت التجارة هنا على الإيمان والعمل الصالح ، لأنهما يتلاقيان ويتشابهان فى أن كليهما المقصود من ورائه الربح العظيم ، والسعى من أجل الحصول على المنافع .

وقدم - سبحانه - هنا الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس ، لأن المقام مقام تفسير وتوضيح لمعنى التجارة الرابحة عن طريق الجهاد فى سبيل الله ، ومن المعلوم أن التجارة تقوم على تبادل الأموال ، وهذه الأموال هى عصب الجهاد ، فمن طريقها تشترى الأسلحة والمعدات التى لا غنى للمجاهدين عنها ، وفى الحديث الشريف : « من جهز غازيا فقد غزا » .

وقدم - سبحانه - فى قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. »[1] قدم الأنفس على الأموال ، لأن الحديث هناك ، كان فى معرض الاستبدال والعرض والطلب ، والأخذ والعطاء . . . فقدم - سبحانه - الأنفس لأنها أعز ما يملكه الإنسان ، وجعل فى مقابلها الجنة لأنها أعز ما يوهب ، وأسمى ما تتطلع إلى نيله النفوس . . .

(١) سورة التوبة الآية ١١١

واسم الإشارة فى قوله : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » يعود إلى ما سبق ذكره من الإيمان والجهاد .

أى : ذلكم الذى أرشدناكم إلى التمسك به من الإيمان والجهاد فى سبيل الله، هو خير لكم من كل شىء إن كنتم من أهل العلم والفهم .

فقوله « تعلمون » منزل منزلة الفعل اللازم، للإشعار بأن من يخالف ذلك، لا يكون لا من أهل العلم، ولا من أهل الإدراك .

وجعله بعضهم فعلا متعديا ، ومفعوله محذوف ، والتقدير : إن كنتم تعلمون أنه خير لكم فافعلوه ، ولا تتقاعسوا عن ذلك .

وقوله - سبحانه - : « يغفر لكم ذنوبكم » مجزوم على أنه جواب لشرط مقدر . أى : إن تمتثلوا أمره - تعالى - يغفر لكم ذنوبكم .

ويصح أن يكون مجزوما على أنه جواب للأمر المدلول عليه بلفظ الخبر فى قوله - تعالى - قبل ذلك، « تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون ... » . لأنهما - كما قلنا - وإن جاءا بلفظ الخبر، إلا أنهما فى معنى الأمر، أى: آمنوا وجاهدوا.

أى آمنوا بالله - تعالى - إيمانا حقا ، وجاهدوا فى سبيل إعلاء كلمته بأموالكم وأنفسكم ، يغفر لكم - سبحانه - ذنوبكم ، بأن يزيلها عنكم ، ويسترها عليكم . .

« ويدخلكم » فضلا عن ذلك « جنات » عاليات « تجرى من تحتها الأنهار » أى : تجرى من تحت مساكنها وبساتينها الأنهار .

ويعطيكم « مساكن طيبة » أى: قصورا مشتملة على كل ما هو طيب ونافع وخصت المساكن الطيبة بالذكر ، لأن المجاهدين قد فارقوا مساكنهم ، ومنهم من استشهد بعيدا عنها ، وفيها أهله وماله ... فوعدهم - سبحانه - بما هو خير منها .

وقوله « فى جنات عدن » أى : هذه المساكن الطيبة كائنة فى جنات باقية

خالدة ، لا تزول ولا تنتهى ، بل أصحابها يقيمون فيها إقامة دائمة . يقال عدن فلان بالمكان ، إذا أقام فيه إقامة مؤبدة .

« ذلك الفوز العظيم » أى : ذلك الذى منحناكم إياه من مغفرة لذنوبكم، ومن خلودكم فى الجنـة . . . هو الفوز العظيم الذى لا يقاربه فوز ، ولا يدانيه ظفر .

وقوله - سبحانه - : « وأخرى تحبونها .. » بيان لنعمة أخرى يعطيهم - سبحانه - إياها ، سوى ما تقدم من نعم عظمى .

ولفظ «أخرى» مبتدأ خبره محذوف دل عليه ماتقدم ، وقوله : «تحبونها» صفة للمبتدأ .

أى: ولكم - فضلا عن كل ماتقدم - نعمة أخرى تحبونها وتتطلعون إليها .

وهذه النعمة هى : «نصر» عظيم كائن «من الله» - تعالى - «لكم» «وفتح» قريب ، أى : عاجل « وبشر المؤمنين » أى : وبشر - أيها الرسول الكريم - المؤمنين بذلك ، حتى يزدادوا إيمانا على إيمانهم ، وحتى تزداد قلوبهم إنشراحا وسرورا .

ويدخل فى هذا النصر والفتح القريب دخولا أوليا : فتح مكة ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا . .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن الكريم ، الراجعة إلى الإخبار بالغيب ، حيث أخبر - سبحانه - بالنصر والفتح ، فتم ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - ولأصحابه ، فى أكمل صورة ، وأقرب زمن .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بنداء ثالث وجهه إلى المؤمنين ، دعاهم فيه إلى التشبيه بالصالحين الصادقين من عباده فقال :

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللَّهِ ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ

فَآمَنَتْ طائِفَةٌ مِنْ بَنِي إسرائيلَ وكَفَرَتْ طائِفَةٌ، فأيَّدْنَا الذينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِم ، فأصْبَحُوا ظاهِرِين (١٤) » .

والحواريون : جمع حوارى . وهم أنصار عيسى - عليه السلام - الذين آمنوا به وصدقوه ، وأخلصوا له ولازموه ، وكانوا عونا له فى الدعوة إلى الحق . وكانوا اثنى عشر رجلا .

يقال : فلان حوارى فلان ، أى : هو من خاصة أصحابه ، ومنه قول النبى - صلى الله عليه وسلم - فى الزبير بن العوام : «لكل نبى حوارى، وحوارى الزبير» .

وأصل الحور : شدة البياض والصفاء ، ومنه قولهم فى خالص لباب الدقيق : الحوارى . وفى النساء البيض الحسان : الحواريات والحوريات :

وسمى الله - تعالى - أصفياء عيسى وأنصاره بذلك لشدة إخلاصهم له ، وطهارة قلوبهم من الغش والنفاق ، فصاروا فى نقائهم وصفائهم كالشىء الأبيض الخالص .

والأنصار : جمع نصير ، وهو من ينصر غيره نصرا شديدا مؤزرا .

والمراد بنصر الله - تعالى - : نصر دينه وشريعته ونبيه الذى أرسله بالهدى ودين الحق .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : كونوا أنصارا لله .

والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان داوموا وواظبوا على أن على أن تكونوا أنصارا لدين الله فى كل حال ، كما كان الحواريون كذلك ، عندما دعاهم عيسى - عليه السلام - إلى نصرته والوقوف إلى جانبه .

فالكلام محمول على المعنى ، والمقصود منه حض المؤمنين على طاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعلى الاستجابة التامة لما يدعوهم إليه ، كما فعل الحواريون مع عيسى ، حيث ثبتوا على دينهم ، وصدقوا مع نبيهم ، دون أن تنال منهم الفتن أو المصائب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ماوجه صحة التشبيه ـ وظاهره تشبيه كونهم أنصارا بقول عيسى لهم « من أنصارى إلى الله » .

قلت : التشبيه محمول على المعنى ، وعليه يصح . والمراد كونوا أنصار الله ، كما كان الحواريون أنصار عيسى كذلك حين قال لهم : من أنصارى إلى الله .

فإن قلت : فما معنى قوله : « من أنصارى إلى الله » ؟ قلت: يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين : « نحن أنصار الله » ، والذى يطابقه أن يكون المعنى : من جندى متوجها إلى نصرة دين الله . . . »[1] .

والاستفهام فى قوله ـ تعالى ـ : « من أنصارى إلى الله » للحض على نصرته والوقوف إلى جانبه .

وأضافهم ـ عليه السلام إليه ، باعتبارهم أنصار دعوته ودينه .

وقوله : « إلى الله » متعلق بأنصارى ، ومعنى « إلى » الانتهاء المجازى .

أى : قال عيسى للحواريين على سبيل الامتحان لقوة إيمانهم : من الجند المخلصون الذين أعتمد عليهم بعد الله ـ تعالى ـ فى نصرة دينه ، وفى التوجه إليه بالعبادة والطاعة وتبليغ رسالته . . . ؟

فأجابوه بقولهم : نحن أنصار دين الله ـ تعالى ـ ، ونحن الذين على استعداد أن نبذل نفوسنا وأموالنا فى سبيل تبليغ دعوته ـ عز وجل ـ ، ومن أجل إعلاء كلمته .

وقوله ـ تعالى ـ : « فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة . . . » مفرع على ما قبله ، لبيان موقف قومه منه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٢٨ .

أي : قال الحواريون لعيسى عندما دعاهم إلى أتباع الحق : نحن أنصار دين الله ، ونحن الذين سنثبت على العهد . . . أما بقية بنى إسرائيل فقد افترقوا إلى فرقتين : فرقة آمنت بعيسى وبما جاء به من عند الله ـ تعالى ـ ، وفرقة أخرى كفرت به وبرسالته .

وقوله : « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » بيان للنتائج التى تحققت لكل طائفة من الطائفتين : المؤمنة والكافرين .

وقوله : « ظاهرين » من الظهور بمعنى الغلبه . يقال : ظهر فلان على فلان إذا تغلب عليه وقهره .

أي : كان من قوم عيسى من آمن به ، ومنهم من كفر به ، فأيدنا وقوينا ونصرنا الذين آمنوا به ، على الذين كفروا به ، فصار المؤمنون ظاهرين ومنتصرين على أعدائهم بفضله ـ تعالى ـ ومشيئته .

والمقصود من هذا الخبر حض المؤمنين فى كل زمان ومكان، على الإيمان والعمل الصالح ، لأن سنه الله ـ تعالى ـ قد اقتضت أن يجعل العاقبة لهم ، كما جعلها لأتباع عيسى المؤمنين ، على أعدائهم الكافرين .

قال بعض العلماء : وتأويل هذا النص يمكن أن ينصرف إلى أحد معنيين: إما أن الذين آمنوا برسالة عيسى ـ عليه السلام ـ ، هم المسيحيون إطلاقا، من استقام ، ومن دخلت فى عقيدته الانحرافات ، وقد أيدهم الله ـ تعالى ـ على اليهود الذين لم يؤمنوا به أصلا ، كما حدث فى التاريخ .

وإما أن الذين آمنوا : هم الذين أصروا على التوحيد فى وجه المؤلهين لعيسى ، والمثلثين وسائر النحل التى انحرفت عن التوحيد .

ومعنى : أنهم أصبحوا ظاهرين ، أى : بالحجة والبرهان . أو أن التوحيد الذى هم عليه ، هو الذى أظهره الله بهذا الدين الأخير ـ أى :دين الإسلام ـ وجعل له الجولة الأخيرة فى الأرض ، كما وقع فى التاريخ .

وهذا المعنى الأخير هو الأرجح والأقرب فى هذا السياق (١) .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الصف » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده . . .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة : مدينة نصر . مساء الخميس ٧ من رمضان سنه ١٤٠٦ ه
الموافق ١٥/٥/١٩٨٦ م

(١) تفسير فى ظلال القرآن ح ٢٨ ص ٨٩ .

تفسير
سُورَةُ الجُمُعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ – سورة « الجمعة » من السور المدنية الخالصة .

قال الآلوسى : هى مدنية ، كما روى عن ابن عباس وابن الزبير ، والحسن ، ومجاهد . وعكرمة ، وقتادة ، وإليه ذهب الجمهور .

وقال ابن يسار : هى مكية ، وحكى ذلك عن ابن عباس ومجاهد : والأول هو الصحيح . لما رواه البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : كنا جلوسا عند النبى – صلى الله عليه وسلم – حين أنزلت سورة الجمعة ، فتلاها . فلما بلغ « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ... » قال له رجل : يارسول الله – من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فوضع – صلى الله عليه وسلم – يده على سلمان الفارسى ، وقال : والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء ... » .

ومن المعروف أن إسلام أبى هريرة كان بعد الهجرة بمدة بالاتفاق . »[١].

٢ – وهى عشر آيات ، وكان نزولها بعد سورة « التحريم » ، وقبل سورة « التغابن » .

وقد كان النبى – صلى الله عليه وسلم – كثيرا ما يقرؤها فى صلاة الجمعة ، فقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين » .

وأخرج ابن حبان والبيهقى عن جابر بن سمرة أنه قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ فى صلاة المغرب ليلة الجمعة « بسورة « الكافرون » وبسورة « قل هو الله أحد ... » ، وكان يقرأ فى صلاة العشاء الأخيرة من ليلة

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ٩٢ .

الجمعة ، بسورة الجمعة ، وبسورة المنافقين ... » وسميت بهذا الاسم لحديثها عن يوم الجمعة ، وعن وجوب السعى إلى صلاتها .

٣ — وقد اشتملت السورة الكريمة ، على الثناء على الله - عز وجل - ، وعلى مظاهر نعمه على عباده ، حيث أرسل فيهم رسولا كريما ، ليزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . .

كما اشتملت على توبيخ اليهود وذمهم ، لعدم عملهم بالكتاب الذى أنزله - سبحانه - لهدايتهم وإصلاح حالهم ...

كما اشتملت على دعوة المؤمنين ، إلى المحافظة على صلاة الجمعة ، وعلى المبادرة إليها دون أن يشغلهم عنها شاغل ...

نسأل الله - تعالى أن يجعلنا من المحافظين على فرائضه وتكاليفه ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

د محمد سيد طنطاوى

القاهرة ٥ من شوال ١٤٠٦ هـ
١٩٨٦/٦/١١ م

التفسير

قال الله — تعالى — : « يُسَبِّح للهِ مافى السَّموات وما فى والأرض المَلِكِ القُدُّوس العزيزِ الحكيمِ (١) هُو الذى بعَثَ فى الأُمِّيينَ رسولاً منهم ، يتلُوا علَيهم آياتِه ، ويُزكِّيهم ، ويُعلِّمهمُ الكتابَ والحكمةَ ، وإنْ كانُوا مِنْ قبلُ لفى ضلَالٍ مُبينٍ (٢) وآخرِينَ مِنهم لمَّا يَلحقُوا بهِمْ وهُو العزيزُ الحكيمُ (٣) ذلكَ فَضْلُ اللهِ يؤتِيهِ من يشاءُ ، واللهُ ذُو الفضلِ العَظيمِ (٤) » .

افتتحت سورة « الجمعة » كغيرها من أخواتها « المسبحات » بالثناء على الله - تعالى - ، وببيان أن المخلوقات جميعها، تسبح بحمده - تعالى - وتقدس له.

والتسبيح : تنزيه الله - تعالى - عما لا يليق به ، اعتقادا وقولا وعملا ، مأخوذ من السبح ، وهو المر السريع فى الماء أو الهواء ، لأن المسبح لله - تعالى - مسرع فى تنزيهه - تعالى - وتبرئته من كل سوء .

وقوله : « القدوس » من التقديس بمعنى التعظيم والتطهير وغير ذلك من صفات الكمال .

أى : أن التسبيح : نفى مالايليق بذاته - تعالى - ، والتقديس : إثبات مايليق بجلاله - سبحانه - والمعنى : ينزه الله - تعالى - ويمده عن كل نقص ، جميع مافى السموات ، وجميع مافى الأرض من مخلوقات ، فهو - سبحانه - الملك ، أى : المدبر لشئون هذا الكون ، المتصرف فيه تصرف المالك فيما يملكه ...

« القدوس » أى : البليغ فى الطهارة وفى التنزه عن كل نقص ، من القدس - بضم القاف وسكون الدال - بمعنى الطهر . وأصله القدس - بفتح القاف والدال - وهو الإناء الذى يكون فيه مايتطهر به ، ومنه القادوس وهو إناء معروف .

« العزيز » الذى لا يغلبه غالب « الحكيم » فى كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .

هذا ، ومن الآيات الكثيرة الدالة على أن جميع من فى السموات ومن فى الأرض ، يسبحون لله - تعالى - ، قوله - عز وجل - : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم . إنه كان حليما غفورا »(١)

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله على خلقه ، فقال « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة .... »

وقوله : الأميين « جمع أمى ، وهو صفة لموصوف محذوف . أى : فى الناس أو فى القوم الأميين . والمراد بهم العرب ، لأن معظمهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة .

وسمى من لا يعرف القراءة والكتابة بالأمى ، لغلبة الأمية عليه ، حتى لكأن حاله بعد تقدمه فى السن ، كحاله يوم ولدته أمه فى عدم معرفته للقراءة والكتابة .

و « من » فى قوله - تعالى - : « منهم » للتبعيض ، باعتبار أنه واحد منهم ويشاركهم فى بعض صفاتهم وهى الأمية .

وقوله : « يتلو ... » من التلاوة ، وهى القراءة المتتابعة المرتلة ، التى يكون بعضها تلو بعض .

وقوله : « ويزكيهم » من التزكية بمعنى التطهير والتنقية من السوء والقبائح .

والمراد بالكتاب : القرآن ، والمراد بتعليمه : بيان معانيه وحقائقه ، وشرح أحكامه وأوامره ونواهيه ...

---

(١) سورة الإسراء . الآية ٤٤ .

والمراد بالحكمة : العلم النافع ، المصحوب بالعمل الصالح ، وفي وضعها إلى جانب الكتاب إشارة إلى أن المقصود بها ، السنة النبوية المطهرة ، إذ بالكتاب وبالسنة ، يعرف الناس أصلح الأقوال والأفعال ،واعدل الأحكام، وأقوم الآداب ، وأسمى الفضائل ...

أي : هو سبحانه ـ وحده ، الذى « بعث » بفضله وكرمه ، فى العرب « الأميين » رسولا ، كريما عظيما ، كائنا « منهم » أي : من جنسهم ويعرفون حسبه ونسبه وخلقه . هذا الرسول الكريم أرسلناه إليهم ، ليقرأ عليهم آيات الله ـ تعالى ـ التى أنزلها عليه لهدايتهم وسعادتهم ، متى آمنوا بها،وعملوا بما اشتملت عليه من توجيهات سامية ....

وأرسلناه إليهم ـ أيضا ليزكيهم ، أى وليطهرهم من الكفر والقبائح والمنكرات . وليعلمهم الكتاب ، بأن يحفظهم إياه ، ويشرح لهم أحكامه ، ويفسر لهم ما خفى عليهم من ألفاظ ومعانيه .

وليعلمهم ـ أيضا ـ الحكمة ، أى : العلم النافع المصحوب بالعمل الطيب وصدر ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بضمير اسم الجلالة،لتربية المهابة فىالنفوس، ولتقوية ما اشتملت عليه من نعم وأحكام ، إذ هو ـ سبحانه ـ وحده الذى فعل ذلك لا غيره .

وعبر ـ سبحانه بفى المفيدة للظرفية فى قوله ـ تعالى ـ : « فى الأميين » ، للإشعار بأن هـذا الرسول الكريم الذى أرسله إليهم ، كان مقيما فيهم ، وملازما لهم ، وحريصا على أن يبلغهم رسالة الله ـ تعالى ـ فى كل الأوقات والأزمان .

والتعبير بقوله : « منهم » فيه ما فيه من دعوتهم إلى الإيمان به ، لأن هذا الرسول الكريم ، ليس غريبا عنهم ، بل هو واحد منهم شرفهم من شرفه ، وفضلهم من فضله ...

وهذه الآية الكريمة صريحة فى أن الله ـ تعالى ـ قد استجاب دعوة نبيه إبراهيم ـ عليه السلام عندما دعاه بقوله : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم »(١) .

وقد جاء ترتيب هذه الآية الكريمة وأمثالها فى أسمى درجات البلاغة والحكمة . لأن أول مراحل تبليغ الرسالة ، يكون بتلاوة القرآن ، ثم ثنى ـ سبحانه ـ بتزكية النفوس من الأرجاس، ثم ثلث بتعليم الكتاب والحكمة ، لأنهما يكونان بعد التبليغ والتزكية للنفوس .

ولذا قالوا : أن تعليم الكتاب غير تلاوته ، لأن تلاوته معناها : قراءته قراءة مرتلة ، أما تعليمه فمعناه : بيان أحكامه ، وشرح ما خفى من ألفاظه وأحكامه .

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمه ، قد اشتملت على جملة من الصفات الجليلة ، التى منحها ـ سبحانه ـ لنبيه محمد ـ صلى الله عليه وسلم .

ثم بين ـ سبحانه ـ بعد ذلك حال الناس قبل بعثته ـ صلى الله عليه وسلم فقال : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »

وهذه الجمله الكريمة فى موضع الحال من قوله ـ : « هو الذى بعث فى الأميين . . . » و « إن » فى قوله « وإن كانوا . . » مخففة من الثقلية، واسمها ضمير الشأن محذوف . . .

أى : هو ـ سبحانه ـ بفضله وكرمه ، الذى بعث فى الأميين رسولا منهم، وحالهم أنهم كانوا قبل إرسال هذا الرسول الكريم فيهم ، فى ضلال واضح لا يخفى أمره على عاقل ، ولا يلتبس قبحه على ذى ذوق سليم . وحقا لقد كان

(١) سورة البقرة الآية ١٢٩ .

الناس قبل أن يبزغ نور الإسلام، الذى جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه، فى ضلال واضح، وظلام دامس، من حيث العقائدو العبادات، والأخلاق والمعاملات ....

فكان من رحمة الله - تعالى - بهم، أن أرسل فيهم رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم -، لكى يخرجهم من ظلمات الكفر والفسوق والعصيان، إلى نور الهداية والاستقامه والإيمان.

ثم بين - سبحانه - أن رسالة رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - لن يكون نفعها مقصورا على المعاصرين له والذين شاهدوه .. بل سيعم نفعها من سيجيئون من بعدهم، فقال - تعالى -: «وآخرين» منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم».

وقوله: «وآخرين» جمع آخر بمعنى الغير، والجملة معطوفة على قوله قبل ذلك «فى الأميين ...» فيكون المعنى:

هو - سبحانه - الذى بعث فى الأميين رسولا منهم، كابعثه فى آخرين منهم.

«لما يلحقوا بهم» أى: لم يجيئوا بعد، وهم كل من يأتى بعد الصحابة من أهل الإسلام إلى يوم القيامة، بدليل قوله - تعالى -: «وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ...»[1]

أى: وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة، ولأنذر به جميع من بلغه هذا الكتاب. ووصلت إليه دعوته من العرب وغيرهم إلى يوم القيامة.

وفى الحديث الشريف: بلغوا عن الله - تعالى - فمن بلغته آية من كتاب الله، فقد بلغه أمر الله».

(١) سورة الأنعام الآية ١٩.

وعن محمد بن كعب قال: «من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي - صلى الله عليه وسلم - ...»(١)

ويصح أن يكون قوله: «وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ...» معطوف على الضمير المنصوب فى قوله: «ويعلمهم ...» فيكون المعنى:

هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلم آخرين منهم، لما يلحقوا بهم، أى: لم يجيئوا بعد، وسيجيئون ... وهم كل من آمن بالرسول من بعد الصحابة إلى يوم القيامه.

قال صاحب الكشاف: وقوله: «وآخرين» مجرور عطف على الأميين. يعنى: أنه بعثه فى الأميين الذين على عهده، وفى آخرين من الأميين الذين لم يلحقوا بهم بعد، وسيلحقون بهم، وهم الذين بعد الصحابة.

وقيل: لما نزلت قيل: من هم يا رسول الله، فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا لتناوله رجال من هؤلاء».

وقيل: هم الذين يأتون من بعدهم إلى يوم القيامة.

ويجوز أن ينتصب عطفا على المنصوب فى «ويعلمهم». أى: يعلمهم ويعلم آخرين؛ لأن التعليم إذا تناسق إلى آخر الزمان كان كله مستنداً إلى أدلة، فكأنه هو الذى تولى كل ما وجد منه»(٢).

والمتأمل فى هذه الآيه الكريمة يراها تشير إلى أن دعوة النبى - صلى الله عليه وسلم -، ستبلغ غير المعاصرين له - صلى الله عليه وسلم -، وأنهم سيتبعونها، ويدافعون عنها ...

وهذا ما أيده الواقع، فقد دخل الناس فى دين الله أفواجا من العرب ومن غير العرب، ومن أهل المشارق والمغارب ...

(١) راجع تفسيرنا لسورة الأنعام ج ٧٣.
(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٣٠.

فالآية الكريمة تخبر عن معجزة من معجزات القرآن الكريم ، ألا وهى الإخبار عن أمور مستقبلة أيدها الواقع المشاهد .

وقوله - تعالى - : « وهو العزيز الحكيم » تذييل المقصود به بيان أن قدرته - تعالى - لا يعجزها شيء ، وأن حكمته هى أسمى الحكم وأسدها .

أى : وهو - سبحانه - العزيز الذى لا يغلب قدرته شيء ، الحكيم فيما يريده ويقدره ويوجده .

واسم الإشارة فى قوله : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ... » يعود إلى ما تقدم ذكره من كرمه - تعالى - على عباده ، حيث اختص رسوله - محمدا - صلى الله عليه وسلم - بهذه الرسالة الجامعة لكل خير وبركة ، وحيث وفق من وفق من الأميين وغيرهم ، إلى اتباع هذا الرسول الكريم ...

أى : ذلك البعث منا لرسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - لكى يهدى الناس بإذننا إلى الصراط المستقيم ، هو فضلنا الذى نؤتيه ونخصه لمن نشاء اختصاصه به من عبادنا ...

« والله » - تعالى - هو « ذو الفضل العظيم » الذى لا يقاربه فضل ، ولا يدانيه كرم .

كما قال - سبحانه - : قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم »[1] .

* * * * *

ثم انتقلت السورة الكريمة - بعد هذا البيان لفضل الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وعلى من أرسله لهدايتهم - إلى الحديث عن جانب من رذائل اليهود ، وأمرت النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يتحداهم وأن يرد على أكاذيبهم . . فقال - تعالى - :

(١) سورة آل عمران . الآيتان ٧٣، ٧٤ .

« مَثَلُ الذينَ حُمِّلوا التَّوراةَ ثمَّ لم يحمِلوها كمَثَلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً بئسَ مثلُ القومِ الذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ ، واللهُ لا يَهدِي القومَ الظَّالمينَ (٥) قُلْ يأيُّها الذينَ هادُوا إنْ زعمتُم أنكُم أولياءُ للهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ ، فتمنَّوا الموتَ إنْ كُنتُم صادِقينَ (٦) ولا يتمنَّونهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهم ، واللهُ عَليمٌ بالظَّالمينَ (٧) قُلْ إنَّ الموتَ الذي تفرُّونَ منْهُ فإنَّه ملاقِيكُم ، ثُمَّ تُرَدُّون إلى عالمِ الغيبِ والشَّهادةِ ، فيُنَبِّئُكُم بما كُنتُم تعملُونَ (٨) » .

والمراد بالمثل في قوله - تعالى - « مثل الذين حملوا التوراة . . . » : الصفة والحال . . .

والمراد بالذين حملوا التوراة : اليهود الذين كلفهم الله - تعالى - بالعمل بما اشتملت عليه التوراة من هدايات وأحكام وآداب . . . ولكنهم نبذوها وتركوا العمل بها .

والأسفار : جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير المشتمل على ألوان من العلم النافع ، وسمى بذلك لأنه يسفر ويكشف عما فيه من المعاني المفيدة للمطالع عليها .

والمعنى : حال هؤلاء اليهود الذين أنزل الله - تعالى - إليهم التوراة لهدايتهم . . . ولكنهم لم ينتفعوا بها . . . كحال الحمار الذي يحمل كتب العلم النافع ، ولكنه لم يستفد من ذلك شيئا ، لأنه لا يفقه شيئا مما يحمله . . .

فى هذا المثل شبه الله - تعالى - اليهود الذين لم ينتفعوا بالتوراة التي فيها الهداية والنور ، بحال الحمار الذي يحمل كتب العلوم النافعة دون أن يستفيد بها .

ووجه الشبه بين الإثنين : هو عدم الانتفاع بما من شأنه أن ينتفع به أنتفاعا عظيما ، لسمو قيمته ، وجلال منزلته .

قال صاحب الكشاف : شبه اليهود - فى أنهم حملة التوراة وقراوها وحفاظ مافيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولامنتفعين بآياتها ... بالحمار ، حمل أسفارا ، أى : كتبا كبارا من كتب العلم ، فهو يمشى بها ، ولايدرى منها إلا مايمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب . وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله ، وبئس المثل ... »[1] .

وقال الإمام ابن كثير : يقول - تعالى - ذا ما لليهود الذين أعطوا التوراة فلم يعملوا بها ، إن مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ... فهو يحملها حملا حسيا ولايدرى ماعليه ، وكذلك هؤلاء .. لم يعملوا بمقتضى مافى التوراة بل أولوه وحرفوه ، فهم أسوأ من الحمار ، لأن الحمار لافهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال - تعالى - فى آية أخرى : « أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »[2] .

وقال القرطبى : وفى هذا المثل تنبيه من الله - تعالى - لمن حمل الكتاب ، أن يتعلم معانيه ، ويعمل بما فيه ، لئلا يلحقه من الذم مالحق هؤلاء اليهود ، قال الشاعر :

زوامل للأسفار لاعلم عندهم بجيدها ، إلا كعلم الأباعر
لعمرك مايدرى البعير إذا غدا بأوساقه ، أو راح مافى الغرائر[3]

وعبر - سبحانه - عن تكليفهم العمل بالتوراة وعن تركهم لذلك بقوله :

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٣٠
(٢) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٤٣
(٣) تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٩٤

« حملوا التوراة ثم لم يحملوها » للإشعار بأن هذا التكليف منه - تعالى - لهم، كان عهدا مؤكدا عليهم ، حتى لكأنهم تحملوه كما يتحمل الإنسان شيئا قد وضع فوق ظهره أو كتفيه ، ولكنهم نبذوا هذا العهد ، وألقوا بما فوق أكتافهم من أحمال ، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمى لقائده ..

ولفظ « ثم » فى قوله « ثم لم يحملوها » للتراخى النسبى ، لأن عدم وفائهم بما عهد إليهم ، أشد عجبا من تحملهم لهذه العهود .

وشبههم ، بالحمار الذى هو مثل فى البلادة والغباء ، لزيادة التشنيع عليهم ، والتقبيح لحالهم . حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شىء نافع ، - وهو كتاب الله - ، كما هو شأن الحمار الذى لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشىء النافع والشىء الضار .

وجملة « يحمل أسفارا » فى موضع الحال من الحمار ، أو فى موضع جر على أنها صفة للحمار ، باعتبار أن المقصود به الجنس ، فهو معرفة لفظا ، نكرة معنى .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : « يحمل » ما محله ؟ قلت: محله النصب على الحال ، أو الجر على الوصف ، لأن لفظ الحمار هنا ، كلفظ اللئيم فى قول الشاعر : ولقد أمر على اللئيم يسبنى .... »[1]

ثم أضاف - سبحانه - إلى ذم هؤلاء اليهود ذما آخر فقال : « بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ... »

و « بئس » فعل ذم ، وفاعله ما بعده وهو قوله : « مثل القوم » ، وقد أغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم ، لحصول العلم بأن المذموم هو حال هؤلاء القوم الذين وصفهم - سبحانه - بأنهم قد كذبوا بآياته .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٠

أى : بئس المثل مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله - تعالى - الدالة على وحدانيته وقدرته ، وعلى صدق أنبيائه فيما يبلغونه عنه - تعالى - .

وقوله : « والله لايهدى القوم الظالمين » تذييل قصد به بيان الأسباب التى أدت إلى عدم توفيق الله - تعالى - لهم إلى الهداية .

أى : والله - تعالى - قد اقتضت حكمته ، أن لايهدى إلى طريق الخير ، من ظلم نفسه ، أو آثر الغى على الرشد ، والعمى على الهدى ، والشقاوة على السعادة ، لسوء استعداده ، وانطماس بصيرته . . .

ثم أمر الله - تعالى - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يتحدى اليهود ، وأن يرد على مزاعمهم ردا يخرس ألسنتهم ، ويكشف عن أكاذيبهم . . . فقال - سبحانه - : « قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

قال الآلوسى : وأمر - صلى الله عليه وسلم - أن يقول لهم ذلك ، إظهارا لكذبهم ، فإنهم كانوا يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » ويدعون أن الآخرة خالصة لهم عند الله . . .

وروى أنه لما ظهر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، كتب يهود المدينة إلى يهود خيبر: إن اتبعتم محمدا أطعناه ، وإن خالفتموه خالفناه . فقالوا - أى : يهود خيبر - : نحن أبناء خليل الرحمن ، ومنا عزير ابن الله ، ومنا الأنبياء ومتى كانت النبوة فى العرب ؟ نحن أحق بها من محمد - صلى الله عليه وسلم - ، ولا سبيل إلى اتباعه ، فنزلت هذه الآيات . . . »[1] :

والمقصود بالذين هادوا ، أى : الذين ادعوا أنهم على الديانة اليهودية ، يقال : هاد فلان وتهود ، إذا دخل فى اليهودية ، نسبة إلى يهوذا أحد أبناء

---

(١) تفسير الآلوسى حـ ٢٨ ص ٩٦

يعقوب - عليه السلام - ، أو سموا بذلك حين تابوا عن عبادة العجل ، من هاد يهود هودا بمعنى تاب ، ومنه قوله - تعالى - : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ، إنا هدنا إليك . . . » أى : أى تبنا إليك .

ومعنى « أولياء لله . . . » مقربين منه ، كرماء عليه ، لهم منزلة خاصة عنده - تعالى - وقوله : « فتمنوا الموت . . . » جواب الشرط . والتمنى معناه : إرتياح النفس ، ورغبتها القوية فى الحصول على الشىء . .

ويستعمل التمنى فى المعنى القائم بالقلب ، بأن تتطلع نفس الشخص إلى الحصول على الشىء . . كما يستعمل عن طريق النطق باللسان ، بأن يقول الإنسان بلسانه ، ليتنى أحصل على كذا .

وهذا المعنى الثانى هو المراد هنا ، لأن المعنى الكائن فى القلب لا يعلمه أحد سوى الله - تعالى - .

ومعنى الآية الكريمة : قل يا محمد لهؤلاء اليهود الزاعمين أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم أولياء الله - تعالى - المقربون إليه من دون سائر خلقه . . .

قل لهم - على سبيل التحدى والتعجيز والتبكيت - إن كان الأمر كما زعمتم ، فاذكروا أمام الناس بألسنتكم لفظا ، يدل على أنكم تحبون الموت وترغبون فيه ، لكى تظفروا بعد الموت بالمحبة الكاملة من الله ، ولكى تنتقلوا من شقاء الدنيا ومتاعبها . . . إلى النعيم الخالص بعد موتكم . . .

وجواب الشرط فى قوله : « إن كنتم صادقين » محذوف لدلالة ما قبله عليـــه .

أى : إن كنتم صادقين فى دعواكم أنكم أولياء لله من دون النـاس فتمنوا الموت .

وافتتحت الآية الكريمة بلفظ « قل » ، للاهتمام بشأن التحدى من الرسول

ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم ، ولبيان أنه أمر من الله ـ تعالى ـ وليس للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سوى التنفيذ .

وجىء بإن الشرطية المفيدة للشك ، مع أنهم قد زعموا أنهم أولياء لله فعلا ، للاشعار بأن زعمهم هذا وإن كانوا قد كرروا النطق والتباهي به ... إلا أنه بمنزلة الشيء الذي تلوكه الألسنة ، دون أن يكون له أساس من الواقع ، فهو لوضوح بطلانه صار بمنزلة الشيء الذي يفترض وقوعه إفتراضا على سبيل التوبيخ لهم .

قال الآلوسي ما ملخصه : قوله : « قل يأيها الذين هادوا ... » أي : تهودوا « إن زعمتم انكم أولياء لله » أي: أحباء لله . ولم يضف ـ سبحانه ـ لفظ أولياء إليه ، كما في قوله : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ... » ليؤذن بالفرق بين مدعي الولاية ، ومن يخصه ـ تعالى ـ بها .

وقوله : « من دون الناس ... » حال من الضمير الراجع إلى اسم « إن » أي : متجاوزين عن الناس .

« فتمنوا الموت » أي : فتمنوا من الله أن يميتكم وينقلكم من دار البلية إلى محل الكرامة ... فإن من أيقن أنه من أهل الجنة ، أحب أن يخلص إليها من هذه الدنيا التي هي دار كدر وتعب »[1] .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن واقعهم وعن حالتهم المستقبلة فقال : « ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

أي : أن هؤلاء اليهود لا يتمنى أحدهم الموت أبدا ، بسبب ما قدمته أيديهم من آثام ، والله ـ تعالى ـ لا تخفى عليه خافية من سيئاتهم واعتداءاتهم وظلمهم ، بل هو ـ سبحانه ـ يسجل ذلك عليهم ، ويجازيهم بما يستحقونه من عقاب .

(١) تفسير الآلوسي حـ ٢٨ ص ٩١

فالآية الكريمة خبر من الله - تعالى - عن اليهود بأنهم يكرهون الموت، ولا يتمنونه، ولا يستطيعون قبول ماتحداهم به - صلى الله عليه وسلم - من طلبهم تمنى الموت، لعلمهم بأنهم لو أجابوه إلى طلبه، لحل بهم الموت الذى يكرهونه.

وقد صح من عدة طرق عن ابن عباس أنه قال: «لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه».

وقال ابن جرير: وبلغنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال: لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار...»(١).

وقال ابن كثير: وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: «قال أبو جهل - لعنه الله -: إن رأيت محمدا عند الكعبة، لآتين حتى أطأ عنقه. قال: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لو فعل لأخذته الملائكة عيانا، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار. ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لرجعوا لايجدون مالا ولا أهلا»(٢).

وقال صاحب الكشاف ماملخصه: وقوله: «ولا يتمنونه أبدا» أى: بسبب ماقدموا من الكفر، وقد قال لهم - صلى الله عليه وسلم -: «والذى نفسى بيده لايقولها أحد منكم إلا غص بريقه»، فلولا أنهم كانوا موقنين بصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتمنوا، ولكنهم علموا أنهم لو تمنوا لماتوا من ساعتهم، ولحقهم الوعيد، فما تمالك أحد منهم أن يتمنى، وهى إحدى المعجزات - لأنها إخبار بالغيب وكانت كما أخبر -.

فإن قلت: ما أدراك أنهم لم يتمنوا الموت؟ قلت: لو تمنوا لنقل ذلك عنهم، كما نقلت سائر الحوادث، ولكان ناقلوه من أهل الكتاب وغيرهم

(١) راجع تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٤٢٧
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٤٤

من أولى المطاعن فى الإسلام ، أكثر من الذر . وليس أحد منهم نقل عنه ذلك »[١] .

هذا ، ويكفى فى تحقيق هذه المعجزة ، ألا يصدر تمنى الموت عن اليهود الذين تحداهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، وهم الذين كانوا يضعون العراقيل فى طريق دعوته ... ولا يقدح فى هذه المعجزة ، أن ينطق يهودى بعد العهد النبوى بتمنى الموت ، وهو حريص على الحياة، لأن المعنيين بالتحدى اليهود المعاصرون للعهد النبوى .

والمقصود بقوله - تعالى - : « والله عليم بالظالمين » التهديد والوعيد. أى: والله - تعالى - عليم علما تاما بأحوال هؤلاء الظالمين ، وسيعاقبهم العقاب الذى يتناسب مع ظلمهم وبغيهم . فالمراد من العلم لازمه ، وهو الجزاء والحساب .

وعبر - سبحانه - هنا بقوله : « ولا يتمنونه ... » وفى سورة البقرة بقوله : « ولن يتمنوه ... » .

للإشعار بأنهم يكرهون الموت فى الحال وفى المستقبل كراهة شديدة .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بأن يخبرهم بأنهم لامفر لهم من الموت ، مهما حرصوا على الهروب منه ، فقال - تعالى - : « قل إن الموت الذى تفرون منه ، فإنه ملاقيكم .... » .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء اليهود الذين يكرهون الموت ، ويزعمون أنهم أحباب الله .... .

قل لهم على سبيل التوبيخ والتبكيت : إن الموت الذى تكرهونه ، وتحرصون على الفرار منه ، لامهرب لكم منه ، ولامحيص لكم عنه، فهو نازل

(١) راجع تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٣١ ، و ج ١ ص ٢٢٥

بكم إن عاجلا أو آجلا كما قال ـ سبحانه ـ : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة .... » .

فالمقصود بهذه الآية الكريمة ، إخبارهم بأن هلعهم من الموت مهما أشتد، لن يفيدهم شيئا ، لأن الموت نازل بهم لامحالة ...

ثم بين ـ سبحانه ـ أنهم بعد الموت ، سيجدون الجزاء العادل فقال : « ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » .

أى : قل لهم ـ أيها الرسول الكريم ـ : إن الموت نازل بكم لامحالة، ثم بعد هلاككم سترجعون إلى الله ـ تعالى ـ الذى يعلم السر والعلانية . والجهر والخفاء ، فيجازيكم على أعمالكم السيئة ، بما تستحقونه من عقاب .

فالمراد بالإنباء عما كانوا يعملونه ، الحساب على ذلك ، والمجازاة عليـــه .

وشبيه بهذه الآيات قوله ـ تعالى ـ فى سورة البقرة :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس.فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون »(١) .

* * *

وبعد هذا التوبيخ والتحدى لليهود الذين زعموا أنهم أولياء لله من دون الناس ... وجه ـ سبحانه ـ المؤمنين ، أمرهم فيه بالمسارعة إلى أداء فرائضه، ونهاهم عن أن تشغلهم دنياهم عن ذكره وطاعته ، فقال ـ تعالى ـ :

(١) راجع تفسيرنا لسورتى الفاتحة والبقرة ص ٢٦٨ ومابعدها .

« يأيُّها الذينَ آمَنُوا إذَا نُودِي للصَّلاَةِ مِنْ يومِ الجُمُعَةِ ، فاسْعَوا إلى ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ، ذَلِكُم خيرٌ لَكُم إنْ كنتُم تَعلمونَ (٩) فإذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فانتَشِرُوا فى الأرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ ، واذكُروا اللهَ كَثِيراً لَعلَّكُم تُفلِحُونَ (١٠) وإذَا رَأَوْا تجارَةً أوْ لَهواً انفَضوا إلَيْها وتَرَكُوكَ قائِماً قُلْ ما عِندَ اللهِ خيرٌ مِنَ اللَّهوِ ومن التِّجارَةِ ، واللهُ خيرُ الرَّازقِينَ (١١) » .

والمقصود بالنداء فى قوله - سبحانه - : « يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة .... » جميع المكلفين بها ، الذين يجب عليهم أداؤها . .

وناداهم - سبحانه - بصفة الإيمان ، لتحريك حرارة الإيمان فى قلوبهم ، ولتحريضهم على المسارعة إليها ، إذ من شأن المؤمن القوى ، أن يكون مطيعا لما يأمره خالقه به .

والمراد بالنداء : الأذان والإعلام بوقت حلولها .

والمقصود بالصلاة المنادى لها هنا : صلاة الجمعة ، بدليل قوله - تعالى - « من يوم الجمعة » .

والـلام فى قوله « للصلاة » للتعليل ، و « من » بمعنى فى ، أو للبيان ، أو للتبعيض ، لأن يوم الجمعة زمان ، تقع فيه أعمال ، منها الصلاة المعهودة فيه وهى صلاة الجمعة ، ولأن الأمر بترك البيع خاص بها ، لوجود الخطبة فيها .

وقوله : « فاسعوا ... » جواب الشرط ، من السعى ، وهو المشى السريع .

والمراد به هنا : المشى المتوسط بوقار وسكينة ، وحسن تهيؤ لصلاة الجمعـــة .

قال الآلوسى ماملخصه : قوله : « فاسعوا إلى ذكر الله » أى : امشوا إليه بدون إفراط فى السرعة . . .

فقد أخرج الستة فى كتبهم عن أبى سلمة من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما ادركتم فصلوا ، ومافاتكم فأتموا » .

والمراد بذكر الله : الخطبة والصلاة جميعا ، لاشتمالهما عليه ، واستظهر بعضهم أن المراد به الصلاة ، وقصره بعضهم على الخطبة . . . »(١) .

وإنما عبر ـ سبحانه ـ بالسعى لتضمنه معنى زائدا على المشى، وهو الجد والحرص على التبكير ، وعلى توقى التأخير .

والمعنى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، إذا نادى المنادى لأجل الصلاة فى يوم الجمعة ، فامضوا إليها بجد ، وإخلاص نية ، وحرص على الانتفاع لما تسمعونه من خطبة الجمعة ، التى هى لون من ألوان ذكر الله — تعالى — وطاعتـه .

والأمر فى قوله ـ سبحانه ـ : « فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع .. » الظاهر أنه للوجوب ، لأن الأمر يقتضى الوجوب ، مالم يوجد له صارف عن ذلك ، ولاصارف له هنا .

والمراد من البيع هنا : المعاملة بجميع أنواعها ، فهو يعم البيع والشراء وسائر أنواع المعاملات .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٠٢

أى : إذ نودى الصلاة الجمعة ، فاخرجوا إليها بحرص وسكينة ووقار ... واتركوا المعاملات الدنيوية من بيع ، وشراء ، وإجارة ، وغيرها .

وإنما قال - سبحانه - « وذروا البيع .. » لأنه أهم أنواع المعاملات ، فهو من باب التعبير عن الشيء بأهم أجزائه .

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » يعود إلى ما سبق ذكره من الأمر بالسعى إلى ذكر الله ، متى نودى للصلاة ، وترك الاشتغال بالبيع وما يشبهه .

أى : ذلكم الذى أمرتكم به من السعى إلى ذكر الله عند النداء للصلاة من يوم الجمعة ، ومن ترك أعمالكم الدنيوية ..، خير لكم مما يحصل لكم من رزق فى هذه الأوقات ، عن طريق البيع أو الشراء أو غيرهما .

فالمفضل عليه محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، والمفضل هو السعى إلى ذكر الله - تعالى - .

وهذا التفضيل باعتبار أن منافع السعى إلى ذكر الله تعالى - باقية دائمة ، أما المنافع الدنيوية فهى زائلة فانية .

وجواب الشرط فى قوله « إن كنتم تعلمون » محذوف أى : إن كنتم تعلمون ما هو خير لكم ، فاسعوا إلى ذكر الله عند النداء للصلاة ، واتركوا البيع والشراء :

أو إن كنتم من أهل العلم والفقه السليم للأمور ، عرفتم أن امتثال أمر الله - تعالى - بأن تسعوا ، إلى ذكره عند النداء لصلاة الجمعة ، خير لكم من الاشتغال فى هذا الوقت من البيع والشراء ...

إذ فى هذا الإمتثال سعادتكم ونجاتكم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر تيسيره عليهم فى تشريعاته فقال : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله . . . » .

أى : فإذا فرغتم من أداء الصلاة وأقمتموها على أكمل وجه ، فانتشروا فى الأرض ، وامضوا فى مناكبها ، لأداء أعمالكم التى كنتم قد تركتموها عند النداء للصلاة ، واطلبوا الربح واكتساب المال والرزق ، من فضل الله ـ تعالى ـ ومن فيض إنعامه والأمر هنا للإباحة ، لأنه وارد بعد حظر ، فهو كقوله ـ تعالى ـ : « وإذا حللتم فاصطادوا » ...

أى : أن الانتشار فى الأرض بعد الصلاة لطلب الرزق ، ليس واجبا عليه ، إذ طلب الرزق قد يكون فى هذا الوقت ، وقد يكون فى غيره ...

والمقصود من الآية إنما هو تنبيه الناس، إلى أن لهم فى غير وقت الصلاة، سعة من الزمن فى طلب الرزق ، وفى الاشتغال بالأمور الدنيوية ، فعليهم أن يسعوا إلى ذكر الله ، إذ ما نودى للصلاة من يوم الجمعة ، وأن يحرصوا على ذلك حرصا تاما ، مصحوبا بالنية الطيبة ، وبالهيئة الحسنة ، وبالمضى المبكر إلى المسجد .

وقوله ـ سبحانه ـ « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » تحذير لهم من الإنتشار فى الأرض لمصالحهم الدنيوية ، دون أن يعطوا طاعة الله ـ تعالى ـ وعبادته ، ما تستحقه من عناية ومواظبة .

أى : إذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض لتحصيل معاشكم ، دون أن يشغلكم ذلك عن الإكثار من ذكر الله ـ تعالى ـ فى كل أحوالكم ، فإن الفلاح كل الفلاح فى تقديم ما يتعلق بأمور الدين ، على ما يتعلق بأمور الدنيا، وفى تفضيل ما يبقى على ما يفنى .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها ترسم للمسلم التوازن السامى ، بين ما يقتضيه دينه ، وما تقتضيه دنياه .

إنها تأمره بالسعى فى الأرض ، ولكن فى غير وقت النداء للصلاة من يوم الجمعة ، ودون أن يشغله هذا السعى عن الإكثار من ذكر الله ، فإن الفلاح

فى الإقبال على الطاعات التى ترضيه - سبحانه - ، ومن بين هذه الطاعات أن يكثر الإنسان من ذكر الله - تعالى - ، حتى فى حالة سعيه لتحصيل رزقه .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بعتاب يحمل فى طياته ثوب التأديب والإرشاد والتأنيب ، لمن آثر مطالب الدنيا على مطالب الآخرة فقال - تعالى « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً ..... »

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه : يعاتب - تبارك وتعالى - على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة ، التى قدمت المدينة يومئذ ، فقال : « وإذا رأو تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائماً ...

فقد أخرج الشيخان وغيرهما عن جابر قال : قدمت عيرٌ - أى : تجارة - المدينة ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب - يوم الجمعة - ، فخرج الناس ، وبقى اثنا عشر رجلا ، فنزلت هذه الآية .

وفى رواية عن جابر - أيضا - أنه قال : بينما النبى - صلى الله عليه وسلم - يخطب يوم الجمعه ، فقدمت عير إلى المدينة ، فابتدرها الناس ، حتى لم يبق مع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا اثنا عشر رجلا ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « والذى نفسى بيده ، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادى نارا ، ونزلت هذه الآية .... »[١] .

وفى رواية أن الذين بقوا فى المسجد كانوا أربعين ، وأن العير كانت لعبد الرحمن بن عوف ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر [٢] .

وفى رواية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يخطب ، فقدم دحية الكلبى بتجارة له ، فتلقاه أهله بالدفوف ، فخرج الناس » .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٤٩ .
(٢) راجع تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ١٠٥ .

و «إذا» في قوله - تعالى - : «وإذا رأوا تجارة ...» ظرف للزمان الماضى المجرد عن الشرط ، لأن هذه الآية نزلت على الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد أن انفض عنه من انفض وهو يخطب وقوله . «انفضوا» من الانفضاض ، بمعنى التفرق . يقال : انفض فلان عن فلان إذا تركه وانصرف عنه . وهو من الفض . بمعنى كسر الشىء والتفريق بين أجزائه .

والضمير في قوله «إليها» يعود للتجارة ، وكانت عودته إليها دون اللهو ، لأن الانفضاض كان لها بالأصالة ، والمراد باللهو هنا : فرحهم بمجىء التجارة ، واستقبالهم لها بالدفوف ، لأنهم كانوا في حالة شديدة من الفقر وغلاء الأسعار .

والتعبير بأو يشير إلى أن بعض المنفضين قد انفضوا من أجل التجارة ، وأن البعض الآخر قد انفض من أجل اللهو .

قال الجمل في حاشيته : والذى سوغ لهم الخروج وترك الرسول - صلى الله علية وسلم - يخطب ، أنهم ظنوا أن الخروج بعد تمام الصلاة جائز ، لانقضاء المقصود وهو الصلاة ، لأنه كان - صلى الله عليه وسلم - في أول الإسلام يصلى الجمعة قبل الخطبة كالعيدين ، فلما وقعت هذه الواقعة ، ونزلت الآية ، قدم الخطبة وأخر الصلاة »[1] .

وقوله - سبحانه - : «وتركوك قائما» جملة حالية من فاعل «انفضوا» ، والمقصود بها توبيخهم على هذا التصرف ، حيث تركوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقفا يخطب على المنبر ، وانصرفوا إلى التجارة واللهو .

وقوله - سبحانه - «قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين» إرشاد لهم إلى ما هو الأنفع والأبقى والأكرم لهم .

أى : قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الذين انفضوا عنك وأنت

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٤٥ .

تخطب ... قل لهم : ما عند الله - تعالى - من ثواب ومن عطاء خير من اللهو الذي يشغلكم عن ذكر الله ، ومن التجارة التي تبتغون من ورائها الربح المادي ، والمنافع العاجلة ...

والله - تعالى - هو خير الرازقين ، لأنه - سبحانه - هو وحده الذي يقسم الأرزاق ، وهو الذي يعطي ويمنع ، كما قال - سبحانه - : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم » .

وقدمت التجارة على اللهو في صدر الآية ، لأن رؤيتها كانت الباعث الأعظم على الانفضاض إليها ، وترك الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائماً يخطب على المنبر ، ولم يبق معه إلا عدد قليل من أصحابه .

وأخرت في آخر الآية وقدم اللهو عليها ، ليكون ذمهم على انفضاضهم أشد وأوجع ، حتى لا يعودوا إلى مثل ذلك .

هذا ، ومن الأحكام والآداب التي أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتي:

١ - فضل يوم الجمعة، وفضل صلاة يوم الجمعة، والتحذير من ترك أدائها .

ومن الأحاديث التي وردت في هذا المعنى ، ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة ، أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة » .

وروى الشيخان عن أبي هريرة أنه سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول : نحن الآخرون - أي : زمنا - السابقون يوم القيامة قبل غيرهم - ، بيد أنهم - أي : اليهود والنصارى - أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم - أي : تعظيمه ،فاختلفوا فيه.فهدانا الله ، فالناس لنا فيه تبع : اليهود غداً - أي : السبت - ، والنصارى بعد غد - أي : الأحد - .

وروى مسلم والنسائى عن ابن عمر أنه سمع النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول على أعواد منبره : « لينتهين أقوام عن وَدْعِهِمَ الجمعات - أى تركهم صلاة الجمعة - ، أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين » .

قال القرطبى ماملخصه : وإنما سميت الجمعة جمعة ، لأنها مشتقة من الجمع ، حيث يجتمع الناس فيها للصلاة .... وكان يقال ليوم الجمعة : العروبة ....

قال البيهقى : وروينا عن موسى بن عقبة ، عن ابن شهاب الزهرى ، أن مصعب بن عمير ، كان أول من جمع الجمعة بالمدينة للمسلمين ، قبل أن يهاجر إليها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ...

ثم قال القرطبى : وأما أول جمعة جمعها - صلى الله عليه وسلم - بأصحابه ، فقال أهل السير والتاريخ : قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مهاجرا حتى نزل بقباء ، على بنى عمرو بن عوف ، يوم الإثنين ، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول حين اشتد الضحى .

ومن تلك السنة يعد التاريخ. فأقام بقباء إلى يوم الخميس، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فى بطن واديهم ، فجمع بهم وخطب . وهى أول خطبة خطبها بالمدينة ، وقال فيها: الحمد لله . أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ... »(١) .

٢ - الآية الكريمة وإن كانت قد أمرت المؤمنين بالسعى إلى صلاة الجمعة عند النداء لها ، إلا أن هناك أحاديث متعددة تحض على التبكير بالحضور إليها ، وبالغسل لها ، وبمس الطيب ، وبالحضور إليها على أحسن حالة ...

ومن تلك الأحاديث مارواه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة - أى :

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ٩٩

كغسل الجنابة - ثم راح إلى المسجد ، فكأنما قرب بدنة - أى ناقة ضخمة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن - أى له قرون - ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » .

وروى ابن ماجة عن ابن مسعود قال . سمعت النبى - صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس يجلسون يوم القيامة على قدر تراوحهم إلى الجمعات ، الأول ثم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، وما رابع أربعة من الله ببعيد » .

وروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى -صلى الله عليه وسلم- أنه قال : « على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ، ويلبس من صالح ثيابه ، وإن كان له طيب مس منه » .

٣ - أخذ العلماء من قوله - تعالى - : « إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ... » أن صلاة الجمعة فريضة محكمة ، وأن السعى لأدائها واجب ، وأن ترك ذلك محرم شرعا .

ومن المعروف بين العلماء أن الأمر يقتضى الوجوب ، مالم يوجد له صارف ، ولاصارف له هنا . .

قال الإمام القرطبى : فرض الله - تعالى - الجمعة على كل مسلم ، ردا على على من يقول : إنها فرض على الكفاية . ونقل عن بعض الشافعية أنها سنة . .

وجمهور الأمة والأئمة أنها فرض على الأعيان ، لقوله - تعالى - : « إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ... » .

وثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين » .

وهذا حجة واضحة فى وجوب الجمعة وفرضيتها ... »[1] .

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ١٠٥

قال بعض العلماء : جاء فى الآيه الكريمة الأمر بالسعى، والأمر للوجوب فيكون السعى واجبا ، وقد أخذ العلماء من ذلك أن الجمعة فريضة ، لأنه - سبحانه - قد رتب الأمر للذكر على النداء للصلاة ، فإذا كان المراد بالذكر هو الصلاة ، فالدلالة ظاهرة ، لأنه لا يكون السعى لشىء واجبا، حتى يكون ذلك الشىء واجبا .

وأما إذا كان المراد بالذكر الخطبة فقط، فهو كذلك، لأن الخطبة شرط الصلاة ، وقد أمر بالسعى إليه، والأمر للوجوب، فإذا وجب السعى للمقصود تبعا ، فما ذلك إلا لأن المقصود بالذات واجب ...

كما أن الاشتغال بالبيع أو الشراء وقت النداء محرم،لأن الأمر للوجوب.
وقال بعضهم : هو مكروه كراهة تحريم . . . »[٢] .

ومما يدل على أن صلاة الجمعة فريضه محكمة، وأن السعى إليها واجب،وأن الاشتغال عنها بالبيع أو الشراء محرم،ماجاء فى الأحاديث من الأمر بالمحافظة عليها ، ومن التحذير من تركها ، مارواه أبو داود من حديث أبى الجعد ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « من ترك ثلاث جمع تهاونا بها، طبع الله على قلبه » .

٤ - قوله - تعالى - : فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ... ، يدل دلالة واضحة ، على سمو شريعة الإسلام ، وعلى سماحتها ويسرها، وجمعها بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة . . .

ومع أن هذا الأمر بالانتشار بعد الصلاة للإباحة - كما سبق أن قلنا - ، إلا أن بعض السلف كان إذا أنتهت الصلاة ، خرج من المسجد ، ودار فى السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلى ماشاء أن يصلى . . .

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٥٢ لفضيلة الشيخ محمد على السايس .

قال الإمام ابن كثير : كان عراك بن مالك ـ أحد كبار التابعين ـ إذا صلى الجمعه ، انصرف فوقف على باب المسجد وقال : « اللهم إنى أجبت دعوتك وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين »(١) .

هذا ، وهناك أحكام أخرى توسع المفسرون والفقهاء فى الحديث عنها ، فليرجع إليها من شاء المزيد من معرفة هذه الأحكام والآداب ...

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الجمعة » ، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعا لعباده .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

القاهرة ـ مدينة نصر ـ صباح الثلاثاء ١٠ من شوال ١٤٠٦ هـ
١٧ / ٦ / ١٩٨٦ م

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٤٩

تفسير
سُورَة المنَافِقون

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ — سورة « المنافقون » من السور المدنية الخالصة ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية ، وكان نزولها بعد سورة « الحج » ، وقبل سورة المجادلة (١) .

وقد عرفت بهذا الإسم منذ عهد النبوة ، فقد جاء في حديث زيد بن أرقم الذي سنذكره خلال تفسيرنا لها — أنه قال : « فلما أصبحنا قرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سورة المنافقين » .

وقال الآلوسي . أخرج سعيد بن منصور ، والطبراني في الأوسط — بسند حسن — عن أبي هريرة . قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى - بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين ، ويقرأ في الركعة الثانية بسورة المنافقين ، فيقرع بها المنافقين » .

٢ — والمحققون من العلماء على أن هذه السورة ، نزلت في غزوة بني المصطلق ، وقد جاء ذلك في بعض الروايات التي وردت في سبب نزول بعض آياتها ، والتي سنذكرها خلال تفسيرنا لها - بإذن الله - ، وكانت هذه الغزوة في السنة الخامسة من الهجرة .

وذكر بعضهم أنها نزلت في غزوة « تبوك » ، ومما يشهد لضعف هذا القول ، أن المنافقين في هذا الوقت - وهو السنة التاسعة من الهجرة - ، كانوا قد دالت دولتهم ، وضعف شأنهم ، وما كان لواحد منهم أن يقول : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل »

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٧ للسيوطي .

٣ - وسميت هـذه السورة «بسورة «المنافقون» ، لأنها فضحتهم ، ووصفتهم بما هم أهله من صفات ذميمة ، ومن طباع قبيحة ، ومن مسالك سيئة ... ويكاد حديثها يكون مقصورا عليهم ، وعلى أكاذيبهم ودسائسهم .

وحديث القرآن عن النفاق والمنافقين ، قد ورد فى كثير من السور المدنية ، ففى سورة البقرة نجد حديثا مستفيضا عنهم ، يبدأ بقوله - تعالى - : «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ...» .

وفى سورة آل عمران نجد توبيخا من الله - تعالى - لهم ، كما فى قوله - عز وجل - : «الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا ، لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ...» .

وفى سورة النساء نجد آيات متعددة تتحدث عن قبائحهم ، ومن ذلك قوله - تعالى - : (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، وما أنزل من قبلك ، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ...)

أما سورة (التوبة) فهى أكثر السور حديثا عنهم ، ولذا سميت بالفاضحة لأنها فضحتهم على رءوس الأشهاد ، كما سميت بالمنقرة ، لأنها نقرت عما فى قلوبهم ، وكشفت عنه . كما سميت بالمبعثرة ، لأنها بعثرت أسرارهم ... (١)

والحق أنه لا تكاد تخلو سورة من السور المدنية ، من الحديث عن المنافقين وعن سوء سلوكهم وأخلاقهم ... ووجوب إبتعاد المؤمنين عنهم .

٤ - والنفاق إنما يظهر ويفشو حيث تكون القوة ، لذا لم يكن للمنافقين أثر فى العهد المكى ، لأن المؤمنين كانوا قلة مستضعفين فى الأرض ، ومن كان هـذا شأنه لا ينافقه الناس ، فضلا عن أن مشركى مكة كانوا بطبيعتهم

---

(١) راجع مقدمة تفسيرنا لسورة التوبة .

جبابرة ، وكانوا يعلنون حربهم على الدعوة الإســـلامية إعلانا سافرا ، لا التواء معه ولا مداهنة .

أما المؤمنون في العهد المدني ، فقد كانوا أقوياء ، خصوصا بعد أن أسسوا دولتهم ، وإنتصروا على المشركين في غزوة بدر ... كما إنتصروا على اليهود ... فظهرت حركة النفاق في المدينة ، لمداهنة المؤمنين ، وللحصول على نصيبهم من الغنائم التي يغنمها المؤمنون ... ولغير ذلك من الأسباب التي ذكرها العلماء والمؤرخون ... (١)

وسـورة (المنافقون) فضحت أحوالهم ، وكشفت عن دخائلهم وعن خسة نفوسهم ... وختمت بموعظة المؤمنين ، وبحثهم على الإنفاق في سبيل الله ، وعلى تقديم العمل الصالح ، الذي ينفعهم في دنياهم وفي آخرتهم .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة ـ مدينة نصر

مساء الثلاثاء : ١ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ

١٧/٦/١٩٨٦ م

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب :(سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ جـ ٢ ص ١٧٦ للأستاذ محمد عزت دروزه .

التفسير

قال الله — تعالى — إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً، فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، هُمُ الْعَدُوُّ، فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٤) ».

فتتح الله - تعالى - السورة الكريمة . بالحديث عن صفة من أبرز الصفات الذميمة للمنافقين ، ألا وهى صفة الكذب والخداع ، فقال - تعالى - « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله . . . » .

و « إذا » هنا ظرف للزمان الماضى ، بقرينة كون جملتيها ماضيتين ، وجواب « إذا » قوله : « قالوا نشهد إنك لرسول الله . . . » والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - .

و « المنافقون » جمع منافق ، وهو من يظهر الإسلام ويخفى الكفر ، أو من يظهر خلاف مايبطن من أقوال وأفعال .

أى : إذا حضر المنافقون إلى مجلسك - أيها الرسول الكريم - قالوا لك على سبيل الكذب والمخادعة والمداهنة . . . نشهد أنك رسول من عند الله - تعالى - ، وأنك صادق فيما تبلغه عن ربك .

وعبروا عن التظاهر بتصديقهم له - صلى الله عليه وسلم - بقولهم . نشهد ، المأخوذ من الشهادة التى هى إخبار عن أمر مقطوع به - وأكدوا هذه الشهادة

بإن واللام، للايهام بأن شهادتهم صادقة، وأنهم لايقصدون بها إلا وجه الحق. وأن ما على ألسنتهم يوافق ما فى قلوبهم.

قال الشوكانى: أكدوا شهادتهم بإن واللام.. للاشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم، مع خلوص نياتهم: والمراد بالمنافقين: عبد الله بن أبى وأتباعه.

ومعنى نشهد: نحلف، فهو يجرى مجرى القسم. ولذا يتلقى بما يتلقى به القسم.. ومثل نشهد نعلم، فإنه يجرى مجرى القسم، كما فى قول الشاعر:

ولقد علمت لتأتين منيتى إن المنايا لاتطيش سهامها(١)

وقوله: «والله يعلم إنك لرسوله» جملة معترضة مقررة لمضمون ما قبلها، من كونه - صلى الله عليه وسلم - رسول من عند الله - تعالى - حقا.

وجملة: «والله يشهد إن المنافقين لكاذبون» معطوفة على قوله: «قالوا نشهد»...

أى: إذا حضر المنافقون إليك - أيها الرسول الكريم - قالوا كذبا وخداعا: نشهد إنك لرسول الله، «والله» - تعالى - يعلم إنك لرسوله حقا سواء شهدوا بذلك أم لم يشهدوا، فأنت لست فى حاجة إلى هذه الشهادة التى تخالف بواطنهم...

«والله» - تعالى - يشهد «إن المنافقين لكاذبون» فى قولهم: نشهد إنك لرسول الله، لأن قولهم هذا يباين ما أخفته قلوبهم المريضة، من كفر ونفاق وعداوة لك وللحق الذى جئت به...

والإيمان الحق لايتم، إلا إذا كان ماينطق به اللسان، يوافق ويواطىء ما أضمره القلب. وهؤلاء قد قالوا بألسنتهم ماليس فى قلوبهم، فثبت كذبهم فى قولهم: نشهد إنك لرسول الله...

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٥ ص ٢٣٠.

قال صاحب الكشاف : فإن قلت . أى فائدة فى قوله - تعالى - : « والله يعلم إنك لرسوله » ؟ قلت : لو قال : قالوا نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، لكان يوهم أن قولهم هذا كذب ، فوسط بينهما قوله : « والله يعلم إنك لرسوله ، ليميط هذا الإيهام »(١) .

وجىء بالفعل « يشهد » فى الإخبار عن كذبهم فيما قالوه ، للمشاكلة ، حتى يكون إبطال خبرهم مساويا لإخبارهم ولما نطقوا به .

ثم بين - سبحانه - جانبا من الوسائل التى كانوا يستعملونها لكى يصدقهم من يسمعهم فقال - تعالى - : « اتخذوا أيمانهم جنة » ...

والأيمان : - بفتح الهمزة - جمع يمين . والجنة - بضم الجيم - مايستتر به المقاتل ليتقى ضربات السيوف والرماح والنبال ...

أى : أن هؤلاء المنافقين إذا ظهر كذبهم ، أو إذا جوبهوا بما يدل على كفرهم ونفاقهم ، أقسموا بالأيمان المغلظة بأنهم ما قالوا أو فعلوا ما يسىء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - ، أو إلى المؤمنين ...

فهم يستترون بالحلف الكاذب ، حتى لا يصيبهم أذى من المؤمنين ، كما يستتر المقاتل بترسه من الضربات .

وقد حكى القرآن كثيرا من أيمانهم الكاذبة ، ومن ذلك قوله - تعالى - : « ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون »(٢) .

وقوله - سبحانه - : « يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ... »(٣) .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٣٨

(٢) سورة التوبة . الآية ٥٦

(٣) سورة التوبة الآية ٧٤

وقوله - عز وجل - : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين »(١) .

قال الآلوسي : قال قتادة : كلما ظهر شيء منهم يوجب مؤاخذتهم ، حلفوا كاذبين ، عصمة لأموالهم ودمائهم »(٢) .

والفاء في قوله - تعالى - : « فصدوا عن سبيل الله ... » للتفريع على ماتقدم.

أي : اتخذوا أيمانهم الفاجرة ذريعة أمام المؤمنين لكي يصدقوهم. فتمكنوا عن طريق هذه الأيمان الكاذبة ، من صد بعض الناس عن الصراط المستقيم ، ومن تشكيكهم في صحة ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - .

فهم قد جمعوا بين رذيلتين كبيرتين : إحداهما : يعتمـــد على الأيمان الكاذبة ، والثانية : إعراضهم عن الحق ، ومحاولتهم صرف غيرهم عنه .

وقوله - سبحانه - : « إنهم ساء ما كانوا يعملون » تذييل قصد به بيان قبح أحوالهم ، وسوء عاقبتهم .

وساء فعـــل ماض بمعنى بئس في إفادة الذم . و « ما » موصولة والعائد محذوف .

أي : إن هؤلاء المنافقين بئس ما كانوا يقولونه من أقوال كاذبة ، وساء ما كانوا يفعلونه من أفعال قبيحة ، سيكونون بسببها يوم القيامة في الدرك الأسفل من النار .

واسم الإشارة في قوله - تعالى - بعد ذلك : « ذلك بأنهم آمنو ثم كفروا » يعود إلى ما تقدم ذكره من الكذب ، ومن الصد عن سبيل الله ، ومن قبح الأقوال والأفعال .

---

(١) سورة التوبة الآية ٦٢

(٢) تفسير الآلوسي جـ ٢٨ ص ١٠٩

أى : ذلك الذى ذكر من حالهم الذى دأبوا عليه من الكذب والخداع والصد عن سبيل الله . . . سببه أنهم «آمنوا» أى : نطقوا بكلمة الإسلام بألسنتهم دون أن يستقر الإيمان فى قلوبهم «ثم كفروا» أى : ثم ارتكسوا فى الكفر واستمروا عليه ، وظهر منهم مايدل على رسوخهم فيه ظهورا جليا ، كقولهم : «أنؤمن كما آمن السفهاء . . » وكقولهم للمجاهدين : «لا تنفروا فى الحر . . . » .

«فطبع على قلوبهم» أى : فختم الله - تعالى - عليها بالكفر نتيجة إصرارهم عليه ، فصاروا ، بحيث لايصل إليه الإيمان .

«فهم لا يفقهون» أى : فهم لايدركون حقيقة الإيمان أصلا ، ويشعرون به ، ولا يفهمون حقائقه لانطماس بصائرهم .

وقوله : «ذلك» مبتدأ . وقوله «بأنهم آمنوا ثم كفروا . . .» خبر : والباء للسببية .

و «ثم» للتراخى النسبى ، لأن إبطان الكفر مع إظهار الإيمان أعظم من الكفر الصريح ، وأشد ضررا وقبحا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : المنافقون لم يكونوا إلا على الكفر الثابت الدائم ، فما معنى قوله . «آمنوا ثم كفروا» ؟

قلت : فيه ثلاثة أوجه : أحدها : آمنوا ، أى نطقوا بكلمة الشهادة ، وفعلوا كما يفعل من يدخل فى الإسلام ، ثم كفروا . أى : ثم ظهر كفرهم بعد ذلك وتبين بما أطلع الله عليه المؤمنين من قولهم : إن كان يقوله محمد - صلى الله عليه وسلم - حقا فنحن حمير ....

والثانى : آمنوا ، أى : نطقوا بالإيمان عند المؤمنين ، ثم نطقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاء بالإسلام ، كقوله - تعالى - : «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم» .

الثالث : أن يراد أهل الردة منهم ..... »(١)

ثم رسم - سبحانه - لهم بعد ذلك صورة تجعل كل عاقل يستهزىء بهم، ويحتقرهم ، ويسمو بنفسه عن الاقتراب منهم . . . فقال - تعالى - : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة » .

قال القرطبي : قال ابن عباس : كان عبد الله بن أبي ، وسيما جسيما صحيحا صبيحا ، ذلق اللسان ، فإذا قال ، سمع النبي - صلى الله عليه وسلم - مقالته .

وقال الكلبي : المراد ابن أبي ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، كانت لهم أجسام ومنظر ذو فصاحة ... »

و « خشب » - بضم الخاء والشين - جمع خشبة - بفتحهما - كثمرة وثمر.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي : « كأنهم خشب » - بضم الخاء وسكون الشين - كبدَنة وبُدْن .

أي : وإذا رأيت - أيها الرسول الكريم ، هؤلاء المنافقين ، أعجبتك أجسامهم ، لكمالها وحسن تناسقها . وإن يقولوا قولا حسبت أنه صدق ، لفصاحته ، وأحببت الاستماع إليه لحلاوته ...

وعدى الفعل - « تسمع » باللام ، لتضمنه معنى تصغ لقعالهم .

وجملة : « كأنهم خشب مسندة » مستأنفة ، أو خبر لمبتدأ محذوف .

أي : كأنهم وهم جالسون في مجلسك ، مستندين على الجدران ، وقد خلت قلوبهم من الخير والإيمان . . . كأنهم وهم بهذه الحالة ، مجموعة من الأخشاب الطويلة العريضة ، التي استندت إلى الحوائط ، دون أن يكون فيها حسن ، أو نفع ، أو عقل .

(١) تفسير الكشاف حـ ١ ص ٥٣٩

(٢) تفسير القرطبي حـ ص ١٢٤

فهم أجسام تعجب، وأقوال تغرى بالسماع إليها، ولكنهم قد خلت قلوبهم من كل خير، وامتلأت نفوسهم بكل الصفات الذميمة، فهم لما قال القائل:

لا باس بالقوم من طول ومن غلظ جسم البغال وأحلام العصافير

وشبههم — سبحانه — الخشب المسندة على سبيل الذم لهم، أى كأنهم فى عدم الانتفاع بهم، وخلودهم من الفائدة، كالأخشاب المسندة إلى الحوائط الخالية من أية فائدة.

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال: فإن قلت: مامعنى «كأنهم خشب مسندة»؟

قلت: شبهوا فى استنادهم - وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحوائط لأن الخشب إذا انتفع به، كان فى سقف أو جدار أو غيرهما من مظان الانتفاع. وما دام متروكا فارغا غير متنفع به، أسند إلى الحائط، فشبهوا به فى عدم الانتفاع.

ويجوز أن يراد بالخشب المسندة: الأصنام المنحوتة من الخشب، المسندة إلى الحيطان، شبهوا بها فى حسن صورهم. وقلة جدواهم. والخطاب للرسول — صلى الله عليه وسلم — أو لكل من يخاطب..»(١)

فأنت ترى أن القرآن الكريم قد وصفهم بتلك الصفة البديعة فى التنفير منهم، وفى عدم الاغترار بمظهرهم، لأنهم كما قال القائل:

لاتخدعنك اللحى ولا الصور تسعة أعشار من ترى بقر
تراهم كالسحاب منتشرا وليس فيه لطالب مطر
فى شجر السرو منهم شبه له رواء وما له ثمر

ثم وصفهم — سبحانه — بعد ذلك بالجبن والخور فقال: «يحسبون كل صيحة عليهم...»

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٤٠

والصيحة : المرة من الصياح ، والمراد بها ما ينذر ويخيف أي : يظنون لجبن قلوبهم ولسوء نواياهم ، وخبث نفوسهم - أن كل صوت ينادى به المنادي ، لنشدان ضالة ، أو لإنفلات دابة ... إنما هو واقع عليهم ، ضار بهم مهلك لهم ..

قال الآلوسي : قوله : « يحسبون كل صيحة عليهم » أي : واقعة عليهم ، ضارة لهم ، لجبنهم وهلعهم .

وقيـــل كانوا على وجل من أن ينزل الله — تعالى — فيهم ، ما يهتك أستارهم ، ويبيح دماءهم وأموالهم.

والوقف على « عليهم » الواقع مفعولا ثانيا « ليحسبون » وهو وقف تام

وقوله — تعالى — : « هم العدو » إستئناف . أي : هم الكاملون في العداوة ، والراسخون فيها ، فإن أعدى الأعداء ، العدو المداجى .

« فاحذرهم ، لكونهم أعدى الأعداء ، ولا تغترن بظواهرهم . » (١)

وقوله - سبحانه - « قاتلهم الله أنى يؤفكون » دعاء عليهم بالطرد من رحمة الله — تعالى — ، وتعجب لكل مخاطب من أحوالهم التي بلغت النهاية في السوء والقبح .

عن ابن عباس أن معنى « قاتلهم الله » : طردهم من رحمته ولعنهم ، وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن (٢)

و « أنى » بمعنى كيف . ويؤفكون بمعنى يصرفون ، من الأفك - بفتح الهمزة والفاء - بمعنى الإنصراف عن الشيء .

أي : لعن الله - تعالى - هؤلاء المنافقين ، وطردهم من رحمته ، لأنهم

(١) تفسير الآلوسي حـ٢٦ ص ١١٢
(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٠ ص ١١٣

بسبب مسالكهم الخبيثة ، وأفعالهم القبيحة ، وصفاتهم السيئة ... صاروا محل مقت العقلاء ، وعجبهم ، إذ كيف ينصرفون عن الحق الواضح إلى الباطل الفاضح ، وكيف يتركون النور الساطع ، ويدخلون فى الظلام الدامس ؟!!

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة ، قد فضحت المنافقين ، وحذرت من شرورهم ، ووصفتهم بالصفات التى تخزيهم ، وتكشف عن دخائلهم المريضة .

٭ ٭ ٭

ثم وصفهم ـ سبحانه ـ بصفات أخرى لا تقل فى قبحها وبشاعتها عن سابقتها ، فقال تعالى :

« وإِذَا قيلَ لهُم تَعالَوْا يَسْتَغْفِر لكُم رسولُ اللهِ ، لوَّوْا رءوسَهم ورأيتَهم يَصدُّونَ وهُمْ مُستكبِرُونَ (٥) سواءٌ عليهِم أَستغفرتَ لهم ، أمْ لم تَسْتَغْفِر لهُم ، لَنْ يغفِرَ اللهُ لهم ، إنَّ اللهَ لا يهْدِي القومَ الفاسِقينَ (٦) هُمُ الذينَ يقولونَ لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رسُولِ الله حتَّى يَنفَضُّوا ، وللهِ خزَائِنُ السَّموات والأرضِ ، ولكنَّ المنافقِينَ لا يَفقهُونَ (٧) يَقولُونَ لئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منهَا الأذَلَّ ، وللهِ العِزةُ ولِرَسُولهِ وللمؤمِنينَ ، ولكنَّ المنافِقِينَ لا يَعلمُونَ (٨) » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، فصلها الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ، فقال ما ملخصه :

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن

أبى بن سلول وأتباعه ، فقد ذكر محمد بن إسحاق ، أنه لما قدم النبى - صلى الله عليه وسلم - المدينة بعد غزوة أحد ، قام عبد الله بن أبى ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يخطب للجمعة ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكرمكم الله به .... فأخذ بعض المسلمين بثيابه من نواحيه ، وقالوا له : اجلس ياعدو الله ، لست لهذا المقام بأهل ، وقدصنعت ما صنعت - يعنون مرجعه بثلث الناس دون أن يشتركوا فى غزوة أحد - .

فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول . والله لكأنما قلت بجراً - أى : أمرا منكرا - أن قمت أشدد أمره .

فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد ، فقالوا له ويلك . ما لك ؟ .... ارجع للنبى يستغفر لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى .

وفى رواية أنه قيل له : لوأتيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فسألته أن يستغفر لك ، فجعل يلوى رأسه ويحركه استهزاء ....

ثم قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - ماملخصه : وذكر ابن إسحاق فى حديثه عن غزوة بنى المصطلق - وكانت فى شعبان من السنة الخامسة من الهجرة - أن غلاما لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اسمه الجهجاه بن سعيد الغفارى تزاحم على ماء مع رجل من الأنصار اسمه سنان بن وبر ...

فقال سنان : يامعشر الأنصار ، وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين . فغضب عبد الله بن أبى - وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم - وقال: أو قد فعلوها ؟ !! قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا . والله ما مثلنا وجلابيب قريش - يعنى المهاجرين - إلا كما قال القائل « سمن كلبك » ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليخرجن الأعز منها الأذل .

فذهب زيد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأخبره الخبر ...

فقال عمر بن الخطاب يارسول ، مر عباد بن بشر فليضرب عنق عبد الله ابن أبي ابن سلول .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : فكيف إذا تحدث ياعمر ، أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد ياعمر فى الناس بالرحيل .

فلما بلغ عبد الله بن أبى أن ذلك قد بلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال الذى قاله عنه زيد بن أرقم ...

وراح رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، مهجراً فى ساعته كان لا يروح فيه ، فلقيه أسيد بن الحضير ، فقال له : يارسول الله ، لقد رحت فى ساعة ماكنت تروح فيها .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما بلغك ماقال صاحبك ابن أبى؟ زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل .

فقال أسيد : فأنت يا رسول الله العزيز وهو الذليل ...

إنما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى هـــذا الوقت الذى لم يتعودالسفر فيه ، ليشغل الناس عن الحديث، الذى كان من عبدالله ابن أبى.

قال ابن إسحق : ونزلت سورة المنافقين فى ابن أبي واتباعه . فلما نزلت أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأذن زيد بن أرقم ثم قال : هذا الذى أوفى الله بأذنه .

وفى رواية أنه - صلى الله عليه وسلم - بعث إلى زيد فقرأها عليه ثم قال: « إن الله قد صدقك » ثم قال ابن إسحاق : وبلغنى أن عبدالله بن عبد الله بن أبى بلغه ما كان من أمر أبيه ، فأتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له : يارسول الله ، بلغنى أنك تريد قتل أبى ... فإن كنت فاعلا ، فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده

نى ، وإنى أخشى أن تأمر غيرى بقتله ، فلا تدعنى نفسى أن أرى قاتل أبى يمشى على الأرض ، فأقتله ، فأكون قد قتلت مؤمنا بكافر ، فأدخل النار .

فقال - صلى الله عليه وسلم - : «بل نترفق به ونحسن صحبته ، مابقى معنا» .

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبدالله ابن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه قال له : وراءك ! فقال له أبوه : ويلك مالك ؟ فقال : والله لاتجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه العزيز وأنت الذليل .

فلما جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان يسير فى مؤخرة الجيش - شكا إليه عبد الله بن أبى مافعله ابنه عبد الله معه .

فقال ابنه : والله يارسول الله لايدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

فقال عبد الله لأبيه : أما إذ أذن لك رسول الله - صلى الله عليه وسلم فجز الآن(1) .

والآن وبعد ذكر جانب من هذه الآثار التى وردت فى سبب نزول هذه الآيات ، نعود إلى تفسيرها فنقول وبالله التوفيق :

قوله - تعالى - : «وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، لووا رءوسهم ...» بيان لصفة أخرى من صفات المنافقين ، تدل على عنادهم وإصرارهم على كفرهم ونفاقهم .

والقائل لهم : «تعالوا يستغفر لكم رسول الله» جماعة من المؤمنين ، على سبيل النصح لهؤلاء المنافقين لعلهم يقلعون عن كفرهم وجحودهم .

(1) لمعرفة هذه الآثار بالتفصيل راجع تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ٧١ وتفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٥٢

والمراد باستغفار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم : توبتهم من ذنوبهم ، وتركهم لنفاقهم ، وإعلان ذلك أمامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكى يدعو الله ـ تعالى ـ لهم بقبول توبتهم .

وقوله . « لووا رءوسهم » من اللى بمعنى الإمالة من جانب إلى آخر ، يقال : لوى فلان رأسه إذا أمالها وحركها . وهو كناية عن التكبر والإعراض عن النصيحه .

أى : وإذا قال قائل لهؤلاء المنافقين ، لقد نزل فى شأنكم ما نزل من الآيات القرآنية التى تفضحكم ... فتوبوا إلى الله توبة نصوحا ، وأقلعوا عن نفاقكم ، وأقبلوا نحو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقلب سليم ، لكى يستغفر الله ـ تعالى ـ لكم ، بأن يلتمس منه قبول توبتكم .. ما كان من هؤلاء المنافقين ، إلا أن تكبروا ولجوا فى طغيانهم ، وأمالوا رءوسهم استهزاء وسخرية ممن نصحهم ..

« ورأيتهم » أيها المخاطب « يصدون » أى : يعرضون عن نصيحتهم « وهم مستكبرون » عن قبولها ، لانطماس بصائرهم ، وإصرارهم على ماهم فيه من باطل وجحود للحق .

قال الآلوسى ما ملخصه : روى أنه لما صدق الله ـ تعالى ـ زيد بن أرقم فيما أخبر به عن ابن أبى ، مقت الناس ابن أبى ، وقال له بعضهم : امض إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واعترف بذنبك ، يستغفر لك ، فلوى رأسه إنكارا لهذا الرأى ، وقال لهم : لقد أشرتم على بالإيمان فآمنت ، وأشرتم على بأن اعطى زكاة مالى فأعطيت ... ولم يبق لكم إلا أن تأمرونى بالسجود لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ...

وفى حديث أخرجه أحمد والشيخان .. أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعاهم ليستغفر لهم، فلووا رءوسهم ... »[1]

وقوله «يستغفر لكم ...» مجزوم فى جواب الأمر - وهو قوله: «تعالوا» وقوله: «لووا رءوسهم» جواب «إذا».

والتعبير بقوله: «تعالوا» تتضمن إرادة تخليص هؤلاء المنافقين عما هم فيه من ضلال، وإرادة إرتفاعهم من إنحطاط هم فيه إلى علو يدعون إليه، لأن الأصل فى كلمة «تعال» أن يقولها من كان فى مكان عال، لمن هو أسفل منه

والتعبير بقوله - تعالى - : «ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون» يرسم صورة بغيضة لهم وهم يتركون دعوة الناصح لهم، بعناد وتكبر وغرور، ويراهم الرائى بعينه وهم على تلك الصورة المنكرة، التى تدل على جهالاتهم وإعراضهم عن كل خير.

وقوله - سبحانه - : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ...) تيئيس له - صلى الله عليه وسلم - من إيمانهم، ومن لبوكهم للحق.

ولفظ (سواء) إسم مصدر بمعنى الاستواء، والمراد به الفاعل. أى: مستو. ولذلك يوصف به كما يوصف بالمصدر، كما فى قوله - تعالى - : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ...) أى: مستوية.

أى: إن هؤلاء الراسخين فى الكفر والنفاق، قد استوى عندهم إستغفارك لهم وعدم إستغفارك، فهم لتأصل الجحود فيهم صاروا لا يفرقون بين الحق

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١١٢

والباطل ، ولا يؤمنون بثواب أو عقاب . . . ولذلك فلن يغفر الله ـ تعالى ـ لهم ، مهما حرصت على هدايتهم وصلاحهم .

وقوله ـ سبحانه ـ : إن الله لايهدى القوم الفاسقين) تعليل لانتفاء المغفرة من الله ـ تعالى ـ لهم .

أى : لن يغفر الله ـ تعالى ـ لهم ، لأن سنته ـ سبحانه ـ قد اقتضت أن لايهدى إلى طاعته ، وأن لايشمل بمغفرته ، من فسق عن أمره ، وآثر الباطل على الحق ، والكفر على الإيمان ، لسوء استعداده ، وإتباعه لخطوات الشيطان .

وقوله ـ سبحانه ـ : (هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . .) كلام مستأنف جار مجرى التعليل لفسقهم ، وحكاية لجانب من أقوالهم الفاسدة . . والقائل هو عبدالله بن أبى ، كما جاء فى روايات أسباب النزول لهذه الآيات ، والتى سبق أن ذكرنا بعضها .

ونسب ــ سبحانه ــ القول اليهم جميعا ، لأنهم رضوا به . وقبلوه منه.

ومرادهم بمن عند رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : المهاجرون الذين تركوا ديارهم فى مكة ، واستقروا بالمدينة .

أى : إن هؤلاء المنافقين لن يغفر الله ـ تعالى ـ لهم ، لأنهم فسقوا عن أمره ، ومن مظاهر فسوقهم وفجورهم ، أنهم أيدوا زعيمهم فى النفاق ، عندما قال لهم (لاتنفقوا على من عند رسول الله من فقراء المهاجرين ، ولا تقدموا لأحد منهم عونا أو مساعدة ، (حتى ينفضوا من حوله) أى : حتى يتفرقوا من حوله . يقال : إنفض القوم : إذا فنيت أزوادهم . يقال : نفض الرجل وعاءه من الزاد فانفض ، إذا إلقى زاده . وليس مرادهم حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ، فإذا فعلوا ذلك فأنفقوا عليهم ، وإنما مرادهم ،

إستمروا على عدم مساعدتكم لهم ، حتى يتركوا المدينة ، وتكون مسكنا لكم وحدكم .

وقوله - سبحانه - : « ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ».

والخزائن : جمع خزينة ، وهى ما يخزن فيها المال والطعام وما يشبههما والمراد بها أرزاق العباد التى يمنحها الله - تعالى - لعباده .

أى : ولله - تعالى - وحده لا لأحد غيره ، ملك أرزاق العباد جميعا ، فيعطى من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ولا يدركونه ، لجهلهم بقدرة الله - تعالى - ، ولاستيلاء الجحود والضلال على نفوسهم .

ثم حكى - سبحانه - قولا آخر من أقوالهم القبيحة فقال : « يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ... »

والقائل هو عبد الله بن سلول ، ولكن القرآن نسب القول إليهم جميعاً ، لأنهم رضوا بقوله ، ووافقوه عليه .

وجاء الأسلوب بصيغة المضارع ، لاستحضار هذه المقالة السيئة ، وتلك الصورة البغيضة لهؤلاء القوم .

والأعز : هو القوى العزة ، بمعنى أنه يغلب غيره ، والأذل هو الذى يغلبه غيره لذلته وضعفه .

وأراد عبد الله بن أبى بالأعز ، نفسه وشيعته من المنافقين ، وأراد بالأذل . الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من المهاجرين وغيرهم من المؤمنين الصادقين .

والمراد بالرجوع فى قوله « لئن رجعنا » الرجوع إلى المدينة بعد إنتهاء غزوة بنى المصطلق .

أى : يقول هؤلاء المنافقون ـ على سبيل التبجح وسوء الأدب ـ لئن رجعنا إلى المدينة بعد إنتهاء هذه الغزوة ، ليخرجن الفريق الأعزمنا الفريق الأذل من المدينة ، حتى لا يبقى فيها أحد من هذا الفريق الأذل ، بل تصبح خالية الوجه لنا . وقد رد الله ـ تعالى ـ على مقالاتهم الباطلة هذه بما يخرس ألسنتهم فقال : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون »

أى : لقد كذب المنافقون فيما قالوه ،فإن لله ـ تعالى ـ وحده العزة المطلقة والقوة التى لا تقهر ، وهى ـ أيضا ـ لمن أفاضها عليه من رسله ومن المؤمنين الصادقين ، وهى بعيدة كل البعد عن أولئك المنافقين .

وقال ـ سبحانه ـ : « ولرسوله وللمؤمنين » بإعادة حرف الجر ، لتأكيد أمر هذه العزة ، وأنها متمكنة منهم لأنها مستمدة من إيمانهم بالله ـ تعالى ـ وحده .

وقوله ـ تعالى ـ « ولكن المنافقين لا يعلمون » إستدراك قصد به تجهيل هؤلاء المنافقين ، أى : ليست العزة إلا لله ـ تعالى ـ ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك ، ولا يعرفونه لاستيلاء الجهل والغباء عليهم ، لأنهم لو كانت لهم عقول تعقل لعلموا أن العزة لدعوة الحق،بدليل إنتشارها فى الآفاق يوما بعد يوم ، وإنتصار أصحابها على أعدائهم حينا بعد حين ، وإزدياد سلطانهم وقتا بعد وقت

قال صاحب الكشاف قوله ـ تعالى ـ : « ولله العزة . . . » أى : الغلبة والقوة لله ـ تعالى ـ ، ولمن أعزه الله وأيده من رسوله ، ومن المؤمنين ، وهم الأخصاء ، بذلك ، كما أن المذلة والهوان ، للشيطان وذويه من الكافرين والمنافقين .

وعن الحسن بن علي - رضي الله عنهما - أن رجلا قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيها، قال: ليس بتيه، ولكنه عزة، وتلا هذه الآية»(١).

وقال الإمام الرازي: العزة غير الكبر، ولا يحل للمؤمن أن يذل نفسه - لغير الله - فالعزة معرفة الإنسان بحقيقة نفسه، وإكرامها عن أن يضعها في غير موضعها اللائق بها، كما أن الكبر جهل الإنسان بنفسه، وإنزالها فوق منزلتها. فالعزة تشبه الكبر من حيث الصورة، وتختلف من حيث الحقيقة، كاشتباه التواضع بالضعة، فالتواضع محمود، والضعة مذمومة. والكبر مذموم والعزة محمودة...»(٢)

هذا، وإن المتدبر لهذه الآيات الكريمة وفي أسباب نزولها، ايرى فيها ألوانا من العظات والعبر.

يرى فيها التصرف الحكيم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ أنه - صلى الله عليه وسلم - بمجرد أن بلغته تلك الأقوال التي قالها عبد الله بن أبي، لكي يثير الفتنة بين المسلمين... ما كان منه إلا أن أمر عمر بن الخطاب، بأن ينادي في الناس بالرحيل.. لكي يشغل الناس عما تفوه به ابن أبي، حتى لا يقع بينهم ما لا تحمد عقباه.

كما يرى كيف أنه - صلى الله عليه وسلم - عالج تلك الأحداث بحكمة حكيمة فعندما أشار عليه عمر - رضي الله عنه - بقتل ابن أبي... ما كان منه - صلى الله عليه وسلم - إلا أن قال له: يا عمر: كيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه؟!! وأبى - صلى الله عليه وسلم - أن يأمر بقتله بل ترك لعشيرته من الأنصار تأديبه وتوبيخه.

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٣

(٢) تفسير الفخر الرازي جـ ٨ ص ١٥١

ولقد بلغ الحال بابنه عبد الله - رضى الله عنه - وهو أقرب الناس إليه، أن يمنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بدخولها.

كما يرى المتدبر لهذه الآيات، وللأحداث التى نزلت فيها، أن النفوس إذا جحدت الحق، واستولت عليها الأحقاد، واستحوذ عليها الشيطان... أبت أن تسلك الطريق المستقيم، مهما كانت معالمه واضحة أمامها..

فعبد الله بن أبى وجماعته، وقفوا من الدعوة الإسلامية موقف المحارب لها ولأتباعها، وسلكوا فى إذاعة السوء حول الرسول - صلى الله عليه وسلم - وحول أصحابه كل مسلك... مع أن آيات القرآن الكريم، كانت تتلى على مسامعهم صباح مساء، ومع أن إرشادات الرسول - صلى الله عليه وسلم - كانت تصل إليهم يوما بعد يوم، ومع أن المؤمنين الصادقين كانوا لا يكفون عن نصحهم ووعظهم...

كما نرى أن الإيمان متى خالطت بشاشته القلوب، ضحى الإنسان من أجله بكل شىء.... فعبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول، يقول للرسول - صلى الله عليه وسلم -: يارسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى، فإن كنت لا بد فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه...

ثم يقف على باب المدينة شاهرا سيفه، ثم يمنع أباه من دخولها حتى يأذن له الرسول - صلى الله عليه وسلم - بدخولها، وحتى يقول: إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو العزيز، وأنه هو - أى عبد الله بن أبى - هو الذليل....

وهكذا تعطينا هذه الآيات وأحداثها ماتعطينا من عبر وعظات...

* * *

ثم تختتم السورة الكريمة بنداء توجهه إلى المؤمنين، تأمرهم فيه بالمواظبة على طاعة الله - تعالى - وتنهاهم عن أن يشغلهم عن ذلك شاغل، وتحضهم على الإنفاق فى سبيل إعلاء كلمته - سبحانه -، وعلى تقديم العمل الصالح الذى ينفعهم قبل فوات الأوان، قال - تعالى - :

« يَأَيُّهَا الذينَ آمَنُوا لا تُلهِكُم أَموالُكُم ولا أَوْلَادُكُم عن ذِكْرِ اللَّهِ ومَنْ يَفعلْ ذلكَ فأُولئكَ هُمُ الخاسِرونَ (٩) وأَنْفِقُوا مِمَّا رزَقْناكُم، من قبلِ أَنْ يأتِيَ أَحدَكُم الموتُ فيَقُولَ ربِّ لولاَ أخَّرْتَنِي إلى أَجلٍ قريبٍ فأَصَّدَّقَ وأَكُنْ مِنَ الصَّالحينَ (١٠) ولن يؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جاءَ أَجَلُها، واللَّهُ خَبيرٌ بِمَا تَعمَلُونَ (١١) ».

والمقصود من هذه الآيات الكريمة، نهى المؤمنين عن التشبه بالمنافقين الذين سبق الحديث عنهم بصورة مفصلة، وحضهم على الاستجابة لما كلفهم الله - تعالى - به. أى: يامن آمنتم بالله - تعالى - إيمانا حقا، « لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله... ». أى «لاتشغلكم أموالكم التى تهتمون بجمعها وتحصيلها... ولا أولادكم الذين أشهى ثمرات حياتكم... لايشغلكم ذلك عن أداء ماكلفكم - سبحانه - بأدائه من طاعات، فالمراد بذكر الله، مايشمل جميع التكاليف من صلاة وزكاة وصيام وحج، وغير ذلك من الطاعات التى أمر الله - تعالى - بها.

وخص الأموال والأولاد بتوجه النهى عن الاشتغال بهما اشتغالا يلهى عن ذكر الله، لأنهما أكثر الأشياء التى تلهى عن طاعة الله - تعالى -...

فمن أجل الاشتغال بجمع المال، يقضى الإنسان معظم حياته، وكثير من الناس من أجل جمع المال، يضحون بما يفرضه عليهم دينهم من واجبات، ومن أخلاق، ومن سلوك، وآداب....

ومن أجل راحة الأولاد، قد يضحى الآباء براحتهم، وبما تقضى به المروءة وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حيث يقول: «الولد مجبنة مبخلة».

والتعبير بقوله - تعالى -: «لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله» يشعر بأن المسلم إذا اشتغل بجمع المال، وبرعاية الأولاد، دون أن يصرفه ذلك عن طاعة الله، أو عن أداء حق من حقوقه - تعالى -. فإنه هذا الاشتغال لا يكون مذموما، بل يكون مرضيا عنه من الله - تعالى -.

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه -: «ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون» يعود إلى ماسبق ذكره من اللهو عن ذكر الله، بسبب الأموال والأولاد.

أى: ومن يشغله حبه لما له وأولاده عن ذكر الله، وعن أداء ما كلفه - سبحانه - به، فأولئك هم البالغون أقصى درجات الخسران والغفلة.. لأنهم خالفوا ما أمرهم به ربهم، وآثروا ما ينفعهم فى عاجلتهم الفانية، على ما ينفعهم فى آجالهم الباقية. ثم حضهم - سبحانه - على الانفاق فى سبيله فقال: «وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين».

والمراد بالإنفاق: إنفاق المال فى وجوه الخير والطاعات، فيشمل الزكاة المفروضة، والصدقات المستحبة، وغير ذلك من وجوه البر والخير.

و «من» فى قوله - تعالى - «مما رزقناكم» للتبعيض إذ المطلوب إنفاقه بعض المال الذى يملكه الإنسان؛ وليس كله، وهذا من باب التوسعة منه - تعالى - على عباده، ومن مظاهر سماحة شريعته - عز وجل -...

والمراد بالموت: علاماته وأماراته الدالة على قرب وقوعه.

وقوله «فيقول» معطوف على قوله «أن يأتى»، ومسبب عنه.

و «لولا» بمعنى هلا فهى حرف تحضيض.

وقوله: (فأصدق) منصوب على أنه فى جواب التمنى. وقوله (وأكن)

بالجزم ، لأنه معطوف على محـــل « فاصدق » ، كأنه قيل : إن أخرتني إلى أجل قريب أتصدق وأكن من الصالحين .

والمعنى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، لاتشغلكم أموالكم ولا أولادكم عن طاعة الله - تعالى - بل داوموا عليها كل المداومة، وأنفقوا بسخاء وسماحة نفس مما أعطيناكم من أرزاق كثيرة ، ومن نعم لاتحصى ، وليكن إنفاقكم من قبل أن تنزل بأحدكم أمارات الموت وعلاماته . . .

وحينئذ يقول أحدكم يارب، هلا أخرت وفاتي إلى وقت قريب من الزمان لكي أتدارك مافاتني من تقصير ، ولكي أتصدق بالكثير من مالي ، وأكون من عبادك الصالحين .

وقال - سبحانه - : « مما رزقناكم » فأسند الرزق إليه ، لكي يكون أدعى إلى الامتثال والاستجابة. لأنه - سبحانه - مع أن الأرزاق جميعها منه، إلا أنه - فضلا منه وكرما - اكتفى منهم بإنفاق جزء من تلك الأرزاق .

وقدم - سبحانه - المفعول وهو (أحدكم) على الفاعل وهو (الموت) ، للاهتمام بالمفعول ، وللاشعار بأن الموت نازل بكل إنسان لامحالة .

والتعبير بقوله : (لولا أخرتني إلى أجل قريب ...) يشعر بأن القائل قد قال ذلك زيادة في تأميل الاستجابة ، فكأنه يقول : يارب ألتمس منك أن تؤخر أجلي إلى وقت قريب لا إلى وقت بعيد ، لكي أتدارك مافاتني في هذا الوقت القريب الذي هو منتهى سؤلي ، وغاية أملي . . .

وقد بين — سبحانه — بعد ذلك أنه لاتأخير في الأجل متى أنتهى لامن قريب ولا من بعيد ، فقال : (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ...) .
أي : ولن يؤخر الله - تعالى - نفسا من النفوس ، متى أنتهى أجلها في هذه الحياة ، وانقضى عمرها من هـــذه الدنيا ، كما قال - سبحانه — : (فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون) .

وقوله «والله خبير بما تعملون» أى: والله - تعالى - مطلع أطلاعا تاما على أعمالكم الظاهرة والباطنة، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب.

وبعد فهذا تفسير لسورة «المنافقون» نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه، ونافعا لعباده.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم؟

القاهرة: صباح الجمعة ١٣ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ

٢٠/٦/١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةُ التَّغَابُنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد

١ – سورة التغابن هي السورة الرابعة والستون في ترتيب المصحف . أما نزولها على النبي – صلى الله عليه وسلم – فكان – كما ذكره صاحب الإتقان بعد سورة « الجمعة » ، وقبل سورة « الصف » . وعدد آياتها ثمان عشرة آية .

٢ – وجمهور المفسرين على أنها من السور المدنية .

قال الشوكاني : وهي مدنية في قول الأكثر . وقال الضحاك : هي مكية . وقال الكلبي : هي مكية ومدنية .

أخرج ابن الضريس عن ابن عباس أنه قال : نزلت سورة التغابن بالمدينة ...

وفي رواية أخرى عنه : أنها نزلت بمكة إلا آيات من آخرها نزلن بالمدينة في عوف بن مالك الأشجعي . شكى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جفاء أهله وولده ، فأنزل الله – تعالى – يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ... إلى آخر السورة »[١] .

ويبدو لنا أن بعض آيات هذه السورة يغلب عليها طابع القرآن المكي ، كالآيات التي تتحدث عن مظاهر قدرة الله – تعالى – . وعن إنكار المشركين للبعث والرد عليهم ...

لذا نرجح – والله أعلم – أن النصف الأول منها من القرآن المكي، والنصف الأخير من القرآن المدني .

٣ – والسورة الكريمة بعد ذلك من أهم مقاصدها : تنزيه الله – تعالى –

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني جـ ٥ ص ٢٣٤ .

عن الشريك أو الولد ، وبيان ألوان من مظاهر قدرته ومننه على خلقه ، والرد على المشركين الذين زعمـــوا أنهم لن يبعثوا ، والمقارنة بين حسن عاقبة الأشرار ، وبيان أن كل شيء يقع في هذا الـكون هو بقضاء الله وقدره ، وتحريض المؤمنين على تقوى الله ـ تعالى ـ ، وعلى إيثار ما عنده على كل شيء من شهوات هذه الدنيا ...

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

القاهرة — مدينة نصر

مساء الجمعة ١٣ من شوال ١٤٠٦ هـ

٢٠/٦/١٩٨٦ م

التفسير

قال الله — تعالى — : « يُسَبِّحُ لِلَّهِ ما فى السَّموات وما فى الأرْضِ لَهُ الْمُلْكُ ولَهُ الحَمْدُ ، وهُوَ عَلَى كلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الذى خَلَقَكُم فَمِنكُم كافِرٌ ومِنكُم مؤمنٌ ، والله بما تَعملونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ بالحقِّ ، وصَوَّرَكُم فَأحسَنَ صُوَرَكُم وإليهِ المصيرُ (٣) يعلَمُ ما فى السَّموات والأرْض ويَعلَمُ ماتُسِرُّونَ وما تُعلِنُونَ، واللهُ عليمٌ بذَاتِ الصّدورِ (٤) ألَمْ يأتِكُم نَبأُ الذينَ كفَرُوا مِن قبلُ فذَاقُوا وبالَ أمْرِهِم ولهُم عذابٌ أليمٌ (٥) ذلكَ بأنَّهم كانَتْ تأتيهِم رُسُلهم بالبيِّناتِ ، فقالوا أبَشرٌ يهدُونَنَا ، فكفَرُوا وتولَّوا واسْتَغنَى اللهُ ، واللهُ غنيٌّ حميدٌ (٦) » .

سورة « التغابن » هى آخر السور المفتتحة بالتسبيح ، فقد قال ـ سبحانه ـ فى مطلعها :

« يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض . . . » أى : ينزه الله ـ تعالى ـ عن كل نقص ، ويجله عن كل ما لا يليق به ، جميع الكائنات التى فى سماواته ـ سبحانه ـ وفى أرضه ، كما قال ـ عز وجل ـ : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفورا »[١] .

وجىء هنا وفى سورة الجمعة بصيغة المضارع « يسبح » للدلالة على تجدد هذا التسبيح ، وحدوثه فى كل وقت وآن .

وجىء فى سور الحديد ، والحشر ، والصف ، بصيغة الماضى « سبح » ،

(١) سورة الإسراء الآية ٤٤ .

للدلالة على أن التسبيح قد استقر وثبت لله - تعالى - وحده ، من قديم الزمان .

وقوله - سبحانه - : « له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » مؤكد لما قبله ، من بيان أن جميع هذه الكائنات تسبح لله - تعالى - لأنه مالكها وصاحب الفضل المطلق عليها .

وتقديم الجار والمجرور « له » لإفادة الاختصاص والقصر .

أى : له - سبحانه - وحده ملك هذا الكون ، وله وحده الحمد التام المطلق من جميع من مخلوقاته ، وليس لغيره شيء منهما ، وإذا وجد شيء منهما لغيره فهو من فيضه وعطائه ، إذ هو - سبحانه - القدير الذى لا يقف فى وجه قدرته وإرادته شيء .

ثم بين - سبحانه - أقسام خلقه فى هذه الحياة فقال : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن ... » .

والخطاب فى قوله : « خلقكم » لجميع المكلفين من هذه الأمة .

والفاء فى قوله : « فمنكم كافر ... » للتفريع المشعر بالتعجب من وجود من هو كافر بالله - تعالى - مع أنه - سبحانه - هو الذى خلقه ، وخلق كل شيء ...

وقدم ذكر الكافر ، لأنه الأهم فى هذا المقام ، ولأنه الأكثر عددا فى هذه الحياة .

أى : هو - سبحانه - الذى خلقكم بقدرته ، دون أن يشاركه فى ذلك مشارك ، وزودكم بالعقول التى تعينكم على معرفة الخير من الشر ، والمنافع من الضار إليكم رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - لكى يخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، وأنزل معه الكتاب الذى يدلكم على أنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صادق فيما يبلغه عن ربه ، وأمركم هذا الرسول

الكريم بإخلاص العبادة لله - تعالى - وحــده ، ولم يترك رسولنا - صلى الله عليه وسلم - وسيلة تهديكم إلى الحق إلا وأرشدكم إليها ...

ومع ذلك وجد منكم المختار للكفر بالحق ، المعرض عن الإيمان بوحدانية الله - تعالى - ، وكان منكم المستجيب للحق باختياره المخلص فى عقيدته لله - تعالى - ، المؤمن بوحدانيته ، المؤدى لجميع التكاليف التى كلفه - سبحانه - بها .

قال القرطبي - بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى هذه الآية - :وقال الزجاج - وقوله أحسن الأقوال ، والذى عليه الأئمة والجمهور من الأمة - : إن الله خلق الكافر ، وكفره فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الكفر . وخلق المؤمن ، وإيمانه فعل له وكسب ، مع أن الله خالق الإيمان .

والكافر يكفر ويختار الكفر بعد خلق الله إياه ، لأن الله - تعالى - قدر ذلك عليه وعلمه منه . ولا يجوز أن يوجد من كل واحد منهما ، غير الذى قدر عليه ، وعلمه منه ... »[1] .

وقوله : « والله بما تعملون بصير » أى : والله - تعالى - لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ، وسيحاسبكم عليها يوم القيامة ، وسيجازى الذين أساؤا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

« خلق السموات والأرض بالحق ... » أى : خلقهن خلقا ملتبسا بالحق الذى لا يحوم حوله باطل ، وبالحكمة التى لا يشوبها اضطراب أو عبث ، فالباء فى قوله « بالحق » للملابسه .

والمراد بالسموات والأرض : ذواتهن وأجرامهن التى هى أكبر من خلق الناس .

والمراد بالحق : المقصد الصحيح ، والغرض السليم ، الواقع على أتم الوجوه وأفضلها وأحكمها .

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٣٢

ثم بين ـ سبحانه ـ بعض مظاهر نعمه على الناس فقال : « وصوركم فأحسن صوركم . . »

وقوله : « وصوركم » من التصوير ، وهو جعل الشيء على صورة لم يكن عليها ، وهو مأخوذ من مادة صار الشيء إلى كذا ، بمعنى تحول إليه . أو من صاره إلى كذا ، بمعنى أماله وحوله .

أي : وأوجدكم ـ سبحانه ـ يابنى آدم على أحسن الصور وأكلها وأبدعها وأجملها ، بدليل أن الإنسان لا يتمنى أن يكون على غير صورته التي خلقه الله عليها ، كأن يكون على صورة حيوان أو غيره . .

وصدق الله إذ يقول : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . . . »

قال الآلوسى : ولعمرى إن الإنسان أعجب نسخة في هذا العالم ، قد اشتملت على دقائق وأسرار شهدت ببعضها الآثار ، وعلم ما علم منها أولو الأبصار ، وكل ما يشاهد من الصور الإنسانية حسن ، لكن الحسن كغيره من المعانى على طبقات ومراتب . . كما قال بعض الحكماء : شيئان لا غاية لهما الجمال والبيان .

وقوله ـ تعالى ـ « وإليه المصير » معطوف على ما قبله ، لأن التصوير يقتضى الإيجاد ، فبين ـ سبحانه ـ أن هذا الإيجاد يعقبه الفناء لكل شيء سوى وجهه الكريم .

أي : وإليه وحده ـ تعالى ـ مرجعكم بعد انتهاء آجالكم في هذه الحياة ، لكى يجازيكم على أعمالكم الدنيوية .

ثم بين ـ سبحانه ـ شمول علمه لكل شيء فقال : « يعلم ما في السموات والأرض ... » أي : هو ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء في السموات أو الأرض.

« ويعلم ما تسرون وما تعلنون » ـ أيها الناس ـ ، والتصريح بذلك مع أندراجه فيما قبله ، من علم ما في السموات وما في الأرض ، لمزيد التأكيد في في الوعد والوعيد .

« والله عليم بذات الصدور » والمراد بذات الصدر . النوايا والخواطر التى تخفيها الصدور ، وتكتمها القلوب .

أى : والله - تعالى - عليم علما تاما بالنوايا والخواطر التى اشتملت عليها الصدور ، فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة قد اشتملت على ثلاث جمل ، كل جملة منها أخص من سابقتها ، . .

وجمع - سبحانه - بينها للإشارة إلى أن علمه - تعالى - محيط بالجزئيات والكليات ، دون أن يعزب عن علمه - تعالى - شىء منها .

وفى هذا رد على أولئك الكفار الجاحدين ، الذين استبعدوا إعادتهم إلى الحياة . بعد أن أكلت الأرض أجسادهم ، وقالوا - كما حكى القرآن عنهم - « أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد .... » .

ثم وبخهم - سبحانه - على عدم اعتبارهم بالسابقين من قبلهم فقال : « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ، فذاقوا وبال أمرهم ، ولهم عذاب أليم »

والاستفهام فى قوله « ألم يأتكم . . » للتقرير والتبكيت .

والمراد بالذين كفروا من قبل : قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، من الأقوام الذين أعرضوا عن الحق ، فكانت عاقبتهم الدمار والهلاك .

والخطاب لمشركى قريش وأمثالهم ، ممن استحبوا العمى على الهدى .

والوبال فى الأصل الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الوبيل للطعام الثقيل على المعدة ، المضر لها ... والمراد به هنا : العقاب الشديد الذى نزل بهم فأهلكهم ، وعبر عن هذا العقاب بالوبال ، للاشارة إلى أنه كان عذابا ثقيلا جدا ، لم يستطيعوا الفرار أو الهرب منه .

والمراد بأمرهم : كفرهم وفسوقهم عن أمر ربهم ، ومخالفتهم لرسلهم .

وقوله « فذاقوا » معطوف على كفروا ، عطف المسبب على السبب .

والذوق مجاز فى مطلق الإحساس والوجدان .

شبه ما حل بهم من عقاب ، بشىء كريه الطعم والمذاق .

وعبر عن كفرهم بالأمر ، للاشعار بأنه أمر قـــد بلغ النهاية فى القبح والسوء .

والمعنى : لقد أتاكم ووصل إلى علمكم - أيها المشركون - حال الذين كفروا من قبلكم من أمثال قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم ، وعلمتم أن إصرارهم على كفرهم قد أدى بهم إلى الهلاك وإلى العذاب الأليم ، فعليكم أن تعتبروا بهم . وأن تفيئوا إلى رشدكم . وأن تتبعوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذى أرسله الله - تعالى - لإخراجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

فالمقصود من الآية الكريمة تحذير الكافرين الذين أرسل الرسول - صلى الله عليه وسلم - إليهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم .

ثم بين - سبحانه - الأسباب التى أدت إلى سوء عاقبة هؤلاء السابقين فقال : « ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فقالوا : أبشر يهدوننا ... » .

أى : ذلك الذى أصاب الأقوام السابقين من هلاك ودمار ، سببه أنه كانت تأتيهم رسلهم بالآيات البينات ، وبالمعجزات الواضحات ، الدالة على صدقهم ...

فما كان من هؤلاء الأقوام إلا أن أعرضوا عن دعوة الرسل ، وقال كل قوم منهم لرسولهم على سبيل الإنكار والتكذيب والتعجيب : أبشر مثلنا يهدوننا إلى الحق والرشد .

فالباء فى قوله « بأنه » للسببية ، والضمير ضمير الشأن لقصد التهويل والاستفهام فى قوله « أبشر » للانكار ، والمراد بالبشر : الجنس ، وهو مرفوع على أنه مبتدأ وخبره جملة « يهدوننا » .

وشبيه بهذه الآية ما حكاه القرآن من قول قوم صالح له : « فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر . ألقى الذكر عليه من بيننا .

بل هو كذاب أشر ... »[1] والفاء في قوله : « فكفروا وتولوا واستغنى الله .. » للسببية .

أي : فكفروا بسبب هذا القول الفاسد ، « وتولوا » أي : وأعرضوا عن الحق إعراضا تاما « واستغنى الله » أي : واستغنى الله - تعالى - عنهم وعن إيمانهم ، والسين والتاء للمبالغة في غناه - سبحانه - عنهم .

« والله غني حميد » أي : والله - تعالى - غني عنهم وعن العالمين ، محمود من كل مخلوقاته بلسان الحال والمقال ، وهو - تعالى - يجازي الشاكرين له بما يستحقونه من جزاء كريم .

* * *

ثم حكى - سبحانه - مزاعم الجاحدين للبعث والحساب ، ورد عليهم بما يبطلها ، ودعاهم إلى الإيمان بالحق ، وحضهم على العمل الصالح الذي ينفعهم يوم القيامة ، وبشر المؤمنين بما يشرح صدورهم ، وبين أن كل شيء في هذا الكون يسير بإذنه - تعالى - وإرادته ، فقال - سبحانه - :

« زَعَمَ الذينَ كفَرُوا أنْ لَنْ يُبعَثوا ، قُلْ بلَى ورَبِّي ، لَتُبعَثُنَّ ثم لَتُنَبؤُنَّ بما عمِلتُم ، وذلكَ على اللهِ يسيرٌ (٧) فآمِنُوا باللهِ ورَسولِه والنُّورِ الذي أنزَلنَا ، واللهُ بما تَعملُونَ خَبيرٌ (٨) يومَ يَجمعكم لِيَومِ الجَمعِ ذلكَ يومُ التَّغابنِ ، ومن يؤمِنْ باللهِ ويعْمَلْ صالِحًا يُكَفِّرْ عنهُ سَيئاتِه ويُدْخلْه جنَّاتٍ تجرِي من تَحتِها الأنهارُ خالدِينَ فيها أبداً ، ذلكَ الفوزُ العظِيمُ (٩) والذينَ كفَرُوا وكذَّبُوا بآياتِنَا أولئكَ أصحابُ النَّارِ خالدِينَ فيها وبئسَ المصيرُ (١٠) ما أصابَ من مُصيبَةٍ إلَّا بإذْنِ

(١) سورة القمر الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .

اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) » .

قال صاحب الكشاف : قوله : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا .. » : الزعم : ادعاء العلم . ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : (زعموا مطية الكذب) وعن شريح : لكل شيء كنية وكنية الكذب زعموا) . ويتعدى إلى المفعولين تعدى العلم ، كما قال الشاعر :

وإن الذى قد عاش يا أم مالك يموت ، ولم أزعمك عن ذاك معزلا

وأن مع ما فى خيرها قائم مقامهما ...)[1] .

و (بلى) حرف يذكر فى الجواب لإثبات النفى فى كلام سابق . والمراد هنا : إثبات ما نفوه وهو البعث .

أى : زعم الذين كفروا من أهل مكة وأشباههم من المشركين ، أنهم لن يبعثوا يوم القيامة ، لأن البعث وما يترتب عليه من حساب ، فى زعمهم محال .

قل لهم - أيها الرسول الكريم - على سبيل الجزم واليقين ، كذبتم فيما تزعمونه من أنه لا بعث ولا حساب ... والله لتبعثن يوم القيامة . ثم لتنبؤن بما عملتموه فى الدنيا من أعمال سيئة ، ولتحاسبن عليها حسابا عسيرا ، يترتب عليه الإلقاء بكم فى النار ...

وجىء فى نفى زعمهم بالجملة القسمية ، لتأكيد أمر البعث الذى نفوه بحرف (لن) ، ولبيان أن البعث وما يترتب عليه من ثواب وعقاب ، أمر ثابت ثبوتا

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٤٨ .

قطعيا وجملة «ثم لتنبؤن بما عملتم» ارتقاء فى الإبطال. و «ثم» للتراخى النسبي.

أى: قل لهم إنكم لاتبعثون فحسب، بل ستبعثون، ثم تجدون بعد ذلك ماهو أشد من البعث، ألا وهو إخباركم بأعمالكم السيئة، ثم الإلقاء بكم فى النار بعد ذلك.

فالمراد بالإنباء لازمه، وهو مايترتب عليه من حساب وعقاب.

واسم الإشارة فى قوله: «وذلك على الله يسير» يعود إلى البعث ومايترتب عليه من حساب.

أى: وذلك البعث والحساب، يسير وهين على الله - تعالى -، لأنه - سبحانه - لا يعجزه شيء، ولايحول دون تنفيذ قدرته حائل.

فهذا التذييل المقصود به إزالة ماتوهموه وزعموه من أن البعث أمر محال، كما قالوا: «أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ...».

والفاء فى قوله - تعالى -: «وآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ...» هى الفصيحة، أى: التى تفصح عن شرط مقدر.

والمراد بالنور: القرآن الكريم، كما قال - تعالى -: «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا....»[1].

والمعنى: إذا علمتم ماذكرناه لكم - أيها المشركون - فاتركوا العناد، وآمنوا بالله - تعالى - ورسوله - صلى الله عليه وسلم - إيمانا حقا، وآمنوا - أيضا - بالقرآن الكريم الذى أنزلناه على عبدنا ورسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم -، ليكون هذا القرآن معجزة ناطقة بصدقه - صلى الله عليه وسلم -.

(١) سورة الشورى الآية ٥٢

وجملة «والله بما تعملون خبير» تذييل قصد به الوعد والوعيد. أي: والله - تعالى - مطلع أطلاعا تاما على كل تصرفاتكم، وسيمنحكم الخير إن آمنتم، وسيلقى بكم فى النار إن بقيتم على كفركم.

ثم حذرهم - سبحانه - من أهوال يوم القيامة فقال -تعالى-: «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ....».

والظرف «يوم» متعلق بقوله - تعالى - قبل ذلك «ثم لتنبؤن بما عملتم».

والمراد بيوم الجمع: يوم القيامة. سمى بذلك لأنه اليوم الذى يجتمع فيه الأولون والآخرون، فى مكان واحد للحساب والجزاء.

وسمى - أيضا - بيوم التغابن، لأنه اليوم الذى يغبن فيه أهل الحق أهل الباطل.

والتغابن تفاعل من الغبن بمعنى الخسران والنقص. يقال: غبن فلان فلانا إذا بخسه حقه، بأن أخذ منه سلعة بثمن أقل من ثمنها المعتاد. وأكثر ما يستعمل الغبن فى البيع والشراء، وفعله من باب ضرب. ويطلق الغبن على مطلق الخسران أى: قل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء الجاحدين للبعث: لتبعثن يوم القيامة ثم لتنبؤن بما عملتم يوم القيامة يوم يجتمع الخلائق للحساب، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، ويغبن فيه المؤمنون الكافرين، لأن أهل الإيمان ظفروا بالجنة، وبالمقاعد التى كان سيظفر بها الكافرون لو أنهم آمنوا، ولكن الكافرين استمروا على كفرهم فخسروا مقاعدهم فى الجنة، وفاز بها المؤمنون.

قال القرطبى: (يوم التغابن) أى: يوم القيامة ... وسمى يوم القيامة بيوم التغابن، لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار.

أى: أن أهل الجنة أخذوا الجنة، وأهل النار أخذوا النار على طريق

المبادلة. فوقع الغبن على الكافرين لأجل مبادلتهم الخير بالشر، والنعيم بالعــذاب.

يقال: غبنت فـــلانا، إذا بايعته أو شاريته، فكان النقص عليه، والغلبة لك...

فإن قيل: فأى معاملة وقعت بينهما حتى يقع الغبن فيها؟ قيل له: هو تمثيل الغبن فى الشراء والبيع»[1]....

وقال الآلوسى ماملخصه: «ذلك يوم التغابن» أى: يوم غبن فيه أهل الجنة أهل النار، فالتفاعل ليس على ظاهره، كما فى التواضع والتحامل لوقوعه من جانب واحد. واختير للمبالغة.

وقد ورد هذا التفسير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة. واختاره الواحدى.

وقال غير واحد: (ذلك يوم التغابن) أى: اليوم الذى غبن فيه بعض الناس بعضا. بنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء، وبالعكس، ففى الحديث الصحيح: مامن عبد يدخل الجنة إلا أرى مقعده من النار - لو أساء - ليزداد شكرا، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة - لو أحسن - ليزداد حسرة، وهو مستعار من تغابن القوم فى التجارة، وفيه تهكم بالأشقياء لأنهم لا يغبنون حقيقة السعداء، بنزولهم فى منازلهم من النار...)[2].

ثم فصل - سبحانه - أحوال الناس فى هذا اليوم الهائل الشديد فقال: (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا، يكفر عنه سيئاته، ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهـــار...).

أى: ومن يؤمن بالله - تعالى - إيمانا حقا، ويعمل عملا صالحا، يكفر الله

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ١٣٦.
(٢) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ١٢٣.

ـ تعالى ـ عنه سيئاته التي عملها في الدنيا ، بأن يزيلها من صحيفة عمله ـ فضلا منه ـ تعالى ـ وكرما ـ ، وفوق ذلك يدخله بفضله وإحسانه جنات تجرى من تحت ثمارها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، أى . خلودا أبديا . . .

« وذلك » الذى ذكرناه لكم من تكفير السيئات ، ومن دخول الجنات.. هو « الفوز العظيم » الذى لافوز يقاربه أو يدانيه .

« والذين كفروا » بربهم بأن أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى . . .

(وكذبوا بآياتنا) الدالة على وحدانيتنا ، وعلى صدق نبينا – صلى الله عليه وسلم – .

« أولئك » الكافرون المكذبون ، هم « أصحاب النار خالدين فيها » خلودا أبديا ، وبئس المصير » مصيرهم النار .

ففى هاتين الآيتين الكريمتين ، بيان للتغابن ، وتفصيل له ، لاحتوائهما على بيان منازل السعداء والأشقياء ، وهو ماوقع فيه التغابن .

ثم بين – سبحانه – أن كل شىء بقضائه وقدره فقال : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله . . .) .

والمراد بالمصيبة : الرزيه والنكبة ، وكل مايسوء الإنسان فى نفسه أو ماله أو ولده . . . والمفعول محذوف ، و (من) للتأكيد ، و (مصيبة) فاعـــل .

أى : ما أصاب أحدا مصيبة فى نفسه أو ماله أو ولده . . . إلا بإذن الله – تعالى – وأمره وإرادته ، لأن كل شىء بقضائه – سبحانه – وقـــدره .

قال القرطبى : قيل : سبب نزولها أن الكفار قالوا : لو كان ماعليه المسلمون حقا لصانهم الله ـ تعالى ـ عن المصائب .

فأنزل الله ـ تعالى ـ هذه الآية الرد على المشركين ، والبيان أن كل شيء بإرادته ـ سبحانه ـ .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن الإيمان الحق يعين على استقبال المصائب بصبر جميل فقال : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم » أي : ومن يؤمن بالله ـ تعالى ـ إيمانا حقا يهد قلبه إلى الصبر الجميل، وإلى الاستسلام لقضائه ـ تعالى ـ لأن إيمانه الصادق يجعله يعتقد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، والله ـ تعالى ـ عليم بكل شيء ، لاتخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

قال الإمام ابن كثير : قوله ـ تعالى ـ : « ومن يؤمن بالله يهد قلبه ... » أي : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضائه ـ تعالى ـ ، هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا ....

وفي الحديث المتفق عليه : عجبا للمؤمن ، لايقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »(١) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه الآيات الكريمة بحض الناس على الطاعة والإخلاص في العبادة ، وحذرهم من اقتراف المعاصي فقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين » .

أي : وعليكم ـ أيها الناس ـ أن تطيعوا الله ـ تعالى ـ طاعة تامة ، وأن تطيعوا رسوله في كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه .

فإن أعرضتم عن ذلك ، وانصرفتم عما أمرناكم به أو نهيناكم عنه، فلا ضرر على رسولنا بسبب إعراضكم لأن حسابكم وجزاءكم علينا يوم القيامة ، وليس على رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالنسبة لكم سوى البلاغ الواضح البين ،

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٦٣ .

بحيث لايترك بابا من أبواب الخير إلا ويبينه لكم ، ولا يترك بابا من أبواب الشر إلا وحذركم منه .

« الله » - تعالى - « لا إله إلا هو » أى : هو المستحق للعبادة دون غيره ، فأخلصوا له هذه العبادة والطاعة « وعلى الله » - تعالى - وحده « فليتوكل المؤمنون » أى: فليفوضوا أمورهم إليه،وليعقدوا رجاءهم عليه.فهو- سبحانه- صاحب الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

° ° ° ° °

وفى نهاية السورة الكريمة ، وجه - سبحانه - نداء إلى المؤمنين، حذرهم فيه من فتنة الأزواج والأولاد والأموال ، وحضهم على مراقبته وتقواه ، وحذرهم من البخل والشح ، ووعدهم بالأجر العظيم متى اطاعوه ... فقال - تعالى - :

« يأيها الذينَ آمنُوا إنَّ مِنْ أَزْواجِكُم وأولادكُم عدُوًّا لكُم فاحذَرُوهُمْ ، وإنْ تَعفُوا وتَصفَحوا وتَغفِرُوا ، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحِيمٌ (١٤) إنَّما أَموالُكم وأَوْلادكُم فِتنةٌ ، واللهُ عِندَه أَجرٌ عظِيمٌ (١٥) فاتَّقُوا اللهَ ما اسْتطعْتُم، واسْمَعوا وأَطِيعوا، وأَنفِقُوا خيراً لأَنفُسِكُم ، ومَنْ يوقَ شُحَّ نفْسِهِ فأولئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ (١٦) إنْ تُقرِضُوا اللهَ قَرْضاً حَسناً يُضاعِفهُ لكُم ، ويغفِرْ لكُم ، واللهُ شكورٌ حَليمٌ (١٧) عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ العَزيزُ الحكيم (١٨) » .

ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات منها ماروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رجلا سأله عن هذه الآيات فقال : هؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فأبى أولادهم وأزواجهم أن يتركوهم - ليهاجروا - .

فلما أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى بالمدينة - رأوا الناس قد تفقهوا فى الدين، فهموا أن يعاقبوهم - أى : ليعاقبوا أولادهم وأزواجهم - فأنزل الله - تعالى - هذه الآيات ..»[1] .

وفى رواية أخرى عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت بالمدينة فى عوف ابن مالك الأشجعى، شكى إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - جفاء أهله وولده فنزلت[2] ...

وصدرت الآيات الكريمة بالنداء بصفة الإيمان، لحضهم على الاستجابة لما اشتملت عليه هذه الآيات من توجيهات سامية وإرشادات عالية ... فإن من شأن الإيمان الحق، أن يحمل صاحبه على طاعة الله - عز وجل - .

و «من» فى قوله «إن من أزواجكم وأولادكم ...» للتبعيض .

والمراد بالعداوة : ما يشمل العداوة الدينية والدنيوية، بأن يكون هؤلاء الأولاد والأزواج يضمرون لآبائهم وأزواجهم العداوة والبغضاء وسوء النية، بسبب الاختلاف فى الطباع أو فى العقيدة والأخلاق .

والعفو : ترك المعاقبة على الذنب بعد العزم على هذه المعاقبة .

والصفح : الإعراض عن الذنب، وعن العزم على عقابه .

والغفران : ستر الذنب وإخفاؤه، وعدم إشاعته .

أى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان، إن بعض أزواجكم وأولادكم، يعادونكم ويخالفونكم فى أمور دينكم، وفى أمور دنياكم، «فاحذروهم» أى: فاحذروا أن تطيعوهم فى أمر يتعارض مع تعاليم دينكم، فإنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ...

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٦٥

(٢) تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٤٠

« وإن تعفو » - أيها المؤمنون - عنهم ، بأن تتركوا عقابهم بعد التصميم عليه « وتصفحوا » عنهم ، بأن تتركوا عقابهم بدون عزم عليه . . « وتغفروا » ما فرط منهم من أخطاء ، بأن تخفوها عليهم .

وقوله : « فإن الله غفور رحيم » قائم مقام جواب الشرط . أى : وإن تفعلوا ذلك من العفو والصفح والمغفرة ، يكافئكم الله - تعالى - على ذلك مكافأة حسنة ، فإن الله - تعالى - واســـع المغفرة والرحمة لمن يعفون ويصفحون ويغفرون .

وقوله - تعالى - « إنما أموالكم وأولادكم فتنة . . . » تعميم بعد تخصيص ، وتأكيد للتحذير الذى اشتملت عليه الآية السابقة .

والمراد بالفتنة هنا : مايفتن الإنسان ويشغله ويلهيه عن المداومة على طاعة الله - تعالى - .

أى : إن أموالكم وأولادكم - أيها المؤمنون - على رأس الأمور التى تؤدى المبالغة والمغالاة فى الاشتغال بها ، إلى التقصير فى طاعه الله - تعالى - ، وإلى مخالفة أمره ، والإخبار عنهم بأنهم « فتنة » للمبالغة . والمراد أنهم سبب للفتنة ، أى : لما يشغل عن رضاه الله وطاعته ، إذا ما جاوز الإنسان الحد المشروع فى الاشتغال بهما .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » أى : بلاء ومحنة ، لأنهم يترتب عليهم الوقوع فى الإثم والشدائد الدنيوية وغير ذلك . وفى الحديث : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : أكل عياله حسناته » .

وأخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذى . . . عن بريدة قال : كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يخطب ، فأقبل الحسن والحسين عليهما قيصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل - صلى الله عليه وسلم - من فوق المنبر ، فحملهما . .

ثم صعد المنبر فقال : صدق الله إذ يقول : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، إنى لما نظرت إلى هذين الغلامين يمشيان ويعثران ، لم أصبر أن قطعت كلامى ، ونظرت إليهما »(١) .

وقال الجمل . قال الحسن فى قوله - تعالى : « إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم .. » أدخل - سبحانه - « من » للتبعيض ، لأنهم كلهم ليسوا بأعداء ، ولم يذكر « من » فى قوله « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ، لأنهما لا يخلوان من الفتنة ، واشتغال القلب بهما ، وقدم الأموال على الأولاد ، لأن الفتنة بالمال أكثر . وترك ذكر الأزواج فى الفتنة ، لأن منهن من يكن صلاحا وعونا على الآخرة . . . »(٢)

وقوله - سبحانه - : « والله عنده أجر عظيم » معطوف على جملة « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » ،

أى : والله - تعالى - عنده أجر عظيم ، لمن آثر محبة الله - تعالى - وطاعته ، على محبة الأزواج والأولاد والأموال .

والفاء فى قوله - سبحانه : « فاتقوا الله ما استطعتم ... » للإفصاح والتفريع على ما تقدم .

و « ما » فى قوله : ما استطعتم » مصدرية ظرفية .

والمراد بالاستطاعه : نهاية الطاقة والجهد .

أى : إذا كان الأمر كما ذكرت لكم من أن المؤمن الصادق فى إيمانه ، هو الذى لا يشغله ماله أو ولده أو زوجه عن ذكر الله - تعالى - ... فابذلوا نهاية

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٢٧ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٥٣ .

قدرتكم واستطاعتكم فى طاعة الله - تعالى - ، وداموا على ذلك فى جميع الأوقات والأزمان .

وليس بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - « اتقوا الله حق تقاته » تعارض ، لأن كلتا الآيتين تأمران المسلم بأن يبذل قصارى جهده ، ونهاية طاقته ، فى المواظبة على أداء ما كلفه الله به ، ولذلك فلا نرى ما يدعو إلى قول من قال : إن الآية التى معنا نسخت الآية التى تقول : « يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته . . . »

قال الآلوسى : أخرج ابن ابى حاتم عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت : « اتقوا الله حق تقاته » اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت أقدامهم . فأنزل الله هذه الاية « فاتقوا الله ما استطعتم » تخفيفا على المسلمين »(1) .

وحذف متعلق التقوى ، لقصد التعميم ، أى : فاتقوا الله مدة استطاعتكم فى كل ما تأتون وما تذرون ، واعلموا أنه - تعالى - « يريد بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » و « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ومن الأحاديث التى وردت فى معنى الآية الكريمة ، ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله قال ، بايعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على السمع والطاعة ، فلقننى « فيما استطعت » .

وعطف قوله - تعالى - : « واسمعوا وأطيعوا » على قوله « فاتقوا الله » من باب عطف الخاص على العام ، للاهتمام به .

أى : فاتقوا الله - تعالى - فى كل ما تأتون وما تذرون، واسمعوا ما يبلغكم إياه رسولنا عنا سماع تدبر وتفكر ، وأطيعوه فى كل ما يأمركم به أو ينهاكم عنه .

« وأنفقوا » مما رزقكم الله - تعالى - من خير ، يكن ذلك الإنفاق « خيرا لأنفسكم » فى دنياكم وفى آخرتكم .

---

(1) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ١٢٧ .

«ومن يوق شح نفسه» أي: ومن يستطع أن يبعد نفسه عن الشح والبخل.

«فأولئك هم المفلحون» أي: الفائزون فوزا تاما لا نقص معه.

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بالحض على الإنفاق فى سبيله فقال: «إن تقرضوا الله قرضا حسنا، يضاعفه لكم...».

أي: إن تبذلوا أموالكم فى وجوه الخير التى يحبها الله - تعالى -، بذلا مصحوبا بالإخلاص وطيب النفس، يضاعف الله - تعالى - لكم ثواب هذا الإنفاق والإقراض. بأن يجعل لكم الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف،

«ويغفر لكم» فضلا عن ذلك ذنوبكم. ببركة هذا الإنفاق الخالص لوجهه الكريم.

«والله شكور» أي: كثير الشكر لمن أطاعه «حليم» لا يعاجل بالعقوبة المذنبين.

«عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم» أى هو - سبحانه - يعلم علما تاما ما كان خافيا عليكم وما كان ظاهرا لكم، وهو - عز وجل - القوى الذى لا يغلبه غالب، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله...

وبعد فهذا تفسير لسورة «التغابن»، نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الإسكندرية — العجمى

صباح الخميس ٢٠ من شوال ١٤٠٦ هـ

٢٦ من يونيو ١٩٨٦ م

كتبه الراجى عفو ربه

محمد سيد طنطاوى

تفسير
سُورَةِ الطَّلاق

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – سورة « الطلاق » من السور المدنية الخالصة ، وقد سماها عبد الله ابن مسعود بسورة النساء القصرى . أما سورة النساء الكبرى فهى التى بعد سورة آل عمران .

وكان نزولها بعد سورة « الإنسان » وقبل سورة « البينة » ، وترتيبها بالنسبة للنزول : السادسة والتسعون ، أما ترتيبها بالنسبة لترتيب المصحف ، فهى السورة الخامسة والستون .

٢ – وعدد آياتها إحدى عشرة آية فى المصحف البصرى ، وفيما عداه إثنتا عشرة آية .

٣ – ومعظم آياتها يدور حول تحديد أحكام الطلاق ، وما يترتب عليه من أحكام العدة ، والإرضاع ، والإنفاق ، والسكن ، والإشهاد على الطلاق ، وعلى المراجعة ...

وخلال ذلك تحدثت السورة الكريمة حديثا جامعا عن وجوب تقوى الله – تعالى – ، وعن مظاهر قدرته ، وعن حسن عاقبة التوكل عليه ، وعن يسره فى تشريعاته ، وعن رحمته بهذه الأمة حيث أرسل فيها رسوله – صلى الله عليه وسلم – ليتلو على الناس آيات الله – تعالى – ، ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بإذنه – سبحانه .

* * *

وقد افتتحت السورة الكريمة بقوله – تعالى – :

« يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا (١) فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدرا (٣) » .

افتتح الله - تعالى السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا أيها النبي إذا طلقتم النساء ، فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ... » .

وأحكام الطلاق التى وردت فى هذه الآية ، تشمل النبي - صلى الله عليه وسلم - ، كما تشمل جميع المكلفين من أمته - صلى الله عليه وسلم - .

وإنما كان النداء له - صلى الله عليه وسلم - ، وكان الخطاب بالحكم عاما له ولأمته ، تشريفا وتكريما له - صلى الله عليه وسلم - ، لأنه هو المبلغ للناس ، وهو إمامهم وقدوتهم والمنفذ لأحكام الله - تعالى - فيهم .

قال صاحب الكشاف : خص النبي - صلى الله عليه وسلم - بالنداء ، وعم بالخطاب ، لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - إمام أمته وقدوتهم ، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان : افعلوا كيت وكيت ، إظهارا لتقدمه ، واعتبارا لترؤسه ، وأنه مدرة قومه ولسانهم - والمدرة : القرية .

أى: أنه بمنزلة القرية لقومه. وأنه الذى يصدرون عن رأيه، ولا يستبدون بأمر دونه، فكان هو وحده فى حكم كلهم، وساد مسد جميعهم ...»[١].

وهذا التفسير الذى اقتصر عليه صاحب الكشاف. هو المعول عليه، وهو الذى يناسب بلاغة القرآن وفصاحته، ويناسب مقام النبى - صلى الله عليه وسلم -.

وقيل: الخطاب له ولأمته، والتقدير: يأيها النبى وأمته إذا طلقتم، فحذف المعطوف لدلالة ما بعده عليه.

وقيل: هو خطاب لأمته فقط، بعد ندائه - عليه السلام - وهو من تلوين الخطاب، خاطب أمته بعد أن خاطبه.

وقيل: إن الكلام على إضمار قول. أى: يأيها النبى قل لأمتك إذا طلقتم[٢].

والحق أن الذى يتدبر القرآن الكريم، يرى أن الخطاب والأحكام المترتبة عليه، تارة تكون خاصة به - صلى الله عليه وسلم - كما فى قوله - تعالى -: «يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته...».

وتارة يكون شاملا له - صلى الله عليه وسلم - ولأمته كما فى هذه الآية التى معنا، وكما فى قوله - تعالى -: «يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ....».

وتارة يكون - صلى الله عليه وسلم - خارجا عنه كما فى قوله - تعالى -: «إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف، ولا تنهرهما،

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٥٢.
(٢) راجع حاشية الجمل على الجلالين ج ٤ ص ٣٥٥.

وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » .

فصيغة الخطاب هنا وإن كانت موجهة إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا أنه ليس داخلا فيها ، لأن والديه لم يكونا موجودين عند نزول هاتين الآيتين .

والمراد بقوله : « إذا طلقتم النساء . . » أى : إذا أردتم تطليقهن ، لأن طلاق المطلقة من باب تحصيل الحاصل .

وهذا الأسلوب يرد كثيرا فى القرآن الكريم ، ومنه قوله - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم . . . » أى : إذا أردتم القيام للصلاة فاغسلوا . . .

والمراد بالنساء هنا : الزوجات المدخول بهن ، لأن غير المدخول بهن خرجن بقوله - تعالى - : « يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، فما لكم عليهن من عدة تعتدونها . . . » .

واللام فى قوله - سبحانه - : « فطلقوهن لعدتهن » هى التى تسمى بلام التوقيت ، وهى بمعنى عند ، أو بمعنى فى ، كما يقول القائل : كتبت هذا الكتاب لعشر مضين من شهر كذا . . .

ومنه قوله - تعالى - : « أقم الصلاة لدلوك الشمس . . . » أى : عند أوفى وقت دلوكها . . .

وقوله : « وأحصوا العدة » من الإحصاء بمعنى العد والضبط ، وهو مشتق من الحصى ، وهى صغار الحجارة ، لأن العرب كانوا إذا كثر عدد الشىء ، جعلوا لكل واحد من المعدود حصاة ، ثم عـدوا مجموع ذلك الحصى . . .

والمراد به هنا: شدة الضبط، والعناية بشأن العد، حتى لا يحصل خطأ في وقت العدة.

والمعنى: يأيها النبي، أخبر المؤمنين ومرهم، إذا أرادوا تطليق نسائهم المدخول بهن، من المعتدات بالحيض، فعليهم أن يطلقوهن في وقت عدتهن. أي: في طهر لم يجامعوهن فيه، ثم يتركوهن حتى تنقضي عدتهن...

وعليهم كذلك أن يضبطوا أيام العدة ضبطا تاما حتى لا يقع في شأنها خطأ أو لبس.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: خوطب النبي - صلى الله عليه وسلم - أولا تشريفا وتكريما، ثم خاطب الأمة تبعا، فقال: «يأيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة...»

روى ابن أبي حاتم عن أنس قال: طلق النبي - صلى الله عليه وسلم - حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله - تعالى - هذه الآية. وقيل له: راجعها فإنها صوامة قوامة، وهي من أزواجك في الجنة».

وروى البخاري أن عبد الله بن عمر، طلق امرأة له وهي حائض، فذكر عمر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك، فتغيظ - صلى الله عليه وسلم - ثم قال: فليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن أن يطلقها فليطلقها طاهرا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله - تعالى -.

ثم قال - رحمه الله -: ومن ها هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق، وقسموه إلى طلاق سنة، وطلاق بدعة.

فطلاق السنة: أن يطلقها طاهرا من غير جماع، أو حاملا قد استبان حملها.

والبدعي: هو أن يطلقها في حال الحيض، - وما يشبهه كالنفاس -،

أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت ألا ؟ .... »(١)

وتعليق « طلقتم » بإذا الشرطية ، يشعر بأن الطلاق خلاف الأصل ، إذ الأصل فى الحياة الزوجية أن تقوم على المودة والرحمة ، وعلى الدوام والاستقرار .

قال ـ تعالى ـ : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة .... » .

قال القرطبى : روى الثعلبى من حديث ابن عمر قال : قال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ...

وعن أبى موسى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تطلقوا النساء إلا من ريبة . فإن الله ـ عز وجل ـ لا يحب الذواقين ولا الذواقات » .

وعن أنس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما حلف بالطلاق ، ولا استحلف به إلا منافق » .(٢)

والمراد بالأمر فى قوله ـ تعالى ـ « فطلقوهن لعدتهن .. » إرشاد المؤمنين إلى ما يجب عليهم اتباعه إذا ما أرادوا مفارقة أزواجهن ، ونهيهم عن إيقاع الطلاق فى حالة الحيض أو ما يشبهها كالنفاس ... لأن ذلك يكون طلاقا بدعيا محرما ، إذ يؤدى إلى تطويل عدة المرأة لأن بقية أيام الحيض لا تحسب من العدة ، ويؤدى ـ أيضا ـ إلى عدم الوفاء لها ، حيث طلقها فى وقت رغبته فيها فاترة ...

ولكن الطلاق مع ذلك يعتبر واقعا ونافذا عند جمهور العلماء .

قال القرطبى : من طلق فى طهر لم يجامع فيه ، نفذ طلاقه وأصاب السنة ، وإن طلقها وهى حائض نفذ طلاقه وأخطأ السنة .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٦٩

(٢) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٤٩

وقال سعيد بن المسيب : لا يقع الطلاق فى الحيض لأنه خلاف السنة وإليه ذهبت الشيعة .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال : طلقت امرأتى وهى حائض ، فذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتغيظ ، وقال : فليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التى طلقها فيها ...

وكان عبد الله بن عمر قد طلقها تطليقة ، فحسبت من طلاقها ، وراجعها عبد الله بن عمر ، كما أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وفى رواية أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال له : « هى واحدة » وهذا نص ، وهو يرد على الشيعة قولهم [١] .

وقد بسط الفقهاء وبعض المفسرين الكلام فى هذه المسألة فليرجع إليها من شاء [٢] .

والمخاطب بقوله « أحصوا العدة » الأزواج على سبيل الأصالة ، لأنهم هم المخاطبون بقوله « طلقتم » وبقوله « فطلقوهن » ، ويدخل معهم الزوجات على سبيل التبع ، وكذلك كل من له صلة بهذا الحكم ، وهو إحصاء العدة .

ثم أمر - سبحانه - بتقواه فقال : « واتقوا الله ربكم » أى . واتقوا الله ربكم ، بأن تصونوا أنفسكم عن معصيته ، التى من مظاهرها إلحاق الضرر بأزواجكم ، بتطليقهن فى وقت حيضهن ، أو فى غير ذلك من الأوقات المنهى عن وقوع الطلاق فيها .

فالمقصود بهذه الجملة الكريمة : التحذير من التساهل فى أحكام الطلاق والعدة ، كما كان أهل الجاهلية يفعلون .

---

(١) راجع تفسير القرطبى جـ ١٨ ص ١٥١

(٢) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٣٠ . وتفسير آيات الأحكام جـ ٤ ص ١٥٦ . للشيخ السايس .

وجمع - سبحانه - بين لفظ الجلالة ، وبين الوصف بربكم ، لتأكيد الأمر بالتقوى ، والمبالغة فى وجوب المحافظة على هذه الأحكام .

ثم بين - سبحانه - حكما آخر يتعلق بالأزواج والزوجات فقال : « لا تخرجوهن من بيوتهن ، ولا يخرجن ، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » . .

والجملة الكريمة مستأنفة ، أو حال من ضمير « وأحصوا العدة » أى : حالة كون العدة فى بيوتهن . والخطاب للأزواج والزوجات . والاستثناء مفرغ من أعم الأحوال والأسباب . . .

والفاحشة : الفعلة البالغة الغاية فى القبح والسوء ، وأكثر إطلاقها على الزنا .

والمراد بها هنا : ما يشمل الزنا وغيره من سوء الأخلاق ، وكثرة الخصام .

وقوله : « مبينة » صفة للفاحشة . وقراءة الجمهور - بكسر الياء - أى : بفاحشة توضح لمن تبلغه أنها فاحشة اشتدة قبحها .

وقرأ ابن كثير « مبينة » بفتح الياء - أى : بفاحشة قامت الحجة على مرتكبيها قياما لا مجال معه للمناقشة أو المجادلة .

أى : واتقوا الله ربكم - أيها المؤمنون - فيما تأتون وتذرون ، ومن مظاهر هذه التقوى ، أنكم لا تخرجون زوجاتكم المطلقات من مساكنهن إلى أن تنقضى عدتهن ، وهن - أيضا - لا يخرجن منها بأنفسهن فى حال من الأحوال ، إلا فى حال إتيانهن بفاحشة عظيمة ثبتت عليهن ثبوتا واضحا .

فالمقصود بالجملة الكريمة نهى الأزواج عن إخراج المطلقات المعتدات من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنتهى عدتهن ، ونهى المعتدات عن الخروج منها إلا عند إرتكابهن الفاحشة الشديدة القبح .

وأضاف - سبحانه - البيوت إلى ضمير النساء فقال : لا تخرجوهن من من بيوتهن ، ، للإشعار بأن إستحقاقهن للسكنى فى بيوت أزواجهن مدة

عدتهن ، كاستحقاق المالك لما يملكه ، ولتأكيد النهى عن الإخراج والخروج .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية الكريمة ، أن المطلقة لا يصح إخراجها أو خروجها من بيت الزوجية مادامت فى عدتها ، إلا لأمر ضرورى ...

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : « لا تخرجوهن من بيوتهن » أى : من مساكنهن عند الطلاق إلى أن تنقضى عدتهن . . . . وعدم العطف للإيذان باستقلاله بالطلب اعتناء به . والنهى عن الإخراج يتناول بمنطوقه عدم إخراجهن غضبا عليهن ، أو كراهة لمساكنتهن .. ويتناول بإشارته عدم الإذن لهن بالخروج ، لأن خروجهن محرم ، لقوله - تعالى - : « ولا يخرجن » فكأنه قيل : لا تخرجوهن ، ولا تأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، فهناك دلالة على أن سكونهن فى البيوت حق للشرع مؤكد ، فلا يسقط بالإذن ... وهذا رأى الأحناف .

ومذهب الشافعية أنهما لو اتفقا على الانتقال جاز ، إذ الحق لا يعدوهما ، فيكون المعنى : لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن .

والاستثناء فى قوله « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » يرى بعضهم أنه راجع إلى « ولا يخرجن » ، فتكون الفاحشة المبينة هى نفس الخروج قبل انقضاء العدة . أى : لا يطلق لهن فى الخروج ، إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يطلق لهن فيه ، فيكون ذلك منعا من الخروج على أبلغ وجه ... كما يقال : لا تزن إلا أن تكون فاسقا »[1] .

وقال بعض العلماء : والذى تخلص لى أن حكمة السكنى للمطلقة ، أنها حفظ للأعراض ، فإن المطلقة يكثر التفات العيون لها ، وقد يتسرب سوء الظن إليها ، فيكثر الاختلاف عليها ، ولا تجد ذا عصمة يذب عنها ، فلذلك شرعت لها السكنى ، فلا تخرج إلا لحاجياتها الضرورية ....

(١) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٣٣

ومن الحكم - أيضا - فى ذلك أن المطلقة قد لا تجد مسكنا ، لأن غالب النساء لم تكن لهن أموال ، وإنما هن عيال على الرجال ...

ويزاد فى المطلقة الرجعية ، قصد استبقاء الصلة بينها وبين مطلقها ، لعله يثوب إليه رشده فيراجعها ...

فهذا مجموع علل ، فإذا تخلفت واحدة منها لم يتخلف الحكم ، لأن الحكم المعلل بعلتين فأكثر لا يبطله سقوط بعضها[1] .

واسم الإشارة فى قوله « وتلك حدود الله » يعود إلى الأحكام التى سبق الحديث عنها والحدود : جمع حد ، وهو ما لا يصح تجاوزه أو الخروج عنه .

أى : وتلك الأحكام التى بيناها لكم ، هى حدود الله - تعالى - التى لا يصح لكم تعديها أو تجاوزها ، وإنما يجب عليكم الوقوف عندها ، وتنفيذ ما اشتملت عليه من آداب وهدايات .

ثم بين - سبحانه - سوء عاقبة من يتجاوز حدوده فقال : « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » أى : ومن يتجاوز حدود الله التى حدها لعباده ، بأن أخل بشىء منها ، فقد حمل نفسه وزرا ، أكسبها إثما ، وعرضها للعقوبة والعذاب .

وقوله - سبحانه - : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » ترغيب فى امتثال الأحكام السابقة ، بعد أن سلك فى شأنها مسلك الترهيب من مخالفتها ، ودعوة إلى فتح باب المصالحة بين الرجل وزوجه ، وعدم السير فى طريق المفارقة حتى النهاية .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٣٠٤ لفضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور .

والخطاب لكل من يصلح له، أو هو المتعدى بطريق الالتفات، والجملة الكريمة مستأنفة، مسوقة لتعليل مضمون ماقبلها، وتفصيل لأحواله.

أى : اسلك - أيها المسلم - الطريق الذى أرشدناك إليه فى حياتك الزوجية، وامتثل ما أمرناك به، فلا تطلق امرأتك وهى حائض، ولا تخرجها من بيتها قبل تمام عدتها . . . . ولا تقفل باب المصالحة بينك وبينها ، بل اجعل باب المصالحة مفتوحا ، فإنك لا تدرى لعل الله - تعالى - يحدث بعد ذلك النزاع الذى نشب بينك وبين زوجك أمرا نافعا لك ولها ، بأن يحول البغض إلى حب ، والخصام إلى وفاق ، والغضب إلى رضا ...

فالجملة الكريمة قد اشتملت على أسمى ألوان الإرشاد لحل النفوس المتجهة نحو الطلاق ... إلى التريث والتعقل ، وفتح باب المواصلة بعد المقاطعة والتقارب بعد التباعد ، لأن تقليب القلوب بيد الله - عز وجل - وليس بعيدا عن قدرته - تعالى - تحويل القلوب إلى الحب بعد البغض .

قال القرطبي : الأمر الذى يحدثه الله أن يقلب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليه ، فيراجعها .

وقال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة[1] .

ثم بين - سبحانه - حكما آخر يتعلق بما بين الزوجين عن حقوق فقال - تعالى - : « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ..... » .

والفاء فى قوله - « فإذا بلغن ... » للتفريع على ما تقدم من أحكام تتعلق بالعدة . والمراد ببلوغ أجلهن . مقاربة نهاية مدة العدة بقرينة مابعده ، لأن الرجل لا يؤمر بإمساك زوجه بعد انقضاء عدتها ، لأن الإمساك يكون قبل انقضائها .

(١) تفسير القرطبي حـ ١٨ ص ١٥٦

فالكلام من باب المجاز ، لمشابهة مقاربة الشيء ، بالحصول فيه ، والتلبس به .

والمراد بالإمساك : المراجعة وعدم السير فى طريق مفارقتها .

والمعروف : ما أمر به الشرع من حسن المعاملة بين الزوجين ، وحرص كل واحد منهما على أداء ما عليه لصاحبه من حقوق .

والمعنى : لقد بينت لكم جانبا من الأحكام التى تتعلق بعدة النساء ، فإذا قاربن وشارفن آخر عدتهن ، فأمسكوهن وراجعوهن بحسن معاشرة ، أو فارقوهن بمعروف بأن تعطوهن حقوقهن كاملة غير منقوصة ، وبأن تكفوا ألسنتكم عن ذكرهن بسوء ...

والأمر فى قوله : « فأمسكوهن وفارقوهن » للإباحة ، و « أو » للتخيير .

والتعبير بالإمساك للإشعار بأن المطلقة طلاقا رجعيا لها حكم الزوجة ، ماعدا الاستمتاع بها ، فعليه أن يستمسك بها ، ولا يتسرع فى فراقها ، فهى ما زالت فى عصمته .

وقدم - سبحانه - الإمساك على الفراق ، للإشارة إلى أنه هو الأولى رعاية لحق الزوجية ، وإبقاء للمودة والرحمة .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف » ...

ثم قال - سبحانه - « وأشهدوا ذوى عدل منكم » أى : وأشهدوا عند المراجعة لأزواجكم وعند مفارقتكم لهن ، رجلين تتوفر فيهما العدالة والاستقامة ، لأن الإشهاد يقطع التنازع ، ويدفع الريبة ، وينفى التهمة .

والأمر فى قوله « وأشهدوا » للندب والاستحباب فى حالتى المراجعة والمفارقة ، فهو كقوله - تعالى - : « وأشهدوا إذا تبايعتم » وهذا رأى جمهور العلماء .

قال الآلوسي: قوله: «وأشهدوا ذوي عدل منكم» أي: عند الرجعة إن اخترتموها، أو الفرقة إن اخترتموها، تبريا عن الريبة، وقطعا للنزاع. وهذا أمر ندب كما في قوله - تعالى - «وأشهدوا إذا تبايعتم».

وقال الشافعي في القديم: إنه للوجوب في الرجعة. وزعم الطبرسي أن أمر بالإشهاد على الطلاق، وأنه مروي عن أئمة أهل البيت، وأنه للوجوب، وشرط في صحة الطلاق»[1].

وقوله: «وأقيموا الشهادة لله» معطوف على ماقبله. والخطاب لكل من تعلق به الشهادة.

والمراد بإقامة الشهادة: أداؤها بالعدل والصدق...

أي: وعليكم - أيها المؤمنون - عندأدائكم للشهادة. أن تؤدوها بالعدل والأمانة، وأن تجعلوها خالصة لوجه الله - تعالى - وامتثالا لأمره.

والجملة الكريمة دليل على أن أداء الشهادة على وجهها الصحيح عندالحكام وغيرهم، أمر واجب، لأن الشهادة هنا اسم للجنس، ولأن الله - تعالى - يقول في آية أخرى: «ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه...»

والإشارة في قوله - سبحانه - : «ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» تعود إلى جميع ماتقدم من أحكام، كإحصاء العدة، وعدم إخراج المطلقة من بيت الزوجية حتى تنتهي عدتها، والحث على أداء الشهادة بالحق والعدل...

والوعظ معناه: التحذير مما يؤذي بطريقة تؤثر في القلوب. وتهدي النفوس إلى الرشد.

أي: ذلك الذي ذكرناه لكم من أحكام، إنما يتأثر به، ويعمل بمقتضاه الذين يؤمنون بالله - تعالى - وباليوم الآخر إيمانا حقا.

(١) تفسير الآلوسي ج ٢٨ ص ١٣٥

وخص - سبحانه - الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر بالذكر ، لأنهم هم المنتفعون بهذه الأحكام ، وهم المنفذون لها تنفيذا صحيحا ...

ثم بشر - سبحانه - عباده الذين يتقونه ويراقبونه ببشارات متعددة فقال : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

والجملة الكريمة اعتراض بين قوله - تعالى - : « وأقيموا الشهادة لله » وبين قوله - سبحانه - بعد ذلك : « واللائي يئسن من المحيض » ..

وجيء بهذا الاعتراض بين هذه الأحكام لحمل النفوس على تقبل تشريعاته - تعالى - وآدابه ، ولحض الزوجين على مراقبته - سبحانه - وتقواه .

أي : ومن يتق الله - تعالى - في كل أقواله وأفعاله وتصرفاته .. يجعل له - سبحانه - مخرجا من هموم الدنيا وضوائقها ومتاعبها ، وشدائد الموت وغمراته ، ومن أهوال الآخرة وعذابها ... ويرزقه الفوز بخير الدارين ، من طرق لا تخطر له على بال ، ولا ترد له على خاطر ، فإن أبواب رزقه - سبحانه - لا يعلمها أحد إلا هو - عز وجل - .

وفي هذه الجملة الكريمة ما فيها من البشارة للمؤمن ، حتى يثبت فؤاده ، ويستقيم قلبه ، ويحرص على طاعة الله - تعالى - في كل أحواله .

قال القرطبي : قال أبو ذر - ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ، ثم تلا : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب » .

وعن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي ، أسر المشركون ابنا له ، فأتى النبي - صلى الله عليه وسلم - وأخبره بذلك ... فقال له - صلى الله عليه وسلم - : « اتق الله واصبر ، وآمرك وزوجك أن تستكثرا من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فعاد إلى بيته وقال لامرأته : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرني وإياك أن نستكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله . فقالت نعم ما أمرنا ، فجعلا

يتولان ذلك . فغفل العدو عن إبنه ، فساق غنمهم وجاء بها إلى أبيه عوف ، فنزلت الآية ... » (١)

ثم قال — تعالى — : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره . قد جعل الله لكل شيء قدرا ».

ولفظ «حسب» بمعنى كاف . وأصله اسم مصدر أو مصدر. ومعنى « بالغ أمره » بإضافة الوصف إلى مفعوله ، أي : يبلغ ما يريده — سبحانه — ، وقرأ الجمهور « بالغ أمره » بتنوين الوصف ونصب أمره على المفعولية . والمراد بأمره شأنه ومراده . وهذه الجملة تعليل لما قبلها .

أي : ومن يفوض أمره إلى الله — تعالى — ويتوكل عليه وحده ، فهو — سبحانه — كافية في جميع أموره، لأنه - سبحانه - يبلغ ما يريده، ولا يفوته مراد ، ولا يعجزه شيء ، ولا يحول دون أمره حائل .. . ومن مظاهر حكمه في خلقه ، أنه — عز وجل - قد جعل لكل شيء تقديرا قبل وجوده ، وعلم علما تاما مقاديرها وأوقاتها وأحوالها .

وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - : « إنا كل شيء خلقناه بقدر ».

وقوله - سبحانه - : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . وقوله -عز وجل- « وكل شيء عنده بمقدار »

قال بعض العلماء ما ملخصه : ولهذه الجملة - وهي قوله - تعالى - : «قد جعل الله لكل شيء قدرا » — موقع تتجلى فيه صورة من صور إعجاز القرآن ، في ترتيب مواقع الجمل بعضها بعد بعض .. فهذه الجملة لها موقع الاستئناف البياني الناشيء عما إشتملت عليه جمل : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا . . . » على قوله « إن الله بالغ أمره » لأن إستعداد السامعين لليقين بما تضمنته تلك الجمل متفاوت ، فقد يستبعد بعض السامعين تحقق الوعد لأمثاله ، فيقول : أين أنا

(١) راجع تفسير القرطبي ج ١٨ ص ١٥٩

من تحصيل هذا الشيء ... ويتملكه اليأس ... فيقول الله - تعالى - له : قد جعل الله لكل شيء قدرا أي : فلا تيأس أيها الإنسان .

ولها موقع التعليل لجملة « وأحصوا العدة » ، فإن العدة من الأشياء التي تعد ، فلما أمر الله بإحصائها علل ذلك فقال : « قد جعل الله لكل شيء قدرا » .

ولها موقع التذييل لجملة « وتلك حدود الله ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » أي : الذي وضع تلك الحدود . قد جعل الله لكل شيء قدرا لا يعدوه ، كما جعل الحدود .

ولها موقع التعليل لجملة « فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف » ، لأن المعنى إذا بلغن القدر الذي جعله الله لمدة العدة ، فقد حصل المقصد الشرعي، الذي أشار اليه بقوله - تعالى - « لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا » .

ولها موقع التعليل لجملة « وأقيموا الشهادة لله » فإن الله تعالى - جعل الشهادة قدرا لرفع النزاع .

فهذه الجملة جزء آية ، وهي تحتوي على حقائق من الحكمة ، ... »(١)

ثم ذكر - سبحانه - أحكاما أخرى تتعلق بعدة أنواع أخرى من النساء وأكد الأمر بتقواه - عز وجل - وأمر برعاية النساء والإنفاق عليهن .. فقال - تعالى - :

« وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٨ ص ٣١٤ للشيخ ابن عاشور .

حَمْلَهنّ ، ومَنْ يتّقِ اللهَ يجعلْ لهُ من أمرهِ يُسْرًا (٤) ذلكَ أمرُ اللهِ أنزَلهُ إليكُم ، ومَنْ يتّقِ اللهَ يكفّرْ عنهُ سيّئاتهِ ويعظّم لهُ أجراً (٥) أسكِنُوهنّ من حيثُ سكَنْتُم مِنْ وُجدِكُم ، ولا تُضارّوهُنّ لِتُضيّقُوا عليهِنّ ، وإنْ كنّ أولاتِ حَمْلٍ فأنفِقُوا عليهِنّ حتّى يضَعْنَ حَمْلَهنّ ، فإنْ أرْضعْنَ لكُم فآتوهُنّ أجورَهُنّ ، وأْتَمِرُوا بيْنكُم بمعْرُوفٍ ، وإنْ تعاسَرْتُم فَسَتُرضِعُ لهُ أُخرَى (٦) لِيُنفِقْ ذُو سعَةٍ من سعَتِه ، ومَنْ قُدِرَ عليهِ رِزْقُه فلْيُنفِقْ ممّا آتاهُ اللهُ ، لا يُكلّفُ اللهُ نفْسًا إلاّ ما آتاهاَ سيَجْعلُ اللهُ بعْدَ عُسْرٍ يُسْراً (٧) » .

قال القرطبي : قوله ـ تعالى ـ : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم » لما بين سبحانه ـ أمر الطلاق والرجعة فى التى تحيض ، وكانوا قد عرفوا عدة ذوات الأقراء ، عرفهم ـ سبحانه ـ فى هذه السورة عدة التى لا ترى الدم .

وقال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدة النساء فى سورة (البقرة) فى المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، قال أبى بن كعب : يارسول الله ، إن ناسا يقولون قد بقى من النساء من لم يذكر فيهن شىء ، الصغار وذوات الحمل ، فنزلت هذه الآية .

وقال مقاتل : لما ذكر ـ سبحانه ـ قوله : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ...)

قال خلاد بن النعمان : يا رسول الله فما عدة التى لم تحض ، وما عدة التى انقطع حيضها ، وعدة الحبلى ، فنزلت هذه الآية ...) [1]

وجملة : (واللائى يئسن من المحيض ...) معطوفة على قوله ـ تعالى ـ

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١٨ صـ ١٦٢ .

قبل ذلك : (فطلقوهن لعدتهن . . .) لبيان أحكام أخرى تتعلق بعدة نوع آخر من النساء ذوات الأقراء .

والمراد باللائى يئسن من المحيض : النساء اللاتى تقدمن فى السن ، وانقطع عنهن دم الحيض .

وقوله : (يئسن) من اليأس ، وهو فقدان الأمل من الحصول على الشىء

والمراد بالمحيض : دم الحيض الذى يلفظه رحم المرأة فى وقت معين ، وفى حال معينة ...

وقوله : (إن ارتبتم) من الريبة بمعنى الشك .

قوله : (واللائى) اسم موصول مبتدأ ، وقوله (يئسن) صلته ، وجملة الشرط والجزاء وهى قوله (إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر) خبره .

والمعنى : لقد بينت لكم - أيها المؤمنون - عدة النساء المعتدات بالحيض ، أما النساء المتقدمات فى السن واللائى فقدن الأمل فى رؤية دم الحيض ، فعليكم إن ارتبتم ، وشككتم فى عدتهن أو جهلتموها ، أن تقدروها بثلاثة أشهر .

هذا ، وقد قدر بعضهم سن اليأس بالنسبة للمرأة بستين سنة . وبعضهم قدره بخمس وخمسين سنة .

وبعضهم لم يحدده بسن معينة ، بل قال : إن هذا السن يختلف باختلاف الذوات والأقطار والبيئات ... كاختلاف سن ابتداء الحيض

وقوله - تعالى - (واللائى لم يحضن معطوف على قوله : (واللائى يئسن) وهو مبتدأ وخبره محذوف لدلالة ما قبله عليه .

والتقدير : واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، إن ارتبتم فى عدتهن ، فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن بعد لصغرهن ، وعدم بلوغهن سن المحيض ... فعدتهن - أيضا - ثلاثة أشهر .

ثم إنتقلت السورة الكريمة إلى بيان عدة المرأة ذات الحمل، فقال - تعالى - «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ...»

وقوله «وأولات»: إسم جمع للفظ ذات، بمعنى صاحبه، لأنه لا مفرد لكلمة «أولات» من لفظها، كما أنه لا مفرد من لفظها لكلمة «أولو» التي هي بمعنى أصحاب، وإنما مفردها «ذو».

والأحمال: جمع حمل - بفتح الحاء - كصحب وأصحاب. والمراد به الجنين الذي يكون في بطن المرأة.

والأجل: إنتهاء المدة المقدرة للشيء.

وقوله: «وأولات ..» مبتدأ. و«أجلهن» مبتدأ ثان. وقوله «أن يضعن حملهن» خبر المبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره، خبر الأول.

والمعنى: والنساء ذوات الأحمال «أجلهن» أي: نهاية عدتهن، أن يضعن ما في بطونهن من حمل، فمتى وضعت المرأة ما في بطنها، فقد إنقضت عدتها، لأنه ليس هناك ما هو أدل على براءة الرحم، من وضع الحمل.

وهذا الحكم عام في كل ذوات الأحمال، سواء أكن مطلقات، أم كن قد توفى عنهن أزواجهن.

وقد ساق الإمام ابن كثير جملة من الأحاديث التي تؤيد ذلك، ومن تلك الأحاديث مارواه الشيخان، من أن سبيعة الأسلمية، وضعت بعد موت زوجها بأربعين ليلة، فخطبت فأنكحها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأحد أصحابه ...

وعن أبي بن كعب قال قلت للنبي - صلى الله عليه وسلم -: «وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن»: للمطلقة ثلاثا والمتوفى عنها زوجها؟ فقال: هي للمطلقة ثلاثا والمتوفى عنها ...» [1].

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٧٦

قالوا . ولا تعارض بين هذه الآية ، وبين قوله - تعالى - فى سورة البقرة « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ...» لأن آية سورة البقرة ، خاصة بالنساء اللائى توفى عنهن أزواجهن ولم يكن هؤلاء النساء من ذوات الأحمال .

وفى هذه المسألة أقوال أخرى مبسوطة فى مظانها (١)

ثم كرر - سبحانه - الأمر بتقواه ، وبشر المتقين بالخير العميم فقال : (ومن يتق الله) - تعالى - فينفذ ما كلف به ، ويبتعد عما نهى عنه .

(يجعل له) - سبحانه - (من أمره يسرا) أى : يجعل له من الأمر العسير أمرا ميسورا ، ويحول له الأمر الصعب إلى أمر سهل ، لأنه - سبحانه - له الخلق والأمر .

(ذلك) الذى ذكرناه لكم من أحكام (أمر الله) أى : حكمه وشرعه وشرعه (أنزله إليكم) لتعملوا به ، وتسيروا على هديه .

(ومن يتق الله) - تعالى - فى كل شئونه وأحواله .. يكفر عنه سيئاته أى : يمح عنه ذنوبه ، ولا يؤاخذه عليها . (ويعظم له أجرا) أى : ويضاعف له حسناته ، ويجزل له العطاء والمثوبة يوم القيامة .

ثم أمر - سبحانه - الرجال بأن يحسنوا معاملة النساء المطلقات ، ونهاهم عن الإساءة اليهن بأى لون من ألوان الإساءة فقال : (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم . .) والخطاب للرجال الذين يريدون فراق أزواجهم ، والضمير المنصوب فى قوله (أسكنوهن) يعود إلى النساء المطلقات .

و (من) للتبعيض . والوجد : السعة والقدرة .

(١) راجع تفسير آيات الأحكام ج ٤ ص ١٦٦ . وتفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ١٣٧

اى : أسكنوا المطلقات فى بعض البيوت التى تسكنونها . والتى هى فى وسعكم وطاقتكم إسكانهن فيها .

قال صاحب الكشاف : قوله « أسكنوهن » وما بعده : بيان لما شرط من التقوى فى قوله : « ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ... » كأنه قيل : كيف نعمل بالتقوى فى شأن المعتدات ؟ فقيل « أسكنوهن » .

فإن قلت : « من » فى قوله « حيث سكنتم » ما هى ؟ قلت : تبعيضية . . أى : أسكنوهن مكانا من حيث سكنتم . أى بعض مكان سكناكم .

فإن قلت : فقوله : « من وجدكم » ما موقعه ؟ قلت : هو عطف بيان لقوله « من حيث سكنتم » ، وتفسير له ، كأنه قيل : أسكنوهن مكانا من مسكنكم مما تطيقونه .

والسكنى والنفقة : واجبتان لكل مطلقة . وعند مالك والشافعى : ليس للمبتوتة إلا السكنى ولا نفقة لها . وعن الحسن وحماد : لا نفقة لها ولا سكنى، لحديث فاطمة بنت قيس : أن زوجها أبتّ طلاقها، فقال لها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لا سكنى لك ولا نفقة ... »(1)

ثم أتبع - سبحانه - الأمر بالإحسان إلى المطلقات ، بالنهى عن إلحاق الأذى بهن فقال : « ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ... »

أى : ولا تستعملوا معهن ما يؤذيهن ويضرهن ، لكى تضيقوا عليهن ما منحه الله - تعالى - لهن من حقوق ، بأن تطيلوا عليهن مدة العدة ، فتصبح الواحدة منهن كالمعلقة ، أو بأن تضيقوا عليهن فى السكنى ، حتى يلجأن إلى الخروج ، والتنازل عن حقوقهن .

وقوله - تعالى - : « وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن

---

(1) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٥٨

حملهن . . » أى . وإن كن المطلقات أصحاب حمل، فعليكم - يامعشر الأزواج - أن تقدموا لهن النفقة المناسبة ، حتى يضعن حملهن .

قال الإمام ابن كثير : قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف . . . هذه فى البائن ، إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها . قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء أكانت حاملا أم غير حامل .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل - وإن كانت رجعية - لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة . . . » (1)

ولما كان الحمل ينتهى بالوضع ، إنتقلت السورة الكريمة إلى بيان مايجب للمطلقات بعد الوضع ، فقال - تعالى - : « فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن . . . »

أى : عليكم - أيها المؤمنون - أن تقدموا لنسائكم ذوات الحمل اللائى طلقتموهن طلاقا بائنا . عليكم أن تقدموا لهن النفقة حتى يضعن حملهن ، فإذا ما وضعن حملهن وأرادوا أن يرضعن لكم أولادكم منهن ، فعليكم - أيضا - أن تعطوهن أجورهن على هذا الإرضاع ، وأن تلتزموا بذلك لهن .

وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن الأم المطلقة طلاقا بائنا ، إذا أرادت أن ترضع ولدها بأجر المثل ، فليس لأحد أن يمنعها من ذلك ، لأنها أحق به من غيرها ، لشدة شفقتها عليه . . . وليس للأب أن يسترضع غيرها حينئذ كما أخذوا منها - أيضا - أن نفقة الولد الصغير على أبيه ، لأنه إذا لزمته أجرة الرضاع ، فبقية النفقات الخاصة بالصغير تقاس على ذلك .

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ١٧٩

وقوله - سبحانه - : « وأتمروا بينكم بمعروف » حض منه - سبحانه - للآباء والأمهات على التعاون والتناصح فى وجوه الخير والبر .

والائتمار معناه : التشاور وتبادل الرأى ، وسمى التشاور بذلك لأن المتشاورين فى مسألة ، يأمر أحدهما الآخر بشىء فيستجيب لأمره . ويقال : أتمر القوم وتآمروا بمعنى واحد .

أى : عليكم - أيها الآباء والأمهات - أن تتشاوروا فيما ينفع أولادكم ، وليأمر بعضكم بعضا بما هو حسن ، فيما يتعلق بالارضاع والأجر وغيرهما .

وقوله - تعالى - : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » إرشاد إلى ما يجب عليهما فى حالة عدم التراضى على الإرضاع أو الأجر

والتعاسر مأخوذ من العسر الذى هو ضد اليسر والسماحة ، يقال تعاسر المتبايعان ، إذا تمسك كل واحد منهما برأيه ، دون أن يتفقا على شىء

أى : وإن اشتد الخلاف بينكم ، ولم تصلوا إلى حل ، بأن إمتنع الأب من دفع الأجرة للأم ، أو إمتنعت الأم عن الإرضاع إلا بأجر معين . . ، فليس معنى ذلك أن يبقى المولود جائعا بدون رضاعة ، بل على الأب أن يبحث عن مرضعة أخرى ، لكى ترضع له ولده ، فالضمير فى قوله « له » يعود على الأب

قال صاحب الكشاف : قوله : « وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى » أى فستوجد ولا تعوز مرضعة غير الأم ترضعه ، وفيه طرف من معاتبة الأم على المعاسرة ، كما تقول لمن تستقضيه حاجة فيتوانى : سيقضيها غيرك . تريد لن تبقى غير مقضية وأنت ملوم »

وقد علق المحشى على الكشاف بقوله: وخص الأم بالمعاتبة ، لأن المبذول من جهتها هو لبنها وهو غير متمول ولا مضنون به فى العرف ، وخصوصا

فى الأم على الولد ، ولا كذلك المبذول من جهة الأب ، فإنه المال المضنون به عادة ، فالأم إذا أجدى باللوم ، وأحق بالعتب ، [١]

قالوا : وفى هذه الجملة — أيضا — طرف من معاتبة الأب ، لأنه كان من الواجب عليه أن يسترضى الأم ، ولا يكون مصدر عسر بالنسبة لها ، حرصا على مصلحة الولد .

ثم رسم ـ سبحانه ـ لعباده المنهج الذى لو إتبعوه لعاشوا آمنين مطمئنين فقال : « لينفق ذو سعة من سعته . . »

والإنفاق : بذل المال فى المصالح المتنوعة التى أحلها الله — تعالى — ، كالمأكل والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

والسعة : البسطة فى المال والرزق

أى : على كل من أعطاه الله ـ تعالى ـ سعة وبسطة فى المال والرزق ، أن ينفق مما أعطاه الله ـ تعالى — وأن لا يبخل ، فإن البخل صفة قبيحة ، ولاسيما فى الأغنياء .

فعليكم ـ أيها الآباء ـ أن تعطوا بسخاء كل من يستحقون العطاء ، وعلى رأسهم الأمهات لأولادكم ، اللائى يقمن بإرضاعهم بعد مفارقتكم لهن ، وأن لاتبخلوا عليهن فى أجرة الرضاع ، أو فى النفقة على الأولاد .

ثم قال ـ تعالى ـ : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله . . » أى : ومن كان رزقه ضيقا وليس واسعا . . . فلينفق على قدر ماله ورزقه وطاقته ، مما آتاه الله — تعالى — من رزق .

وقوله : « لايكلف الله نفسا إلا ما آتاها . . » تعليل لما قبله ـ أى : فلينفق كل إنسان على نفسه وعلى زوجه ، وعلى أولاده ، وعلى أقاربه ، وعلى غيرهم .

(١) الكشاف وحاشيته ج ٤ ص ٥٥٩

على حسب حاله ، فإن كان موسرا أنفق على حسب يسره ، وإن كان معسرا أنفق على حسب عسره ... لأن الله - تعالى - لا يكلف نفسا إلا بقدر ما أعطاها من طاقة أو رزق ...

روى ابن جرير أن عمر بن الخطاب سأل عن أبي عبيدة فقيل له : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل الخشن من الطعام ، فبعث إليه بألف دينار، وقال للرسول : انظر ماذا يصنع إذا أخذها ، فلما أخذها ، ما لبث أن لبس لين الثياب ، وأكل أطيب الطعام ... فجاء الرسول فأخبره فقال عمر : رحم الله أباعبيدة ، لقد عمل بهذه الآية : لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله »[1] .

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببشارة لمن يتبع أمره فقال : « سيجعل الله بعد عسر يسرا » أي : سيجعل الله - تعالى - بفضله وإحسانه - اليسر بعد العسر والسعة بعد الضيق ، والغنى بعد الفقر ... لمن شاء من عباده ، لأنه - سبحانه - هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وهو بعباده خبير بصير .

قال الإمام ابن كثير : وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الفاقة خرج إلى البرية ، فلما رأت امرأته ذلك قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسجرته - اى أوقدته - ، ثم قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت ، فإذا الجفنة قد امتلأت ..

قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا، قال : فرجع الزوج فقال لأهله . أأصبتم بعدى شيئا ؟ فقالت امرأته : نعم من ربنا ..

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٢٨ ص ١٤٩

فذكر الرجل ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم - فقال أما إنه لو لم ترفعها ، لم تزل تدور إلى يوم القيامة »(١) .

* * *

وبعد هذه التشريعات الحكيمة التى تتعلق بالطلاق وما يترتب عليه من آثار ، وبعد هذا التذكير المتكرر بوجوب تقوى الله - تعالى - والمحافظة على أداء تكاليفه ، وبعد هــذا الوعظ المؤثر فى قلوب الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ....

بعد كل ذلك ساق - سبحانه - جانبا من سوء عاقبة الأقوام الذين فسقوا عن أمر ربهم ، وخالفوا رسله ، وكرر الأمر بتقواه ، وذكر الناس بجانب من نعمه ، حيث أرسل إليهم رسوله - صلى الله عليه وسلم - ليتلو عليهم آياته ... كما ذكرهم بعظيم قدرته - تعالى - وشمول علمه ، فقال - سبحانه - .

« وكَأَيِّنْ مِنْ قريةٍ عتَتْ عن أمرِ ربِّها ورُسلِهِ ، فحَاسبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وعذَّبْنَاها عذَاباً نُكْراً (٨) فذاقَتْ وبالَ أمْرِها وكانَ عاقبةُ أمْرِها خُسراً (٩) أعدَّ اللهُ لهُم عذاباً شَدِيداً ، فاتَّقوا اللهَ يا أُولى الألبَابِ الذينَ آمنُوا قد أنزَلَ اللهُ إليكُم ذِكراً (١٠) رسُولاً يتلُو عليكُم آياتِ اللهِ مُبَيِّناتٍ ليُخرِجَ الذينَ آمنُوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ من الظُّلمَاتِ إلى النُّورِ ، ومَنْ يؤمِنْ باللهِ ويعمَلْ صَالحاً يُدخِلْهُ جنَّاتٍ تجرِى مِن تحتِهاَ الأنهارُ خَالدِينَ فيهاَ أبداً قد أحسنَ اللهُ لهُ رزْقاً (١١) اللهُ الذى خلَقَ سبْعَ سمَاواتٍ ، ومِنَ الأرْضِ مِثلَهُنَّ يتنَزَّلُ الأمْرُ بينهُنَّ لتَعلموا أنَّ اللهَ عَلَى كلِّ شَىء قديرٌ ، وأنَّ اللهَ قد أحاطَ بكلِّ شَىءٍ علماً (١٢) » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨١

وكلمة « كأين » اسم لعدد كثير مبهم ، يفسره ما بعده ، فهى بمعنى « كم » الخبرية التى تفيد التكثير ، وهى مبتدأ ، وقوله « من قرية » تمييز لها .

وجملة « عتت عن أمر ربها » خبر للمبتدأ . والعتو : الخروج عن الطاعة . يقال : عتا فلان يعتو عتوا وعتيا ، إذا تجبر وطغى وتجاوز الحدود فى الاستكبار والعناد .

والمراد بالقرية : أهلها ، على سبيل المجاز المرسل ، من إطلاق المحل وإرادة الحال ، فهو كقوله - تعالى - : « واسأل القرية التى كنا فيها » .

والقرينة على أن المراد بالقرية أهلها، قوله - تعالى - بعد ذلك : « أعد الله لهم عذابا شديدا » ..

والمراد بالمحاسبة فى قوله « فحاسبناها ... » المجازاة والمعاقبة الدنيوية على أعمالهم ، بدليل قوله - تعالى - عن العذاب الأخروى بعد ذلك « أعد الله لهم عذابا شديدا ... » .

ويجوز أن يراد بالمحاسبة هنا . العذاب الأخروى ، وجىء بلفظ الماضى على سبيل التأكيد وتحقق الوقوع ، كما فى قوله - تعالى - : « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار .. »

ويكون قوله - سبحانه - : « أعد الله لهم عذابا شديدا ... » تكريرا للوعيد .

والمعنى : وكثير من أهل القرى الماضية ، خرجوا عن طاعة ربهم ، وعصوا رسله ، فكانت نتيجة ذلك أن سجلنا عليهم أفعالهم تسجيلا دقيقا ، وجازيناهم عليها جزاء عادلا ، بأن عذبناهم عذابا فظيعا . وعاقبناهم عقابا نكرا ..

والشىء النكر - بضمتين وبضم فسكون - ماينكره العقل من شدة كيفية حدوثه إنكارا عظيما .

والفاء فى قوله - تعالى - : فذاقت وبال أمرها . . . ، للتفريع على ما تقدم .

والوبال : الثقل ، ومنه الطعام الوبيل أى : الوخيم الثقيل على المعدة فيكون سببا فى فسادها ومرضها . والذوق : الإحساس بالشيء إحساسا واضحا . . .

أى : فترتب على هذا الحساب والعقاب ، أن ذاق أهل تلك القرى سوء عاقبة حالهم وأمرهم وجحودهم لنعم الله ..

« وكان عاقبة أمرها خسرا » أى : وكانت نهايتهم نهاية خاسرة خسارة عظيمة ، كما يخسر التاجر صفقته التجارية التى عليها قوام حياته .

ثم بين - سبحانه - ما أعده لهم فى الآخرة من عذاب ، بعد بيان ما حل بهم فى الدنيا فقال : « أعد الله لهم عذابا شديدا ... »

أى : أن ما أصابهم فى الدنيا بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، ليس نهاية المطاف ، بل هيأ الله - تعالى - لهم عذابا أشد من ذلك وأبقى فى الآخرة ..

وما دام الأمر كذلك « فاتقوا الله يا أولى الألباب ، الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ... »

والألباب جمع لب ، وهو العقل السليم الذى يرشد صاحبه إلى الخير والبر .

وقوله « الذين آمنوا » منصوب بإضمار أعنى على سبيل البيان للمنادى ، أو عطف بيان له .

والمراد بالذكر : القرآن الكريم ، وقد سمى بذلك فى آيات كثيرة منها قوله - تعالى - (لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم . . .) أى : فيه شرفكم وعزكم ، وفيه مايذكركم بالحق ، وينهاكم عن الباطل

أى : فاتقوا الله - تعالى - يا أصحاب العقول السليمة ، ويامن آمنتم بالله

ـ تعالى ـ حق الإيمان ، فهو ـ سبحانه ـ الذى أنزل عليكم القرآن الكريم ، الذى فيه ما يذكركم عما غفلتم عنه من عقيدة سليمة ، ومن أخلاق كريمة ، ومن آداب قويمة . . .

وفى ندائهم بوصف « أولى الألباب » ، إشعار بأن العقول الراجحة ، هى التى تدعو أصحابها إلى تقوى الله وطاعته ، وإلى كل كمال فى الطباع والسلوك .

والمراد بالرسول فى قوله ـ تعالى ـ : « رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات » محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمفسرين جملة من الأقوال فى إعرابه ، فمنهم من يرى أنه منصوب بفعله مقـــدر ، ومنهم من يرى أنه بدل من « ذكرا »[1] .

والمعنى: فاتقوا الله ـ أيها المؤمنون ـ فقد أنزلنا إليكم قرآنا فيه ما يذكركم بخير الدنيا والآخرة . . وأرسلنا إليكم رسولا هو عبدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكى يتلو عليكم آياتنا تلاوة تدبر وفهم ، يعقبهما تنفيذ ما اشتملت عليه هذه الآيات من أحكام وآداب وهدايات . . .

ولكى يخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من ظلمات الشرك الذى كانوا واقعين فيه ، إلى نور الإيمان الذى صاروا إليه .

ومنهم من فسرَّ الذكر بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . . .

قال الآلوسى ما ملخصه : وقوله : « قد أنزل الله إليكم ذكرا » هو النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعبر عنه بالذكر ، لمواظبته على تلاوة القرآن الذى هو ذكر . . .

وقوله ـ تعالى ـ « رسولا » بدل من « ذكرا » ، وعبر عن إرساله بالإنزال ، لأن الإرسال مسبب عنه . .

(١) راجع حاشية الجمل على الجلالين ح ٤ ص ٣٦١

والظاهر أن الذكر هو القرآن. والرسول هو محمد - صلى الله عليه وسلم - ورسولا منصوب بمقدر، أى: وأرسل رسولا ...»[1].

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة المؤمنين الصادقين فقال: «ومن يؤمن بالله» إيمانا حقا «ويعمل» عملا «صالحا» «يدخله» - سبحانه - بفضله وإحسانه «جنات تجرى من تحتها الأنهار، خالدين فيها» خلودا أبديا ...

وقوله: «قد أحسن الله له رزقا» حال من الضمير المنصوب فى قوله «يدخله»، والجمع فى الضمائر باعتبار معنى «من»، كما أن الإفراد فى الضمائر الثلاثة باعتبار لفظها: والرزق: كل ماينتفع به الإنسان، وتنكيره للتعظيم.

أي: قد وسع الله - تعالى - لهذا المؤمن الصادق فى إيمانه رزقه فى الجنة، وأعطاه من الخير والنعيم، ما يشرح صدره، ويدخل السرور على نفسه، ويصلح باله ...

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بما يدل على كمال قدرته، وسعة علمه. فقال: «الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ...»

أى: الله - تعالى - وحده هو الذى خلق سبع سماوات طباقا، وخلق من الأرض مثلهن، أى: فى العدد، فهى سبع كالسماوات.

والتعدد قد يكون باعتبار أصول الطبقات الطينية والصخرية والمائية والمعدنية، وغير ذلك من الاعتبارات التى لا يعلمها إلا الله - تعالى -.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يقول - تعالى - مخبرا عن قدرته التامة، وسلطانه العظيم، ليكون ذلك باعثا على تعظيم ما شرع من الدين القويم: «الله الذى خلق سبع سماوات» كقوله - تعالى - إخبارا عن نوح أنه قال لقومه: «ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ...» وقال - تعالى - «تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن».

---

(1) راجع تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٤١

وقوله: «ومن الأرض مثلهن» أي: سبعا أيضا - كما ثبت فى الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين».

وفى صحيح البخارى: «خسف به إلى سبع أرضين»..

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم، فقد أبعد النجعة، وأغرق فى النزع، وخالف القرآن والحديث بلا مستند ...»[1].

وقال الآلوسى: «الله الذي خلق سبع سماوات» مبتدأ أو خبر «ومن الأرض مثلهن» أي: وخلق من الأرض مثلهن. على ان «مثلهن» مفعول لفعل محذوف، والجملة معطوفة على الجملة قبلها ...

والمثلية تصدق بالاشتراك فى بعض الأوصاف، فقال الجمهور: هى هنا فى كونها سبعا وكونها طباقا بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفى كل أرض سكان من خلق الله، لا يعلم حقيقتهم أحد إلا الله - تعالى -.

وقيل: المثلية فى الخلق لا فى العدد ولا فى غيره، فهى أرض واحدة مخلوقة كالسموات السبع ...

ورد هذا القيل بأنه قد صح من رواية البخارى وغيره، قوله - صلى الله عليه وسلم -: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن ...»[2].

والذى نراه أن كون المثلية فى العدد، هو المعول عليه، لورود الأحاديث الصحيحة التى صرحت بأن الأرضين سبع، فعلينا أن نؤمن بذلك، وأن نرد كيفية تكوينها، وهيئاتها، وأبعادها، ومساحاتها، وخصائصها... إلى علم الله - تعالى -.

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨٢

(٢) تفسير الالوسى جـ ٢٨ ص ١٤٣

وقوله : « يتنزل الأمر بينهن » أي : يجري أمر الله - تعالى - وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن . فالمراد بالأمر : قضاؤه وقدره ووحيه .

واللام في قوله - تعالى - : « لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » متعلقة بقوله « خلق » . . .

أي: خلق - سبحانه - سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، وأخبركم بذلك، لتعلموا علما تاما أن الله - تعالى - على كل شيء قدير ، وأن علمه - تعالى - قد أحاط بكل شيء ، سواء أكان هذا الشيء جليلا أم حقيرا ، صغيرا أم كبيرا . . .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « الطلاق » نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الاسكندرية - العجمي : ٢٤ من شوال سنة ١٤٠٦ هـ

٣٠ من يونيو سنة ١٩٨٦ م

تفسير
سُورَةِ التَّحرِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – سورة «التحريم» من السور المدنية الخالصة ، وتسمى – أيضا – بسورة «لم تحرم» ، وبسورة «النبي» – صلى الله عليه وسلم – وعدد آياتها إثنتا عشرة آية .

٢ – وكان نزولها بعد سورة «الحجرات» ، وقبل سورة «الجمعة» ، فهى السورة الخامسة بعد المائة بالنسبة لترتيب نزول السور القرآنية ، أما ترتيبها فى المصحف ، فهى السورة السادسة والستون .

٣ – والسورة الكريمة فى مطلعها تحكى جانبا مما دار بين النبى – صلى الله عليه وسلم – وبين بعض زوجاته ، فتعرض صفحة من حياته – صلى الله عليه وسلم – فى بيته ، ومن عتاب الله – تعالى – له ومن فضله عليه ، ودفاعه عنه..

٤ – ثم وجهت نداء إلى المؤمنين أمرتهم فيه بأن يداوموا على العمل الصالح الذى ينجيهم من عذاب الله – تعالى – ، وحرضتهم على التسلح بالتوبة النصوح لأنها على رأس الأسباب التى تؤدى إلى تكفير سيئاتهم ...

٥ – ثم ختمت السورة الكريمة بضرب مثلين أحدهما للذين آمنوا ، ويتمثل فى امرأة فرعون وفى مريم ابنة عمران ، والآخر للذين كفروا ويتمثل فى امرأة نوح وامرأة لوط – عليهما السلام – والغرض من ذلك العظة والاعتبار .

وقد افتتح – سبحانه – السورة الكريمة – بقوله – تعالى – :

« يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ، تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ،

فلمَّ نبَّأتْ بهِ وأظهرَه اللهُ عليهِ عرَّفَ بعضَهُ وأعرضَ عن بعضٍ
فلمَّا نبَّأها به قالتْ من أنبأكَ هذا ، قالَ نبأنِيَ العليمُ الخبيرُ (٣) إنْ
تتُوبَا إلى اللهِ فقدْ صغَتْ قلُوبكُما ، وإنْ تظاهَرا عليهِ فإنَّ اللهَ هُو
مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنينَ ، والملائكةُ بعدَ ذلكَ ظهيرٌ (٤)
عسَى ربُّهُ إنْ طلقكُنَّ أن يُبدلهُ أزْوَاجاً خيراً منكُن مُسْلماتٍ
مؤمناتٍ قانتاتٍ تائباتٍ عابِدَاتٍ سائحاتٍ ، ثيِّباتٍ وأبكاراً (٥) » .

وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات روايات متعددة ، منها مارواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يشرب عسلا عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ؟ - والمغافير : صمغ حلوله رائحة كريهة - إنى أجد منك ريح مغافير . .

فدخل على إحداهما فقالت له ذلك ، فقال : بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود إليه . وقد حلفت . فلا تخبرى بذلك أحدا ، فنزلت هذه الآيات .

وفى رواية : أن التى شرب عندها العسل : حفصة بنت عمر ، وأن القائلة له ذلك : سودة بنت زمعة ، وصفية بنت حيى . . .

قالوا : والاشتباه فى الاسم لايضر ، بعد ثبوت أصل القصة .

وأخرج النسائى والحاكم وصححه . وابن مردويه عن أنس ، أن رسول - صلى الله عليه وسلم - كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى جعلها على نفسه حراما ، فأنزل الله - تعالى - « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك . . . الآيات . . .

وروى ابن جرير عن زيد بن أسلم : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أصاب أم إبراهيم مارية ، فى بيت بعض نسائه - وفى رواية فى بيت حفصة فقالت : يا رسول فى بيتى وعلى فراشى ؟ فجعلها - أى مارية - عليه حراما . وحلف بهذا ... فأنزل الله هذه الآيات[1] .

قال القرطبى ما ملخصه : وأصح هذه الأقوال أولها ... والصحيح أن التحريم كان فى العسل ، وأنه شربه عند زينب . وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه ، فجرى ما جرى فحلف أن لا يشربه وأسر ذلك ونزلت الآية فى الجميع[2] .

وقال الإمام ابن كثير - بعد أن ساق عددا من الروايات فى هذا الشأن - : والصحيح أن ذلك كان فى تحريمه - صلى الله عليه وسلم للعسل[3] .

وقال الآلوسى : قال النووى فى شرح مسلم : الصحيح أن الآية فى قصة العسل ، لا فى قصة مارية المروية فى غير الصحيحين ، ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح ...

والصواب أن شرب العسل كان عند زينب بنت جحش ...[4] .

وقد افتتح - سبحانه - السورة الكريمة بتوجيه النداء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ... » .

وفى توجيه النداء إليه - صلى الله عليه وسلم - ، تنبيه إلى أن ما سيذكر بعد النداء ، شىء مهم بالنسبة له ، ولسائر المسلمين .

(١) راجع تفسير القرطبى حـ ١٨ ص ١٧٧ ، وتفسير ابن كثير حـ ٨ ص ١٨٥ وتفسير الآلوسى حـ ٢٨ ص ١٤٦ .

(٢) راجع تفسير القرطبى حـ ١٨ ص ١٧٩ .

(٣) راجع تفسير ابن كثير حـ ٨ ص ١٨٧ .

(٤) راجع تفسير الآلوسى حـ ٢٨ ص ١٤٧ .

والاستفهام فى قوله - تعالى - : لم تحرم ما أحل الله لك . . . ، للنفى المصحوب بالعتاب منه - سبحانه - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - .

وجملة « تبتغى مرضاة أزواجك » حال من فاعل « تحرم » ، والعتاب واقع على مضمون هذه الجملة والتى قبلها ، وهى قوله « لم تحرم ما أحل الله لك » .

والمعنى : يا أيها الرسول الكريم ، لماذا حرمت على نفسك ما أحله الله - تعالى - لك من شراب أو غيره ؟ أفعلت ذلك من أجل إرضاء أزواجك ؟

إنه لا ينبغى لك أن تفعل ذلك ، لأن ما أباحه الله - تعالى - لك ، لا يصح أن تحرمه على نفسك ، أو أن تمتنع عن تعاطيه ، فتشق على نفسك من أجل إرضاء غيرك .

قال بعض العلماء : ناداه بلفظ « النبى » إشعارا بأنه الذى نبىء بأسرار التحليل والتحريم الإلهى . والمراد بتحريمه ما أحل له . امتناعه منه ، وحظره إياه على نفسه .

وهذا المقدار مباح ، ليس فى ارتكابه جناح . وإنما قيل له « لم تحرم ما أحل الله لك » رفقا به ، وشفقة عليه ، وتنويها لقدره ولمنصبه - صلى الله عليه وسلم - أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه ، جريا على ما ألف من لطف الله - تعالى - به ، ورفعه عن أن يحرج بسبب أحد من البشر الذين هم أتباعه . . »(١) .

وقوله - سبحانه - : « والله غفور رحيم » تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من وقع هذا اللوم ، ومن أثر هذا العتاب ، وإرشاد له - صلى الله عليه وسلم - بأن ما فعله . داخـــل تحت مغفرة الله - تعالى - ورحمته .

---

(١) تفسير القاسمى ج ١٦ ص ٥٨٠٢ .

أى : والله - تعالى - واسع المغفرة والرحمة وقدغفر لك - بفضله وكرمه ما فعلته بسبب بعض أزواجك ، وجعلك على رأس من تظلهم رحمته .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر رحمته فقال : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم .. »

وقوله « فرض » هنا بمعنى شرع . والتحلة : مصدر بمعنى التحليل ، والمراد بها الكفارة . وهي مصدر حلل كالتكرمة مصدر كرم ، من الحل الذى هو ضد العقد ...

أى : قد شرع الله - تعالى - لكم تحليل الأيمان التى عقدتموها ، عن طريق الكفارة ، لأن اليمين إذا كانت فى أمر لا يحبه الله - تعالى - ، فالعدول عنها أولى وأفضل .

وفى الحديث الشريف يقول - صلى الله عليه وسلم - : « إنى والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا كفرت عن يمينى وفعلت الذى هو خير » .

وقد اختلف العلماء فى التحريم الذى كان من النبى - صلى الله عليه وسلم - أكان بيمين أم لا ؟

وظاهر الآية يؤيد القول بالإيجاب ، لقوله - تعالى - : « قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم » ، لأن هذه الجملة الكريمة تشعر بأن هناك يمينا تحتاج إلى كفارة .

وقد جاء فى بعض الروايات الصحيحة أنه قال : « بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت . لا تخبرى بذلك أحدا ... » .

قال الآلوسى ما ملخصه : واختلفوا هل كفر النبى - صلى الله عليه وسلم - عن يمينه هذه أولا ؟

فعن الحسن أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يكفر لأنه كان مغفورا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وإنما هو تعليم للمؤمنين ...

وعن مقاتل : أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعتق رقبة . . . ونقل مالك عن زيد بن أسلم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعطى الكفارة . . » (١)

وقوله ـ سبحانه ـ : « والله مولاكم » أى : وهو ـ سبحانه ـ سيدكم ومتولى اموركم وناصركم . وهو ـ تعالى ـ : «العليم الحكيم» أى : العليم بجميع أحوالكم وشئونكم ، الحكيم فى كل أقواله وأفعاله وتدبير شئون عباده .

والظرف فى قوله ـ تعالى ـ « وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا . . » متعلق بمحذوف تقديره أذكر . وقوله : « أسر » من الإسرار بالشىء بمعنى كتمانه وعدم إشاعته .

والمراد ببعض أزواجه : حفصة ـ رضى الله عنهما ـ

والمراد بالحديث قوله لها ـ كما جاء فى بعض الروايات ـ : « بل شربت عسلا عند زينب ، ولن أعود ، وقد حلفت فلا تخبرى بذلك أحدا . . »

أو قوله لها فى شأن مارية : إنى قد حرمتها على نفسى ، فاكتمى ذلك ... فأخبرت بذلك عائشة »

أى : واذكر ـ أيها العاقل لتعتبر وتتعظ ـ وقت أن أسر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى زوجه حفصة حديثا ، يتعلق بشربه العسل فى بيت زينب بنت جحش ، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحفصة لاتخبرى بذلك أحدا .

« فلما نبأت به » أى: فلما أخبرت حفصة عائشة بهذا الحديث الذى أمرت بكتمانه « وأظهره الله عليه » أى : وأطلع الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ما قالته حفصة لعائشة .

فالمراد بالإظهار : الاطلاع ، وهو مشتق من الظهور بمعنى التغلب .
وعبر بالإظهار عن الإطلاع ، لأن حفصة وعائشة كانتا حريصتين على

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٨ ص ١٤٨

عدم معرفة ما دارْ بينهما فى هذا الشأن ، فلما أطلع الله - تعالى - نبيه على ذلك كانتا بمنزلة من غلبتا على أمرهما .

وقوله - سبحانه - : « عرف بعضه أعرض عن بعض » بيان للمسالك السامى الذى سلكه - صلى الله عليه وسلم - فى معاتبته لحفصة على إفشائها لما أمرها أن تكتمه . والمفعول الأول لعرف محذوف . أى : أعرفها بعضه .

أى : فحين خاطب - صلى الله عليه وسلم - حفصة فى شأن الحديث الذى أفشته ، إكتفى بالإشارة إلى جانب منه ، ولم يذكر لها تفاصيل ما قاله لها سابقا .. لسمو أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - إذ فى ذكر التفاصيل مزيد من الخجل والإحراج لها .

قال بعضهم : ما زال التغافل من فعل الكرام ، وما إستقصى كريم قط وقال الشاعر :

ليس الغبي بسيد فى قومه لكن سيد قومه المتغابى

وإنما عرفها - صلى الله عليه وسلم - ببعض الحديث ، ليوقفها على خطئها وعلى أنه كان من الواجب عليها أن تحفظ سره - صلى الله عليه وسلم -

قالوا: ولعل حفصة - رضى الله عنها - قد فعلت ذلك ، ظنا منها أنه لا حرج فى إخبار عائشة بذلك ، أو أنها إجتهدت فاخطأت ، ثم تابت وندمت على خطئها ...

ثم حكى - سبحانه - ماقالته حفصة للرسول - صلى الله عليه وسلم - ومارد به عليها فقال : « فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ، قال نبأنى العليم الخبير »

أى : فلما سمعت من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يدل على أنه قد أطلع على ما قالته لعائشة ، قالت له : من أخبرك بما دار بنى وبينها ؟ فأجابها - صلى الله عليه وسلم - بقوله : أخبرنى بذلك الله - تعالى - العليم بجميع

أحوال عباده وتصرفاتهم ... الخبير بما تكنه الصدور . وبما يدور فى النفوس من هواجس وخواطر .

إنما قالت له - صلى الله عليه وسلم - : « من أنبأك هذا » لتتأكد من أن عائشة لم تخبره - صلى الله عليه وسلم - بما دار بينهما فى هذا الشأن . . . فلما قال لها - صلى الله عليه وسلم - : « نبأنى العليم الخبير » تحقق ظنها فى كتمان عائشة لما قالته لها ، وتيقنت أن الذى أخبره بذلك هو الله - عز وجل - .

وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : « العليم الخبير » إشارة حكيمة وتنبيه بليغ ، إلى أن من الواجب على كل عاقل ، أن يكون ملتزما لكتمان الأسرار التى يؤتمن عليها ، وأن إذاعتها - ولو أضيق الحدود - لا تخفى على الله - عز وجل - لأنه - سبحانه - عليم بكل معلوم ، ومحيط بخبايا النفوس وخلجاتها .

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك خطابه إلى حفصة وعائشة ، فأمرهما بالتوبة عما صدر منهما .

فقال : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . »

ولفظ « صغت » بمعنى مالت وانحرفت عن الواجب عليهما . يقال : صغا فلان يصغو ويصغى صغوا . . . إذا مال نحو شىء معين . ويقال صغت الشمس إذا مالت نحو الغروب ، ومنه قوله - تعالى - : « لتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » .

وجواب الشرط محذوف ، والتقدير : إن تتوبا إلى الله ، فلتوبتكما موجب أو سبب ، فقد مالت قلوبكما عن الحق ، وانحرفت عما يجب عليكما نحو الرسول - صلى الله عليه وسلم - من كتمان لسره ، ومن حرص على راحته ، ومن احترام لكل تصرف من تصرفاته . . . وجاء الخطاب لهما على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ، مبالغة فى المعاتبة ، فإن المبالغ فى ذلك ، يوجه الخطاب إلى من يريد معاتبته مباشرة .

وقال ـ سبحانه ـ « فقد صغت قلوبكما » بصيغة الجمع للقلوب ، ولم يقل قلباكما بالتثنية ؛ لكراهة اجتماع تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة ، مع ظهور المراد ، وأمن اللبس .

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما هو أشد فى التحـــذير والتأديب فقال : « وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير » .

وقوله « تظاهرا » أصله تتظاهرا فحذفت إحدى التاءين تخفيفا . والمراد بالتظاهر : التعاون والتآزر . يقال : ظاهر فلان فلانا إذا أعانه على ما يريده. وأصله من الظهر ، لأن من يعين غيره فكأنه يشد ظهره ، ويقوى أمره . . .

قال ـ تعالى ـ : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ... »(١)

وجواب الشرط ـ أيضا ـ محذوف . أى : وإن تتعاونا عليه بما يزعجه، ويغضبه ، من الإفراط فى الغيرة ، وإفشاء سره ... فلا يعدم ناصرا ولا معينا بل سيجد الناصر الذى ينصره عليكما ... فإن الله ـ تعالى ـ « هو مولاه » أى : ناصره ومعينه ، « وجبريل » كذلك ناصره ومعينه عليكما .

« وصالح المؤمنين » أى : وكذلك الصالحون من المؤمنين من أنصـاره وأعوانه .

« والملائكة بعد ذلك ظهير » أى : والملائكة بعد نصر الله ـ تعالى ـ له ، وبعد نصر جبريل وصالح المؤمنين له ، مؤيدونه ومناصرونه وواقفون فى صفه ضدكما .

وفى هذه الآية الكريمة أقوى ألوان النصر والتأييد للرسول ـ صلى الله

(١) سورة التوبة . الآية ٣

عليه وسلم - ، وأسمى ما يتصورة الإنسان من تكريم الله - تعالى - لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ، ومن غيرته - عز وجل - عليه ، ومن دفاعه عنه - صلى الله عليه وسلم -

وفيها تعريض بأن من يحاول إغضاب الرسول - صلى الله علية وسلم - ، فإنه لا يكون من صالح المؤمنين .

وقوله : « وجبريل » مبتدأ ، وقوله : « وصالح المؤمنين والملائكة » معطوف عليه .

وقوله « بعد ذلك » متعلق بقوله « ظهير » الذى هو خبر عن الجميع

وقد جاء بلفظ المفرد ، لأن صيغة فعيل يستوى فيها الواحد وغيره . فكأنه - تعالى - قال : والجميع بعد ذلك مظاهرون له . واختير الإفراد للاشعار بأنهم جميعا كالشىء الواحد فى تأييده ونصرته . وبأنهم كأنهم يد واحدة على من يعاديه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : قوله : « بعد ذلك » تعظيم للملائكة ومظاهرتهم ، وقد تقدمت نصرة الله وجبريل وصالح المؤمنين ، ونصرة الله - تعالى - أعظم وأعظم ؟

قلت : مظاهرة الملائكة من جملة نصرة الله ، فكأنه فضل نصرته - تعالى - بهم وبمظاهرتهم على غيرها من وجوه نصرته لفضلهم ... »(١)

وخص جبريل بالذكر مع أنه من الملائكة ، للتنويه بمزيد فضله ، فهو أمين الوحى ، والمبلغ عن الله - تعالى - إلى رسله .

هذا ، ومما يدل على أن الخطاب فى قوله - تعالى - : « إن تتوبا إلى الله » لحفصة وعائشة . ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن عباس أنه قال : لم أزل حريصا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اللتين قال الله - تعالى - فيهما : إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . » حتى حج عمر ، وحججت معه .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٦٧

فلما كان ببعض الطريق . . . قلت : يا أمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى – صلى الله عليه وسلم – اللتان قال الله – تعالى – فيهما : « أن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما . . . »

فقال عمر : واعجبا لك يا بن عباس ... هما حفصة وعائشة ... »(١)

ثم أضاف – سبحانه – إلى تكريمه لنبيه تكريما آخر ، وإلى تهديده لمن تسيء إليه من أزواجه تهديدا آخر فقال - تعالى - : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن . . . »

قال الجمل ما ملخصه : سبب نزولها أنه - صلى الله عليه وسلم - لما أشاعت حفصه ما أسرها به ، أغتم – صلى الله عليه وسلم – ، وحلف أن لا يدخل عليهن شهرا مؤاخذة لهن ...

ولما بلغ عمر - رضى الله عنه - أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قد إعتزل نساءه ... قال له يارسول الله : لا يشق عليك أمر النساء ، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك .

قال عمر : وقلما تكلمت بكلام إلا رجوت أن الله يصدق قولى الذى أقوله فنزلت هذه الآية .

فاستأذن عمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يخبر الناس أنه لم يطلق نساءه فأذن له ، فقام على باب المسجد ، ونادى بأعلى صوته : لم يطلق النبى – صلى الله عليه وسلم - نساءه»(٢) و «عسى» كلمة تستعمل فى الرجاء ، والمراد بها هنا التحقيق ، لأنها صادرة عن - عز وجل -

(١) راجع الحديث بتمامه فى تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٨٨ فهو حديث ممتع وطويل.

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٦٧

قال الآلوسي : « عسى ، في كلامه - تعالى - للوجوب ، وأن الوجوب هنا إنما هو بعد تحقق الشرط . وقيل : هي كذلك إلا هنا . والشرط معترض بين اسم « عسى » وخبرها .

والجواب محذوف . أي : إن طلقكن فعسى . . . و « أزواجا » مفعول ثان « ليبدل » و « خيرا » صفته . . . »[1] .

أي : عسى إن طلقكن رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بإذن ربه ومشيئته ، أن يبدله - سبحانه - أزواجا خيرا منكن .

ثم وصف - سبحانه - هؤلاء الأزواج بقوله « مسلمات » منقادات ومطيعات لله ولرسوله ، ومتصفات بكل الصفات التي أمر بها الإسلام .

« مؤمنات » أي : مذعنات ومصدقات بقلوبهن لكل ماجاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - من عند ربه .

« قانتات » أي : قائمات بالطاعة لله ولرسوله على أكمل وجه .

« تائبات » أي : مقلعات عن الذنوب والمعاصي ، وإذا مسهن شيء منها ندمن وتبن إلى الله - تعالى - توبة صادقة نصوحا .

« عابدات » أي : مقبلات على عبادته - تعالى - إقبالا عظيما . . .

« سائحات » أي : ذاهبات في طاعة الله أي مذهب ، من ساح الماء : إذا سال في أنحاء متعددة . وقيل معناه : مهاجرات . وقيل : صائمات . تشبيها لهن بالسائح الذي لا يصحب معه الزاد غالبا ، فلا يزال ممسكا عن الطعام حتى يجده .

« ثيبات » جمع ثيب - بوزن سيد - وهي المرأة التي سبق لها الزواج ، من ثاب يثوب ثوبا ، إذا رجع . وسميت المرأة التي سبق لها الزواج بذلك ، لأنها ثابت إلى بيت أبويها بعد زواجها ، أو رجعت إلى زوج آخر غير زوجها الأول .

---

(١) تفسير الآلوسي جـ ٢٨ ص ١٥٥ .

«وأبكارا» جمع بكر، وهى الفتاة العذراء التى لم يسبق لها الزواج، وسميت بذلك لأنها لا تزال على أول حالتها التى خلقت عليها.

وهذه الصفات جاءت منصوبة على أنها نعت لقوله «أزواجا» أو حال.

ولم يعطف بعضها على بعض بالواو، لأجل التنصيص على ثبوت جميع تلك الصفات لكل واحدة منهن.

وعطف - سبحانه - «وأبكارا» على ماقبله لتنافى الوصفين، إذ الثيبات لايوصفن بالأبكار، وكذلك الأبكار لايوصفن بالثيبات، ولا يجتمع الوصفان فى ذات واحدة.

قال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف تكون المبدلات خيرا منهن، ولم يكن على وجه الأرض نساء خير من أمهات المؤمنين؟

قلت: إذا طلقهن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لعصيانهن له، وإيذائهن إياه، لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف مع الطاعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - والنزول على هداه ورضاه خيرا منهن ...

فإن قلت: لم أخليت الصفات كلها عن العاطف، ووسط بين الثيبات والأبكار؟ قلت: لأنهما صفتان متنافيتان لايجتمعان فيهن اجتماع سائر الصفات فيهن، فلم يكن بد من الواو ....»[1].

هذا، والمتأمل فى هذه الآيات الكريمة يراها ترسم جانبا من حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أزواجه، وهذا الجانب فيه مافيه من العظات التى من أبرزها تكريم الله - تعالى - لنبيه، - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٤ ص ٥٦٧.

وإرشاده إلى ماهو أهدى وأقوم ، وسمو أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - فى معاملته لأهله ، وتحذير أزواجه من أن يتصرفن أى تصرف لا يرغب فيه ، ولا يميل إليه ، وتعليم المؤمنين والمؤمنات - فى كل زمان ومكان - كيف تكون العلاقة الطيبة بين الرجال والنساء ...

* * *

ثم وجه - سبحانه - بعد ذلك نداءين إلى المؤمنين ، أمرهم فى أولهما أن يؤدوا واجبهم نحو أنفسهم ونحو أهليهم ، حتى ينجو من عذاب النار.وأمرهم فى ثانيهما بالمداومة على التوبة الصادقة النصوح ... ، ووجه نداء إلى الكافرين بين لهم فيه سوء عاقبة كفرهم ، ثم وجه - سبحانه - نداء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أمره فيه بأن يجاهد الكفار والمنافقين جهادا مصحوبا بالغلظة والخشونة ... فقال - تعالى - :

« يٰأيُّها الذينَ آمنُوا قُوا أَنفُسَكُم وأهليكُم ناراً وقودُهَا النَّاسُ والحِجَارةُ ، علَيها ملاَئكةٌ غلاَظٌ شِدَادٌ ، لا يعصُونَ اللهَ ما أَمَرَهم ويَفعلونَ ما يؤمَرونَ (٦) يٰأيُّها الذينَ كفَرُوا لا تَعتذرُوا اليَومَ إنَّما تُجزَونَ ما كنتُم تَعملونَ (٧) يٰأيُّها الذينَ آمنُوا توبُوا إلى اللهِ توبةً نَصُوحاً عسَى رَبكُم أنْ يكَفِّرْ عنكُم سيئاَتِكُم ويدخِلكُم جناتٍ تجرِى مِنْ تحتِها الأنهارُ ، يوْمَ لا يُخزِى اللهُ النَّبيَّ والذينَ آمنُوا معَهُ نُورُهم يَسْعى بيْنَ أيديهِمْ وبأَيمَانِهم ، يقولُونَ رَبنا أَتمِمْ لنا نُورَنَا ، واغفِرْ لنَا ، إنَّكَ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ (٨) يٰأيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكفَّارَ والمنَافقِينَ واغلُظْ علَيهم ومَأْوَاهم ، جهنَّمُ وبئْسَ المَصِيرُ (٩) » .

وقوله - تعالى - : « قوا » فعل أمر من الوقاية ، يقال : وقى يقى ، كضرب يضرب ..

والمعنى : يامن آمنتم بالله - تعالى - حق الإيمان ، أبعدوا أنفسكم عن ، عن طريق فعل الحسنات ، واجتناب السيئات ، وأبعدوا أهليكم - أيضاً - عنها ، عن طريق نصحهم وإرشادهم وامرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ..

قال القرطبي : قال قتادة ومجاهد : قوا أنفسكم بأفعالكم . وقوا أهليكم بوصيتكم ...

فنى الحديث الصحيح أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم .... ،

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « ما نحل والد ولدا ، أفضل من أدب حسن»

وقال - صلى الله عليه وسلم - : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع .واضربوهم عليها لعشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع » ...

وقد روى مسلم فى صحيحه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان إذا أوتر يقول : قومى فأوترى يا عائشة » ...

وذكر القشيرى أن عمر - رضى الله عنه - لما نزلت هذه الآية قال يارسول الله : نقى أنفسنا فكيف بأهلينا ؟

فقال : تنهونهم عما نهاكم الله عنه ، وتأمرونهم بما أمركم الله به » ...[1]

وجاء لفظ النار منكرا ، للتهويل . أى : نارا عظيمة لا يعلم مقدارحرها إلا الله - تعالى - .

وقوله : « وقودها الناس والحجارة » أى : هذه النار لا توقد كما يوقد غيرها بالحطب وما يشبهها ، وإنما مادة اشتعالها تتكون من الناس الذين كانوا

(١) راجع تفسير القرطبي جـ ١٨ ص ١٩٤ .

فى الدنيا يشركون مع الله ـ تعالى ـ آلهة أخرى فى العبادة ،ومن الحجارة التى كانت تعبد من دونه ـ تعالى ـ .

ثم أضاف ـ سبحانه ـ إلى تهويلها أمرا آخر وصفة أخرى فقال : «عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» .

والغلاظ : جمع غليظ ، وهو المتصف بالضخامة والغلظة ،التى هى ضد الرقة . وهذا اللفظ صفة مشبهة ، وفعله غلظ ككرم . .

وشداد : جمع شديد ، وهو المتصف بالقوة والشدة . يقال : فلان شديد على فلان ، أى : قوى عليه ، بحيث يستطيع أن ينزل به ما يريد من الأذى والعقاب .

أى : هذه النار من صفاتها ـ أيضا ـ أن الموكلين بإلقاء الكفار والفساق فيها ، ملائكة قساة فى أخذهم أهل النار ، أقوياء عليهم ، بحيث لا يستطيع أهل النار أن يفلتوا منهم ، أو أن يعصوا لهم أمرا . .

وهؤلاء الملائكة من صفاتهم كذلك أنهم لا يعصون لله ـ تعالى ـ أمرا ، وإنما ينفذون ما يكلفهم ـ سبحانه ـ به تنفيذا تاما .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت أليس الجملتان ـ لا يعصون . . . ويفعلون ـ فى معنى واحد ؟

قلت : لا ، فإن معنى الأولى أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها ولا يأبونها ولا ينكرونها . ومعنى الثانية : أنهم يؤدون ما يؤمرون به ، ولا يتثاقلون عنه ، ولا يتوانون فيه .

ثم بين ـ سبحانه ـ ما تقوله الملائكة لأهل النار عند ما يعرضون عليها ، فقال : «يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم . . . » . والمراد باليوم ، يوم القيامة فأل فيه للعهد .

أى : تقول الملائكة لهم فى هذا اليوم العسير - على سبيل التبكيت والتوبيخ - لا تعتذروا - أيها الكافرون عن كفركم ، بأن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . أو بأن غيرنا أضلنا ، أو بأننا ما كنا مشركين .. فإن هذه الأعذار لن تنفعكم ، وأنتم فى هذا اليوم إنما تعاقبون على كفركم فى الدنيا ، وعلى إصراركم على ذلك حتى أدرككم الموت ...

فالآية الكريمة توبيخ للكافرين ، وتيئيس لهم من قبول أعذارهم الكاذبة .

ثم يرشد - سبحانه - المؤمنين ، إلى ما يعينهم على الوقاية من النار فيقول: « يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا .... »

والتوبة : العزم الصادق على عدم العودة إلى المعصية ، والندم على ما فعله منها فى الماضى ، والنصوح صيغة مبالغة من النصح ، ووصفت بها التوبة على سبيل الاسناد المجازى ، والمقصود وصف التائبين بها ، من نصح فلان الثوب إذا خاطه ، فكأن التائب يرقع ما مزقه بالمعصية . أو من قولهم : عسل ناصح . إذا كان خالصا من الشمع وغيره .

وقد ذكروا فى معنى هذه الجملة أكثر من عشرين وجها ..

قال القرطبى : اختلفت عبارة العلماء ، وأرباب القلوب ، فى التوبة النصوح على ثلاثة وعشرين قولا ، فقيل : هى التى لا عودة بعدها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ...

وقال قتادة : النصوح الصادقة الناصحة .. الخالصة ...

وقال القرظى : التوبة النصوح يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والاقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سىء الإخوان .

وقال الفقهاء : التوبة لا تعلق لحق آدمى فيها لها ثلاثة شروط : أحدها أن يقلع عن المعصية ، وثانيها : أن يندم على ما فعله ، وثالثها : أن يعزم على أن لا يعود إليها .. .

فإذا اجتمعت هذه الشروط فى التوبة كانت نصوحا ..

وإن كانت تتعلق بحق آدمى ، فشروطها أربعة . هذه الثلاثة المتقدمة ، والرابع أن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت المعصية مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه من نفسه ، أو طلب العفو منه ، وإن كانت غيبة استحله منها ...

وهى واجبة من كل معصية على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ....»(١)

وقوله - سبحانه - «عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار .... »

والرجاء المستفاد من فعل «عسى» ، مستعمل هنا فى الوعد الصادق منه - تعالى - على سبيل الكرم والفضل ، فقد قالوا إن كل ترج فى القرآن واقع منه - تعالى - فضلا منه وكرما

أى : يامن آمنتم بالله حق الإيمان ، توبوا إلى الله - تعالى - توبة صادقة ، بحيث تندمون على ما فرط منكم من ذنوب ، وتعزمون على عدم العودة إليها ، وتستمرون على توبتكم طوال حياتكم ، .... فإنكم متى فعلتم ذلك غفر الله - تعالى - لكم ذنوبكم ، وكفر عنكم سيئاتكم ، وأدخلكم جنات تجرى من تحت أشجارها وثمارها الأنهار ....

قال صاحب الكشاف : قوله : «عسى ربكم» : إطماع من الله لعباده ، وفيه وجهان : أحدهما أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة بعسى ولعل . ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت . والثانى : أن يجىء به تعليما للعباد وجوب الترجح بين الخوف والرجاء ... (٢) »

---

(١) راجع تفسير القرطبى ج ١٨ ص ١٩٤ :

(٢) تفسير الكشاف ج ٤ ص ٥٧٠ .

والظرف فى قوله ـ سبحانه ـ : « يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه ، نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم .... » منصوب بقوله ـ تعالى ـ قبل ذلك : « يدخلكم » ، أو بفعل مضمر تقديره : اذكر ...

وقوله : « يخزى » من الخزى بمعنى الافتضاح : يقال : أخزى الله فلانا إذا فضحه . والمراد به هنا : عذاب النار .

وقوله : « والذين آمنوا معه » معطوف على النبى ، وجملة « نورهم يسعى » مستأنفـــة .

أى : يدخلكم الله ـ بفضله وكرمه ـ جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يوم القيامة ، يوم ينجى ـ سبحانه ـ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينجى الذين آمنوا معه من عذاب النار ، ومن خزى هذا اليوم العصيب . .

وهم جميعا ـ وعلى رأسهم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ نورهم وهم على الصراط ، يسعى ويمتد وينتشر « بين أيديهم »

أى : أمامهم « وبأيمانهم » أى : وعن أيمانهم ...

ويقولون ـ على سبيل الحمد والشكر لله ـ تعالى ـ يا ربنا « أتمم لنا نورنا » بأن تزيده ولا تنقصه حتى ندخل جنتك . . .

« واغفر لنا » يا ربنا ذنوبنا « إنك » يا ربنا « على كل شىء قدير » .

وفى عطف الذين آمنوا على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إشعار بأن سبب انتفاء خزيهم ، هو إيمانهم الصادق ، وعملهم الصالح ، وصحبتهم الكريمة للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والضمير فى قوله « نورهم » : يعود إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والذين آمنوا معه .

وخص ـ سبحانه ـ الأمام واليمين بالذكر ، لفضل هذين المكانين ، إذ النور عندما يكون من الأمام يستمتع الإنسان بمشاهدته ، وعندما يكون عن جهة اليمين يزداد تفاؤلا وانشراحا به . .

والتخصيص بذلك لا ينفي أن يكون النور محيطا بهم من كل جوانبهم ، وهو نور حقيق يكرم الله - تعالى - به عباده الصالحين .

وختموا دعاءهم بقولهم - كما حكى القرآن عنهم - : « إنك على كل شيء قدير » ، للإشارة إلى أنهم كانوا على جانب كبير من رجاء تحقق دعائهم ، لأنهم يسألون ويدعون الله - تعالى - ، الذي لا يقف أمام قدرته شيء . . .

ثم أمر - سبحانه - نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يجاهد الكفار والمنافقين جهادا كبيرا فقال : يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . . . . . .

وخص النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأمر بالجهاد ، مع أن الأمر به يشمل المؤمنين معه ، لأنه - صلى الله عليه - هو قائدهم ورائدهم . . .

وجهاده - صلى الله عليه وسلم - للكفار يكون بدعوتهم إلى الحق حتى يسلموا ، فإذا لم يستجيبوا جاهدهم بالسيف والسلاح حتى يزهق باطلهم .

وجهاده للمنافقين يكون بتأديبهم وزجرهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ، حتى يأمن المؤمنون شرهم ، وحتى يشعروا بأن النبي والمؤمنين لهم بالمرصاد . . .

والغلظة في الأصل : تطلق على الشيء الصلب الغليظ . والمراد بها هنا : معاملتهم بالشدة والخشونة والقسوة . . . حتى يأمن المؤمنـــون جانبهم ، ويتقوا شرهم . .

أي : يأيها النبي الكريم جاهد أنت ومن معك من المؤمنين ، الكفار والمنافقين ، وعاملهم جميعا بالخشونة والغلظة . . . . حتى يهابوك أنت ومن معك ، وحتى تكونوا في مأمن منهم ومن أذاهم إذ الحق لا بد له من قوة تحميه وتدفع عنه كيد أعدائه .

وقوله - تعالى - : « ومأواهم جهنم وبئس المصير » بيان لسوء مصيرهم في الآخرة .

أى : أن هؤلاء الكافرين والمنافقين ، حالهم فى الدنيا المجاهدة والمعاملة التى لا تسامح معها ولا تساهل ، حتى تكون كلمتهم السفلى ، وكلمة الله - تعالى - هى العليا . . .

أما حالهم فى الآخرة ، فالإلقاء بهم فى جهنم ، وبئس المأوى والمسكن جهنم . فالمخصوص بالذم محذوف ، وهو جهنم ، أو المأوى . . .

وبذلك نرى الآيات الكريمة قد أرشد النبى - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين ، إلى ما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

* * * * *

وبعد هذه النداءات ، للمؤمنين ، وللكافرين وللنبى - صلى الله عليه وسلم - ، ضرب - سبحانه - مثلين لنساء كافرات فى بيوت أنبياء ، ولنساء مؤمنات فى بيوت كفار ، لتزداد الموعظة وضوحا ، وليزداد المؤمنون إيمانا على إيمانهم . وليشعر الجميع - ولاسيما أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم أنهم مسئولون أمام الله - تعالى - عن أعمالهم . . . . فقال - تعالى - :

« ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ ، كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ ، فَخَانَتَاهُمَا ، فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ ، إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ، وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ، وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ ، وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢) » .

والمراد بضرب المثل . إيراد حالة غريبة ، ليعرف بها حالة أخرى مشابهة

لهما فى القرابة . وقوله « مثلا » مفعول ثان لضرب ، والمفعول الأول « امرأة نوح ... » .

والمتدبر للقرآن الكريم ، يراه قد أكثر من ضرب الأمثال ، لأن فيها تقريبا للبعيد ، وتوضيحا للغريب ، وتشبيه الأمر المعقول بالأمر المحسوس ، حتى يرسخ فى الأذهان ....

أى : جعل الله - تعالى - مثلا لحال الكافرين ، وأنه لا يغنى أحد عن أحد « امرأة نوح وامرأة لوط » عليهما السلام - .

وعدى الفعل « ضرب » باللام ، للإشعار بأن هذا المثل إنما سيق من أجل أن يعتبر به الذين كفروا ، وأن يقلعوا عن جهالاتهم التى جعلتهم يعتقدون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة .

وقوله - تعالى - : « كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ... » بيان لحال هاتين المرأتين ، ولما قامتا به من أفعال شائنة ، تتنافى مع صلتهما بهذين النبيين الكريمين ..

والمراد بالتحتية هنا : كونهما زوجين لهذين النبيين الكريمين ، وتحت عصمتهما وصيانتهما ، وأشد الناس التصاقا بهما .

وقال - سبحانه - « كانتا تحت عبدين .... » للتعظيم . أى : كانتا فى عصمة نبيين لهما من سمو المنزلة مالهما عند الله - تعالى - .

ووصفهما - سبحانه - بالصلاح ، - مع أنهما نبيان والنبوة أعظم هبة من الله لعبد من عباده - ، للتنويه بشأن الصالحين من الناس ، حتى يحرصوا على هذه الصفة ، ويتمسكوا بها ، فقد مدح الله - تعالى - من هذه صفته فى آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : « وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين » .

وخيانة امرأة نوح له ، كانت عن طريق إفشاء أسراره . وقولها لقومه : إنه مجنون ...

وخيانة امرأة لوط له ، كانت عن طريق إرشاد قومه إلى ضيوفه ... مع استمرار هاتين المرأتين على كفرهما ...

قال الإمام ابن كثير : قوله : « فخانتاهما » أي : فى الإيمان ، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما فى الرسالة ...

وليس المراد بقوله : « فخانتاهما » فى فاحشة ، بل فى الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة ...

عن ابن عباس : قال : ما زنتا ، أما امرأة نوح ، فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط ، فكانت تدل قومها على أضيافه .

وفى رواية عنه قال : كانت خيانتهما أن امرأة نوح ، كانت تفشى سره ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحدا ، أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء »[1].

وقوله ـ تعالى ـ : « فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين » بيان لما أصابهما من سوء العاقبة بسبب خيانتهما .

أى : أن نوحا ولوطا ـ عليهما السلام ـ مع جلالة قدرهما ، لم يستطيعا أن يدفعا شيئا من العذاب عن زوجتيهما الخائنتين لهما ، وإنما قيل لهاتين المرأتين عند موتهما ، أو يوم القيامة ، أدخلا النار مع سائر الداخلين من الكفرة الفجرة ...

وقوله « شيئا » منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله : « يغنيا » ، وجاء منكرا للتقليل والتحقير ، أى : فلم يغنيا عنهما شيئا من الإغناء حتى ولو كان قليـــلا ...

وقوله : « مع الداخلين » بعد قوله : « أدخلا النار » لزيادة تبكيتهما ،

(١) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ١٩٨

ولتأكيد مساواتهما فى العذاب مع غيرهما من الكافرين الخائنين، الذين لاصلة لهم بالأنبياء من حيث القرابة أو مايشبهها .

ثم ضرب ـ سبحانه ـ مثلا للمؤمنين فقال: « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون » وهى آسية ابنة مزاحم، التى لم يمنعها طوفان الكفر الذى كانت تعيش فيه فى بيت فرعون ، ولم يشغلها ما كانت فيه من متاع الحياة الدنيا وزينتها ... عن أن تطلب الحق ، وتعرض عن الباطل ، وأن تكفر بكل مايدعيه زوجها من كذب وطغيان . . .

قال الجمل : آمنت بموسى ـ عليه السلام ـ لما غلب السحرة، وتبين لها أنه على الحق ، ولم تضرها الوصلة بالكافر ، وهى الزوجية التى هى من أعظم الوصل ولانفعه إيمانها ، لأن كل امرىء بما كسب رهين . . .

وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أنه قال : كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا أربع : مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وآسية بنت مزاحم ، امرأة فرعون » .

قيل : إنها إسرائيلية وأنها عمة موسى . وقيل إنها ابنة عم فرعون . . . . ومن فضائلها أنها اختارت القتل على الملك ، وعذاب الدنيا على النعيم الذى كانت فيه ، ـ بعد أن خالط الإيمان قلبها »(١) .

أى . وجعل الله ـ تعالى ـ حال امرأة فرعون ، مثلا للمؤمنين ، حيث آمنت بالحق بعد أن تبين لها ، دون أن يصرفها عن ذلك أى صارف ، فكان مافعلته فى أسمى درجات الإخلاص وصدق اليقين . . .

والظرف فى قوله : « إذ قالت . . . » متعلق بمحذوف ، أو بقوله: «مثلا». أى : وضرب الله ـ تعالى ـ مثلا للذين آمنوا ، حال امرأةفرعون،وقت

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٣٧١

أن قالت « رب ابن لى عنـــدك بيتا فى الجنة » أى : ابن لى بيتا فى مستقر رحمتك ، أو فى جنتك التى لا يستطيع أحد التصرف فيها إلا بإذنك .

وقوله : « فى الجنة » بدل أو عطف بيان لقوله ـ تعالى ـ « عندك »،وقدم « عندك » للإشعار بأن محبتها للقرب من رحمته ـ تعالى ـ أهم من أى شىء آخر .

« ونجنى من فرعون وعمله » أى : ونجنى من طغيان فرعون ، ومن عمله الذى بلغ النهاية فى السوء والقبح ...

« ونجنى » ـ أيضا ـ « من القوم الظالمين » وهم أتباع فرعون وحاشيته وملؤه ، وشيعته . . .

وفى هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب ، فهى تسأل الله ـ تعالى ـ أن يعوضها عن دار فرعون ، دارا فى أعلى درجات الجنة . . .

وهذا الدعاء يشعر بأن فرعون وقومه،قد صدوها عن الإيمان،وهددوها بأنهم إن آمنت . . . حرموها من قصر فرعون ، وزينته وفخامته . . .

كما أنها سألت ربها ـ عز وجل ـ أن ينجيها من ذات فرعون ، ومن عمله السىء ، ومن كل من حام حول فرعون ، واتبعه فى طغيانه وكفره . . .

وقوله ـ سبحانه ـ : « ومريم ابنة عمران . . . » معطوف على « امرأة فرعون . . . » .

أى : وضرب الله ـ تعالى ـ مثلا آخر للمؤمنين ، مريم ابنة عمران ...

« التى أحصنت فرجها » أى : حفظته وصانته ، إذ الإحصان جعل الشىء حصينا ، بحيث لا يتوصل إليه ، وهو كناية عن عفتها وطهارتها وبعدها عن كل فاحشة . . .

وقوله « فنفخنا فيه من روحنا » مفرع على ماقبله .

قال الآلوسى : قوله « فنفخنا فيه » النافخ رسوله جبريل - عليه السلام - فالإسناد مجازى . وقيل الكلام على حذف مضاف ، أى : فنفخ رسولنا ، وضمير « فيه » للفرج .

واشتهر أن جبريل - عليه السلام - نفخ فى جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج .

وقال الفراء : ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها ، وهو محتمل لأن الفرج معناه فى اللغة ، كل فرجة بين شيئين ، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج ، وهذا أبلغ فى الثناء عليها ، لأنها إذا منعت جيب درعها ، فهى للنفس أمنع ...(١) .

أى : فنفخ رسولنا جبريل فى فرجها أو فى جيب درعها ، روحا من أرواحنا هى روح عبدنا ونبينا عيسى - عليه السلام - .

وإضافة الروح إلى ذاته - تعالى - ، لأنه هو الخالق والموجد والإشارة إلى أن تكوين المخلوق الحى فى رحمها ، كان على غير الأسباب المعتادة .

وقوله - تعالى - : « وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » زيادة فى مدحها ، وفى الثناء عليها . .

أى : وكان من صفات مريم ابنة عمران أنها آمنت إيمانا حقا « بكلمات ربها » أى : بشرائعه التى شرعها لعباده ، وبما ألقاه إليها من إرشادات عن طريق وحيه .

« وكتبه » أى : وصدقت بكتبه التى أنزلها على أنبيائه . وقرأ الجمهور « وكتابه » بالإفراد ، على أن المراد به جنس الكتب ، أو الإنجيل الذى أنزله - سبحانه - على ابنها عيسى .

(١) تفسير الآلوسى جـ ٢٨ ص ١٦٤ .

و «من» فى قوله - تعالى - : «وكانت من القانتين» للابتداء . أى : وكانت من نسل الرجال القانتين، الذين بذلوا أقصى جهدهم فى طاعة الله - تعالى - ، وفى إخلاص العبادة له .

ويصح أن تكون «من» للتبعيض . أى : وكانت من عداد المواظبين على الطاعة، وجيء بجمع الذكور على سبيل التغليب، والإشعار بأن طاعتها لا تقل عن طاعة الرجال، الذين بلغوا الغاية فى المواظبة على طاعة الله - تعالى - .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة، قد اشتملت على ثلاثة أمثال : مثل للكافرين، ومثلين للمؤمنين .

وقد تضمن مثل الكفار، أن الكافر يعاقب على كفره، دون أن ينفعه ما بينه وبين المؤمنين من قرابة أو نسب .. كما حدث لامرأة نوح وامرأة لوط .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين، فقد تضمنا أن اتصال المؤمن بالكافر، لا يضره شيئا إذا فارقه فى كفره وعمله ...

وقد وضح صاحب الكشاف هذا المعنى فقال : ما ملخصه مثل الله - تعالى - حال الكفار - فى أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين ... دون أن ينفعهم ما بينهم وبينهم من صلة أو قرابة - بحال امرأة نوح وامرأة لوط : فإنهما لما نافقتا وخانتا الرسولين، لم يغن عنهما ما بينهما وبينهما من وصلة الزواج شيئا ...

ومثل حال المؤمنين - فى أن وصلة الكافرين لا تضرهم . ولا تنقص شيئا من ثوابهم وزلفاهم عند الله - بحال امرأة فرعون، فإنها مع كونها زوجة أعدى أعداء الله، فإنها بسبب إيمانها قد رفع منزلتها عنده ..

وبحال مريم ابنة عمران، فقد أعطاها الله ما أعطاها من الكرامة ...

وفى طى هذين التمثيلين تعريض بأمى المؤمنين المذكورتين فى أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بما كرهه ، وتحذير لهما على أغلظ وجه وأشده ...

وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا فى الإخلاص والكمال فيه ، كمثل هاتين المؤمنتين ، وأن لا تتكلا على أنهما زوجا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين . .

وأسرار التنزيل ورموزه فى كل باب ، بالغة من اللطف والخفاء ، حدا يدق عن تفطن العالم ، ويزل عن تبصره ... » .

وبعد : فهذا تفسير لسورة « التحريم » . نسأل الله - تعالى - أن يجعله خالصا لوجهه ، ونافعاً لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الإسكندرية — العجمى

مساء ٢٦ من شوال ١٤٠٦ هـ

٤ من يوليو ١٩٨٦ م

التفسير الوسيط للقرآن الكريم

فهرس المجلد الرابع عشر

	صفحة
١ – تفسير سورة « الذاريات »	١
٢ – تفسير سورة « الطور »	٣٩
٣ – تفسير سورة « النجم »	٦٥
٤ – تفسير سورة « القمر »	١١٥
٥ – تفسير سورة « الرحمن »	١٦٠
٦ – تفسير سورة « الواقعة »	١٩٦
٧ – تفسير سورة « الحديد »	٢٤٨
٩ – تفسير سورة « الحشر »	٣٥٧
١٠ – تفسير سورة الممتحنة »	٤٠٠
١١ – تفسير سورة « الصف »	٤٥٥
١٢ – تفسير سورة « الجمعة »	٤٨٠
١٣ – تفسير سورة « المنافقون »	٥١٠
١٤ – تفسير سورة « التغابن »	٥٤١
١٥ – تفسير سورة « الطلاق »	٥٦٤
١٦ – تفسير سورة « التحريم »	٥٩٩